مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة

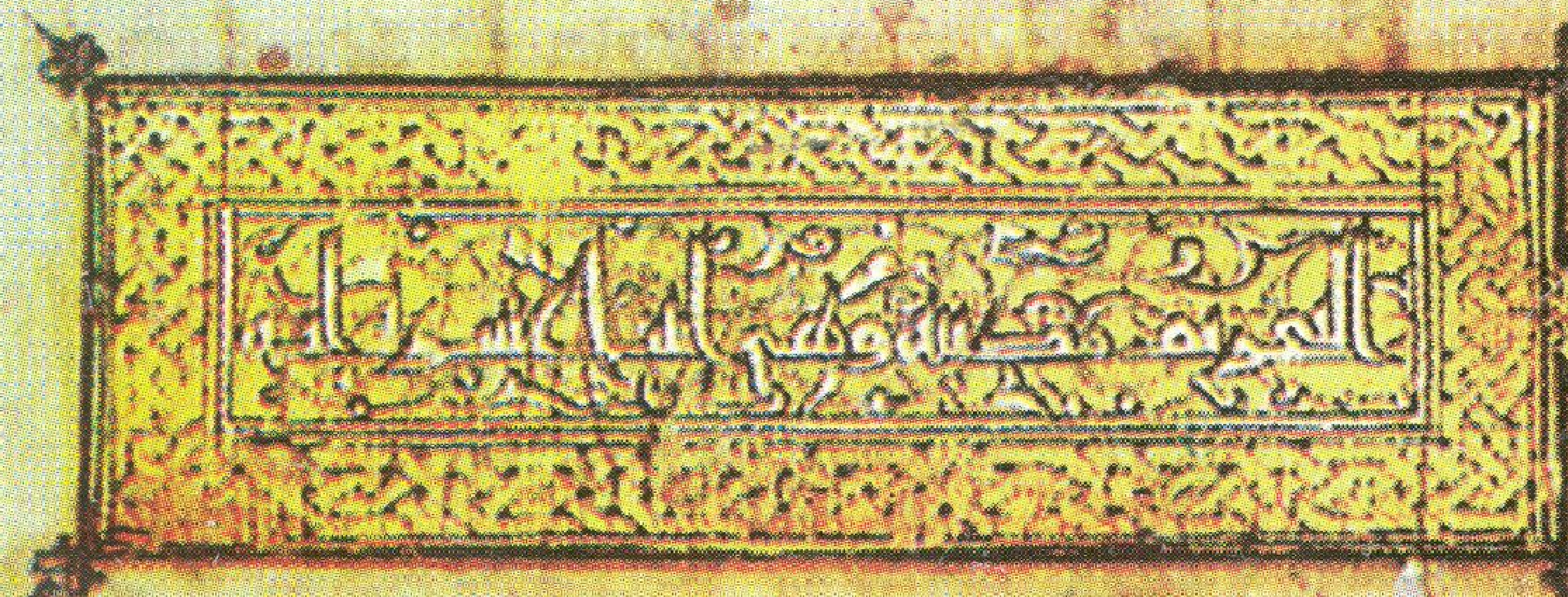


د. عبد الرحمن عميرة

رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآناً

الأعمال الدينية

المجلد الأول





الهيئة المصرية العامة للكتاب

رجال ونساء
أنزل الله فيهم قرآنا

المجلد الأول

١ ـ ٤

لوحة الغلاف

اسم العمل : صفحة من القرآن الكريم

التقنية : ورق أبرو وأحبار وألوان مختلفة

اذا قمنا باستعراض ما أنتجته الحضارة الإسلامية في العمارة والفنون المختلفة، لوجدنا أن النصوص الخطية لعبت دورا تشكيليا أساسيا، سواء كان ذلك في الجص أو الرخام أو الحجر أو المعادن أو الزجاج ، أو الخزف أو النسيج أو المخطوطات، حيث نراها متكاملة مع الشكل العام وأنواع الزخارف الأخرى. ونستطيع التعرف من خلال تلك الكتابات في هذه التحف على جميع القيم التشكيلية، من الخط إلى الظل والنور والملامس المختلفة للأسطح، بحيث نقول أن الكثير من الكتابات تقف على قدم المساواة مع أروع الصور الحائطية واللوحات التي أنتجتها فنون الغرب. ولعل من أبرز الدلائل المميزة للفن الإسلامي، إستعمال الزخارف المجاورة للنصوص الكتابية، وقد تنوع الخط كعنصر تشكيلي، بحيث، أعطى لكل إقليم من الأقاليم الإسلامية شخصية خاصة به، فاستعمال الكتابة في الطراز الغربي الأندلسي يختلف عن استعمالها في الطراز الشامي أو المصري أو الإيراني أو المغولي أو التركي. ومن هنا نستطيع الجزم بأن لكل خط شخصيته الإسلامية المستقلة

محمود الهندي.

رجال ونساء
أنزل الله فيهم قرآناً

الجزء الأول

د. عبدالرحمن عميره



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الدينية)

رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآناً

المجلد الأول

د. عبد الرحمن عميره

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سـبيل التقـديم :

كان الكتـاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غـاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مـبارك التى لم تبـخل بوقت أو جـهـد فـى سـبيل إثراء الحـيـاة الثقافيـة والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليـشـبع نهـمـه للمـعـرفـة دون عناء مـادى وعلى مـدى السنوات السبع الماضية نجـحت مكتبـة الأسـرة أن تتـربع فى صدارة البيت المصرى بثـراء إصـداراتهـا المعـرفـيـة المتنوعـة فى مـخـتلف فـروع المعـرفـة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليـون نسخـة كتـاب بين أيادى أفراد الأسـرة المصرية أطفالاً وشبـاباً وشيـوخاً تتـوجـهـا موسوعـة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضـم إليـها هذا العـام موسوعـة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصريـة زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١)

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ (٣) مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٤) إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧) ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

اللهم اجعل الحق هدفي من كل أعمالي ، واجعل الصدق شيمتي ، والإخلاص للحق ديدني والقرآن حجتي.

آمنت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

وبعد : فقد جاء القرآن الكريم ، ومن بين أهدافه تربية جيل من الناس ، تربية أمة من الأمم ، لتحمل هذا الدين إلى البشرية كلّها.

تربية توافق الفطرة البشرية ، وتتواءم مع النفس الإنسانية ولا تحيد قيد أنملة عن الجبلة التي فطر الناس عليها.

جاء القرآن الكريم ، يربي الإنسان خليفة الله في الأرض ، يربيه قلباً وروحاً ، ويربيه جسداً وعقلاً ، ويربيه خلقاً وسلوكاً.

ويرتفع به إلى الأفق الأعلى ، أفق الإنسانية ، آخذاً بيده ، حتى يحيله في النهاية صورة حية من تصورات القرآن للإنسان الكامل.

ويصنع منه طاقة كونية فعّالة ، تهيمن على الكون وتسخره لتحقيق الخلافة في الأرض.

ويجعل منه في النهاية قوة عزيزة أبية ، لا تذلّ ولا تضعف ، ولا تهن ولا تجبن ، بل تواجه الأحداث في إيمان وثقة من عون الله العليّ الكبير.

وتجاهد هذه القوة أعداء الله ، وأعداء دينه ، وأعداء البشرية كلها وهي مطمئنة إلى نصر الله.

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[1] .

ومن هنا كانت حكمة الله سبحانه وتعالى في نزول القرآن منجماً على رسول البشرية محمد ﷺ.

﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾[2] .

نزل القرآن منجماً ليتدبر في عمق ، وتنفذ تعاليمه بعد إقناع ، ويكون للبشرية منهجاً ودستوراً ، وقائداً ودليلاً.

يوجهها إذا بعدت ، ويبصرها إذا أخطأت ، ويأخذ بيدها بعيداً عن وعورة الحياة ومزالق الطريق.

وكان كل مسلم من جيل القرآن الأول — جيل الصحابة — رضوان الله وسلامه عليهم — يشعر أن عين الله عليه وأن سمعَ الله إليه ، وأن كل كلمة منه ، وكل حركة ، بل كل خاطر ، وكل نية قد تصبح مكشوفة للناس يتنزل في شأنها قرآن على رسوله ﷺ.

وكان كل مسلم ومسلمة ، من الجيل الأول ، إذا حزبه أمر أو واجهته معضلة انتظر أن تفتح أبواب السماء غداً أو بعد غد ليتنزل منها حلّ لمعضلته ، وفتوى في أمره وقضاء في شأنه.

أورد الإمام الترمذي بسنده عن معقل بن يسار رضي الله عنه أنه زوّج أخته

---

(١) سورة الحج آية رقم ٤٠.

(٢) سورة الاسراء آية رقم ١٠٦.

رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله — ﷺ — فكانت عنده ما كانت.. ثم طلقها تطليقة لم يراجعها، حتى انقضت عدتها، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب.

فقال له: أكرمتك بها فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبداً.

قال: فعلم الله — سبحانه وتعالى — حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله تعالى:

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهنّ إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1].

فلما سمعها معقل قال: سمع لربي وطاعة، ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك. فزوجه إياها.

بماذا يفسر هذا العمل..؟

وعلى أي شيء يدل..؟

إن الحقيقة تقول: إنه يدل على الاستجابة الفورية لأمر الله سبحانه وتعالى والرجوع عن هوى النفس إلى حكم الله، والطاعة الكاملة له بلا تراخٍ أو فتور.

وكانت المرأة في الجاهلية تمرّ بين الرجال كاشفة صدرها، لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها، وذوائب شعرها، وأقرطة أذنيها[2].

كانت المرأة تفعل ذلك، لأن قانون الجماعة لا يحرمه، وعرف البيئة لا يمنعه، حتى جاء أمر الله — سبحانه وتعالى —، ونزل توجيهه لتربية الأمة الإسلامية قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٣٢.

(٢) ابن كثير في تفسيره جـ٣ ص ٣٨٤.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾[1].

نزلت هذه الآية فامتثلن لتوجيه الله وهديه، ولم تمتنع منهنّ واحدة عن الخضوع لأمر الله «عن صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة — رضي الله عنها — قالت: فذكرت نساء قريش وفضلهنّ، فقالت عائشة: إنّ لنساء قريش لفضلاً وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشد تصديقاً لكتاب الله وإيماناً بالتنزيل، لما نزل قول الله تعالى:

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾.

انقلب رجالهنّ إليهن يتلونَ عليهنّ ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على زوجته وابنته وأخته، وعلى كلّ ذي قرابته، فما منهنّ امرأة إلا قامت إلى مرطها المرجّل فاعتجرت به، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله ﷺ — معتجرات كأنّ على رؤوسهنّ الغربان»[2].

لقد كانت كلمات القرآن بالنسبة لهم المنهج اليومي الذي يتلقاه المسلمون ليعملوا به فوراً، لا يتخلّف أحد ولا يتباطأ إنسان، بل يتسابقون إلى ذلك ويتلقونه كما يتلقى الجندي في ثكنته، أو في ميدانه أمر القائد فيعيه ويفهمه ويقوم مبادراً إلى التنفيذ.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه:

«بينما أُدير الكأس على أبي طلحة، وأبي عبيدة بن الجرّاح، وأبي دجانة، ومعاذ ابن جبل، وسهل بن بيضاء، حتى مالت رؤوسهم من الخمر، إذ سمعت منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت»[3].

---

(1) سورة النور آية رقم ٣١.

(2) رواه أبو داود، وراجع تفسير سورة النور للاستاذ أبو الأعلى المودودي ص ١٥٩، ١٦٠ وفي ظلال القرآن سورة النور آية رقم ٣١.

(3) رواه الإمام أحمد، وذكره ابن كثير في تفسيره جـ ٢ ص ٩٧.

قال : فما دخل علينا داخل ، ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال ، وتوضأ بعضنا ، واغتسل بعضنا ، وأصبنا من طيب أم سلمة ثم خرجنا إلى المسجد[1] .

وعن أبي بريدة عن أبيه قال :

« بينما نحن قعود على شراب لنا ، ونحن نشرب الخمر ، إذ قمت حتى آتي رسول الله ﷺ — فأسلم عليه ، وقد نزل تحريم الخمر فجئت أصحابي فقرأت عليهم قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾[2] .

قال وبعض القوم شربته في يده ، شرب بعضها ، وبقي بعضه في الإناء فأراقوا ما في كؤوسهم ، ثم صبوا ما في باطيتهم وقالوا : « انتهينا ربنا انتهينا ربنا »[3]. حرمت الخمر وهي أحبّ شيء إلى نفوسهم كما تروي كتب التاريخ ، حتى كانوا لا يستطيعون عنها فكاكاً ، فهي رفيقتهم إذا أصبحوا ، ورفيقتهم إذا أمسوا وكانوا يتجرعونها في الظعن والإقامة في الحلّ والترحال .

يقول عمر بن الخطاب — رضي الله عنه :

« كنت صاحب خمر في الجاهلية ، فقلت لو أذهب إلى فلان الخمار فأشرب » ، وظل عمر يشرب الخمر في الإسلام حتى نزل قول الله تعالى :

---

(١) رواه ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك.

(٢) سورة المائدة آية رقم ٩٠ — ٩١.

(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٩٥.

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾[1] .

قال : اللهم بين لنا بياناً شافياً في الخمر ، واستمرّ في الشرب ، حتى نزلت :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾[2] .

قال اللهم بيّن لنا بياناً شافياً في الخمر حتى نزلت آية التحريم :

﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾[3] .

قال عمر : «انتهينا ، انتهينا»[4] .

وهكذا حرمت الخمر ، لأن القرآن يهدف إلى تربية جيل ، يكون دائماً مرتبطاً بدينه وثيق الصلة بربه ، مراقباً له في كل خطرة ، في كل لحظة ، في كل همسة وكان يستهدف من وراء ذلك إيجاد اليقظة الدائمة ، والصحوة المستمرة لهذا الجيل .

يقظة مستمرة في عقله .

وصحوة دائمة في وجدانه .

حتى يستطيع أن يؤدي تكاليف الخلافة ، التي كلفه الله بها ، يؤدي تكاليفها تجاه نفسه ، ويؤدي ما عليه تجاه الجماعة التي يعيش معها ويؤدي ما فرضه عليه ربه من

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٩.

(٢) سورة النساء آية رقم ٤٣.

(٣) سورة المائدة آية رقم ٩٠ — ٩١.

(٤) رواه أبو داود ، والترمذي والنسائي ورواه أبو الحسن بن أحمد الواحدي في كتابه : «أسباب نزول القرآن» ص ٢٠١.

فروض وواجبات، ولن يتم ذلك بالكامل ولن يستطيعه وهو دائماً نصف يقظ ونصف مخمور.

ولقد استجاب المسلمون لأمر ربهم، ولم يحتج الأمر إلى إصدار قانون أو عدة قوانين، أو صرف ملايين الجنيهات كما فعلت بعض الدول الكبرى في مجتمعنا المعاصر، ولم توفق إلى تحريم الخمر.

لقد استجاب المسلمون لأمر ربهم في تحريم الخمر، واستجابوا له في الامتناع عما نهاهم عنه، وأصاخوا له في تكريم المرأة والرفق بها، والتسليم الكامل في إعطائها حقوقها كاملة، وبذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله واعتبروا أن ما في أيديهم من مال أو عقار، هو عارية مردودة، وأن المال، مال الله، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، فكانوا يتسابقون في الإنفاق.

روى الإمام أحمد — رضي الله عنه — عن أبي طلحة، سمع أنس بن مالك — رضي الله عنه — يقول:

«كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحبّ أمواله إليه «بئر حاء» وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

قال أنس: فلما نزل قول الله تعالى:

﴿لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾[1].

قال أبو طلحة: «يا رسول الله، إن الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

وإن أحبَّ أموالي إليَّ «بئر حاء» وإنها صدقة لله أرجو بها برّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله!

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٩٢.

فقال النبي ﷺ بخ بخ ذاك مال رابح، ذاك مال رابح وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين».

فقال أبو طلحة: «أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»[1].

وجاءت آيات كثيرة في القرآن لتشجع المسلمين على التبرّع والنفقة والصدقة واشترط القرآن على أولئك المنفقين من أموالهم في سبيل الله، أن يكون ذلك من أحب الأموال إليهم ومن أجودها.

ورباهم القرآن على أن المال، مال الله، وأن الرزق الذي في أيدي الواحد منهم هو رزق الله.

وكان مجرّد إحساس الفرد أن ما في يده عارية محددة بأمد، ثم يستردها صاحبها الذي أعارها في الأجل المرسوم.

وكان مجرد استحضار هذه الحقائق كفيل وحده، أن يخفّف من الشره والطمع في داخل النفس البشرية، ويبعدها عن الشحّ والحرص، ويجعلها تترك التكالب المسعور في جمع المال، وبالتالي يملأها بالقناعة والرضى بما يعطيها الله، ويكسبها السماحة والجود بالموجود»[2].

ومن هنا يطمئن القلب فلا يضطرب، ويقرّ الوجدان فلا يقلق، وتستريح النفس فلا تذهب حسرات على فائت، أو ضائع، لأنّ عمر الإنسان القصير المحدود ليست نهاية الحياة، ولا نهاية المتاع. قال تعالى:

---

(١) رواه الإمام أحمد عن روح عن مالك عن اسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك. وروي أيضاً في الصحيحين، ورواه ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) ظلال القرآن: سيد قطب. بتصرف.

﴿قل متاع الدنيا قليل﴾[1] .
ولا يتحرق القلب سعاراً على المرموق المطلوب.
قال تعالى : ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾[2] .
ولا يتعالى صلفاً وغروراً بما أعطى.
قال تعالى : ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾[3] .

فإذا أعطى الواحد من ماله شيئاً فإنما من مال الله أعطى ، قال تعالى :

﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[4] .

وإذا قدّم حسنة فإنما هي قرض الله يضاعفه له أضعافاً كثيرة ، يضاعفه له في الدنيا ، ويضاعفه له في الآخرة. قال تعالى :

﴿مَن ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾[5] .

وليس المحروم الآخذ إلا أداة وسبباً لينال المعطي الواهب أضعاف ما أعطى من مال الله قال تعالى :

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾[6] .

وهذا المعنى قد يتجاهله بعض الناس عن قصد أو غير قصد ، وقد يغيب عن أذهانهم هذا المعنى ، أو ينسونه في لحظة من لحظات الغضب والضيق فتنزل آيات القرآن الكريم لتذكر وتنبّه.

---

(١) سورة النساء آية رقم ٧٧.
(٢) سورة الحديد آية رقم ٢٣.
(٣) سورة الحديد آية رقم ٢٣.
(٤) سورة الحديد آية رقم ٧.
(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٤٥.
(٦) سورة البقرة آية رقم ٢٦١.

وهذا ما حدث مع رجل الإسلام الأول أبي بكر الصدّيق — رضي الله عنه — عندما قرّر ألّا يعطي «مسطح بن أثاثة» شيئاً من ماله، ولا ينفعه بنافعة أبداً.

ومسطح هذا كان من فقراء المهاجرين، وقريب لأبي بكر، وكان أبو بكر يعوله وينفق عليه. فلما كانت حادثة الإفك، خاض مسطح مع الخائضين، وتكلّم بما لا يجوز.

وكان لأبي بكر أن يغضب من هذا.

يغضب لما أشاعه المنافقون.

ويغضب لما ردده بعض الرجال من المسلمين.

فكان قراره بحرمان مسطح مما كان يعطيه إياه.

ولم يمض كبير وقت على قرار أبي بكر هذا، حتى يتنزل القرآن الكريم معاتباً لأبي بكر وأمثاله، ومطالباً منهم أن ينفقوا على هؤلاء، ويعطوهم ما كانوا يجودون به عليهم من قبل، ويستمع الصديق لحكم الله الذي تنزلت به آيات الله.

قال تعالى:

﴿ولا يأتل أُولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أُولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾[1].

فيقول الصديق: بلى ربنا نحب أن تغفر لنا[2].

ويعيد إلى مسطح ما كان ينفق عليه، ويحلف «والله ما أنزعها منه أبداً».

وهكذا كان يتنزل القرآن الكريم لتنظيم حياة هذا الجيل، يتنزل في الصغير والكبير، يتنزل ليضع الحلول الجذرية لكبريات المشاكل، ويرسم لهم صورة

---

(١) سورة النور آية رقم ٢٢.

(٢) تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي.

جديدة ، ويتنزل ليضع لهم الحلول للمشكلات الفرعية ، ويتنزل ليفصل بين الرجل وزوجته ، ويتنزل ليفصل بين الرجل وابنته ، ويتنزل لينقذ رجلاً يهودياً من تهمة توجّه إليه.

وينصفه على رجل مسلم من قبيلة الأنصار.

الأنصار الذين آووا ونصروا ، وقدموا أرواحهم ، وأموالهم في سبيل الله.

ولكن الأمر ليس أمر اليهودي.

وليس الأمر أمر الأنصار.

وإنما الأمر أمر تربية هذا الجيل الذي سيحمل الأمانة للبشرية كلها ، الأمر إعلاء أمر الله وكلمته ، وإقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى ، ولا مع العصبية ، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيًّا كانت الملابسات والأحوال.

والقصة كما ترويها كتب التفاسير[1] :

«أن نفراً من الأنصار ، قتادة بن النعمان وعمه رفاعة غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته ، فسرقت درع لأحدهم ، فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم «بنو أبيرق» فأتى الرجل صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال :

«إن بشيراً بن أبيرق سرق درعي».

فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي اسمه : زيد ابن السمين.

وقال لنفر من عشيرته إني غيبت الدرع ، وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده. فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا :

---

(١) كتاب أسباب نزول القرآن للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ص ١٧٢ ، وهناك أقوال لجماعة آخرين في الدر المنثور جـ٢ ص ٢١٥ ، وذكره الترمذي عند تفسيره هذه الآية.

«يا نبي الله : إن صاحبنا بريء ، وإن الذي سرق الدرع فلان ، وقد أحطنا بذلك علماً ، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس ، وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك هلك»؟؟

ولما عرف رسول الله ﷺ أن الدرع وجدت في بيت اليهودي ، قام فبرأ ابن أبيرق[1] وعذره على رؤوس الناس.

وكان أهله قد قالوا للنبي ﷺ قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي : إن قتادة بن النعمان وعمه ، عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة ، من غير بيّنة ولا دليل.

قال قتادة :

«فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته فقال :

«عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بيّنة»؟

قال : فرجعت ، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك ، فأتاني عمي رفاعة فقال :

«يا ابن أخي ما صنعت...؟

فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال : الله المستعان[2] . فلم نلبث أن نزل قول الله تعالى :

﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً . واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحبّ مَن كان خواناً أثيماً . يستخفون من الناس ولا

(١) رواه ابن جرير عن مجاهد أنه ابن أبيرق ص ١٧٦ .

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي.

يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً ﴾[1] .

وكما تنزل القرآن لإنصاف رجل يهودي على ما كان لليهود من تضليل للعقيدة وطعن في القيادة النبوية ، وتشكيك في الوحي والرسالة .

ينزل القرآن ليبطل عادة جاهلية لا تليق بكرامة الآدمي ، وينقذ المرأة العربية ، والمرأة الإسلامية ، والمرأة في كل زمان ومكان من الهوان والمهانة التي كانت وما تزال تقام في البلاد التي لا تحكّم شرع الله .

روى الإمام أحمد بسنده[2] عن خويلة بنت ثعلبة قالت :

«فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله سبحانه وتعالى :

﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾[3] .

قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه .

قالت : فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب ، فقال : أنت علي كظهر أمي .

قالت : ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل عليّ فإذا هو يريدني .

قلت : كلا والذي نفس خويلة بيده ، لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . فواثبني ، فامتنعت منه ، فغلبته بما تغلب المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عني .

قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً ثم خرجت حتى جئت

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٠٥ — ١٠٩.

(٢) مسند الإمام أحمد.

(٣) سورة المجادلة آية ١ .

رسول الله ﷺ فجلست بين يديه ، فذكرت ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه.

قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول :

«يا خويلة[1] ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه».

قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ قرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما يتغشاه ثم سري عنه.

فقال لي : يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً ثم قرأ عليَّ :

﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾[2].

قالت : فقال رسول الله ﷺ «مريه فليعتق رقبة».

قالت : فقلت يا رسول الله ما عنده ما يعتق.

قال : «فليصم شهرين متتابعين».

قالت : فقلت والله إنه لشيخ ما له صيام.

قال : «فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر».

قالت : فقلت والله يا رسول الله ما ذاك عنده.

قالت : فقال رسول الله ﷺ «فإنّا سنعينه بعرق من تمر».

قالت : فقلت يا رسول الله ، وأنا سأعينه بعرق آخر.

قال : «قد أصبت وأحسنت ، فاذهبي فتصدّقي به عنه ، ثم استوصي بابن عمك».

---

(١) هو أوس بن الصامت.

(٢) سورة المجادلة آية رقم ١.

قالت : ففعلت»[1].

«وهكذا تم ميلاد جديد، لمجتمع جديد.

مجتمع له عقيدة تختلف عن كل العقائد التي عرفها الآباء والأجداد.

ومجتمع له نظام وقواعد يستمدّ أُسسه وبرامجه من السماء لا من الأرض.

مجتمع العبودية فيه لله وحده.

والعقيدة أساس الأخوة.

والتعامل فيه ينبثق مباشرة من الإيمان بالله تعالى والتحاكم إلى شرعه.

ومن أجل ذلك ولأول مرة في تاريخ الانسانية يوجد الانسان العالمي، الانسان الذي ينتمي إلى الأسرة الانسانية كلّها.

الانسان الأتقى الذي يعمل لخير الناس جميعاً أسودها وأبيضها، ويكدّ ويعمل في سبيل إسعادها.

الانسان الذي تمذهب بمذهب القرآن الكريم، واتخذه سلوكاً ومنهجاً وارتضاه قدوة ودليلاً.

الانسان المؤمن : الذي يرى أن الناس كلّهم خلق الله تعالى، فهم إخوة في الخليقة. وما داموا كذلك، فلن يفرّقهم الجنس أو اللون، ولن يتفاضلوا بالعصبية أو القبليّة، ولن يعود بعضهم بعرض زائل من مال أو عقار ولن يستعبد بعضهم بعضاً لأيّ سبب من الأسباب، فالناس كلهم سواسية.

يقول الرسول ﷺ :

---

(١) خرجه ابن ماجه في السنن، وخرجه البخاري عن عائشة — رضي الله عنها — وفي الترمذي ان الذي ظاهر سلمة بن صخر البياض وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له اعتق رقبة.

«كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»[1] .

والناس كلّهم صائرون إلى الله في النهاية فهم إخوة في المصير.

قال تعالى : ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾[2] .

وقال أيضاً : ﴿يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾[3] .

والناس كلهم من نفس واحدة فهم إخوة في الإنسانية.

قال تعالى :

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾[4] .

والناس كلهم ينبغي لهم أن يعبدوا الله ويلتقوا في حماه ، فهم إخوة في العقيدة قال تعالى :

﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[5] .

وبهذا نجح منهج القرآن الكريم في توجيه الناس إلى خالقهم ، وردّهم إلى مولاهم ، وأشعرهم بأنه قريب منهم.

قريب منهم في السر والجهر.

في الفلاة ، والحقل.

في الصحراء والسهل.

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(٢) سورة النجم آية رقم ٤٢.

(٣) سورة الانشقاق آية رقم ٦.

(٤) سورة النساء آية رقم ١.

(٥) سورة البقرة آية رقم ١١٥.

في المسجد والمسكن.

في حال الصمت والكلام.

في أثناء اليقظة والمنام.

في حلول الليل وإدبار النهار.

قال تعالى: ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾[١].

وقال أيضاً: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٢].

أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه، أقرب إليه من همسه الذي يكون بين شفتيه قال تعالى:

﴿وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾[٣].

وقال تعالى:

﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمّى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾[٤].

وآمن كل منهم إيماناً لا جدل فيه أن الله معهم يحصي حركاتهم، ويسجل أعمالهم فعمل كل منهم على تنظيف سلوكه وفكره، وتنظيف شعوره وقلبه.

لا لأن الناس معه وهو مضطرّ إزاءهم أن يتنظف، وإنما لأن الله معه دائماً وفي كل لحظة. قال تعالى:

(١) سورة الحديد آية رقم ٤.

(٢) سورة ق من آية رقم ١٦.

(٣) سورة يونس آية رقم ٦١.

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٦٠.

﴿هو معهم أين ما كانوا﴾[1].

ووثق كل فرد منهم أنّ في مقدوره أن يستتر من الناس، ولكنه لا يستطيع أن يستتر من الله، وفي مقدوره أن يغلق على نفسه باباً لا يراه منه أحد ولكن الله يراه، وقد ينزل على نبيه محمد ﷺ قرآناً يكشف ما كان خافياً من أمره، فإن أقام سياجاً بينه وبين الناس فما هو بمستطيع أن يقيم سياجاً بينه وبين الله[2]. قال تعالى:

﴿يعلم السر وأخفى﴾[3].

وقال أيضاً:

﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾[4].

وقال تعالى:

﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا﴾[5].

وأصبح الفرد منهم يؤدي عمله وهو يرى ربه معه في كل ما يأتي من أمر أو ينتهي عن نهي. فكأن الفرد منهم لا يتعامل مع مجتمعه، ولكن تعامله مع ربه أو بعبارة أوضح يتعامل مع هذا المجتمع والشاهد الله تعالى.

ويمتنع أن يرتكب جريمة في جنح الظلام وهو يحسّ أن عين الله ترقبه.

فإذا جمحت الشهوة في داخل الانسان وسقط سقطته، وكان ذلك حين لا ترقبه عين ولا تناله يد القانون، تحوّلت نفسه في داخله إلى نفس لوّامة عنيفة،

(١) سورة المجادلة آية رقم ٧.

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب.

(٣) سورة طه آية رقم ٧.

(٤) سورة سبأ آية رقم ٣.

(٥) سورة المجادلة آية رقم ٧.

وزجراً لاذعاً للضمير، وخيالاً مروعاً لا يرتاح معه صاحبه، حتى يعترف بذنبه أمام القانون. ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة، ويتحملها مطمئناً مرتاحاً تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة.

عن بريدة رضي الله عنه قال:

«إن ماعز بن مالك الأسلمي أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني فرده، فلما كان من الغد أتاه. فقال: يا رسول الله إني قد زنيت فرده الثانية.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال:

«تعلمون بعقله بأساً..؟ تنكرون منه شيئاً..؟».

فقالوا: ما نعلمه إلا وفيَّ العقل من صالحينا فيما نرى.

فأتاه الثالثة: فأرسل إليهم أيضاً، فسأل عنه..؟ فأخبروه أنه لا بأس به، ولا بعقله.

فلما كان الرابعة حفر له حفرة، ثم أمر به فرجم.

قال: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهّرني وإنه ردّها، فلما كان من الغد قالت: يا رسول الله لم تردني..؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى.

قال: إما لا، فاذهبي حتى تلدي.

فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة قالت: هذا قد ولدته.

قال: فاذهبي فأرضعيه حتى تفطميه، فلما فطمته، أتته بالصبي في يده كسرة خبز.

فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام.

فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها .

فيقبل خالد بن الوليد [رضي الله عنه] بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها .

فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها فقال :

« مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » .

ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت »[1] .

وكتاب رجال أنزل الله فيهم قرآناً : يقدّم لنا نماذج من هؤلاء الرجال رجال بأعيانهم كانت تنزل فيهم آيات القرآن الكريم لتحول بينهم وبين عمل يقومون به ، أو لتكشف عن عمل تم بعيداً عن أعين الرقباء ، أو لتوضح لهم حكماً ، أو لتعلن توبة السماء عليهم .

ونحن نعلم جيداً أن القرآن الكريم نزل عاماً ، وشاملاً لكل الأفراد ولجميع الأزمان ، حتى يرث الله الأرض ومَن عليها ، ولكن هذا لا يمنع من عرض هذه النماذج لتكون عبرة لهذا الجيل ، ويرى فيه صورة الجيل الأول والتزامه بكلمات القرآن ، التي ملأت بالايمان قلوبهم ، ووجهتهم إلى طريق الخير والفلاح ، فانداحوا في أربعة أركان الأرض ينشرون الأمن بعد الخوف ، والنور بعد الظلام ، والهدى بعد الضلال ، فاستقبلتهم الدنيا أحسن استقبال ، وأقامتهم على ظهرها قادة ومعلمين.

فالقرآن هو الذي فعل فيهم ذلك ، نقلهم من رعاة إبل جفاة غلاظ يشعلون

---

(١) أخرجه الإمام مسلم رقم ١٦٩٥ في الحدود ، باب من اعترف على نفسه بالزنا وأبو داود رقم ١٤٣٣ و ٤٤٣٤ ، في الحدود ، باب رجم ماعز بن مالك . وباب المرأة التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم برجمها من جهينة .

الحرب لأوهى الأسباب إلى قادة وهداة ، قادة إلى الحق ، وهداة إلى الله الواحد الأحد.

قلة قليلة تخرج من الصحراء ، وتتجه نحو المشرق ، فتكسر سور الصين العظيم ، وتنشر من ورائه اسم الله الأعظم ، ثم تمتد حتى تصل إلى السند والهند ، وجزائر المحيط الدافئ ، ثم تمتد حتى تصل إلى أوربا فتطبق عليها من الشرق والغرب ، فإذا جنود مسلمة بن عبد الملك يستولون على القسطنطينية شرقاً ، وإذا جيوش عبدالرحمن الغافقي تفرع من شبه جزيرة إيبريا ، وإذا البحرية المسلمة ، تسيطر على البحر الأبيض المتوسط وتجوس خلال جزره ، وتملك صقلية ، وقبرص ، وكروسيكا موطن نابوليون في فرنسا.

ونرى أنها دراسة لم تسبق ، وطريقة جديدة نهدف بها ترغيب الأمة الإسلامية ، شبابها وشيوخها فتياتها ونساءها الاقبال على مائدة القرآن الكريم ليكون لهم منهجاً وسلوكاً في حياتهم ، ومستقبل أيامهم.

وسياحة هادفة في بطون مراجعنا الأصيلة التي رصدت تاريخنا المشرق وسجلت أعمال عمالقة الاسلام أيام كانت كلمة الاسلام عالية ، وأحكامه نافذة ورجاله يطوون الأرض ويجوبون البحار بكلمة واحدة نابعة من قلوبهم — هي كلمة لا إله إلا الله.

وهذه الدراسة تربط بين عصرين :

الأول : عصر الرسالة الخاتمة ، حيث الوحي المتتابع من السماء إلى الأرض والنور الغامر ، الذي ملأ القلوب فأضاء الكون حوله.

والثاني : هذا العصر الذي نعيش فيه — عصر الأزرار الفاتكة ، والتكنولوجيا الباهرة ، وكل ما يدعو إلى الدهشة ويصيب الرؤوس بالدوار.

ولكن ما أكثر تشابه الأفراد وتماثل الحوادث ، رغم اختلاف الزمن وتتابع القرون وتوالي الأحداث.

فمثلاً عمار بن ياسر ــ رضي الله عنه ــ كان دائماً عائذاً بالله من فتنة ولكنها وقعت...

والمسلمون الآن يعيشون فتنة، فتنة هوجاء عاصفة مدمرة، تفرق أمرهم، وتشتت شملهم...؟.

فأين المخرج وأين المفرّ..؟

إن المخرج من هذه الفتن التي يصبح فيها الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً هو كتاب الله.

كتاب الله الذي هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهُدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.

إن القرآن الكريم الذي عاش مشاكل المسلمين الأولى من جيل الصحابة وحكموه في حياتهم فوضع الحلول لمشاكلهم، ومشاكل البشرية كلها والعلاج لما كانت تعانيه كفيل أن يضع الحلول لما تعانيه الآن من تخلف وهوان، ولما نعيشه من هزائم متتابعة متلاحقة في أكثر من ميدان لأن القرآن الكريم جاء من لدن الحكيم الخبير صانع الانسان وخالقه والخبير بكل جزئياته وتراكيبه والعالم بكل خلجة من خلجاته، وبكل همسة من همساته.

﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1].

إنه القرآن صانع هؤلاء الرجال، ونحن في هذا الكتاب نقدم القرآن ومنهجه وطريقته في صناعة الرجال.

ونحن نفعل ذلك حتى نلفت نظر هذا الجيل إلى كتاب الله وتراث السلف الصالح فإن وفقنا، فإنما التوفيق من الله، وإن عجزنا عن الوفاء بما يبلغ بنا الغاية

(١) سورة الملك آية رقم ١٤.

فحسبنا أن نثير في القلب الإسلامي تشوّقاً وأملاً ، وأن نضع في طريق المسلم الذي كاد يخنقه الضباب في — عصرنا الراهن — مصباحاً يرشده إلى كلمات الله قال تعالى :

﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾[1] .

﴿ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[2] .

د. عبد الرحمن عميره

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٣٣.

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦.

أبو لبابة بن عبد المنذر

رضي الله عنه

مَا نَزَلَ فِيهِ مِنَ الآيَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ
وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ
أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴾

[سورة الأنفال آية رقم ٢٧ - ٢٨]

أقوال العُلَماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين ورجال السير نزلت هذه الآية في أبي لبابة بن المنذر قاله صاحب الإصابة جـ ٤ ص ١٦٧.

وصاحب سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٤٧.

وصاحب الروض الأنف جـ ٢ ص ١٩٦.

وصاحب الدر المنثور جـ ٣ ص ١٧٨.

وتفسير الطبري جـ ١٣ ص ٤٨١.

وتفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٠٠.

وتفسير البغوي والخازن جـ ٣ ص ٢٠.

وقاله صاحب كتاب أسباب النزول الواحدي ص ٢٣٤.

فمن هو أبو لبابة..؟

أبو لبابة بن عبد المنذر

رضي الله عنه

من الرجال الأفذاذ الذين آووا ونصروا.

ومن الفرسان الذين عرفوا الحرب وعركوها، ووهبوا نفوسهم في سبيل الله ورفع كلمة الحق، وإعلاء دينه.

نشأ على أرض يثرب. حيث عيون الماء التي تنساب في سهولة ويسر على ظهر الأرض فيتقبلها الثرى بقبول حسن، وتخرج أشجاره ونباتاته بالخير والنماء للإنسان والحيوان.

وللبيئة أثرها الكبير في سلوك الفرد واتجاهاته، وهكذا كان أهل المدنية دائماً — تعرف فيهم سماحة الخلق، ودقة الشعور، وحسن معاملة الآخرين.

وأبو لبابة: من هؤلاء الرجال، الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ والذين تبوَّأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أُوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾(١).

زوجه: خنساء بنت خدام الأنصارية — وهي من الأوس — أراد أبوها أن يزوجها رجلاً من بني عوف، وأنها كانت تميل إلى أبي لبابة، فارتفع شأنهما إلى النبي ﷺ:

---

(١) سورة الحشر آية رقم ٩.

«فأمر رسول الله ﷺ أباها أن يلحقها بهواها فزوجها أبا لبابة بن عبد المنذر»[1].

وابنته لبابة: وبها كان يكنى.

تزوجها زيد بن الخطاب — رضي الله عنه — الذي حمل راية المسلمين يوم اليمامة وقد انكشف المسلمون، فجعل زيد يقول: أما الرجال فلا رجال ثم جعل يصيح بأعلى صوته:

«اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي، وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ومحكم ابن الطفيل، وجعل يشير بالراية يتقدم بها في نحر العدو، ثم ضارب بسيفه حتى قُتل.

وهو الذي قتل الرجّال بن عنفوة الذي شجّع أبا مسيلمة الكذاب على كفره وأعانه عليه. ولما قتل زيد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«رحم الله أخي سبقني إلى الحسنيين أسلم قبلي، واستشهد قبلي»[2].

.. وأبو لبابة أسلم مبكراً عند بدء الإسلام.. حيث التقى مجموعة من الأنصار بمصعب بن عمير على أرض يثرب فعرض عليهم الإسلام فأسلموا وصدقوا بمحمد ﷺ ...

وشهد أبو لبابة بيعة العقبة الثانية.

وكان أول من تكلم فيها العباس بن عبد المطلب — وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له فلما جلس قال:

«يا معشر الخزرج: إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٤ ص ١٨٢٦.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٥٥٠.

إليكم واللحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

فقالوا : قد سمعنا ما قلت : فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فقال الرسول ﷺ :

«أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»[1] .

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال :

نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه نساءنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الدروع ورثناها كابراً عن كابر .

فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله — ﷺ — أبو الهيثم بن النهيان فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها — يعني اليهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا .. ؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»[2] .

ثم عاد أبو لبابة إلى المدينة — بعد أن التقى برسول الله ﷺ وبهرته أنوار النبوة — وشنفت آذانه بالهدى النبوي الكريم .

عاد إنساناً جديداً انسلخ من ماضيه كله .. وأصبح شيئاً آخر يلتزم بكتاب الله تعالى ويحاول أن يطبقه في حياته وسلوكه .

... ولم يمض كبير وقت حتى كان الرسول ﷺ معهم بالمدينة يشرع لهم الشرائع

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٩ .

(2) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٩٨ وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٥٠ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٧٦ .

ويضع لهم القواعد التي يأتي بها جبريل إليه من ربه فيقبل المسلمون عليها.. ولا يحيدون عنها قيد أنملة..

.. حتى كانت غزوة بدر أول لقاء بين عصابة الكفر — والفئة المؤمنة التي اختارها الله لدينه.

وعلم أبو لبابة بعزم الرسول ﷺ — فأعد عدته — وأخذ أسلحته وانضم إلى جيش المسلمين لملاقاة كفار قريش.

ولكن الرسول ﷺ — رد أبا لبابة وخلّفه على المدينة — وهذا أمر لا يقل في خطورته عن خوض المعارك.

إنه مسئول عن سلامة المدينة أشجارها وثمارها وثغورها.

ومسئول عن الأطفال والنساء وبقية الشيوخ والعجزة.

إنه مسئول عن إطعام الجائع .. وسد حاجة المحتاج ورعاية الصغير والكبير حتى يعود هؤلاء الرجال — الذين خرجوا في سبيل الله.

واستمع أبو لبابة لأمر الرسول ﷺ — وأقام بالمدينة — يرعى شئونها ويمد الجيش المحارب بما يريده.. وينشط صُنّاع السلاح ويحثّهم على العمل ليل نهار حتى يكون للجيش ذخيرة معدة...

.. وكان كل يوم يخرج إلى ظاهر المدينة — يحاول أن يتعرف على أخبار المعركة وما تم فيها.. حتى كان النصر وكان الفوز الذي لا يعادله شيء.. وأشاع في المدينة جو التفاؤل وأخبرهم بحقيقة نصر الله — ففرحت قلوب مؤمنة واتجهت إلى ربها بالشكر والعرفان، واغتمت نفوس مظلمة — عرفت الحق فنفرت منه وسدت آذانها عن سماعه.

إنهم جماعة اليهود الذين كانوا يجاورون المسلمين بالمدينة والذين أظهروا الحسد بما فتح الله على رسوله وبغوا ونقضوا العهد.

فلما بلغه حسدهم جمعهم بسوق بني قينقاع فقال لهم :

«احذروا ما نزل بقريش وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل.

فقالوا : يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة .. » فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبينه ،وبينما هم على مجاهرتهم وكفرهم إذ جاءت امرأة مسلمة إلى سوق بني قينقاع فجلست عند صائغ لأجل حلي لها ، فجاء رجل منهم ، فحل درعها إلى ظهرها ، وهي لا تشعر ، فلما قامت بدت عورتها. فضحكوا منها فقام إليه رجل من المسلمين فقتله.

ونبذوا العهد إلى رسول الله ﷺ ، وتحصنوا في حصونهم فغزاهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمس عشرة ليلة فنزلوا على حكمه فكتفوا وهو يريد قتلهم.

وكانوا حلفاء الخزرج فقام إليه عبد الله بن أبي سلول فكلمه فيهم فلم يجبه ، فأدخل يده في جيب رسول الله ﷺ.

فغضب رسول الله وقال : ويحك أرسلني.

فقال : لا أرسلك حتى تحسن إلى موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة وإني والله لأخشى الدوائر.

فقال النبي ﷺ : هم لك خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم. وغنم[1] المسلمون ما كان لهم من مال.

ثم إنهم اخرجوا من المدينة أخرجهم عبادة بن الصامت فبلغ بهم ذباب ثم ساروا إلى أذرعات من أرض الشام ، فلم يلبثوا قليلاً حتى هلكوا.

وكان أبو لبابة مستخلفاً على المدينة أيضاً من قبل رسول الله ﷺ فقام بواجبه خير قيام : من حماية المدينة وإعداد ما يلزمه الجيش المحارب من عدد وعتاد.

لقد تحدثنا عن غزوة بدر وما كان فيها من انتصار باهر للمسلمين وهزيمة ساحقة للمشركين.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٣٨ والبداية والنهاية جـ ٤ ص ٥.

وعاد الجيش المهزوم إلى مكة ، ومعه قائده أبو سفيان بن حرب الذي نذر بعد المعركة ، أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ، فخرج في مائتي راكب من قريش ليبُر يمينه وسار حتى جاء المدينة ليلاً.

لقد كان جيش المشركين في غزوة بدر قرابة الألف.. ومع ذلك عادوا مدحورين مقهورين..

فلماذا جاء أبو سفيان بهذا العدد القليل..؟

إن الذي يمكن أن نستنتجه من بين هذه التصرفات.. أن أبا سفيان لم يأت لتدور معركة.. أو ينشب القتال.

وإنما جاء فقط.. ليبر يمينه كما يقال..

جاء مستخفياً بليل ونزل على أذل الناس يهود بني النضير وسيدهم سلام بن مِشكم. فعلم منه خبر الناس.

ثم خرج من ليلته وبعث رجالاً من قريش إلى مكان في المدينة فحرقوا نخلها وقتلوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له وعادوا...

وتعالى الصراخ.. وجمع المسلمون جموعهم — واستخلف أبو لبابة على المدينة وتقدم رسول الله ﷺ المسلمين. وساروا مسرعين حتى يلتقوا بعصابة الكفر.

.. ولكن أبا سفيان كان يعلم أن رسول الله ﷺ لن يتركه فترك لفرسه العنان وفر هارباً ومن ورائه جيشه الذي لا يعرف الكر إلّا في جنح الظلام.. بل أكثر من ذلك أخذ جيش أبي سفيان يلقي ما معه من زاد وأطعمة حتى يتخففوا من أحمالهم — وتسرع بهم المطايا خوفاً من الجيش المطالب الذي يتبعهم[1].

وعاد الرسول إلى المدينة — ينتظر الفرصة السانحة ليؤدب هؤلاء الطغاة...

إن المشاهد والمتتبع لهذه الفترة من تاريخ المسلمين يرى أن الصحابي أبا لبابة —

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٢.

كان مثال المؤمن الصادق والمسلم المكافح المخلص لدينه ورسوله وربه.. حتى كانت هذه الحادثة.. التي حدثت له — وكانت على وجه التحديد في غزوة بني قريظة.

لقد خرج أبو لبابة في تلك الغزوة ولم يبق في المدينة كما سبق له في غيرها من الغزوات واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم..

لقد حاصر الرسول ﷺ —بني قريظة— خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب.

فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد لهم:

يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم[1].

قالوا: وما هي..؟

قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم إنه لنبي مرسل وإنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم، وأموالكم، وأبنائكم، ونسائكم.

قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم عليّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟؟؟ فما خير العيش بعدهم...؟

قال فإن أبيتم عليَّ هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة.

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص ١٣٥.

قالوا : نفسد علينا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلّا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ.

قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً [1].

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ — ان ابعث إلينا أبا لبابة ابن عبد المنذر ، وكانوا حلفاء الأوس لنستشيره في أمرنا.

ولماذا أبو لبابة..؟

وماذا يمكن أن يشير عليهم هذا الصحابي الجليل..؟

أيمكن أن يخالف رسوله ويعصي ربه — ويشير بما فيه خير اليهود..؟

إن المستشار مؤتمن ، وكل القوانين والشرائع تعرف ذلك.. وأبو لبابة أراده اليهود ليكون مستشاراً لهم.

والرسول ﷺ هو الذي يأمره بذلك ويطالبه بذلك.

وسار أبو لبابة إلى تجمعات اليهود ، وما كادوا يرونه مقبلاً عليهم حتى قام إليه الرجال ، وجهش إليه النساء ، والصبيان يبكون في وجهه.

فرق لهم.. وعطف عليهم.

وسبق أن قلنا إن أهل المدينة أصحاب قلوب رقيقة ونفوس سمحة ، وعطف وحنان..

وأبو لبابة بشر فأخذه الموقف. وما كاد اليهود يقولون له أتنزل على حكم محمد..؟

قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه إنه الذبح.

قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٥٤ الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٨٥.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه . ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده. وقال : لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت .

وأعاهد الله أن لا أطأ بني قريظة أبداً ، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .. ثم ماذا ..؟

فلنترك أبا لبابة مربوطاً إلى أحد أعمدة المسجد ، ونتابع حكم الرسول ﷺ في بني قريظة .

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس وقالوا : يا رسول الله — إنهم كانوا موالينا دون الخزرج — وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت .

فلما كلمته الأوس. قال رسول الله ﷺ :

«ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم..»؟

قالوا : بلى.

قال رسول الله ﷺ «فذاك إلى سعد بن معاذ».

فجاءوا إليه ، فقالوا :

« يا أبا عمرو » إن رسول الله ﷺ قد ولّاك أمر مواليك.لتحكم فيهم .

فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن يكون الحكم فيهم لما حكمت..؟

قالوا : نعم.

قال : وعلى من ههنا..؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له.

فقال رسول الله ﷺ : نعم.

قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء.

قال رسول الله ﷺ :

«لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات»[1] .

أما أبو لبابة .. فقد تاب عما صدر عنه — وتاب الله عليه — وشارك المسلمين في أعمالهم وفتوحاتهم وكانت معه راية بني عمرو بن عوف في غزوة الفتح ، وشاهد الناس وهم يدخلون في دين الله أفواجاً . واستمر على ذلك حتى وافاه أجله في خلافة علي بن ابي طالب — رضي الله عنهما وأسكنهما فسيح جنانه بقدر ما قدماه من خير للإسلام والمسلمين.

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٥٩ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٨٦.

أسباب نزول الآيات

قال بعض المفسرين نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري. وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحا، من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا:

«إرسل الينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم لأن ماله وعياله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا:

«يا أبا لبابة ما ترى..؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ..؟

فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه — إنه الذبح فلا تفعلوا.

قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله فنزلت فيه هذه الآية.

فلما نزلت شد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال:

«والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ».

فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب الله تعالى عليه فقيل له: يا أبا لبابة: قد تيب عليك.

فقال: لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني.

فجاءه فحله بيده ، ثم قال أبو لبابة : إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالي..؟

فقال رسول الله ﷺ :

«يجزيك الثلث أن تتصدق به».

وفي رواية ابن هشام : فلما بلغ رسول الله ﷺ — خبره — وكان قد استبطأه قال :

«أما أنه لو جاءني لاستغفرت له فأما إذ قد فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه»[1] .

ويقال : إن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة .

قالت أم سلمة — رضي الله عنها :

فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك . قالت :

فقلت : مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك..؟

قال : تيب على أبي لبابة .

قالت : أفلا أبشره يا رسول الله..

قال : بلى إن شئت .

فقامت على باب حجرتها — وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب — فقالت : يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك .

فسار الناس إليه ليطلقوه . فقال : لا والله ، حتى يكون رسول الله ﷺ الذي يطلقني بيده .

فلما مر عليه رسول الله خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ١٣٥ وراجع أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢٣٤ .

قال ابن هشام : أقام أبو لبابة مرتبطاً بالجذع ست ليال : تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع والآية التي نزلت في توبته قول الله عز وجل[1] :

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴾[2] .

(١) سيرة ابن هشام جزء ٣ ص ٢٥٦ وراجع تفسير الدر المنثور جـ ٣ ص ١٧٨ .

(٢) سورة التوبة الآية رقم ١٠٢ .

تذييل...

... الأمانة خلق من أخلاق المسلم الأصيلة التي تنبع من عقيدته وتدل على صدق اتجاهه، وشرف غايته، ولهذا كانت الأمانة من لوازم الايمان، وكانت الخيانة من علامات الجحود والكفران كما قال الرسول ﷺ:

«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[1].

والأمانة: إحدى صفات الأبرار وأحد عناصر تكامل الشخصية.

قال تعالى:

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾[2].

وعن عبادة بن الصامت — رضي الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال:

«اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة:

اصدقوا إذا حدثتم.

وأوفوا إذا وعدتم.

وأدوا إذا أؤتمنتم.

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده ٣ — ١٣٥ — ١٥٤.

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٨.

وغضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم»[1].

والتجرد عن هذه الفضيلة يسلب الانسان جميع الفضائل، ومع ذلك. فكل ابن آدم خطاء».

وهذه طبيعة البشر لا ينكرها إلا مكابر، ولا يتجاهل هذه الحقيقة إلى مجادل أو جاهل.

ومن هنا كان اهتمام الله سبحانه وتعالى بهذا الانسان، الإنسان الذي أسجد له ملائكته، وأقامه خليفة في أرضه، وكرمه على كل الخلائق التي تعمر الكون حوله.

هذا الإنسان يمكن أن يرتفع بمبادئ الإسلام إذا تمسك بها إلى مصاف الملائكة، ويمكن إذا ابتعد عنها أن يهبط إلى درجة الشياطين. وكانت حكمة الله سبحانه وتعالى، في إرسال الرسل، وإنزال الكتب هداية الإنسان وإرشاده. فإذا مرت فترة من الزمان خالية من الأنبياء والرسل فلا حساب ولا عقاب.

قال تعالى: ﴿وما كنّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[2].

وما دام الإنسان بهذا فلا بدّ من تذكيره دائماً حتى لا يقع فيما حرَّم عليه ربُّه، وأمره بالابتعاد عنه.

قال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[3].

وقال ايضاً: ﴿فذكر إنّما أنت مذكر﴾[4].

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده رقم ٥: ٢٢.

(٢) سورة الاسراء آية رقم ١٥.

(٣) سورة الذاريات آية رقم ٥٥.

(٤) سورة الغاشية آية رقم ٢١.

وما الصلاة التي فرضت عليه خمس مرّات في اليوم إلّا ليكون قريباً من ربه يذكره فلا ينساه، ويعي أوامره فلا يجهلها.

ومع كل ذلك فإن الإنسان قد يضعف أمام مغريات الحياة، وقد يزين له الشيطان الخروج عن الخط الذي رسمه له ربه، فيضل ويجهل فإذا كان في قلبه نور الإيمان أعاده إلى الحق، وبين له ضلال ما أبدى وما فعل فيعود إلى ربه تائباً مستغفراً.

قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[1].

ويصبح بعدها خير خلق الله كما أخبر رسول الله ﷺ بقوله: «وخير الخطائين التوابون».

وأبو لبابة — رضي الله عنه — أحد الأفراد الذين امتلأ قلبهم بالإيمان وكان من السابقين إلى الإسلام، الملبين داعي الله، ولكن أصابه ما يصيب الآخرين من لحظات الضعف، ففعل ما يغضب الله ورسوله وأشار إلى هؤلاء اليهود بعدم النزول على حكم رسول الله ﷺ لأنه الذبح.

وما كادت تنقشع هذه الغمامة، حتى عاد نور الإيمان إلى قلبه وأحس أنه خان الله ورسوله، فكفّر عما فعله وعاقب نفسه عقاباً شديداً وتاب إلى ربه، ونزل قول الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول، وتخونوا أماناتكم﴾[2].

وخيانة الله سبحانه وتعالى وخيانة رسوله، تتمثّل في الابتعاد عن هدي الله وهدي رسوله، وعدم تحكيم شرع الله في حياة الناس، وإهمال ما فرضه الله علينا من فرائض وعبادات.

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣.

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٧.

خيانة الله ورسوله : أن نتبع الهوى ، ونستمع إلى وسوسة الشيطان.

خيانة الله : ألا نخصّه بالعبادة والولاء ، فنشرك معه الشركاء الذين لا يملكون نفعاً ولا ضراً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعفَ الطالب والمطلوب ﴾[1] .

وخيانات الأمانات : أن ننقص الفرائض أو نتركها ، أو نظهر الايمان ونبطن الكفر ، أو أن نخون من سلم لنا أمره ، أو كان بيننا وبينه عهد أو ذمة والإسلام يكره الخيانة ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود ، ومن ثم لا يجب على المسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة قال تعالى :

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾[2] .

وأمانة الحكم تقتضي إسناد المناصب العامة إلى الأمناء الأقوياء ، والأكفاء المخلصين. فإن قدم من يستحق التأخير ، أو أخر من يستحق التقديم ، كان ذلك إيذاناً بحرب الله ورسوله.

عن يزيد بن أبي سفيان قال : قال لي أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — حين بعثني إلى الشام : يا يزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة وذلك أكثر ممّا أخاف عليك بعد ما قال رسول الله ﷺ من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم ».

وجاء رجل يسأل رسول الله ﷺ متى تقوم الساعة..؟

---

(١) سورة الحج آية رقم ٧٣.

(٢) سورة النحل آية رقم ٩١.

فقال له : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة..؟ فقال : وكيف إضاعتها..؟
قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله».

وأموال الدولة : أمانة في يد الحاكم، والواجب عليه أن يضعها في مواضعها وأن ينفقها فيما ينفع الفرد والرعية.

فإذا فعل غير ذلك فقد خان الأمانة.. وابتعد عن شرع الله.

فمتى يرفرف على الأمة الإسلامية ألوية الأمانة والأمن..؟

ومتى يأمن المسلمون على أرضهم فلا تغتصب منهم..؟

وعلى أموالهم فلا تنتهب أمام أعينهم..؟

وعلى أعراضهم فلا تخربها أجهزة الإعلام الموجهة لضياع القيم والأخلاق متى يحدث ذلك..؟ متى يا رب..؟

حَاطِبُ بن أبي بلتعة

رَضِيَ اللهُ عَنه

مَا نَزَلَ فِيهِ مِنَ الآيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ
تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ
يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ
خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم
بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ
مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

[سورة الممتحنة الآية (١)]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال جماعة من المفسرين: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة.

قال ذلك الإمام ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٤.

وصاحب الدر المنثور جـ ٦ ص ٢٠٣ — ٢٠٥.

وتفسير الإمام القرطبي جـ ١٨ ص ٥٠ — ٥٢.

وتفسير الإمام الطبري جـ ٢٨ ص ٣٨ — ٤٠.

وتفسير الخازن والبغوي جـ ٧ ص ٦٢ — ٦٣.

وأسباب نزول القرآن للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ص ٤٤٧.

فمن هو حاطب بن أبي بلتعة..؟

حاطب بن أبي بلتعة

رضي الله عنه

حاطب بن أبي بلتعة اللخمي صحابي مشهور من أولئك الأبطال الذين شهدوا معركة بدر الكبرى.

ومن الرجال الذين شهد لهم الرسول ﷺ وهو يدعو ربه ويطلب منه النصر ويقول:

«اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض»[1].

وسفير من سفراء الرسول ﷺ، وكانت مهمة السفارة في صدر الإسلام شاقة مرهقة وكانت تعرض صاحبها للقتل والأسر والتنكيل. وكان من اختصاصاتها نشر الدعوة الإسلامية، وتبليغ الإنذار قبل بدء القتال، وتسوية القضايا المتعلقة بانتهاء القتال، ووضع شروط الهدنة أو الصلح، وتبادل الأسرى وتحريرهم بعد دفع فديتهم.

وكان حاطب من أشد الرماة في المعارك، رميته مسددة وسهمه يتجه إلى الهدف فلا يخطئه، وكانت له تجارة واسعة درَّت عليه المال الكثير، وهو فوق ذلك صاحب اللمحة الواعية، والفكرة الخارقة والذهن اللماح.

أرسله النبي ﷺ بكتاب إلى المقوقس صاحب الإسكندرية فقام بسفارته خير قيام، وبهر المقوقس ورجاله برجاحة عقله وقوة حجّته.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٧، تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

يقول عن نفسه: «بعثني رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية. فجئته بكتاب رسول الله ﷺ[1]، فلما دخلت عليه قلت له:

إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك.

فلم يثر ولم يغضب بل أجابني إجابة الرجل الحكيم الذي عرك الدنيا وعركته، وفهم الحياة فهم خبير.

ثم قال: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه[2].

فقلت: ندعوك إلى دين الله — وهو الإسلام — الكافي به الله فقد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى. ولعمري ما بشارة موسى بعيسى، إلّا كبشارة عيسى بمحمد. وما دعاؤنا إيّاك إلى القرآن، إلّا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه. وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به.

فقال المقوقس: إنّنا سننظر فيما تقول.

ومر يوم ويوم، جمع فيه بطارقته ورجال دولته وأهل المشورة عنده، واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه أن يجمعهم بسفير هذا النبي الجديد.

ثم دعاني إلى ذلك المجلس، وواجهني بالكلام قائلاً: إنّي سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عني.

قلت: هلم.

قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي..؟

---

(١) زاد المعاد لابن القيم.

(٢) المصدر السابق.

قلت : بلى هو رسول الله.

قال : فما له حيث كان هكذا لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها..؟

فقلت : عيسى بن مريم أليس تشهد أنه رسول الله..؟

قال : بلى.

قلت : فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا..؟

فقال لي : أنت حكيم جاء من عند حكيم[1].

ثم تشاور مع رجال دولته، وتجادل مع بطارقته، وأخذ منهم ورد عليهم، ثم اتجه ناحيتي وقال : إني نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضّال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة والرسالة.

وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حق من عاج وختم عليه، ودفعه إلى جارية له. ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ﷺ :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد :

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي. وكنت أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ١ ص ٣١٥.

ثم قال لي : هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد وأرسل معك ببذرقة[1] يبذرقونك الى مأمنك[2] ».

ونجح حاطب في سفارته ، وأدّى مهمته على الخير الأكمل ، وكأحسن ما يكون الأداء ، وعاد إلى الرسول ﷺ .

وأما الجاريتان اللتان أتى بهما حاطب : فإحداهما مارية القبطية أم ابراهيم ابن الرسول ﷺ .

والثانية وهبها رسول الله ﷺ إلى شاعر الإسلام حسان بن ثابت رضي الله عنه .

ومات الرسول ﷺ .. !

وتولى الخلافة أبو بكر الصديق رضي الله عنه . فبعث بحاطب مرة أخرى إلى المقوقس ، بعثه ليجدد الدعوة إلى الإسلام ، ويدعوهم إلى المسالمة[3] . ونجح حاطب مرة أخرى في سفارته الثانية ، ولم يزل أهل مصر كذلك على عهدهم ، حتى دخلها عمرو بن العاص ، فنقضوا الصلح فقاتلهم ، وفتح مصر في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال المرزباني في معجم الشعراء : كان حاطب بن أبي بلتعة أحد فرسان قريش في الجاهلية ومن شعرائها .

ومات حاطب في خلافة عثمان رضي الله عنهما ، وله من العمر خمس وستون سنة[4] .

---

(١) مجموعة من الرجال يحرسونه ويوصلونه إلى مأمنه .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ، وذكره أيضاً كتاب الاستيعاب بمعناه جـ ١ ص ٣١٥ .

(٣) الاستيعاب في معرفة الاصحاب جـ ١ ص ٣١٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٣١٢ .

أسباب نزول الآيات

قال جماعة المفسرين[1] : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف ، أتت رسول الله ﷺ . جاءت من مكة إلى المدينة ، في الأيام الأولى التي كان فيها رسول الله — ﷺ — يتجهز لفتح مكة فقال لها : أمسلمة جئت..؟

قالت : لا .

قال : فما جاء بك..؟

قالت : أنتم كنتم الأهل والعشيرة والموالي ، وقد احتجت حاجة شديدة . فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني .

قال لها : فأين أنت من شباب أهل مكة..؟

وكانت مغنِّية .

قالت : ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر .

فحثّ رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وبني المطلب على إعطائها ، فكسوها وحملوها وأعطوها .

فأتاها حاطب بن أبي بلتعة ، وكان أحد القلائل الذين يعلمون بوجهة الرسول

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٤، والدر المنثور جـ ٦ ص ٢٠٣ — ٢٠٥ ، وتفسير القرطبي جـ ١ ص ٥٠ — ٥٢ ، والطبري جـ ٢٨ ص ٣٨.

ﷺ وفاوضها في أن تحمل خطاباً ـــ سريًا ـــ لأهل مكة نظير عشرة دنانير، وقبلت سارة ما عرضه عليها حاطب، وتسلمت منه الخطاب وفيه:

«من حاطب إلى أهل مكة: إن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم»[1].

وخرجت سارة تغذُّ السير إلى مكة، ولعلها كانت تبغي من قريش أضعاف ما أخذته من حاطب.

ونزل جبريل عليه السلام، فأخبر النبي ﷺ بما فعل حاطب.

واتبع القائد خطة حكيمة، لا بد من الحصول على الخطاب أولاً، ثم يكون العقاب لحاطب، الذي أفشى سر الرسول ﷺ. وبعث الرسول ﷺ علياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وابا مرثد، وكانوا كلهم فرساناً. وقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا «روضة خاخ»[2] فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها، وخلوا سبيلها، فإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها. فخرجت هذه الكوكبة[3] من الفرسان تطوي الصحارى حتى أدركتها في المكان الذي حدده لهم رسول الله.

وقالوا لها: أين الكتاب..؟

فحلفت بالله ما معها من كتاب.

ففتشوا متاعها، فلم يجدوا معها كتاباً.

فهموا بالرجوع.

فقال علي رضي الله عنه: والله ما كذبنا ولا كذّبنا رسول الله ﷺ وسلَّ سيفه وقال: «أخرجي الكتاب.. وإلّا والله لأجردنك ولأضربن عنقك، فلما رأت الجدَّ في عين الإمام علي، قالت له: إليك عني حتى أخرجه لك.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ١ ص ٣١٢.

(٢) روضة خاخ: بقرب حمراء الأسد من المدينة (ياقوت).

(٣) النجم أو الزهرة، ومجموعة من النجوم، والجماعة من الناس، المعجم الوسيط جـ ١.

فتنحّى عنها رضي الله عنه، فأخرجته من بين طيّات ثيابها — أو من ذؤابتها — وأعطته لهم، فخلوا سبيلها[1].

ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب فأتاه فقال له:

هل تعرف الكتاب..؟

قال: نعم..

قال: فما حملك على ما صنعت..؟

فقال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم. ولكن: لم يكن أحد من المهاجرين إلّا وله بمكة من يمنع عشيرته، وكنت غريباً فيهم. وكان أهلي بين ظهرانيهم فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأساً. وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً[2].

فصدقه رسول الله ﷺ وعذره.

فقام عمر بن الخطاب فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[3].

ويؤيّد هذه الرواية ما يرويه الإمام البخاري رضي الله عنه في — المغازي — بسنده عن الإمام علي رضي الله عنه[4] قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير

---

(١) أسباب نزول القرآن للامام الواحدي ص ٤٤٨.

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٨ وبراجع أحكام القرآن للشافعي جـ ٤ ص ٤٧ — ٤٨.

(٣) راجع صحيح البخاري جـ ٦ ص ١٤٩، وراجع فتح الباري جـ ٦ ص ٨٧ — ٨٨.

(٤) راجع الأم للامام الشافعي جـ ٤ ص ١٦٦، والسنن الكبرى جـ ٩ ص ١٤٦ وصحيح الترمذي جـ ١٢ ص ١٩١ — ١٩٤. الطبري جـ ٢٨ ص ٣٨.

ابن العوام، وكلنا فارس، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين، فانطلقنا حتى أدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ.

فقلنا: الكتاب..؟

فقالت: ما معي كتاب.

فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً.

فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ. لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجِدَّ أهوت إلى حجزتها — وهي محتجزة بكساء — فأخرجته.

فانطلقنا به إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ حاطباً فقال: يا حاطب ما حملك على هذا..؟.

فقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله، ما غيرت ولا بدلت. ولكنني كنت امرأً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد فصانعتهم عليه.

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق...؟

فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمرُ، لعلَّ الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».. فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم. فأنزل الله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة. وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإيّاكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾[1].

---

(1) سورة الممتحنة آية رقم ١. ورواه الإمام مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وجماعة كلهم عن سفيان، وسيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٦.

ويغضب عبدٌ لحاطب، يغضب منه ويذهب إلى مجلس الرسول ﷺ يشكو حاطباً، وفي ثورة غضبه يقول: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار. ولكن الرسول ﷺ يدافع عن أصحابه، يدافع عن رجال بدر، يدافع عمن باعوا نفوسهم رخيصة في سبيل الله.

ويقول لهذا الغاضب: «كذبت، لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية»[1].

وكان حاطب ممن روى عن الرسول ﷺ، روى عنه: «من رآني بعد موتي فكأنما رآني في حياتي»[2].

وروى عنه أيضاً: «من مات في أحد الحرمين بعث في الآمنين يوم القيامة»[3].

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ١ ص ٣١٣، وروى الأعمش عن أبي سفيان عن جابر مثله، ورواه يحيى بن كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة.

(٢) الإصابة في معرفة الصحابة جـ ١ ص ٣٠٠.

(٣) المصدر السابق.

تذييل

يقف الإنسان وقفات أمام ما فعله حاطب — وهو المسلم المهاجر — ليتعرف على منحنيات النفس البشرية العجيبة ، وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشري مهما بلغ من كمالها وقوتها .

ثم يقف الإنسان وقفات أمام عظمة الرسول ﷺ وهو لا يعجل بالحكم على حاطب ولكن يسأل : ما حملك على ما صنعت .. ؟ في سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة في نفس صاحبه ، وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق ، ومن ثم يكف الصحابة عنه : «صدق لا تقولوا إلّا خيراً» ليعينه وينهضه من عثرته .

بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم في شدة عمر «إنه خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه» .

يقول المرحوم سيد قطب :

«ثم يقف الإنسان أمام كلمات حاطب وهو في لحظة ضعفه ، ولكن تصوره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الايماني الصحيح . ذلك حيث يقول : أردت أن تكون لي عند القوم يد . يدفع الله بها عن أهلي ومالي» . فالله هو الذي يدفع ، وهذه اليد لا تدفع بنفسها ، إنّما يدفع الله بها ، ويؤكّد هذا القصور في بقية حديثه وهو يقول :

«وليس أحد من أصحابك إلّا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وولده وماله . فالله حاضر في تصوره وهو الذي يدفع لا العشيرة ، إنّما العشيرة أداة

يدفع الله بها ، إنهم رجال مدرسة الرسول ﷺ ، إنه الإيمان الذي فعل فيهم ذلك ، جعل منهم هداة ودعاة ؛ هداة إلى الحق ، ودعاة إلى الله الواحد الأحد».

ولم يأمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — بقتل حاطب لأنه يعرف قبل غيره — ضعف النفس البشرية — وغلبة الشيطان عليها في هذا الضعف.

ومهمة الرائد : أن يساعد أتباعه ويأخذ بأيديهم ولا يتركهم فريسة لأنفسهم الأمارة بالسوء ، أو للشيطان الذي يجري فيهم مجرى الدم في العروق. وما أكثر كبوات الانسان ، وما أكثر الاخطاء التي يقع فيها ما دام بعيداً عن ربه — ومن هنا كانت حكمة الله سبحانه وتعالى في فرض الصلوات الخمس اليومية في حياة المسلم — ليكون دائماً قريباً من ربه — يذكر فلا ينسى ، ويعرف فلا يضل — ويعيش مع ربه لحظات قليلة — يفر بعدها الشيطان عنه لساعات كثيرة.

ومن هنا كان أمر الرسول — صلّى الله عليه وسلم — لعمر بن الخطاب أن يكف عن خالد — ويمنحه فرصة التوبة والعودة الى خالقه وبارئه — ليتوب الله عليه — وكل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون.

ابنُ أُمّ مكتوم

رَضِيَ اللهُ عَنه

ما نزل فيه من الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا
يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤)
أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا
يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩)
فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾

[سورة عبس الآية (١ - ١٠)]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

اتفق المفسرون على أن هذه الآيات نزلت في ابن أم مكتوم

قال ذلك الإمام الطبري جـ ٣٠ ص ٣٢

وقال ذلك الإمام القرطبي جـ ١٩ ص ٢٠٩

وقاله أيضاً ابن كثير جـ ٤ ص ٤٧٠

وتفسير الخازن والبغوي جـ ٧ ص ١٧٤

ونكت الهميان ٢٣

وأسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ص ٤٧٩

فمن ابن أم مكتوم هذا..؟

ابن أم مكتوم

رضي الله عنه

من ابن أم مكتوم هذا..؟

وهل كان له وضع وثقل بين القبائل العربية عامة وأهل قريش خاصة..؟ أكان ممن صوته يدوي في سوق عكاظ، وهو يلقي مطولته في البطولة والدفاع عن القبيلة..؟ فتتلقفها آذان العرب وترددها ألسنتهم..؟

أهو ذلك الفارس المغوار، والبطل الذي لا يشق له غبار، والذي كان يخوض المعارك ويجندل الفرسان، ويتغنى ببطولته الشعراء..؟ أم كان من أولئك الرجال الأفذاذ ممن لهم الرأي الحصيف، والكلمة النافذة، في دار الندوة، ملتقى شيوخ العرب وحكامها..؟

إن ابن أم مكتوم رضي الله عنه لم يكن واحداً من أولئك ولا من هؤلاء، ولم تسمع به الدنيا قبل الإسلام، ولم يكن له صوت ولا حديث فيها، بل كان رجلاً من رجالات مكة يعيش لنفسه مع نفسه، ولا يعرف له اسم أو رسم على التأكيد.

الأمر الذي يوجد الاختلاف في اسمه، فأهل المدينة يقولون: اسمه عبد الله. وأهل العراق يقولون: اسمه عمرو[1]. وإن اتفقوا جميعاً على أن أمه: عاتكة بنت

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١١٩٨.

عبد الله بن معيص[1].

فَقَدَ بصرَه صغيراً، وعرفته دروب مكة وأزقتها دؤوباً في طلب الرزق لا يهدأ، متنقلاً يبحث عن المعرفة لا يتعب. إن فقد بصره، حال بينه وبين معرفة الكثير من الأشياء، ولكنه يريد أن يعرف، ويعرف كل شيء، فاستعاض عن عينيه بأذنيه فاستعملها في معرفة الأشياء، فكان يسمع ولا ينسى، وتوصف له الأشياء فتبقى مجسّمة في ذهنه متخيلة في وجدانه.

سمع ذات يوم بتسلل العبيد والخدم والمستضعفين إلى دار ابن الأرقم يتسمعون إلى محمد الأمين الذي تكلمه السماء. وأحسَّ أن في مكة حركة غير عادية، فالأعصاب مشدودة من سادة قريش. والعبيد والخدم يسامون الخسف والضرب والتعذيب، كل ذلك بسبب دعوة محمد الجديدة، ومدرسة ابن الأرقم. فقرر الذهاب إليها ليسمع كما يسمعون، وليعرف الخبر اليقين فحمل عصاه وذهب إلى هناك. ولأول مرة تطرق أذنيه كلمات فتنزل إلى القلب مباشرة فتعطيه السكينة والأمان، وتهبه قوة لا تبالي بقوة الأرض كلها مجتمعة، إنّها كلمات الوحي التي نزل بها جبريل الأمين على قلب محمد ﷺ لتقرر وحدانية الخالق، وتسوي بين البشر جميعاً، وتحقق العدل بين الأقوياء والضعفاء، وتملأ الأرض نوراً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً.

ومدَّ ابن أم مكتوم يده إلى رسول الله ﷺ معلناً إسلامه، ومقرراً انضمامه إلى كتيبة الإيمان، ومعاهداً الله ورسوله على بذل روحه في سبيل الله، ومنذ ذلك اليوم حرص على أن يتفقه في دينه وأن يعرف عنه كل شيء، وكانت وسيلته إلى ذلك أن يسأل بلسانه ويعي بأذنيه، كان يسأل الرسول دائماً، يسأله وحوله حلقة من الرجال الأول يسمعون ويفهمون. ويسأله وهو في طريقه إلى الكعبة، ويسأله وهو يعترض طريق الرجال ليدعوهم إلى الاسلام، ولكن قريشاً تفقد صوابها، وتشتد في أذى المسلمين، وتنكل بهم كل تنكيل.

---

(١) وهو ابن خال خديجة بنت خويلد أخي أمها، المصدر السابق.

ويأذن الرسول ﷺ لهؤلاء الرجال بالهجرة. ففر ابن أم مكتوم بدينه مع المهاجرين. وتختلف الروايات في تاريخ هجرته، فبعض الروايات تقرر أنه هاجر إلى المدينة بعد غزوة بدر ونزل بدار القراء، والبعض الآخر يقرر أن ابن أم مكتوم هاجر إلى المدينة قبل أن يقدم رسول الله ﷺ المدينة وقبل غزوة بدر(1). ونحن نميل إلى الرواية الثانية. والذي يؤكد ذلك ما يرويه أبو إسحاق عن البراء بن عازب قال: كان من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار بن قصي. فقلنا له: ما فعل رسول الله ﷺ فقال: هو مكانه، وأصحابه على أثري. ثم أتانا بعده عمرو بن أم مكتوم الأعمى. فقالوا له: ما فعل من وراءك — رسول الله وأصحابه..؟

فقال لهم: هم أولاء على أثري(2).

هاجر ابن أم مكتوم إلى المدينة ونزل في دار القراء كما تقرر بعض الروايات، وأخذ يؤدّي مهمته التي أعدّ نفسه لها بالأسئلة الكثيرة التي كان يوجهها إلى رسول الله ﷺ، مهمته في تعليم الناس مبادئ الدين، ومهمته في تحفيظهم بعض آيات الذكر الحكيم، ومهمته في تهيئة النفوس والقلوب في استقبال رسول الله ﷺ، ولم يلبث طويلاً حتى جاءته الأنباء بقرب وصول الرسول ﷺ إلى مدينته يثرب، وخرج مع وفود المستقبلين يتنسم أخبار حبيب الله، ويترقب لحظة وصوله حتى يشنف أذنيه بسماع حديثه واستيعاب هديه. وجاء الرسول ﷺ ونزل في دار بني النجار كما تقول كتب السيرة. ثم أخذ في بناء مسجده، ليكون المدرسة الكبرى لأول جيل عرفته البشرية يحمل هدى الله وكتابه، واشترك ابن أم مكتوم في بناء المسجد ولازم الرسول ﷺ في أكثر أوقاته، لم يتخلف عن صلاة واحدة خلف الرسول الكريم، ولم يغب عن حلقة من حلقات التوجيه النبوي، ولم تندّ آية واحدة من آيات الوحي التي كانت تتنزل في المدينة عن فكره وعقله، بل كان يشرب بأذنيه آخر الكلمات

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٤ ص ٢٠٦.

(2) سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٢٠٦.

النبوية والتوجيهات السماوية التي يرسلها الله لعباده ، وكان في بعض الأحيان تطول الجلسة مع الرسول ﷺ ويحسّ بأن الوحي أتى إلى الرسول ﷺ ويكاد يرى ببصيرته جبريل الأمين وهو يلقن الرسول الكريم. قال أنس رضي الله عنه : «إن جبريل أتى رسول الله ﷺ وعنده ابن مكتوم». فقال : متى ذهب بصرك..؟ قال : وأنا غلام. فقال : قال الله تبارك وتعالى : «إذا ما أخذت كريمة عبدي لم أجد له بها جزاء إلّا الجنة»[1].

هنيئاً لك يا ابن أم مكتوم. هنيئاً لك بصحبة الرسول ﷺ وهنيئاً لك ببشارة جبريل بأن لك الجنة. ألم ينزل الله فيه قرآنه..؟ ألم يقل له الرسول ﷺ كلما لقيه : «أهلاً بمن أوصاني به ربي خيراً»[2]...؟.

ولقد كان الرسول ﷺ يأمره بالأذان للصلاة إذا ما غاب بلال. وكان صوته العذب يدوي بكلمة «الله أكبر» خمس مرات في اليوم.

فإذا حضر بلال وأذن للصلاة كان على ابن أم مكتوم أن يقيمها خلف الرسول ﷺ ، وكان بلال يؤذن في رمضان فلا يمتنع الناس عن الطعام والشراب لأن أذانه فقط لإيقاظ النائم وتنبيه الغافل ، فإذا أذن ابن أم مكتوم كان هذا إيذاناً بالامتناع عن الطعام والشراب وإمساك الصائمين.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

«إن بلالاً ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم[3]. قال : وكان ابن أم مكتوم رجلاً أعمى لا ينادي حتى يقال له : أصبحت أصبحت»[4].

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٤ ص ٢٠٦.

(2) يراجع تفسير الامام القرطبي عن قوله تعالى : «وأما من جاءك يسعى» وتفسير الامام الطبري في تفسير سورة «عبس».

(3) ورواه أيضاً مالك بن أنس عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر.

(4) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٢٠٧.

وابن أم مكتوم هذا من أولئك الرجال الذين أُشربت قلوبهم حب النبي ﷺ فهو عنده أحب إليه من الأهل والعشيرة. أحب إليه من الزوجة والولد. بل أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، وكل واحد من هؤلاء الرجال — وابن أم مكتوم منهم — قد يحتمل الإساءة تقدم إلى أهله وذويه ويكظم غيظه. ويعفو ويصفح. ولكنه لا يقبل بأي حال من الأحوال أن يمس شخص الرسول ﷺ بأذى.

«نزل ابن أم مكتوم على يهودية بالمدينة عمة رجل من الأنصار، وكانت هذه المرأة ترفق به وتحسن إليه وتساعده في طعامه وشرابه. ولكنها أخذت تؤذيه في أحب الناس إلى قلبه، أخذت تسمعه ما يكره في الله ورسوله. فلم يطق صبراً على ذلك. وحاول أن يردعها فلم ترتدع، فتناولها فضربها فقتلها، ورفع أمره إلى النبي ﷺ فلما مثل بين يديه قال له الرسول ﷺ: ماذا حملك على ما فعلت..؟

فقال: أما والله يا رسول الله إن كانت لترفقني[1]. ولكنها آذتني في الله ورسوله فضربتها لكي أحول بينها وبين ما تقول فكان أجلها. فقال رسول الله ﷺ: «أبعدها الله تعالى فقد أبطلت دمها»[2].

وكان الرسول ﷺ يستخلفه على المدينة عند خروجه إلى غزواته. استخلفه حين خرج إلى غزوة قرقرة الكُدْر إلى بني سليم وغطفان. وكان يُجمّع بالمسلمين ويخطب إلى جنب المنبر، يجعل المنبر عن يساره. واستخلفه حين خرج إلى غزوة أحد. وحين خرج الى حمراء الأسد الى بني النضير والى غزوة الخندق، وإلى غزوة بني قريظة، والى غزوة بني لحيان، والى غزوة الغابة، والى غزوة ذي قرد، وفي عمرة الحديبية[3].

ويروى عن الشعبي قوله:

---

(١) ترفقه: تخدمه من الرفق: وهو لين الجانب.

(٢) طبقات ابن سعد ص ٢١٠ جـ ٤.

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٩.

«غزا رسول الله ﷺ ثلاث عشرة غزوة ما منها غزوة إلا يستخلف ابن أم مكتوم على المدينة وكان يصلي بهم وهو أعمى».

ولقد كان يشارك في حياة المسلمين، حياتهم الاجتماعية، وحياتهم السياسية، ويتابع أخبار الوفود التي ترد الى الرسول ﷺ.

وكان صواماً قواماً، لم يره أحد إلّا في عبادة أو متجهاً لأداء عبادة، أو مشاركاً للمسلمين في أمر يهمهم. ولكن ينزل قوله تعالى:

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين، والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾[1].

إذاً هناك من يتفوق عليه في الأجر، وفي التقرب إلى الله. وهناك من هو أحظى منه في العبادة. ويتجه إلى ربه، يتجه إليه بقلب خالص ونفس صافية: يا رب ابتليتني فكيف أصنع..؟ يا رب رحمتك التي وسعت كل شيء. فنزل قوله تعالى: ﴿غير أولي الضرر﴾[2].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

لما نزل قوله تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾. فسمع بذلك عبد الله بن أم مكتوم الأعمى فأتى رسول الله ﷺ. فقال: يا رسول الله، قد أنزل الله في الجهاد ما قد علمت وأنا رجل ضرير البصر لا أستطيع الجهاد فهل لي من رخصة عند الله إن قعدت..؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ما أمرت في شأنك بشيء، وما أدري هل يكون لك ولأصحابك من رخصة..؟ فقال ابن أم مكتوم: «اللهم إني أنشدك بصري.. فأنزل الله بعد ذلك على رسوله ﷺ:

---

(١) سورة النساء آية رقم ٩٥.

(٢) تكملة الآية السابقة.

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾[1].

لقد أخذ الرخصة من ربه.

فهل ينتفع بهذه الرخصة؟ لقد سمع قول الرسول الكريم:

«إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه[2]». فقرر أن يكون له أجر المجاهد، وطلب من إخوانه أن يشركوه معهم في حروبهم. واستجابوا له، ورافق الجيش المتجه الى القادسية. وعندما وصلوا إلى ميدان المعركة، قال: يا أحباب الله، يا أصحاب محمد ﷺ، يا أبطال المعارك، ادفعوا إليَّ اللواء، فإني رجل أعمى لا أستطيع أن أفر، وأقيموني بين الصفين[3].

ويروي قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عبد الله بن أم مكتوم يوم القادسية كانت معه راية سوداء وعليه درع سابغة[4].

ثم عاد إلى المدينة فمات بها. رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) راجع تفسير هذه الآية في تفسير الإمام القرطبي وتفسير الإمام الطبري، ورواه ابن سعد بسنده عن زيد ابن ثابت جـ ٤ ص ٢١١.

(٢) رواه الإمام أحمد جـ ٢ ص ١٠٨ عن كتاب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي.

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٢١٠.

(٤) رواه ابن سعد عن عفان بن مسلم بسنده عن أنس بن مالك ص ٢١٢ جـ ٤.

أسباب نزول الآيات

عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلت هذه الآيات في ابن أم مكتوم[1].
قالت: أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني. وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين، فجعل النبي يعرض عنه. ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا. ففي ذلك نزلت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب. وكان الرسول يتصدّى لهم كثيراً ويحرص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له: عبد الله بن أم مكتوم. يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرئ النبي آية من القرآن وقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله. فأعرض عنه رسول الله، وعبسَ في وجهه وتولّى وكره كلامه. وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله ﷺ وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره، ثم خفق برأسه ثم أنزل الله: ﴿عبس وتولى﴾.

فلما نزلت فيه أكرمه رسول الله وقال له: ما حاجتك..؟ هل تريد من شيء..؟ وإذا ذهب من عنده قال له: «هل لك حاجة في شيء..»[2] وذلك لما أنزل الله ﴿أما من استغنى﴾.

(١) تفسير الإمام القرطبي جـ ١٩ ص ٢٠٩، والطبري ٣٠ ص ٣٢. وتفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٧٠، والخازن والبغوي جـ ٧ ص ١٧٤، ونكت الهيان ص ٢٣.

(٢) المصدر السابق ويراجع الدر المنثور جـ ٦ ص ٣٤١، وصحيح الترمذي جـ ١٢ ص ٢٣١ — ٢٣٢.

يجيء الرجل الأعمى الفقير ورسول الله ﷺ مشغول بأمر النفر من سادة قريش ، وهو يدعوهم إلى الإسلام ، ويرجو بإسلامهم خيراً للإسلام في عسرته التي كان فيها بمكة ، وهؤلاء النفر يقفون في طريقه. يقفون في طريق الدعوة بمالهم ، ويصدون عن الدعوة بجاههم وقوتهم ، ويحولون بينه وبين الناس ، ويكيدون له كيداً شديداً حتى كادوا أن يجمدوا الدعوة في مكة. أما من هم خارج مكة فلم يكن لهم أن يقبلوا هذه الدعوة الجديدة التي يقف في طريقها أقرب الناس إلى صاحبها.

نقول : يجيء هذا الرجل للرسول ﷺ وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر لا لنفسه ولا لمصلحته ولكن لنشر الإسلام ومصلحة المسلمين، فلو أسلم هؤلاء الرجال لأزيلت العقبات التي تقف في طريق نشر الدعوة. ويكرر ابن أم مكتوم قوله على الرسول ﷺ. فيكره الرسول قطعه لكلامه واهتمامه. وتظهر الكراهية في وجهه الذي لا يراه الرجل فيعبس ويعرض. وهنا تتدخل السماء ، تتدخل لتقول كلمة الفصل ، ويجيء العتاب من الله العلي الكبير لنبيه الكريم صاحب الخلق الكريم :

﴿ عبس وتولى. أن جاءهُ الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾.

قال الثوري : فكان النبي بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول : «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي». ويقول : «هل من حاجة..؟»[1].

(١) أسباب نزول القرآن ص ٤٧٩.

تذييل

رحمك الله رحمة واسعة، وجعل الجنة مثواك. يا صاحب رسول الله ﷺ. هنيئاً لك الجنة من ربك، هنيئاً لك ما قدمت للإسلام والمسلمين.

أعمى البصر، ولكنه نافذ البصيرة، أنزل الله فيه قرآناً فكان هذا إيذاناً من الله بقيام دولة الصالحين المؤمنين، دولة الموحدين القانتين، العاملين بشريعة الله في الأرض. كان هذا إيذاناً من الله بتثبيت القيم الإنسانية، القيم الإيمانية التي على أساسها يتفاضل الناس. قيم الإيمان والتقوى: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

ومنذ ذلك اليوم، أخذ الرسول ﷺ يستقبل هؤلاء المستضعفين، والذين دوى صوتهم بعدها في جنبات الأرض، يحملون للبشرية كلها، الأمن بعد الخوف، والنور بعد الظلام، والهدى بعد الضلال، فاستقبلتهم الدنيا أحسن استقبال، وأقامتهم على ظهرها قادة ومعلمين.

قلة قليلة، تخرج من الصحراء، وتتجه نحو المشرق، فتكسر سور الصين العظيم، وتنشر من ورائه اسم الله الأعظم، ثم تمتد حتى تصل إلى السند والهند، وجزائر المحيط الدافئ ثم تمتد حتى تصل إلى أوربا فتطبق عليها من الشرق والغرب، فإذا جنود مسلمة بن عبد الملك يستولون على القسطنطينية شرقاً، وإذا جيوش عبد الرحمن الغافقي تفرغ من شبه جزيرة إيبريا، وإذا البحرية الاسلامية، تسيطر على البحر الأبيض المتوسط، وتمخر خلال جزره، وتملك صقلية، وقبرص، وكروسيكا، موطن نابليون.

كانوا رعاة جمال قبل نهضتهم وبعدها ملأوا الآفاق تمدينا
لو كبرت في ربوع الصين مئذنة سمعت في الغرب تهليل المصلينا

أعمى البصر، ولكنه وضاح البصيرة — إنه من أولي الضرر الذين ليس عليهم قتال ولا جهاد في سبيل الله. ولكن هذا الصحابي الجليل — يريد أن يستزيد من الأجر يريد أن يفوز بالشهادة حتى يكتب عند الله من الشهداء الابرار الذين هم عند ربهم يرزقون، وفي الجنة يمرحون. وهو من أجل هذا يرفض أن يتخلف عن القتال والجهاد، يرفض أن يقعد في مجلسه في بيته مع الصبية والنساء. فيخرج مع المجاهدين — يخرج مع المقاتلين — يخرج مع هؤلاء الذين باعوا نفوسهم رخيصة في سبيل الله. وماذا يفعل وهو لا يحسن الضرب بالسيف أو الرمي بالرمح. إنّه اختار شيئاً لا يسلّم إلا لصناديد الرجال أو للفارس المغوار الذي لا يفر من الميدان.

لقد اختار هذا العملاق الذي تربى في مدرسة الاسلام أن يحمل الراية وأن يرفع اللواء. ويحمّس المقاتلين ويذكرهم بالجنة ونعيمها. وهو في ذلك لا يرهب القتل أو الموت بل هو يرحب به إن جاء. فرحى يا أتباع محمد ثم مرحى. بخلودكم في الجنة، ولا نامت أعين الجبناء.

أبو سفيان بن حرب

رَضِيَ اللهُ عَنه

ما نزل فيه من الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ
يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾
لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ
عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

[سورة الأنفال آية رقم ٣٦ - ٣٧]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين نزلت هذه الآيات في المطعمين يوم بدر ومنهم أبو سفيان ابن حرب.

وقال ذلك صاحب تفسير البغوي والخازن جـ ٣ ص ٢٦.

وقاله صاحب سيرة بن هشام جـ ٣ ص ٣٢٠/ ٣٢١.

وقاله صاحب كتاب أسباب نزول القرآن ص ٢٣٣.

فمن هو أبو سفيان بن حرب..؟

أبو سفيان بن حرب

رضي الله عنه

.. رئيس من رؤساء قريش في الجاهلية.

وتاجر عرف الناس طويلاً، وخبر جبلاتهم، وتعرف على أهوائهم ورغباتهم ورجل يحب الفخر كما أخبر بذلك أكثر الناس معرفة به العباس بن عبد المطلب وطواف للآفاق. وظاعن دائماً في أرض الله بحثاً عن الرزق. ومفتشاً عن عروض التجارة.

ذلكم هو أبو سفيان بن حرب رحمه الله.

ولد قبل حادث الفيل بعشر سنوات، وكان يجهز التجارة بماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض العجم. وكان أحياناً يخرج بنفسه فكانت إليه راية الرؤساء المعروفة بالعُقاب، وكان لا يحبسها إلا رئيس، فإذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعت تلك الراية بيد الرئيس.

... ابنه معاوية بن أبي سفيان — رضي الله عنه — أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ وتولى ولاية الشام من قبل عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — ابنته رملة بنت أبي سفيان بن حرب — زوج الرسول — ﷺ وإحدى أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.

تزوجت أم حبيبة عبيد الله بن جحش وهاجرت معه إلى أرض الحبشة — وفوق تلك الأراضي البعيدة عن ديارها تنصر زوجها — فلما انقضت عدتها أرسل إليها النجاشي يقول: إن رسول الله ﷺ كتب إليّ أن أزوجكه.

فقالت: بشرك الله بخير.

وتزوجت رملة رسول الله ﷺ، وانتقلت إلى بيت النبوة. وعلم أبو سفيان بزواج ابنته فقال: هذا الفحل لا يجدع أنفه[1].

... سمع أبو سفيان بدعوة الرسول ﷺ فكان من المناوئين له المحاربين لدعوته..

وذهب مع الوفد الذي ارسل إلى أبي طالب يطلبون منه أن يسلمهم ابن أخيه محمد يذبحونه، ويعطونه أنهد شاب لديهم في قريش.

.. واشترك مع قريش في صحيفة المقاطعة التي كتبتها قريش تقاطع فيها بني هاشم لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم.

وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة.

واستقر المسلمون في هذا البلد الآمن الطيب.

وفي يوم من الأيام علم الرسول ﷺ بأن أبا سفيان مقبل من الشام بتجارة لقريش. نعم قريش التي عذبت المسلمين ونكلت بهم، وأخرجتهم من ديارهم واستولت على أموالهم وممتلكاتهم.

وأبو سفيان نفسه كان أحد هؤلاء الرجال الذين وضعوا أيديهم على أموال المسلمين.

يقول أحمد بن جحش أحد المسلمين الفارين بدينهم لأبي سفيان:

أبلغ أبا سفيان عن ... أمر عواقبه ندامه
دار ابن عمك بعتها ... نقضي بها عنك الغرامه
وحليفكم بالله ر ... ب الناس مجتهد القسامه
إذهب بها اذهب بها ... طوقتها طوق الحمامه[2]

(١) طبقات ابن سعد جـ ٨.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١١٧.

نقول : علم الرسول ﷺ بأبي سفيان فقال :

«هذه عيرُ قريش فيها أموالكم فاخرجوا إليها لعل الله يُنَفِّلكُموها» .

فانتدب الناس .

وكان أبو سفيان — حين دنا من الحجاز — يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً . حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك .

فاستأجر ضمضم بن عمرو الغِفاري ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه . فيخرج ضمضم سريعاً إلى مكة .

وسمع الناس صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره قد جدع أنفه وحول رحله وشق قميصه وهو يقول :

« يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه .

الغوث الغوث .

واستطاع أبو سفيان أن يسلك طريقاً آخر بالعير والمال ، وأرسل إلى قريش — بعد أن علم بخروجها — إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم . فقد نجاها الله فارجعوا .

فقال أبو جهل :

« والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ، فامضوا »[1] .

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٢١ والبداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٩١ .

فمضى ودارت المعركة. وانتصر جند الله، وقتل أبو جهل ووقع مجموعة من قريش أسرى وفر أبو سفيان.

وكان في الأسرى ابو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ، فلما بعث قريش في فداء الاسرى أرسلت زينب بقلادة لها كانت أخذتها من أمها خديجة.

فلما رآها رسول الله ﷺ قال:

«إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا».

فقالوا: نعم يا رسول الله.

وكان رسول الله قد أخذ على أبي العاص عهداً أن يخلي سبيل زينب اليه وبعث معه زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال:

«كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها».

فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها. فلما فرغت من جهازها قدّم لها حموها كنانة بن الربيع أخو زوجها بعيراً فركبته، وأخذ قوْسه وكنانته ثم خرج بها نهاراً يقود بها وهي في هودج لها.

وتحدّث بعض رجال من قريش بخروج زينب، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طوى. فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد فروّعها هبار وهي في هودجها، وكانت حاملاً فيما يزعمون. فلما ريعت طرحت حملها.

فتناول حموها كنانته ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلّا وضعت فيه سهماً فابتعد الناس عنه.

وأتى أبو سفيان في جماعة من قريش. وقال:

«أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك. فكفّ.

فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه وقال : إنك لم تُصب ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وأنت تعلم ما أصابنا من محمد ، فيظن الناس إذا أخرجت ابنته إليه علانية ، من بين أظهرنا أن ذلك على ذُل أصابنا وأن ذلك منا ضعف ووهن. ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة. ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّث أن قد رددناها فاخرج بها سراً وألحقها بأبيها»[1] .

ففعل . فأقامت ليالي . حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه .

... واستطاع أبو سفيان في هذا الموقف أن يكون حكيماً أرضى الأنوف المنتفخة من قريش . وحقق رغبة الرسول ﷺ بهجرة ابنته إليه وما كاد يمضي عام على غزوة بدر التي انهزم فيها المشركون.. حتى استطاعوا أن يجمعوا جموعهم — ويستنفروا القبائل حولهم لغزو محمد — وكانوا قد رصدوا الأموال التي نجت من المسلمين في غزوة بدر لهذه المعركة . وكان أبو سفيان قائد الجيش وخرجت معه زوجته هند بنت عتبة .

ثم كان النصر حليفهم بسبب مخالفة الرماة لأمر الرسول ﷺ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يربي هذه المجموعة الذين سيحملون دينه إلى مشارق الأرض ومغاربها حتى يكون أمرهم جميعاً ولا يتفرقوا ويطيعوا أمر قائدهم .

وبعد انتهاء المعركة وقف أبو سفيان على قمة جبل أحد ثم صرخ بأعلى صوته : «إن الحرب سجال[2] يوم بيوم بدر أعْل هبل[3] — أي أظهر دينك» .

فقال رسول الله ﷺ :

«قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجل ، لا سواء قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار» .

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٢) مكافأة ، يوم لنا ويوم علينا .

(٣) هبل : اسم صنم من أصنامهم .

فلما أجاب عمر أبا سفيان قال :

« هلمّ إليّ يا عمر » .

فقال رسول الله ﷺ : ائته يا عمر فانظر ما شأنه .. ؟

فجاءه فقال له : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً .. ؟

قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

قال : أنت أصدق عندي من ابن قمئة ، وأبر لقول ابن قمئة لهم : إني قد قتلت محمداً .

ولما أراد الانصراف قال أبو سفيان : إن موعدكم بدرٌ للعام القابل ، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه :

« قل نعم هو بيننا وبينك موعد »[1] .

.. وسار أبو سفيان بجيشه .. وفي الطريق بدا لهم أمر آخر .. وقالوا : لقد أصبنا عدداً من أصحاب محمد ، وقتلنا أشرافهم وقادتهم . فما الذي يمنعنا أن نرجع إليهم كرة أخرى فنستأصل بقيتهم ونفرغ منهم .. ؟

فأجابهم أبو سفيان لطلبهم . ولكن ما كادوا يعنون أعناق الخيل إلى جهة أحد حتى التقوا بمعبد بن معبد الخزاعي . فقال له أبو سفيان :

ما وراءك يا معبد .. ؟

قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما ضيعوا ، فيهم الحنق عليكم شيء لم أر مثله من قط .

قال أبو سفيان : ويحك ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل .. ؟؟

(1) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٤٥ والكامل لابن الاثير جـ ٢ ص ١٤٩ .

قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم.

قال فإني أنهاك عن ذلك..

واستمعوا إلى نصيحة معبد وكروا راجعين إلى مكة وقال رسول الله ﷺ :

«والذي نفسي بيده لقد سومت لهم حجارة لو صُبّحُوا بها لكانوا كأمس الذاهب»[1].

إن الذي جمع الجموع وجيش الجيوش هو أبو سفيان بن حرب.. وهو الذي قدّم جميع ما في القافلة لهذه الحرب.

وهو القائد الأعلى في تلك الغزوة التي قتل فيها مجموعة من خيار المسلمين..

ولكن هل يكتفي أبو سفيان بذلك..؟

لقد توعد المسلمين بغزوة أخرى في العام المقبل..

إذن ماذا يكون العمل وماله كثير ورجاله لا تحصى ولا تعد..؟

لقد قتل أبو جهل وأُمية بن خلف، وهلك أبو لهب.. فلو قتل أبو سفيان لاستراح الناس وقبلوا دين الله ودخلوا فيه أفواجاً.

واستشار النبي ﷺ أصحابه في أمر أبي سفيان فأشار عليه بعضهم بقتله.

إنه مسئول عن كل قتلى أحد فإذا قتل فسيكون هذا قصاصاً وليس عدواناً واستراح الرسول ﷺ إلى هذه النتيجة.

عندها أمر الرسول ﷺ عمرو بن أُمية الضمري — مع رجل من الأنصار بالتوجه إلى مكة لقتل أبي سفيان..

واستجاب الرجلان لأمر الرسول ﷺ وامتطيا راحلتهما واتجها إلى مكة.

قال عمرو : فخرجت وبصاحبي علة فكنت أحمله على بعيري حتى جئنا مكاناً يسمى «بطن يأجج» قريباً من مكة.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٦٠.

فقلت لصاحبي : نترك هنا بعيرنا وننطلق إلى أبي سفيان لنقتله ، فإن خشيت شيئاً فالحق بالبعير فاركبه والحق برسول الله ﷺ وأخبره الخبر وخل عني[1] .

فدخلنا مكة ومعي خنجر قد أعددته إن عاقني إنسان ضربته به . فقال لي صاحبي :

هل لك أن نبدأ فنطوف ونصلي ركعتين..؟

فقلت : إن أهل مكة يجلسون بأفنيتهم وأنا أعرف بها . فلم نزل حتى أتينا البيت فطفنا وصلينا ثم خرجنا فمررنا بمجلس لهم . فعرفني بعضهم فصرخ بأعلى صوته هذا عمرو بن أمية...

فثار أهل مكة إلينا وقالوا :

«ما جاء إلا لشر» .

فقلت لصاحبي : فانج بنفسك فخرجنا نشتد حتى صعدنا الجبل فدخلنا غاراً فبتنا فيه ليلتنا ننتظر أن يسكن الطلب قال : فوالله إني لفيه إذ أقبل عثمان بن مالك بفرس له فقام على باب الغار ، فخرجت إليه فضربته بالخنجر فصاح صيحة أسمع أهل مكة فأقبلوا إليه ورجعت إلى مكاني . فوجدوه وبه رمق فقالوا : من ضربك..؟ .

قال : عمرو بن أمية ، ثم مات ولم يقدر أن يخبرهم بمكاني وشغلهم قتل صاحبهم عن طلبي ومكثنا في الغار يومين حتى سكن عنا الطلب ، ثم خرجنا إلى التنعيم «مكان بمكة» فإذا بجثة خُبيب معلقة على خشبة وحوله حرس ، فصعدت خشبته واحتملته على ظهري ، فما مشيت به إلّا أربعين خطوة حتى نذروا بي فطرحته فاشتدوا في أثري . فأخذت الطريق فأعيوا ورجعوا ، وانطلق صاحبي فركب البعير ، وأتى النبي ﷺ فأخبره. وأما خبيب فلم يُرَ بعد ذلك وكأن الأرض ابتلعته .

---

(١) الكامل لابن الاثير جـ ٢ ص ١٦٩.

وخبيب[1] هذا الذي قال له أبو سفيان حين قدم ليقتل :

أنشدك الله يا خبيب ، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك..؟

قال : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي.

يقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ، ثم قتل. يرحمه الله[2] .

وعاش أبو سفيان ولم يقتل ، وفشل عمرو بن أمية في أن ينال منه ، عاش ليجيش الجيوش ويجمع القبائل لغزو محمد ﷺ وخرج بهم هذه المرة قاصداً المدينة. وعلم الرسول ﷺ بخروجهم فأمر بحفر الخندق والذي أشار به سلمان الفارسي — رضي الله عنه — وما كاد المسلمون ينتهون من حفر الخندق. حتى جاءت قريش بجموعها. ولكنهم لا يستطيعون اختراق الخندق فعسكروا خلفه.

وظهر للمسلمين عدو جديد في داخل المدينة — وهم جماعة اليهود ، وخرج حُيي بن أحطب حتى أتى كعب بن أسد سيد قريظة. وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه. فأغلق كعب حصنه ولم يأذن له.

وقال : إنك امرؤ مشئوم. وقد عاهدت محمداً ولم أر منه إلا الوفاء.

قال حُيي : يا كعب قد جئتك بعز الدهر وببحر طام ، جئتك بقريش وقادتها وسادتها ، وغطفان بقادتها ، وقد عاهدوني أنهم لا يبرحون حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه.

قال كعب : جئتني بذل الدهر ويحك يا حُيي دعني ومحمداً.

---

(١) بعض الروايات تقول : أن الذي قال له أبو سفيان هذا القول هو زيد بن الدثنة الذي قتل مع خبيب.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٦٤.

ولكن حيي لم يتركه حتى حمله على الغدر بمحمد ﷺ ففعل ونكث العهد ، وعاهده حيي إن عادت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك..؟؟

فعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم وعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى :

﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ (1) .

واستمر هذا البلاء بضعاً وعشرين ليلة .ولم يكن بين القوم إلّا الرمي بالنبل ثم إن نعيم بن مسعود الأشجعي أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومي . فرني بما شئت.

فقال له رسول الله ﷺ إنما أنت رجل واحد فخذّل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة» .

فخرج حتى أتى بني قريظة ، وكان نديماً لهم في الجاهلية فقال لهم :

«قد عرفتم ودي إياكم» .

فقالوا : لست عندنا بمتّهم .

قال : قد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد ، وليسوا كأنتم البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه ، وإن قريشاً وغطفان إن رأوا نُهزة وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ولا طاقة لكم به إن خلا بكم . فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ثقة لكم حتى تناجزوا محمداً .

(1) سورة الاحزاب آية رقم ١٠ — ١١.

قالوا : أشرت بالنصح.

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه :

«قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمداً ، وقد بلغني أن قريظة ندموا ، وقد أرسلوا إلى محمد : هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم..؟

فأجابهم إلى ذلك. فإن طلبت قريظة منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : أنتم أهلي وعشيرتي. وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم.

وما كاد يتركهم نعيم حتى أرسل أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل إلى قريظة وقال لهم : إنا لسنا بدار مقام... قد هلك الخف والحافر فأعدوا للقتال. حتى نناجز محمداً.

فأرسلوا إليهم : لسنا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً ثقة لنا فإنا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل، ونحن بيلاده[1].

وعاد عكرمة ليخبر أبا سفيان بما كان من قريظة.

فقال أبو سفيان : والله لقد صدق نعيم بن مسعود فأرسلوا إلى قريظة إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً.

فقالت قريظة عند ذلك : إن الذي ذكر نعيم بن مسعود لحق. وخذّل الله بينهم وبعث الله عليهم ريحاً في ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح خيامهم.

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ١٢٦ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٨٢.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾[1].

وانهزم أبو سفيان وفرّ مع جنوده وأحزابه إلى مكة... وقال الرسول ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»[2].

... وتحقق ما قاله الرسول ﷺ وتم وضع معاهدة الهدنة بين قريش والرسول ﷺ.

وأخذت وفود الرسول وكتبه تتداح في أقطار الأرض الأربعة — تدعو البشرية قاطبة إلى دين الله وإلى كلمة التوحيد.

وكان من هذه الكتب رسالة أرسلها رسول الله ﷺ إلى هرقل مع دحية الكلبي.

فلما تسلم الكتاب قال لدحية:

«والله إن صاحبك نبي مرسل نعرفه بصفته ونجده في كتابنا. ثم أخذ عصاه وخرج على الروم — وهم في الكنيسة — فقال: يا معشر الروم قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا إلى الله — فهيا نتبعه ونصدقه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا فنخروا نخرة رجل واحد ثم ابتدروا الأبواب ليخرجوا فقال: ردوهم علي — وخافهم على نفسه — وقال لهم: إنما قلت لكم ما قلت لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، وقد رأيت منكم ما سرّني. فسجدوا له.

ثم إن هرقل استدعى أبا سفيان — وكان بالشام تاجراً — فحضر عنده ومعه جماعة من قريش أجلسهم هرقل خلفه وقال:

«إني سائله فإن كذب فكذبوه».

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٩.

(٢) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٢٥٠ والبداية والنهاية جـ ٤ ص ١٣٠.

فقال أبو سفيان : لولا أن يؤثر عني الكذب لكذبت. فسأله عن النبي قال : فصغرت له شأنه. فلم يلتفت إلى قولي وقال :

كيف نسبه فيكم..؟

قلت : هو أوسطنا نسباً.

قال : هل كان من أهل بيته من يقول مثل قوله..؟

قلت : لا.

قال : فهل له فيكم مِلْك سلبتموه إياه..؟

قلت : لا.

قال : فمن اتبعه منكم..؟

قلت : الضعفاء والمساكين والأحداث.

قال : فهل يحبه من يتبعه ويلزمه أو يقليه ويفارقه.

قلت : ما تبعه رجل ففارقه.

قال : فكيف الحرب بينكم وبينه..؟

قلت : سجال يدال علينا وندال عليه.

قال : هل يغدر..؟

قال : فلم أجد شيئاً أغمز به غيرها.

قلت : لا ونحن معه في هدنة ولا نأمن غدره، قال : فما التفت إليها.

قال أبو سفيان : فقال لي هرقل : سألتك عن نسبه، فزعمت أنه من أوسط الناس وكذلك الأنبياء.

وسألتك هل قال أحد من أهل بيته مثل قوله فهو متشبه به، فزعمت أن لا.

وسألتك هل سلبتموه ملكه فجاء بهذا لتردوا عليه ملكه، فزعمت أن لا.

وسألتك عن أتباعه : فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين. وكذلك أتباع الرسل.

وسألتك عمن يتبعه أيحبه أم يفارقه ، فزعمت أنهم يحبونه ولا يفارقونه وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلباً فتخرج منه.

وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا ، وإن صدقتني ليغلبن على ما تحت قدمي. هاتين ، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه. انطلق لشأنك[1].

قال أبو سفيان : فخرجت أضرب إحدى يديّ بالأخرى وأقول : أي عباد الله لقد أمِرَ أمْرُ ابن أبي كبشة. أصبح ملوك الروم يهابونه في سلطانهم.

لماذا لم يسلم أبو سفيان بعد أن سمع الذي سمع..؟

هل كان يشك في صدق محمد..؟

إن ملوك الروم لا ينكرون نبوة محمد ﷺ ولو كانوا عنده كما قال هرقل : لغسل قدميه...

إن الحائل بين أبي سفيان وبين الإسلام هو السلطان والجاه ، هو الرئاسة لقريش. ومخافة أن يسلبهم محمد هذا السلطان الذي يتمتعون به في أنحاء الجزيرة العربية حتى قال بعضهم :

﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[2].

والله غالب على أمره. ولن يدوم لأبي سفيان سلطة أو صولجان.. وما قاله الرسول ﷺ لا بد أن يتحقق.

وهو : أنه لا تستطيع قريش بعد غزوة الأحزاب — أن تغزو المسلمين — ولكن المسلمين هم الآن الذين يتحركون لفتح مكة.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص ٢٢٠.

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٣٢.

نعم لا بدّ من القضاء على قلاع الكفر وآخر جيوب الشرك.

ويعلم أبو سفيان بما عزم عليه الرسول — من فتح مكة. فيخرج إلى المدينة في هذه المرة وحيداً بلا جيش.

خفيفاً بلا عدّة أو عتاد.

يملأ الخوف قلبه ويسيطر الرعب على كلّ جوانحه.

وسار حتى دخل على ابنته أُم حبيبة زوج النبي ﷺ فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه.

فقال: أرغبت به عني أم رغبت بي عنه..؟

فقالت: هو فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس، فلا أحبّ أن تجلس عليه.

فقال: لقد أصابك يا ابنتي بعدي شرّ.

ثم خرج حتى أتى النبي ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً.

ثم أتى أبا بكر فكلمه ليكلم رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل.

ثم أتى عمر فكلمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به.

وانطلق أبو سفيان إلى بيت علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله وولدها الحسن يدبّ بين يديها فقال:

«يا علي إنك أمس القوم بي رحماً وإني قد جئت في حاجة.. فاشفع لي إلى محمد».

وأجاب علي: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فالتمس نصيحته فقال علي كرّم الله وجهه:

«والله ما أعلم شيئاً يغني عنك شيئاً لكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك ، وما أظن ذلك مغنياً ولكن لا أجد لك غيره»[1] .

فذهب أبو سفيان إلى المسجد وهناك أعلن أنه أجار بين الناس ثم أسرع إلى راحلته ، وانطلق بها يعدو في طريق مكة كأنه يفرّ من مطارد.

وفشلت سفارته.

.. وتحرك الجيش الزاحف إلى مكة ، وخرج أبو سفيان ليستطلع أمر هذا الجيش الزاحف وفي الطريق التقى بالعباس بن عبد المطلب فقال له :

«يا أبا سفيان هذا رسول الله في الناس .. واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة» .

قال أبو سفيان : فما الحيلة فداك أبي وأمي .. ؟

فأردفه العباس وراءه وسار به خلال المعسكر ماراً بعشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقي الرعب في قلوب المشركين.

فلما مرّا بنار عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ عرف أبا سفيان فأسرع إلى خيمة النبي ﷺ ـــ ودخل عمر على رسول الله ـــ فأخبره وقال : دعني أضرب عنقه. يعني أبا سفيان.

فقال العباس : يا رسول الله إني قد أجرته ، ثم أخذت برأس رسول الله ﷺ وقلت :

«لا يناجيه اليوم أحد دوني» .

فلما أكثر فيه عمر: قلت : مهلاً يا عمر.

فقال رسول الله ﷺ ـــ اذهب به فقد أمّناه ـــ حتى تغدو علي به بالغداة.

فرجعت به إلى منزلي. وغدوت به على رسول الله ﷺ فلما رآه قال :

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٢ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٤٢ .

«ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله..؟

قال : بلى ، بأبي أنت وأُمي يا رسول الله ، لو كان مع الله غيره لقد أغنى غنى شيئاً..؟؟

فقال : ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله..؟؟

فقال : بأبي أنت وأمي أما هذه في النفس منها شيء.

قال العباس : فقلت له ويحك تشهّد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك

قال : فتشهد وأسلم معه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء .

فقال رسول الله ﷺ للعباس :

«اذهب فاحبس أبا سفيان عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمرّ عليه جنود الله»[1] .

فقلت : يا رسول الله — إن أبا سفيان رجل يحبّ الفخر ، فاجعل له شيئاً يكون في قومه .

فقال عليه السلام : مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومَن دخل دار حكيم ابن حزام فهو آمن ، ومَن دخل المسجد فهو آمن ، ومَن أغلق بابه فهو آمن.

يقول العباس بن عبد المطلب — رضي الله عنه — فأخذت أبا سفيان وأجلسته عند خطم[2] الجبل ، فمرت عليه القبائل فيقول :

مَن هؤلاء..؟

فأقول : أسلم. فيقول. ما لي ولأسلم.

ويقول : مَن هؤلاء..؟

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢١ — ٢٢ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٤٤ .

(٢) خطم : قمة الجبل.

فأقول : جهينة ، فيقول : ما لي ولجهينة .

حتى مرّ رسول الله ﷺ ، في كتيبته الخضراء مع المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحَدَق.

فقال : مَن هؤلاء..؟

فقلت : هذا رسول الله ﷺ ، في المهاجرين والأنصار .

فقال : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.

فقلت : ويحك إنها النبوة.

فقال : نعم إذن.

فقلت : الحق بقومك سريعاً فحذرهم[1] .

فسار حتى دخل مكة ومعه حكيم بن حزام فصرخ في المسجد : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به .

قالوا : فماذا..؟

قال : مَن دخل داري فهو آمن ، ومَن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. ثم قال : يا معشر قريش أسلموا تسلموا.

وما كاد يفعل ذلك حتى أقبلت عليه زوجته هند بنت عتبة ، التي قتل أبوها وأخوها في غزوة بدر والتي استأجرت وحشياً لقتل حمزة ولاكت كبده ، هند هذه وقفت في وجه زوجها عندما دعا أهل قريش إلى الإسلام وقبضت على لحيته وقالت :

« يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق »[2] .

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص٢٤٦ والبداية والنهاية جـ ٤ ص ٣٢٤.

(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٢٤ وفي رواية البداية : اقتلوا : الحميت الدسم ، الأحمس ، قبح من طليعة قوم.

فقال: أرسلي لحيتي، وأقسم لئن أنت لم تُسلمي لتُضربْن عنقك.. ثم قال: ادخلي بيتك!! فتركته[1].

وشاء الله سبحانه وتعالى: أن يسلم أبو سفيان ويدعو قومه إلى الإسلام.

وفتحت مكة، وحطّمت الأصنام في داخلها.

أسلم الرجل الذي وقف في وجه الدعوة فترة طويلة مَن الزمن.. أسلم والد معاوية كاتب الوحي لرسول الله ﷺ.

والذي ساهم مساهمة فعالة في نشر الاسلام في الأصقاع البعيدة.

أسلم والد أم المؤمنين أم حبيبة.

أسلم والد يزيد بن أبي سفيان الذي كان يقال له: «يزيد الخير» والذي أعطاه الرسول ﷺ يوم حنين: مائة وأربعين أوقية وزنها له بلال. واستعمله أبو بكر الصديق وأوصاه وخرج يشيعه راجلاً.

وأسلمت زوجه هند بنت عتبة.. وكسرت كل صنم في بيتها وقالت: عند تكسيرها للأصنام: لقد كنا منكم في غرور.

وحضرت بيعة الرسول ﷺ للنساء متنكرة لصنيعها بحمزة. فقال لهنّ الرسول:

«تبايعنني على أن لا تشركن بالله شيئاً.

قالت هند: إنك والله لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال فسنوتيكه.

قال: ولا تسرقن.

قالت: والله إن كنت لأصبت من مال أبي سفيان الهنة والهنة فقال أبو سفيان ــ وكان حاضراً: أما ما مضى فأنت منه في حلّ.

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٣ ــ ٢٤.

فقال رسول الله ﷺ : أهند..؟

قالت : أنا هند فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

قال : ولا تزنين.

قالت : وهل تزني الحرة..؟

قال : ولا تقتلن أولادكن.

قالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم.

فضحك عمر.

قال : ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن.

قالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل.

ولا تعصينني في معروف.

قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك.

فقال رسول الله ﷺ لعمر : بايعهن واستغفر لهن رسول الله ﷺ وكان عليه السلام لا يمس النساء ولا يصافح امرأة ولا تمسه امرأة إلا امرأة أحلّها الله له أو ذات محرم منه»[1].

.. وسارت الحياة بأبي سفيان في رحاب الإسلام.. ولكن لم يسجل التاريخ له شيئاً إلا بعد وفاة الرسول ﷺ واجتمع المهاجرون والأنصار في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة للمسلمين ولم يحضر علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — هذه

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٥ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٥٣.

البيعة لانشغاله بغسل وتجهيز رسول الله ﷺ وتم اختيار الخليفة أبي بكر الصديق — رضي الله عنه.

الرجل الذي أجاب دعوة الله.

وصدق الرسول — في اخباره بالإسراء والمعراج — وقال لمن أخبروه بذلك إن كان قاله: «فقد صدق».

وثاني اثنين إذ هما في الغار.

هنا ظهر أبو سفيان وهو يقول: إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم..؟

أين المستضعفان؟ أين الأذلان علي والعباس..؟ ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش..؟ ثم قال لعلي: ابسط يدك أبايعك، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجلاً.

فأبى علي، عليه السلام عليه، فتمثل بشعر المتلمس:

ولن يقيم على خسف يراد به   إلا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخُسف معكوس برمته   وذا يشجّ فلا يبكي له أحد

فزجره الإمام علي — رضي الله عنه — وقال: والله ما أردت بهذا إلا الفتنة لا حاجة لنا في نصيحتك[1].

وفي معركة اليرموك أراد أن يكفر عما بدر منه لصالح الإسلام والمسلمين فقاتل قتال الأبطال حتى فقئت عينه.

قال سعيد بن المسيب — رضي الله عنه — عن أبيه قال:

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص ٣٢٦.

«فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا رجل واحد يقول : يا نصر الله اقترب. والمسلمون يقتتلون هم والروم : فذهبت أنظر فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد.

ومات رحمه الله سنة ثلاث وثلاثين في خلافة عثمان ، وصلى عليه ابنه معاوية ودفن بالبقيع ، وهو ابن ثمان وثمانين سنة[1].

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٤ ص ١٦٨٠.

أسباب نزول الآيات

قال مقاتل والكلبي : نزلت في المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثني عشر رجلاً : أبا جهل بن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، ونبيه ومنبه ابنا حجاج ، وأبا البختري بن هشام ، والنضر بن الحارث ، وحكيم بن حزام ، وأبي بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، والحارث بن عامر بن نوفل ، والعباس بن عبد المطلب وكلهم من قريش ، وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزائر.

وقال سعيد بن جبير وابن أبزى :

نزلت في أبي سفيان بن حرب ، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبي ﷺ سوى من استجاب له من العرب ، وفيهم يقول كعب بن مالك :

فجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن نصية ثلاث مئين إن كثرنا فأربع

وقال الحكم بن عتبة : أنفق أبو سفيان على المشركين يوم أحد أربعين أوقية من الذهب فنزلت فيه هذه الآية.

وقال محمد بن اسحاق عن رجاله :

« لما أصيبت قريش يوم بدر فرجع فَلُّهُم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيرهم — مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيبت آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك العير تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم وقتل

خياركم ، فأعينونا بهذا المال الذي أفلت على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ، ففعلوا فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية[1] :

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾[2] .

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢٢٣ وراجع أيضاً تفسير البغوي والخازن جـ ٣ ص ٢٦ .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٣٦ — ٣٧ .

تذييل . . .

.. عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته ، أنها قالت لرسول الله ﷺ :

« يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد..؟

فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال ، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني ، فقال : إن الله عزّ وجلّ قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

قال : فناداني ملك الجبال وسلم عليّ ثم قال :

« يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك . وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين.

فقال له رسول الله ﷺ :

« بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »[1] .

فمن هؤلاء الذين كانوا يقفون في وجه الدعوة ويؤذون رسول الله..؟

من هؤلاء الذين عذبوا المستضعفين في مكة عندما أعلنوا إسلامهم..؟

---

(١) رواه الامام البخاري في صحيحه في بدء الخلق ، والامام مسلم في صحيحه أيضاً في الجهاد رقم ١١١.

من هؤلاء الذين أخرجوا رسول الله ﷺ ووقفوا أمام دعوته بالمرصاد..؟

إن ذاكرة التاريخ تحفظ أسماءهم ولا تنساها.. تحفظ أسماء الذين ركبوا رؤوسهم، وأغلقوا قلوبهم، ووضعوا على عيونهم غشاوة فلم ترَ نور الحق، ولم تبصر دلائل الهدى والايمان.

وعلى رأس هؤلاء أبو جهل، الحكم بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وسفيان بن حرب..

.. لقد أبى رسول الله ﷺ أن يدعو على قومه أو أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم عندما كذبوا رسلهم، ولجوا في عصيانهم. وكفروا بربهم.

وقد كان في مقدور الرسول ﷺ أن يقتدي ببعض الأنبياء قبله، فيطلب من ربه مثل ما طلبوا.. ولكنه لم يفعل وقال كلمته الخالدة «عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده».

فهل تحقق ما قاله الرسول ﷺ..؟ وهل خرج من أصلابهم من آمن بالله وصدق بمحمد نبياً ورسولاً..؟

إن التاريخ يحدثنا عن مجموعة من أبناء هؤلاء الرجال — الذين وقفوا في وجه الدعوة — بأنهم أسلموا وحسن إسلامهم — وكانوا للإسلام جنوداً وأبطالاً، حملوا كلمة التوحيد إلى مشارق الأرض ومغاربها.

فهذا عكرمة بن أبي جهل — رضي الله عنه —.

قال له الرسول ﷺ — عندما أسلم: مرحباً بالراكب المهاجر.

فقال يا رسول الله: علمني خير شيء تعلمه حتى أقوله.

فقال له النبي ﷺ: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله.

فقال عكرمة : أنا أشهد بهذا وأسألك يا رسول الله أن تستغفر لي ، فاستغفر له رسول الله ﷺ فقال عكرمة :

«والله لا أدع نفقة كنت أنفقها في صدّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله ، ولا قتالاً قاتلته إلا قاتلت ضعفه ، وأشهدك يا رسول الله ثم اجتهد في العبادة حتى استشهد في معركة اليرموك. رحمه الله.

ومنهم خالد بن الوليد ــ رضي الله عنه ــ الذي قال الرسول ﷺ ــ لأصحابه ــ عندما أسلم خالد وصاحباه : رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها . وقال عنه أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ : عجزت النساء أن يلدن مثل خالد. وكان سيفاً من سيوف الله على المشركين والكافرين ، ومن يقف في طريق الدعوة أو يصدّ عن سبيل الله .

.. وأبو سفيان هذا الذي كان يقود جيوش الكافرين لحرب الرسول ﷺ أكرمه الله بالاسلام وكان من أبنائه ..

يزيد بن أبي سفيان كان يقال له : يزيد الخير ، وشهد مع رسول الله ﷺ حنيناً ، وأعطاه رسول الله من غنائم حنين مائة بعير وأربعين أوقية وزنها له بلال واستعمله أبو بكر الصديق وخرج يشيعه راجلاً.

وكان منهم معاوية بن أبي سفيان : كاتب الوحي لرسول الله ﷺ .

وصدق ما قاله الرسول ﷺ من دخول الناس أفواجاً في دين الله .

فأين الطغاة المستبدون ..؟

أين من وقفوا وصدوا ..؟

أين الجبابرة الذين أقاموا نفوسهم آلهة في الأرض : يقربون من يرضون عنه ، ويبعدون من يسخطون عليه ..؟

أين هم ..؟ لقد ذهبوا جميعاً بعد أن حلت بهم الهزيمة ، فقتلوا وشردوا ، وانتصر دين الله ، وارتفعت راية الحق عالية خفاقة تعلن قول الله تعالى :

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[1].

فهل يعتبر الطغاة في القرن العشرين..؟

الطغاة الذين يدمرون الأرض ويشردون الآمنين..؟

ألا يدرك هؤلاء بأن جيوش الحق هي الغالبة مهما تطاول الباطل وأعلن عن قوته وجبروته..؟

أم تراهم في غيّهم سادرون، حتى يأذن الله بنصره فيصيبهم ما أصاب ثمود وعاد؟ قال تعالى:

﴿فأمّا ثمود فأهلكوا بالطاغية، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾[2].

ألا إن نصر الله قريب، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٥.

(٢) سورة الحاقة آية رقم ٥ ــ ٦.

عمّار بن ياسر

رَضِيَ اللهُ عَنه

ما نزل فيه من الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ
أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ
بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

[سورة النحل آية ١٠٦]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسيرات نزلت في عمار بن ياسر

قال ذلك الامام القرطبي	جـ ١٠ ص ١٨٠
وقاله الامام الطبري	جـ ١٤ ص ١٢٢
وقاله الامام ابن كثير	جـ ٢ ص ٥٨٧
وقاله الفخر الرازي	جـ ٥ ص ٣٥١
والبغوي والخازن	جـ ٤ ص ٩٥ — ٩٦
والدر المنثور	جـ ٤ ص ٣٥٧

وقاله صاحب كتاب أسباب نزول القرآن الامام الواحدي.

فمن هو عمار بن ياسر..؟

عمَّار بن ياسر
رضي الله عنه

من صحابة رسول الله ﷺ وممن بايع بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم.

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾[1] ومن فرسان بدر الذين شاركتهم في معركتهم هذه ملائكة مسومة..

وعمار من قبل هذا:

من الأسرة التي تحملت الجزء الأكبر من تعذيب قريش للمستضعفين.

فوالده ياسر بن عامر كان يمر عليه رسول الله ﷺ وهو ملقى على الرمضاء الملتهبة فيقول له:

«صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة»[2].

وأمه سمية أول شهيدة في الاسلام.

وأخوه عبد الله مات قتيلاً بيد بني الديل في الجاهلية[3].

أما عن أوصافه..

---

(١) سورة الفتح آية ١٨.

(٢) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ٢٤٩.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٧.

فلقد كان رجلاً آدم طوالاً
يجلس كأنه واقف
ويسير كأنه راكب
وكان أشهل العينين، بعيد ما بين المنكبين، غزير الشعر، أبيض الفودين.
كثير الصمت قليل الكلام، عائذاً بالله من فتنة، سمع بدعوة الاسلام مبكراً.

ووصلت إلى مسامعه آيات القرآن يتلوها محمد في جوف الكعبة. فقرر أن يلتقي به، ليستمع كثيراً إليه. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟.. وقريش كلها إلا من عصم الله عيون ترصد بيت ابن أبي الأرقم. وتحول بين أتباع محمد وبين الدخول فيه... وتذيقهم من العذاب ألواناً إذا جلسوا إليه واستمعوا إلى حديثه.. كل ذلك يعرفه عمار... ولكنه لم يستطع أن يقاوم — ولم يكن ذلك في مقدوره — إن أضواء القرآن تجذبه إلى محمد، وحلاوة الايمان تدفعه إليه فاندفع إلى دار بن أبي الأرقم.

يقول عمار: لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله فيها، فقلت له: ما تريد؟..

قال لي: ما تريد أنت؟.

فقلت أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه.

قال: وأنا أريد ذلك، فدخلنا فعرض علينا الاسلام، فأسلمنا، ثم مكثنا يوماً على ذلك حتى أمسينا، ثم خرجنا ونحن مستخفون[1].

وأسلم عمار وحسن إسلامه.

واتخذ مسجداً في بيته، يصلي فيه مع أهله وذويه بعد أن آمنوا بمحمد، وتابعوه في كل ما جاء به. وفي مسجده هذا كان يقرأ آيات القرآن، ويقرئها أهله وهو حريص على خفوت صوته، والاسرار بكلماته، وكان في بعض الأحيان يخرجه

(١) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ٢٤٧.

صدق القرآن وحلاوة كلماته عما أخذ نفسه به ، فيرتفع صوته ، مدوياً بالقرآن. ومجاهراً به . وتسمّعت قريش إلى صوت القرآن منبعثاً من دار عمار ... وتلصصت عيونهم فشاهدوا صلواتهم وخشوعهم . واقتحمت قريش عليهم دارهم ، وأخذت تصبّ عليهم العذاب صبّاً.

ولم تكتف بذلك بل كانت تخرج بهم إلى الصحراء ، وتجرّدهم من ملابسهم ، وتلقي بهم على الرمضاء ، وتثقل بطونهم بالحجارة وتدمي أجسادهم بالسياط . وتضع فوق أطرافهم جمرات النار . ليعودوا إلى عبادة الأصنام ويكفروا بدعوة محمد.
وتلقي بهم على الرمضاء ، وتثقل بطونهم بالحجارة وتدمي أجسادهم بالسياط . وتضع فوق أطرافهم جمرات النار . ليعودوا إلى عبادة الأصنام ويكفروا بدعوة محمد.

قال عمرو بن ميمون :

أحرق المشركون عمار بن ياسر بالنار قال : فكان رسول الله ﷺ يمرّ به ، ويمرر يده على رأسه فيقول :

« يا نار كوني برداً وسلاماً على عمار ، كما كنتَ على ابراهيم »[1] .

ويقول عثمان بن عفان رضي الله عنه :

أقبلت أنا ورسول الله ﷺ آخذ بيدي نتماشى في البطحاء حتى أتينا على أبي عمار وعمار وأمه وهم يعذبون ، فقال ياسر : الدهر هكذا.

فقال له النبي ﷺ : اصبر ، اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت.

وفي رواية : أبشروا يا آل عمار فإن موعدكم الجنة[2] .

ويستمرّ العذاب رهيباً متصلاً لا تكفّ قريش ولا تملّ ، ويدخل أبو جهل على سمية — أم عمار — يرفسها ويركلها وتقول : أحد أحد.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ١ ص ٢٤٨.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٩.

ويقوم كالثور الهائج ، كلما سمع منها هذه الكلمة ، يضربها ويدعوها أن تكفّ عنها ، وتسبّ محمداً. ولكنها لا تستمع إليه ، ولا تجيبه إلى طلبه ، بل أخذت في ترديد كلمتها المحببة إليهم جميعاً.. أحد ، أحد.

ولم يطق صبراً ، وتناول حربته ، وساعده شيطانه وآزره وطعنها في قلبها ، طعنة قاتلة ، فاستسلمت لقضاء ربها وقدره ، وفارقت روحها جسدها ، وسقطت أول شهيدة في الاسلام. سمية أم عمار[1].

هل ترعوي قريش ، وتكفّ عما هي فيه؟..

الحقيقة لقد زادها دم سمية إصراراً على الإثم ، واستمراراً على التنكيل بهؤلاء الذين يقولون : ربنا الله.

ويتألم الرسول ﷺ ولكنه لا يستطيع أن يفعل لهم شيئاً. ويطالبهم بالهجرة إلى الحبشة... وتتابع المؤمنون إلى هناك ، ووجدوا في جوار النجاشي الأمن والسكينة ، والراحة والاطمئنان التي مكنتهم من عبادة ربهم.

ولكن عماراً لم يستطع أن يهاجر وحالوا بينه وبين ذلك وبقي في مكة... هدفاً لحقدهم وغرضاً لكيدهم. ولكنه استطاع أن يفلت منهم ، وهاجر مع المهاجرين إلى الحبشة في الهجرة الثانية.

وفي رحاب ملك الحبشة ، استراح جسمه ، وهدأت روحه ولكن لم يستطع أن يصبر على فراق حبيبه محمد ﷺ.

وأشاعت قريش أنها تابعت محمداً فيما يدعو إليه ، حتى يعود إليها هؤلاء الفارون بدينهم ، والذين لم تشف غيظها منهم بعد.. وعاد عمار مع العائدين.. ولم يستمرّ بمكة طويلاً ، لقد أذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، وهاجر إلى يثرب.. وعاش في المدينة يترقب وصول الرسول إليها. وكان يخرج كل يوم إلى مشارف المدينة

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ، وابن الأثير جـ ٢ ص ٦٧ والاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٤.

يسأل الركبان ويتنسّم الأخبار ويرقب الطريق الطويل — طريق مكة — لعله يحظى بوصول ناقة الرسول إليها.

وفي يوم ليس كمثله يوم خرجت يثرب رجالها وشبابها ونساؤها وأطفالها يستقبلون رسول الله وصاحبه، وردد الوجود معهم نشيدهم العذب:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينه مرحباً يا خير داع

وأحس عمار أن الله أعطاه أكثر مما يريد، وحقق له كل ما يتمنى... لقد كان كافراً فهداه إلى الاسلام.

وكان مولى لبني مخزوم فأصبح مولاه الله.

وكان لا بيت له فخط له رسول الله بيتاً.

وكان وحيداً بلا رفيق فآخى الرسول بينه وبين حذيفة بن اليمان..

ويكاد حذيفة يتفق مع عمار في كثير من الصفات والاتجاهات فعمار كما يقول الرسول ﷺ: ملئ علماً إلى مشاشه[1].

وحذيفة حامل أسرار الرسول ﷺ، والخبير بالمنافقين، والعليم بأوصافهم وصفاتهم. وكلاهما يطيع الرسول ﷺ ولا يعصي له أمراً. فإذا كان عمار يصارع المردة والشياطين، ليحقق ما طلبه منه رسول الله.

فإن حذيفة لبّى أمر الرسول عندما طلب منه أن يتعرّف على جيش الأعداء.

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ٣ ص ١١٢٧ والمشاش رأس العظم.

ومتى ... عند الهول الأكبر، ووسط الزلزلة الشديدة التي أصابت المسلمين في غزوة الخندق، حتى وصف القرآن ما أصاب المسلمين عند ذلك بقوله :

﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾[1] .

يقول حذيفة : دعاني رسول الله ﷺ فقال :

« يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا »[2] .

قال : فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا يقرّ لهم قدر ولا نار ولا بناء.

فقام أبو سفيان فقال :

يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه.

قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت :

من أنت ؟..

قال : فلان بن فلان.

ثم قال أبو سفيان :

« يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل »[3] .

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ١٠ — ١١.

(٢) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٢٥٠.

(٣) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٢٥١.

ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني، لقتلته بسهم.

ثم قال حذيفة:

فرجعت إلى رسول الله ﷺ، وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه. فلما رآني أدخلني إلى رجليه، وطرح عليّ طرف المرط[1] ثم رجع وسجد، فلما سلم أخبرته الخبر[2].

إنّ الفدائية بأجمل معانيها تجلّت في أعمال حذيفة بن اليمان..

الطاعة لأمر الرسول بلا تردد.

والاتجاه إلى الهدف بغير ضوضاء.

والتمويه على الأعداء وهو بين صفوفهم، وتمكنه من أن يقتل قائد الأحزاب، ولكنه لم يؤمر بذلك وعودته إلى الرسول ﷺ بما يحب ويرضى...

ومن هنا كان اختيار الرسول ﷺ له ليكون أخاً ورفيقاً لعمار بن ياسر. وكان من الأعمال الجليلة التي ندب إليها رسول الله أصحابه في المدينة بناء المسجد.. وشاركهم في عملية البناء وأخذ يقول ﷺ:

«لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة[3]»، فدخل عمار ابن ياسر وقد أثقلوه باللبن.

فقال: يا رسول الله قتلوني يحملون عليّ ما لا يحملون..

قالت أم سلمة زوج النبي ﷺ: فرأيت رسول الله ﷺ ينفض فروته بيده وكان رجلاً جعداً وهو يقول:

---

(١) المرط: الكساء.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ١١٤.

ويح ابن سمية، ليسوا بالذين يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية[1]

لقد حدّد الرسول ﷺ قتلة عمار. إنهم ليسوا أصحابه على أيّ حال.. وليسوا هم الكفّار والمشركين.. ولكن جماعة من المسلمين، ولكنهم ينحرفون عن الجادة. إنهم —كما وصفهم— رسول الله ﷺ «الفئة الباغية».

وانتهى المسلمون من بناء المسجد، وتمر الأيام ويأتي رجال إلى رسول الله ﷺ ينعون إليه عمار.. ويخبرونه بوقوع حائط عليه..

فيقول الرسول ﷺ:

«ما مات عمار».

«ابن سمية تقتله الفئة الباغية»[2].

صدق رسول الله ﷺ وكيف يكون غير ذلك، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾[3].

ويشهد عمار المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

كان فارساً قناصاً في غزوة بدر، وحاجزاً صلباً يصدّ هجمات المشركين أن تصل إلى رسول الله ﷺ.. في غزوة أحد. وعاملاً في الخندق في غزوة الأحزاب. ومبادراً إلى مبايعة الرسول ﷺ تحت شجرة الرضوان. وحافظاً لكلمات الرسول ﷺ وداعياً لأعماله في حجة الوداع. وذارف الدموع الغزار عندما نعى أبو بكر الصديق رسول الله ﷺ إلى أتباعه وأحبابه ومن يومها أحب الرحيل.. وتمنى الهجرة إلى الله. وحرص على ذلك، إنه يبغي الشهادة ويطلبها من ربه، ولن يخيب الله رجاءه.. وتموج الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول ﷺ بتيارات غريبة وادعاءات عجيبة.. ادعى النبوة الرجال والنساء، وارتد جمع عن الاسلام، وامتنعت فئة عن دفع الزكاة.

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ١١٤ وطبقات ابن سعد جـ٣ ص ٢٥١.

(٢) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ٢٥٤.

(٣) سورة النجم آية رقم ٣ — ٤.

وينهض أبو بكر بهذه الأعباء مجتمعة، ويعدّ جيشاً للقضاء على هؤلاء الكذابين أدعياء النبوة.. وكانتْ معركة اليمامة، إحدى المعارك الضارية التي خاضها المسلمون.

أين أنت يا عمّار بن ياسر؟..

أتفتقد في مثل تلك الساعة؟..

لا إن هذا لا يكون؟.

إنه هناك فوق الربوة العالية أمام باب الحديقة يحارب ويقاتل، ويشجع وينادي.

عن ابن عمر قال:

رأيت عمار بن ياسر يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف يصيح: يا معشر المسلمين أمن الجنة تفرون؟..

أنا عمار بن ياسر هلموا إلي.

وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت فهي تذبذب وهو يقاتل أشد القتال[1].

وتم النصر للمسلمين، وعادت الجزيرة العربية مرة أخرى إلى رحاب الايمان. وقبض الله أبا بكر اليه.

ثم جاءها عمر، وأراد أن يقذف بهؤلاء الرجال إلى أرض الفرس والروم لنشر دين الله، والدعوة إلى عبادة الواحد الأحد.. واختار من أتباع محمد ﷺ رجالاً لقيادة الجيوش. واختار آخرين ليكونوا قريبين منه يرجع إلى رأيهم ويستأنس بمشورتهم، ويشركهم معه في معضلات الأمور.

وأرسل نوعاً ثالثاً ولاة على الأقاليم وجباة أموال، وصنفاً رابعاً للدعوة إلى دين

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ١١٤ وطبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢٥٥.

ثم جاء إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وهو المرقال وكان صاحب راية عليّ . وكان أعور .

فقال : يا هاشم أعواراً وجبناً ..؟

لا خير في أعور لا يغشى البأس ، اركب يا هاشم فركب ومضى معه وهو يقول :

أعور يبغي أهله محلا قد عالج الحياة حتى ملا
لا بد أن يفل أو يفلا يتلُّهُمْ بذي الكعوب تلا[1]

وعمار يقول : تقدم يا هاشم.
الجنة تحت ظلال السيوف.
والموت تحت أطراف الأسل.

وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين ، اليوم القى الأحبة محمداً وحزبه[2].

وتقدم حتى دنا من عمرو بن العاص فقال له :
«يا عمرو بعت دينك بمصر تباً لك»[3].

فقال له : لا ولكن أطلب بدم عثمان.

قال :أنا أشهد على علمي فيك أنك لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله ، وأنك إن لم تقتل اليوم تمت غداً ، فانظر إذا أعطي الناس على قدر نياتهم ما نيتك .؟

لقد قاتلت صاحب هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله ﷺ ، وهذه الرابعة ، ما هي

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٥٩.
(٢) المصدر السابق ٣ ــ ٤.
(٣) ابن الأثير جـ ٣ ص ٢٠٩.

بأبر وأتقى. لقد كشف عمار هذه الفئة الباغية التي فرقت أمر المسلمين. وعراهم من ثيابهم التي يستترون بها، ويخدعون السذج من أتباعهم.

ليس ثأر عثمان هو الذي خرج بهم.

وليس دمه الذي يطلبون.

وليس لله ولا للحق يشهرون السلاح في وجه رجل قال عنه الرسول ﷺ انه مني بمنزلة هارون من موسى.

ولكن القضية قضية الدنيا التي فتحت لهم.

قضية الأموال التي تجبى فتستعصي على العد.

والقصور التي تشيد ويقام أمامها الحجاب.

قضية الحكم وشهوته، والملك وسطوته، إنهم طلاب دنيا، وليسوا طلاب دين.

هل في مقدور هؤلاء الخارجين على أمر الجماعة أن يكذبوا عماراً؟

عمار الذي يستأذن على رسول الله ﷺ، فعرف صوته فقال:

«مرحباً بالطيب المطيب ائذنوا له»(١).

عمار الذي تقول فيه السيدة عائشة رضي الله عنها: ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ: أشاء أن أقول فيه إلا قلت: الا عمار بن ياسر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ملىء عمار إيماناً إلى اخمص قدميه»(٢).

ويقول خالد بن الوليد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أبغض عماراً أبغضه الله تعالى.

قال خالد: فما زلت أحبه من يومئذ.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الاصحاب جـ ٣ ص ١١٣٨.

(٢) الاستيعاب جـ ٣ ص ١١٣٧.

الله وتفقيه العباد ، وكان عمار ، من أولئك الرجال الذين وقع عليهم اختيار عمر ليكون أميراً على الكوفة.

وكتب كتاباً لأهلها قال لهم فيه :

« أما بعد ، فاني بعثت اليكم عمار بن ياسر أميراً وابن مسعود معلماً ووزيراً ، وقد جعلت ابن مسعود على بيت مالكم ، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر ، فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما[1] » وعاش عمار مع أهل الكوفة فترة ، يعمل فيهم بما يرضي الله وبما يحس أن رسول الله ﷺ يرضى عنه.

لقد عاش أميراً زاهداً ، وحاكماً ورعاً ، ووالياً يحب رعيته ويرعاها ، ليس فيه فظاظة الحكام ، ولا امرة الأمراء. يخدم نفسه ويحمل متاعه.

يقول ابن أبي الهذيل : رأيت عمار بن ياسر اشترى قتاً بدرهم فربطه بحبل وحمله على ظهره ، وهو أمير الكوفة[2] ولكن هذه السيرة الحسنة لم ترض عنه أهل الكوفة واتهموه : بأنه غير كفء.

وغير عالم بالسياسة. ولا يدري على ما استعملته.

فعزله عمر ، وقال له : أساءك العزل؟.

قال : ما سرني حين استعملت ، ولقد ساءني حين عزلت.

فقال عمر : قد علمت ما أنت بصاحب عمل ، ولكني تأولت[3] ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾[4].

« قد علمت ما أنت بصاحب عمل ».

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن الأثير جـ ٣ ص ٣١.

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢٥٥.

(٤) سورة القصص آية رقم ٥.

وهذا ليس مما يعيب عماراً ، انه صاحب عقل ذكي وفؤاد أبي هداه إلى الاسلام وملىء علماً إلى أخمص قدميه. كما قال رسول الله ﷺ وفارس له القدح المعلى في ميدان القتال. وفي موقعة صفين خرج عمار بن ياسر على الناس فقال: اللهم انك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته.

اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في بطني ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلته.

واني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين.

ولو أعلم عملاً هو أرضى لك منه لفعلته.

والله إني لأرى قوماً ليضربنكم ضرباً يرتاب منه المبطلون وايم الله لو ضربونا حتى يبلغوا منا سعفات هُجر لعلمت أنا على الحق، وأنهم على الباطل.

ثم قال: من يبتغي رضوان الله ربه، ولا يرجع إلى مال ولا ولد؟..

فأتاه عصابة.

فقال: اقصدوا بنا هؤلاء القوم الذين يطلبون دم عثمان والله ما أرادوا الطلب بدمه، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستحبوها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه منها ولم يكن لديهم سابقة يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم، فخدعوا أتباعهم.

وإنما قالوا: إمامنا قتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً، فبلغوا ما ترون، فلولا هذه ما تبعهم من الناس رجلان.

اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت، وان تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم. ثم مضى ومعه تلك العصابة، فكان لا يمر بواد من أودية صفين إلا تبعه من كان هناك من أصحاب النبي ﷺ(١).

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص ٣٠٨ وطبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢٥٨.

ثم نادى عمار يوم صفين: ائتوني بشربة لبن فإن رسول الله ﷺ قال لي: «إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن»[1].

فأتي بلبن فشربه.

ثم تقدم وهو يرتجز:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكمْ على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق الى سبيله[2]

وتقدم فقاتل حتى قتل:

قتل عمار بن ياسر، الطيب المطيب، حبيب رسول الله ﷺ.

«قتلته الفئة الباغية».

كما قال ذلك رسول الله ﷺ.

يروى عن هني مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

كنت أول شيء، مع معاوية على عليّ. فكان أصحاب معاوية يقولون: لا والله لا نقتل عماراً أبداً إن قتلناه فنحن كما يقولون. فلما كان يوم صفين ذهبت أنظر في القتلى فإذا عمار بن ياسر مقتول.

فقال هني فجئت إلى عمرو بن العاص وهو على سريره فقلت:

«أبا عبد الله».

قال: ما تشاء؟..

قلت: انظر أكلمك.

فقام إلي فقلت:

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ والبداية والنهاية جـ ٨.

(٢) المصدر السابق.

عمار بن ياسر ما سمعت فيه؟..

فقال: قال رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية».

فقلت: هوذا والله مقتولاً.

فقال: هذا باطل.

فقلت: بصر به عيني مقتولاً.

قال: فانطلق فأرنيه، فذهبت به فأوقفته عليه، فساعة رآه امتقع لونه، ثم اعرض في شق[1] ويختصم الرجلان اللذان قتلا عماراً كل منهما يدعي قتله.

فقال: عمرو بن العاص:

«والله إن يختصمان إلا في النار».

فسمعها معاوية، فلما انصرف الرجلان قال معاوية لعمرو بن العاص: ما رأيت مثل ما صنعت، قوم بذلوا أنفسهم دوننا تقول لهما إنكما تختصمان في النار.

فقال عمرو: هو والله ذاك، والله إنك لتعلمه ولوددت أني ميت قبل هذه بعشرين سنة[2].

وتدوي في سماء المعركة كلمات الرسول ﷺ وتخترق كل أذن وتستقر في كل قلب:

«ويحك ابن سمية، تقتلك الفئة الباغية».

وأخذ التمرد يدب في صفوف جيش معاوية. وأوشك أن ينضم كثير من قادة الكتائب بمن معهم إلى جيش علي..

ويظهر معاوية على مسرح الأحداث، ويردد ما قاله الرسول ﷺ ويقول: ما قاله الرسول حق وصدق.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ٢٥٤.

(٢) المصدر السابق.

ولكن من الذي قتل عماراً؟..

تكلموا أيها الناس وأجيبوا أميركم، ولكن أميرهم أعفاهم من الاجابة قائلاً:

«إنما قتله الذين خرجوا به من داره، وجاءوا به إلى القتال»[1].

وسارت عجلة الحياة تدب في طريقها المرسوم حيث يريد لها الله.

أما عمار، فقد حمله «علي» كرم الله وجهه فوق صدره إلى حيث صلّى عليه والمسلمون معه. ثم دفنه في ثيابه.

لقد كانت الجنة في شوق الى عمار كما حدث الرسول ﷺ.. وها هوذا في الطريق اليها.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢٥٩.

أسباب نزول الآيات

عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال :

أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ ، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبي ﷺ قال :

ما وراءك؟.

قال : شر يا رسول الله ، ما تركت حتىَ نلت منك وذكرت آلهتهم بخير.

قال : : فكيف تجد قلبك؟

قال : مطمئن بالايمان.

قال : فإن عادوا فعد[1] .

فأنزل الله تعالى : ﴿إلا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان﴾[2] .

قال ابن عباس رضي الله عنه :

نزلت في عمار بن ياسر ، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسراً وأمه سمية ، وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً فعذبوهم.

فأما سمية فانها ربطت بين بعيرين ووجيء قبلها بحربة وقيل لها انك أسلمت من أجل الرجال.

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي.

(٢) سورة النحل آية رقم ١٠٦.

فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين في الاسلام. وأما عمار، فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فأخبر رسول الله ﷺ بأن عماراً كفر.

فقال: كلا ان عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه.

فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي.

فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول:

«إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»[1].

فأنزل الله تعالى:

﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان﴾.

وروى منصور بن المعتمر عن مجاهد قال: أول شهيدة في الاسلام أم عمار، قتلها أبو جهل، وأول شهيد من الرجال: مِهْجَع مولى عمر.

وروي عنه أيضاً: أول من أظهر الاسلام سبعة رسول الله ﷺ، وأبو بكر وبلال، وخباب، وصهيب، وعمار، وسمية أم عمار.

فأما رسول الله ﷺ فمنعه أبو طالب. وأما أبو بكر، فمنعه قومه، وأخذوا الآخرين فألبسوهم أدراع الحديد، ثم صهروهم في الشمس، حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ من حر الحديد والشمس.

فلما كان من العشي أتاهم ابو جهل، ومعه حربة فجعل يسبهم، ويوبخهم، وأتى سمية فجعل يسبها ويرفث، ثم طعن فرجها فقتلها رضي الله عنها[2].

قال عمار: كلنا تكلم بالذي قالوا: لولا أن الله تداركنا — غير بلال فانه هانت عليه نفسه في الله. وروى ابن جرير الطبري بسنده عن قتادة قال:

---

(١) تفسير الامام الطبري عند هذه الآية جـ ١٠ ص ١٨١.

(٢) تفسير الخازن جـ ٣ ص ١٣٦.

﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلّا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾.

قال: ذكر لنا أنها نزلت في عمار بن ياسر، أخذه بنو المغيرة فغطوه في بئر ميمون.

وقالوا: اكفر بمحمد، فتابعهم على ذلك وقلبه كاره[1].

فشكا ذلك الى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله:

كيف تجد قلبك؟

قال: مطمئن بالإيمان[2].

فقال رسول الله ﷺ فإن عادوا فعد[3].

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما»[4].

وروي من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال:

«اشتاقت الجنة إلى علي، وعمار، وسلمان، وبلال رضي الله عنهم»[5].

---

(١) الطبري جـ ١٤ ص ١٨١.

(٢) المصدر السابق وابن الأثير جـ ٢ ص ٦٧.

(٣) الطبري جـ ١٤ ص ١٨١.

(٤) سنن الامام الترمذي.

(٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١١٣٧.

تذييل

لقد كان عمار عائذاً بالله من فتنة..

فتنة تنزل بالمسلمين، فتفرق وحدتهم، بعد أن من الله عليه بنعمه الظاهرة والباطنة.. وهداهم إلى الاسلام دين الوحدة والاتحاد. وكان يجب أن يكون أمرهم جميعاً، بعد أن فتح لهم الدنيا وأصبح الكثير من أهلها يدينون بما يدينون به من التوحيد والايمان.

وكان عمار يتمنى أن تبقى سيوف المسلمين مشرعة دائماً الى الخارج، خارج الحدود الاسلامية لتعمل على نشر دين الله، وتجاهد لرفع راية الله وتبقى هكذا عالية خفاقة. تنشر العدل وتحقق السلام.

فماذا جرى للمسلمين حتى رد سيوفهم إلى الداخل؟..

أهو الطمع والحرص؟..

أم الرغبة في الملك والسلطان؟..

أم ان بعض النفوس لا زالت تسيطر عليها روح الجاهلية لأنها دخلت الإسلام رهبة لا رغبة.

إن الإنسان ليصاب بالغثيان، ويلفه ما يشبه الدوار كلما تذكر أن عمر تطعنه يد آثمة.

وعثمان تقتله عصابة خارجة.

وعلي تحاك له الدسائس وتدبر له المكائد، ويقتل غيلة وغدراً.

والحسين ابن بنت الرسول ﷺ وأطفاله الصغار ونساؤه الضعاف يحال بينهم وبين شربة ماء..

ويقتلون شر قتلة لماذا؟..

هل ارتكب الحسين جريرة؟..

هل قاتل أحداً من الناس؟..

هل اغتصب ملكاً أو خلافة؟..

اللهم لا..

ولكنها الفتنة التي كان يستعيذ منها عمار.

وكما استغل قميص عثمان، في تفريق الكلمة، واشاعة الفتنة وتفريق الصف..

استغل مقتل الحسين، لهذا السبب ذاته، ونستقرىء سوياً صفحات التاريخ، فيأخذنا الهول والفزع. أهؤلاء هم الرجال، أو ابناء الرجال، الذين فروا بدينهم وهاجروا مع نبيهم، وتركوا كل ما يملكون من حطام الدنيا، بل ما هو أغلى من ذلك وأكبر. الأهل والولد، والحبيب والصديق؟..

ما الذي غير تلك النفوس؟.. وبدل هذه الطبائع؟. وطمس على تلك الافئدة؟. لقد حمل رأس الحسين — كما تقول الروايات — إلى قلعة الكوفة، حيث يجلس عبيد الله بن زياد واليها الجديد من قبل الأمويين..

وكأن هذا العمل الذي قام به جيش زياد ازاء قوم عزل عمل بطولي يفتخر به التاريخ. ولم تكد تجف دماء الحسين وأهل منزله.

حتى شاهدت الكوفة جيشاً لجبا[1] جمع صفوة مختارة من أبناء المسلمين ساروا خلف رجل راغب في الحكم وطامع فيه، ينادون يا لثارات الحسين...

وحاصروا جيش عبيد الله بن زياد، وتم القضاء عليه وقتل شر قتلة، وحملت

---

(١) كثيفاً أو كثيراً.

رأسه إلى قلعة الكوفة ، ووضعت أمام المختار الثقفي ، في نفس الموضع ، الذي وضعت فيه من قبل رأس الحسين.

ماذا جرى يا أتباع محمد؟.

إنها الفتنة التي كان يستعيذ منها عمار.

ولم يستطع أن يحول بينها وبين انتشارها ، حتى عششت في كل نفس ، وفرخت في كل قلب.. ولم يدم السلام طويلاً للمختار الثقفي.

ولم يتحقق له أن ينعم بالحلم الجميل الذي راوده في يوم من الأيام ، ولم يرع الله في أبناء المسلمين الذين قذف بهم في معركة خاسرة.

حيث يقتل الأخ أخاه ، والوالد ابنه ، ولم يدر ما يفعل؟ إنها رياح الفتنة لا تبقي ولا تذر.

لقد استيقظ المختار في يوم من الأيام على صوت يدوي ويهز أرجاء الكوفة هزاً ، انه جيش مصعب بن الزبير الذي جاء يطالب بالبيعة لأخيه في مكة عبد الله بن الزبير.

والتحم الجيشان في معركة وحشية ضارية ، لعب فيها بريق الدينار ، وسحر الذهب دوراً كبيراً ودارت الدائرة على المختار وحزت رأسه ، وهناك في قلعة الكوفة أيضاً كان يجلس مصعب ينتظر رأس المختار ، ينتظرها في قلق حيناً وفي رعب حيناً آخر. وكأن شيطاناً يتقمص هؤلاء الطامعين في الملك الراغبين فيه ، فلا يستقر لهم قرار ، ولا يهنأ لهم بال ، حتى يشاهدوا رأس الغريم أمامهم ، ويتأكدوا منها على موت صاحبها ، وتركه هذه الديار.

وانفرجت أسارير مصعب ، وأخذ ينكت الرأس أمامه بقضيب كانت في يده.

وكأني به أخذ يوزع بدراته[1] وذهبه ، ويقرب فرسانه وجزاريه إلى مقعده ، ويطلب من كاتبه أن يزف البشرى لأخيه في مكة.

---

(١) النقود.

ولم تدم أيام الاستقرار طويلاً.

ولم يهدأ للمسلمين بال.

وكيف يكون ذلك، والفتنة التي كان يستعيذ منها عمار تطاردهم، وتسخر من أحلامهم.

وفي اللحظة التي تسلم فيها عبد الله بن الزبير خطاب أخيه مصعب. كانت جيوش جرارة بقيادة الحجاج الثقفي تحاصر الكعبة، وتدك بنيانها بالمنجنيق وضربت الكعبة.

وتساقطت الأحجار في فنائها.

شلت أيديكم يا أتباع الشيطان.

إن صاحب الفيل لم يستطع أن يفعل ما فعله هؤلاء الذين قدت قلوبهم من صخر، فلا تنبض برحمة ونزع الله من أفئدتهم الايمان فلا تدل على خير.

وفي الوقت الذي تمكن فيه رجال الحجاج من قتل عبد الله بن الزبير، وقطع أطرافه وتعليق جثته، كان هناك على أرض الكوفة جيش يحاصر مصعباً ويبدد رجاله، ويجندل فرسانه.

وفي هذه القلعة المشؤومة أيضاً وضعت رأس مصعب أمام عبد الملك بن مروان الذي أمر بنقض بنيانها وهدم أركانها، يا أتباع محمد، ان هذه الفتنة نقطة سوداء قاتمة في تاريخ هذه الأمة، وما أجمل الا تكون ولكنها عظة وعبرة.

ودرس يجب أن يعيه الأبناء ليتعلموا منه.

«ان الفتنة لا تأتي بخير».

سَعد بن أبي وقّاص

رَضِيَ ٱللهُ عَنه

ما نزل فيه من الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ
وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ
وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة لقمان آية ١٤ – ١٥]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص.

قال ذلك الامام الطبري في تفسيره جـ ٢٠ ص ٨٥.

قاله الامام القرطبي جـ ١٣ ص ٣٢٨.

والامام ابن كثير في تفسيره جـ ٣ ص ٤٠٥.

وتفسير البغوي والخازن جـ ٥ ص ١٥٦.

وصاحب الدر المنثور جـ ٥ ص ١٤١ — ١٤٢.

وقاله الامام ابو الحسن علي بن أحمد الواحدي في كتابه «أسباب نزول القرآن» ص ٣٥٦.

فمن هو سعد بن أبي وقاص.؟

سعد بن أبي وقاص

رضي الله عنه

والده مالك بن أهيب من بني عبد مناف.

وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية ، مات والده فعاشت لتربيته وأخيه وعاشا لها ، حتى جاء الاسلام فتفرقت بينهم السبل.

وكان يريش النبل ويصنعه في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام صار من أبرع الرماة وأقدر الفرسان.

كان سعد واضح السمات بيّن المعالم ، يكفي أن تراه مرة فلا تغيب هيئته عن ذاكرتك.

فهو قصير القامة دحداحاً.

غليظاً متمكناً من الأرض إذا سار.

شثن الأصابع ، جعد الشعر.

هكذا كانت تصفه ابنته عائشة ، وتقول دخل أبي الاسلام مبكراً عن طريق أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ويروي البخاري قوله : لقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الاسلام[1].

وكان سنه إذ ذاك سبع عشرة سنة.

---

(١) يراجع صحيح البخاري والاصابة جـ ٢ ص ٣٢ ، وطبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٣٩.

تلك الفترة من العمر التي تعتبر أولى مراحل الشباب ، وتتفتّح فيها القلوب لكل شيء تلتقي به ، لأنها صافية وخالية ، وتتكامل فيها شخصية الفرد ، وتنمو ملكاته .

ولقد تفتح قلب سعد للنور الجديد ، والهدى الجديد .

فلم يعرف إسفافات الجاهلية ، وتقاليدها . وهو القائد المحنك ، والفارس المجرب .

بطل القادسية ، ومدائن كسرى ، وفاتح العراق ، وناشر على أرضه : اسم الله .

وأحد الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخلافة والشورى ، وقال : وهو يلفظ أنفاسه : إن أصابته الإمرة فذاك ، وإلّا فليستعن به الوالي[1] فإني لم أعزله عن عجز أو خيانة[2] . وهو من قبل هذا ومن بعده أيضاً خال الرسول ﷺ .

روى جابر بن عبد الله قال : أقبل علينا سعد فقال النبي : هذا خالي فليرني امرؤ خاله[3] .

وسعد أول من أراق دماً في الاسلام .

قال ابن اسحاق : كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب ، واستخفوا بصلاتهم من قومهم فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، وهم يصلون ، فناكروهم ، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم :

فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحي بعير فشجه ، فكان أول دم أهريق في الإسلام[4] . ويتساءل الانسان ماذا كانت تصير اليه الأمور ؟ ..

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ والاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٦٠٩.

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٠٩.

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٣٧.

(٤) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٧٥.

لو تركت قريش محمد وأصحابه يعبدون الله كما أمرهم ربهم ولا يتعرضون لهم بضرب أو استهزاء؟..

أكانت تتم الهجرة؟..

أكان الله يقيض للاسلام في مكة أمثال رجال الأنصار؟.. إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً هيأ له أسبابه.

وسعد أول من رمى بسهم في سبيل الله. عندما انضم إلى كتيبة عبيدة بن الحارث، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى رافع — مكان قرب مكة — ليلقى عير قريش فتراموا بالنبل، وكان سعد أول من رمى بسهم في سبيل الله، وقال في ذلك:

ألا هل أتى رسول الله إني حميت صحابتي بصدور نبلي
أذود بها أوائلهم ذياداً بكل حزونة وبكل سهل
فما يعتد رام في عدو بسهم يا رسول الله قبلي
وذلك أن دينك دين صدق وذو حق أتيت به وعدل[1]

وفي إحدى الليالي في يثرب أرق الرسول ﷺ فقال:

«ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني».

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: فلم تمض لحظة واحدة إذ سمعنا صوت السلاح. فقال الرسول: من هذا؟..

قال: أنا سعد بن أبي وقاص، أنا أحرسك يا رسول الله. فدعا له رسول الله ﷺ.

قالت السيدة عائشة: فنام رسول الله حتى سمعت غطيطه[2] إن سعداً يحرس رسول الله ﷺ. يحرس صاحب الرسالة.

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٤٢ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٧٥.
(٢) المصدر السابق ورواه الشيخان والترمذي والنسائي من حديث عائشة.

وعما قريب سيدعى لحراسة الأمة الاسلامية من أقوى قوة ضاربة عرفتها البشرية في ذلك الوقت. قوة الفرس، التي كانت تتخذ من العرب، حراساً وعمالاً وجنوداً وخفراء.. هنيئاً لك يا بطل القادسية.

وفي معركة بدر أبلى سعد بلاء حسناً ودافع دفاع الراغبين في الشهادة الطالبين لها.

يقول عبد الله بن مسعود: اشتركت أنا وسعد وعمار يوم بدر فما أصبنا من الغنيمة فجاء سعد بأسيرين، ولم أجيء أنا وعمار بشيء.. ولقد رأيته وهو يقاتل قتال الفارس للراجل[1].

وفي هذه الغزوة، غزوة بدر، استشهد أخوه عمير بن أبي وقاص. ويحدثنا سعد عن أخيه قائلاً:

رأيت أخي عمير قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ للخروج الى بدر يتوارى.

فقلت: ما لك يا أخي؟

فقال: اني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة.

قال سعد: فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره فقال: «ارجع».

فبكى عمير فأجازه رسول الله ﷺ فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة[2] ايه يا أشبال الاسلام، بكم عز الاسلام وانتصر وظفرتم بما كنتم تريدون.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٧٣.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٤٩.

ان هؤلاء الفتيان، كانوا يتسابقون إلى القتال. ويهنىء بعضهم البعض إذا أجازهم رسول الله ﷺ وضمهم الى الجيش المحارب.

يتسابقون لا فخراً ولا خيلاء.

ويتسابقون لا من أجل مال أو غنيمة.

ولكن ليحظى أحدهم بالشهادة، وينال هذه الأمنية الغالية.

أين شبابنا الآن من نفير الجهاد؟.

لقد خرب الاستعمار ذاتيته وقضى على روحه، وجعله رخواً مخنثاً، يبحث عن اللذة ويصارع الغواني، يعشق ذاته فلا تمس، ويصفف شعره، فلا تجرحه نسمات الرياح.

يا حبذا لو كان للاسلام رجال؟.

ان مدرسة الرسول ﷺ كانت تعقد جلساتها في رحاب المسجد عقب الصلوات يتحلق الرجال والشباب والفتيان حول معلمهم رسول الله ﷺ، وفي يوم من الأيام والجمع حاشد والناس جلوس.

قال الرسول ﷺ:

«يدخل عليكم من ذا الباب رجل من أهل الجنة»[1].

قال عبد الله بن عمر:

فليس منا أحد إلا وهو يتمنى أن يكون من أهل بيته.

فإذا سعد بن أبي وقاص قد طلع.

فلما قام رسول الله ﷺ قال عبد الله بن عمر بن العاص لسعد بن أبي وقاص:

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٧٤.

اني غاضبت أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاث ليال، فان رأيت أن تأويني اليك حتى تنحل يميني فعلت.

قال أنس رضي الله عنه: فزعم عبد الله بن عمر أنه بات معه ليلة حتى إذا كان الفجر فلم يقم تلك الليلة شيئاً، غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله وكبره حتى يقوم الفجر. فإذا صلى المكتوبة أسبغ الوضوء وأتمه ثم يصبح مفطراً[1].

قال عبد الله بن عمرو:

فرمقته ثلاث ليال وأيامهن لا يزيد على ذلك، غير أني لا أسمعه يقول إلا خيراً.

فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أحتقر عمله، قلت:

انه لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك ثلاث مرات في ثلاثة مجالس.

«يطلع عليكم رجل من أهل الجنة».

فأطلعت أنت أولئك المرات الثلاث، فأردت أن آوي اليك حتى أنظر ما عملك فأقتدي بك لأنال ما نلت، فلم أرك تعمل كثير عمل، ما الذي بلغ بك ما قال رسول الله؟..

فقال: ما هو إلا الذي رأيت.

قال: فلما رأيت ذلك انصرفت فدعا بي حين وليت فقال:

«غير أني لا أحمل في نفسي حقداً لأحد من المسلمين، ولا أنوي له شراً ولا أقوله.

قلت: هذه التي بلغت بك وهي التي لا أطيق[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٧٤.

بالحب الكبير الذي كان يملأ قلوب الرجال الأول وحدبهم على بعضهم البعض فتحت لهم الدنيا ، وسلمتهم مقاليدها . ثم لما أصبح بأسهم بينهم شديداً صاروا هدفاً لكل طالب ، وبلادهم مطمعاً لكل راغب.

الحب الذي امتلأ به قلب سعد هو الذي فتح الشام والعراق ، ونشر الإسلام في افريقيا والمغرب العربي كله ، والحقد الذي امتلأت به قلوب الأحفاد أضاع تلك البلاد.

فتحت بغداد للتتار بالحقد.

وضاعت الأندلس عندما أصبح أمراء المسلمين يتسابقون في النيل من زملائهم والتزلف للآخرين..

وضاعت فلسطين ، عندما طمع أحد الولاة في توسيع رقعة ملكه على حساب العرب والمسلمين.

وهنا مفرق الطرق بين من تتلمذ بين يدي القرآن..

ومن تلقى عن الاستعمار معارفه ، ومنهج حياته..

أين أنت يا سعد؟..

انه قريب منا ومن أصحابه ومن حبيبه رسول الله ﷺ في غزوة أحد.

تلك الغزوة التي كانت محنة واختباراً لتلك الصفوة المؤمنة التي اختارها الله لنشر دينه. لقد أكره الرسول ﷺ على الخروج وكان رأيه البقاء في المدينة ، وعاد عبد الله بن أبي زعيم المنافقين بثلث الجيش من نصف الطريق.

وخالف الرماة أمر قائدهم وتركوا ظهور المسلمين مكشوفة من أجل الغنائم.

واشتد الكرب على المسلمين.

واتسعت آمال الشرك فلم تعد ترضى بأقل من رأس الرسول ﷺ هنا تظهر

عبقرية سعد بن أبي وقاص وتظهر قوة إيمانه وصلابة جنانه في الدفاع عن رسوله. ووقف شامخاً كالجبل، يدافع وينافح ويصد تلك الهجمات المجنونة الحاقدة.

ومن خلفه رسول الله ﷺ يناوله النبل ويشد من أزره ويقول له: «ارم سعد فداك أبي وأمي»[1].

يقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

ما سمعت رسول الله ﷺ يفدي أحداً بأبويه إلا سعد بن مالك واني سمعته يقول له يوم أُحد:

«ارم سعد فداك أمي وأبي»[2].

وتقول عائشة ابنة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في موقف الامتنان والاعتراف بنعم الله:

«أنا بنت المهاجر الذي فداه رسول الله ﷺ بالأبوين.. أنا بنت سعد بن أبي وقاص»[3].

فداك آباء المسلمين جميعاً وأمهاتهم يا سعد، وهنيئاً لك الجنة التي بشرت بها من رسول الله ﷺ.

هل توقف عطاء سعد عند هذا الحد؟..

لا والله.

لقد شهد غزوة الخندق.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٧٥.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٤١ والاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٦٠٧.

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٤٢ والبداية والنهاية جـ ٨ ص ٧٥.

وبايع تحت شجرة الرضوان.

واخترق حصن خيبر مع الامام علي كرم الله وجهه..

وحمل إحدى رايات المهاجرين الثلاث في فتح مكة وتم النصر والفوز، وحقق الله وعده للمؤمنين..

﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾[1].

إن الرجال الذين تعودوا على صهوات الخيل يضعفهم توقف الجهاد..

والرجال الذين بايعوا الله على البذل والفداء يمرض نفوسهم التوقف عن العناء..

وأتباع محمد كانوا دائماً في معركة أو على أهبة الدخول فيها..

وفي حجة الوداع افتقد رسول الله ﷺ سعد، فعلم ان المرض قد حجزه.. فذهب الرسول ﷺ يعوده..

فقال سعد: يا رسول الله اني ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة أفأوصي بثلثي مالي؟..

قال: لا.

قال: أفأوصي بنصفه؟.

قال: لا.

قال: أفأوصي بثلثه؟.

قال: الثلث والثلث كثير.

إن نفقتك من مالك صدقة، وان نفقتك على عيالك، لك صدقة، وان

---

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٧، ٢٨.

نفقتك على أهلك لك صدقة ، وإنك إن تدع أهلك بعيش ، أو قال بخير ، خير من أن تدعهم يتكففون الناس[1] .

ثم قال : اللهم امضي لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم ، لكن البائس سعد بن خوله يرثي له رسول الله إن مات بمكة[2] .

تقول عائشة ابنة سعد :

ثم وضع رسول الله ﷺ يده على جبهته فمسح وجهه وصدره وبطنه .

وقال : اللهم اشف سعداً وأتم له هجرته .

قال سعد : فما زلت يخيّل إليَّ أني أجد برد يده على كبدي حتى الساعة .

وخلف رسول الله ﷺ على سعد رجلاً .

فقال : إن مات سعد بمكة فلا تدفنه بها .

فقلت يا رسول الله ، أتكره أن يموت الرجل في الأرض التي هاجر منها ؟ .

قال : نعم .

ولكن سعداً لم يمت .. وعادت العافية بعودة الرسول إليه . ألم أقل لكم إن دوره ضخم وتبعاته جسام فلا بدّ من أداء رسالته كاملة قبل أن يذهب إلى ربه . ثم كانت حوادث جسام ألهت الأمة الإسلامية وشغلت التاريخ عن سعد ..

لقد مات رسول الله ﷺ ...

وتولى الخلافة أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

وكانت حروب الردّة ومعارك الخارجين عن الصف وترهات المفرقين بين الصلاة والزكاة ثم جاء عمر لينقل هؤلاء الرجال .. إلى خارج الجزيرة العربية .. بعد أن أخمدت الفتنة وعاد الجميع إلى ساحة الاسلام .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٧٥ ، وطبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٤٥ ورواه الإمام البخاري والإمام مسلم ومسند الإمام أحمد .

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٤٦ والبداية والنهاية جـ ٨ ص ٧٥ .

وعلى ربى الشام كانت صولات خالد، وإيمان أبي عبيدة ينشران الاسلام ويطويان الأرض طيّاً. وعلى مشارف العراق المثنى بن حارثة يجابه مئات الألوف الزاحفة الجرارة.. التي تريد أن تلتهم أبناء الصحراء حاملين معهم أقوى ما وصلت إليه البشرية في ذلك الوقت من أسلحة وأساليب حربية. ويستعينون في زحفهم هذا بأعتى الحيوانات ضراوة وقوة إنها الفيلة المدربة الفاتكة..

وجاء رسول المثنى إلى عمر يطلب مدداً ويحدثه عن أحوال جنود المسلمين على مشارف العراق.

قال عمر: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب[1].

وقرر أمراً.

ودعا الناس للجهاد فلما اجتمعوا إليه، خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى ضراراً.

فسأله عثمان بن عفان رضي الله عنه عن وجهته، فقال له: أريد المسير إلى العراق. ووافقته العامة على ذلك وقالوا:

سر وسر بنا معك.

ولكن عبد الرحمن بن عوف عارض أن يذهب أمير المؤمنين بنفسه إلى العراق. وقال له: ابعث رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ وترميه بالجنود. فإن كان الذي تشتهي فهو الفتح وإلا أعدته وبعثت آخر، وكان ذلك غيظاً للعدو.

عندها قال عمر: ومن هذا الرجل؟.

واجتمع مجلس الشورى لاختيار من يقدر على هذه المهمة الشاقة التي تعترض سبيل المسلمين. وما لبث أن هتف عبد الرحمن بن عوف:

يا أمير المؤمنين لقد وجدته.

---

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ٢ ص ٤٥١.

قال عمر: من هو؟.

قال عبد الرحمن هو الأسد عاديا: سعد بن مالك يا أمير المؤمنين[1].

أين سعد في ذلك الوقت؟

لقد كان على صدقات نجد.

وجهز له عمر جيشاً من ستة آلاف مقاتل، فيه الكثير من صحابة رسول الله ﷺ ومن البدريين الذين حضروا موقعة بدر.

وخرج عمر بن الخطاب يودع جيش الفتح وانتحى جانباً بقائده وقال له: لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ.

وصاحب رسول الله ﷺ فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن.

وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ، يلزمه فالزمه[2].

ووضع عمر بتلك الوصية القواعد والأُسس التي ينبغي لقادة المسلمين أن يسيروا عليها في كل عصر ومصر.

فقرابة الأفراد لا تغني فتيلاً من الله ما لم يكن معها الجد والايمان.

ويهزم الأعداء بمقدار ابتعادهم عن هدى الله.

وينتصر المسلمون بمقدار نصرهم واتباعهم لأمر الله.

فالسيء والقبيح لا يمحوه سيء مثله.

ولكن يمحى بالحسن من الأفعال.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٧ ص ٣٥.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٧ ص ٣٥ والكامل في التاريخ لابن الأثير ص ٤٥١ جـ٢.

وليس بين الناس شريف أو وضيع ولكن الكلّ عباد الله وخلقه وأقربهم إليه ، أقربهم لدينه.

ثم وضع له في النهاية قاعدة القواعد ، وهي اتباع نهج الرسول وخططه في ساحات القتال ، وفي رحاب السلم. وسار سعد بجيشه يحثّ خطاه إلى هناك.

وفي ريف العراق أخذ سعد يعبئ جنوده ويؤمر الأمراء.. حتى وقف على مشارف القادسية ، وعلم رستم بوصول الأسد في براثينه سعد بن أبي وقّاص فزحف إليه بجيشه ومعداته وأفياله وعيونه.

ولما كان قريباً منه ، أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رجلاً نكلّمه ويكلمنا.

إن اختيار رجل لهذه المهمة مهمة السفارة في وقت الحرب لا يقلّ عن الحرب نفسها ، بل في بعض الأحيان يتوقف عليه سير المعركة.

وتلفت سعد حوله يبحث عن هذا الذي يقوم بهذه السفارة.

ولم يكن بعيداً عنه إنه ربعي بن عامر ، أحد رجاله الأبطال.

واعلم رستم بمجيئه فأظهر زينته وجلس على سرير من ذهب وبسط البسط والنمارق.

وأقبل ربعي على فرسه وسيفه في خرقه ، ورمحه مشدود بعصب وقد.

فلما انتهى إلى البسط قيل له : انزل.

فحمل فرسه عليها ونزل ، وربطها بوسادتين شقها وأدخل الحبل فيهما ، فقالوا : ضع سلاحك.

فقال : لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم ، أنتم دعوتموني فاخبروا رسم.

فقال : ائذنوا له[1].

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٢ ص ٤٦٣.

فأقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه، فلم يدع لهم غرقاً ولا بساطاً إلا أفسده وهتكه.

فلما دنا من رستم جلس على الأرض وركز رمحه على البسط.

فقيل له: ما حملك على هذا؟[1].

قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم؟

فقال له الترجمان: ما جاء بكم؟

قال: الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر.

فقال رستم: قد سمعنا قولكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟

قال: نعم، وإن مما سنّ لنا رسول الله ﷺ، ألا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث، فنحن مرتدون عنكم ثلاثاً.

فانظر في أمرك، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل إما الإسلام وندعك وأرضك أو الجزية فنقبل ونكفّ عنك، وإن احتجت إلينا نصرناك أو المنابذة في اليوم الرابع إلا أن تبدأ بنا، وأنا كفيل بذلك عن أصحابي.

قال: أسيدهم أنت؟

قال: لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم[2].

---

(١) ابن الأثير جـ٢ ص ٤٦٣ والبداية والنهاية جـ٧ ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق.

هل رأيتم كلاماً قط أعزّ، وأوضح من كلام هذا الرجل؟
هكذا قال رستم لأتباعه.
مرحى يا بطل القادسية، ما أقدرك على اختيار رجالك.
من علّم أبناء الصحراء هذه الحرب النفسية التي تفت في عضد الأعداء؟
من أدّب أبناء الصحراء بهذا الأدب الجمّ، الأدب مع الله؟
الأدب الذي يجعل ربعي يقول: الله جاء بنا.

لم تكن الغارة على تلك البلاد من أنفسهم، ولم يكن التوغل في أرض الله رغبة عند حكامهم. ولكن الأمر هو أمر الله.

إنهم يدعون إلى دين جديد: دين الإسلام والسلام فليس فيه قهر لأحد لكي يعتنقه.

ولا مذلة لانسان ليدخل في رحابه.
ولكن كما يقول ربعي:
لنخرج من شاء من عباده.
يشاء هو ويريد هو.
لا كما يشاء غيره ويريد.
﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾[1].
﴿لا إكراه في الدين﴾[2].

فهم حرب على هؤلاء الطغاة والجبارين الذين يقفون في وجه أتباعهم ويحولون بينهم وبين اعتناق هذا الدين. فإذا دخل الناس في دين الله:

---

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٥.
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٦.

فلا حرب ولا قتال، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم.

فلما كان من الغد أرسل رستم إلى سعد: أن ابعث إلينا ذلك الرجل. فبعث إليهم حذيفة بن محض، فأقبل في نحو من ذلك، ولم ينزل عن فرسه، ووقف على رستم راكباً.

قال له: انزل.

قال: لا أفعل.

فقال له: ما جاء بك ولم يجئ الأول؟

قال له: إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء وهذه نوبتي.

فقال: ما جاء بكم؟

فأجابه مثلَ الأول.

فقال رستم: أو الموادعة إلى يوم ما؟

قال: نعم، ثلاثاً من أمس، فرده وأقبل على أصحابه.

وقال: ويحكم أما ترون ما أرى؟

جاءنا الأول بالأمس فغلبنا على أرضنا وحقر ما نعظم وأقام فرسه على زبرجنا، وجاء هذا اليوم فوقف علينا وهو في يمن الطائر يقوم على أرضنا دوننا[1].

ألم أقل لكم بأنها لم تكن سفارات بين جيشين.

ولم يكن تفاوضاً في أمر الحرب أو السلام.

ولكنها كانت حرباً حقيقية يرسل سعد كلّ يوم جيشاً في صورة رجل، فيحطّم معنويات هؤلاء القادة ثم يعود من حيث أتى.

وهكذا يجب أن تكون القيادة. يدخر رجاله بعد أن يستولي على قلاع المقاومة

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٢ والبداية والنهاية جـ ٧ ص ٤٠.

في داخل النفس ، وهذا أخطر أنواع القلاع ، فإن استسلمت كان عمل الجيش بعد ذلك تطهير الأرض من هذا التجمع والركام ، وهذا ما فعله سعد.

فلما كان الغد قال رستم ابعثوا إلينا رجلاً. فبعث المغيرة بن شعبة ، فأقبل إليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وسار المغيرة حتى جلس مع رستم على سريره.

فوثبوا عليه وأنزلوه.

فقال : قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم ، إنا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، فكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض : فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد ، وإني لم آتكم ولكن دعوتموني ، اليوم علمت أنكم مغلبون ، وإن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا هذه العقول[1] .

أرأيتم ماذا فعل هذا الجيش الثالث؟

لقد كانت له خطة محكمة ، إذا كانت مهمة السفير الأول ربعي بن عامر. والثاني حذيفة بن محصن :

هي تحطيم المقاومة الداخلية عند هؤلاء وشحنهم نفسانياً بأنهم لا قبل لهم بهؤلاء الرجال فإن مهمة المغيرة ، كانت هي إيجاد شرخ في صفوف هؤلاء الرجال.

إنهم سادة وعبيد.

وقادة ومقودين.

فهم يستعبدون بعضهم البعض ، ويستذلون الضعفاء ولا يعطونهم إلا الفتات ..

إنه يقول لهؤلاء الجنود :

ثوروا على هؤلاء الذين يحرمونكم من حق الحياة.

---

(١) البداية والنهاية جـ٧ ص ٤٠ ، والكامل في التاريخ لابن الأثير جـ٢ ص ٤٦٤.

ثوروا على هؤلاء الذين يستعبدونكم بالباطل.

حطموا هؤلاء الجلّادين.

إن ديننا لا يسمح بهذه الفرقة والتفاضل.

إننا لم نأتِ لمغنم أو طمع في عرض من أعراض الحياة وإنما جئنا لكم أنتم.

لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده.

ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

ومن جور الحكام إلى سماحة الإسلام.

وتحقيق ما أراده المغيرة.

حتى قال بعض الجنود: صدق والله العربي.

وقال الدهاقين: والله لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه.

قاتل الله أولينا حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة[1].

وعاد المغيرة إلى سعد وقال له:

«إنها الحرب».

ووقف الأسد في برائنه سعد بن أبي وقّاص في جنوده وقال:

﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾[2].

وصلى بالناس الظهر ثم كبر أربعاً وحملوا على أعدائهم بعد أن أمرهم أن يقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله[3].

وأوشكت الفيلة أن تعمل عملها في صفوف المسلمين ولكن القيادة المؤمنة أبطلت سطوة هذا السلاح الجديد الذي لم تعرفه العرب من قبل.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٥.

(٣) البداية والنهاية جـ٧ ص٤٣.

ونادى القعقاع في أبناء عمومته ماذا نفعل يا أتباع محمد؟

وكأن الأمر كان معداً.. فلم تمض لحظات حتى خرجت الابل بجللة مبرقعة وعليها فرسان ملثمون يحملون لهباً ومشاعل يحيط بها رجال أقوياء.

ورأت الفيلة هذا الهول المرعب ففرّت هاربة تحطّم صفوف الفرس، وتوجد الخلل بين تشكيلاتهم، وتبعهم فرسان المسلمين.

وفي الجانب الآخر صوت يقود المعركة ويوجه سيرها ويشعل الحمية في قلوب رجالها إنه صوت سعد الذي كان يملأ سماء المعركة دوياً وقوة.

تقدّم يا قعقاع..

إلزم الميمنة يا ابن عامر.

حطم تلك الكراديس يا مغيرة..

يا أصحاب محمد.

يا أهل بدر يا رجال موقعة اليمامة تقدموا فالله معكم وناصركم.

ورفع سعد بن أبي وقّاص أكفّ الضراعة إلى ربه.

يا رب اللهم نصرك الذي وعدت.

اللهم امنحنا أكتافهم، وهبنا النصر من عندك. وتقدّم الرجال، رجال بدر والقادسية يزيلون هذا الركام المتعفّن، ويطهرون الأرض من عبدة النار.

ومن أرجاس الوثنية.

وارتفع صوت يهزّ الكون بكلمة الله أكبر الله أكبر. إنّ هذا الصوت يعرفه سعد.

إنه صوت هلال بن علقمة.

وانداح في أرجاء المعركة ليبشّر أتباع محمد بقتل «رستم» قائد معركة الفرس واعتلى فوق سريره قائلاً:

«قتلت رستم ورب الكعبة»

فتحلقوا حوله ، وكبروا ، وانتهت المعركة ، وتحققت دعوة سعد ونصر الله عباده المؤمنين.

هل استراح عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بعد أن جيش الجيوش لسعد؟

هل أغمض له جفن؟

هل هدأ له بال؟

هل استقرّ له فؤاد؟

إن أوثق المصادر التاريخية تروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يخرج كل يوم إلى خارج المدينة يسأل الركبان والتجار من حين يصبح عن أهل القادسية عن سير المعركة. عن الروح العامة التي تسيطر على المسلمين في تلك المنطقة النائية البعيدة ، والتي جمع أهلها كل ما عرفه العقل البشري في ذلك الوقت من أسلحة وعتاد ويستمرّ عمر في ذلك حتى ينتصف النهار ثم يرجع إلى أهله ومنزله حتى كان يوم والتقى بالبشير وسأله من أين؟

فأخبره البشير عن الوجهة التي أتى منها.

قال عمر: يا عبد الله ، حدثني؟

قال البشير: هزم الله المشركين.

قال ذلك ، وعمر يخبّ خلفه يسأله ، والآخر يسير بناقته مسرعاً إلى دار الإمارة ، حتى دخل المدينة ، وإذا الناس يسلمون على عمر بقولهم «أمير المؤمنين».

قال البشير:

«هلا أخبرتني ، رحمك الله ، أنك أمير المؤمنين».

فقال عمر: لا بأس عليك يا أخي.

رحمك الله يا عمر ، ورضي عنك.

ورحمك الله يا سعد بمقدار ما حققت من فوز ونصر.

وفي موقعة «المدائن» أبلى سعد بلاء عظيماً.

وكانت موقعة المدائن، بعد موقعة القادسية بقرابة عامين جرت خلالها مناوشات مستمرة بين الفرس والمسلمين حتى تجمعت كل فلول الجيش الفارسي وبقاياه في المدائن نفسها متأهبة لموقف أخير وفاصل.

وأدرك سعد أن الوقت يكون بجانب أعدائه، فقرر أن يسلبهم هذه المزية، ولكن أنّى له ذلك، وبينه وبين المدائن نهر دجلة في موسم فيضانه وجيشانه؟

هنا موقف يثبت فيه «سعد» أمره إلى الجيش بعبور دجلة وأمر بالبحث عن مخاضة في النهر تمكن من هذا العبور.

وقبل أن يبدأ الجيش عملية العبور فطن القائد سعد إلى وجوب تأمين مكان الوصول على الضفة الأخرى التي يرابط العدو حولها.

وعندئذ جهز كتيبتين الأولى «كتيبة» الأهوال. وأمر سعد عليها عاصم بن عمرو. والثانية «الكتيبة» الخرساء أمر عليها قعقاع بن عمر. وكان على جنود هاتين الكتيبتين أن يخوضوا الأهوال لكي يفسحوا على الضفة الأخرى مكاناً آمناً للجيش العابر على أثرهم. ولقد أدوا عملهم بمهارة مذهلة، ونجحت خطة سعد يومئذ نجاحاً يذهل له المؤرخون.

وأذهل سعد بن أبي وقّاص نفسه وصاحبه ورفيقه في المعركة سلمان الفارسي الذي أخذ يضرب كفاً بكف ويقول:

ان الاسلام جديد.

ذللت والله لهم البحار كما ذلل لهم البرّ، والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً[1].

يقول ابن كثير في كتابه البداية والنهاية:

«أمر سعد المسلمين أن يقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم اقتحم بفرسه دجلة،

---

(1) ابن الأثير جـ٢ ص ٥١٢.

واقتحم الناس وراءه، لم يتخلّف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملأوا ما بين الجانبين، ولم يعد وجه الماء يرى من أفواج الفرسان والمشاة، وجعل الناس يتحدثون وهم يسيرون على وجه الماء، وكأنهم يتحدثون على وجه الأرض، وذلك بسبب ما شعروا به من الطمأنينة والأمن والوثوق بأمر الله ونصره، ووعده وتأييده[1] ونزل سعد القصر الأبيض، واتخذ ايوان كسرى مصلى ولم يغير ما فيه.

ولما دخل سعد الايوان، قرأ:

﴿كم تركوا من جناتٍ وعيون وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾[2]، وصلى فيه صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينهن[3]. وقسم سعد الغنيمة بين الجنود. وأصاب كل واحد من الفوارس تسعة آلاف، وتسعة من الدواب.

وبعث سعد بالاخماس إلى عمر:

فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره بكى.

فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟

فوالله إن هذا لموطن شكر.

فقال عمر: والله ما ذلك يبكيني، وبالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم[4].

ولقد تحقق والله ما قاله عمر، وما قاله رسول الله ﷺ من قبله.

---

(١) البداية والنهاية جـ٧ ص ٦٦.

(٢) سورة الدخان آية رقم ٢٦.

(٣) ابن الأثير جـ٢ ص ٥١٤.

(٤) ابن الأثير جـ٢ ص ٥٢٢.

فبدأ الحرص على الدنيا يظهر بين بعض الرجال ، والتكالب على مطامعها الفانية يحرك السيوف بين أيديهم لا خارج الحدود هذه المرة ، ولكن داخل الصف المسلم نفسه .

ثم يرسل سعد إلى عمر بن الخطاب وفداً من جنوده يستشيره في فتح تكريت والموصل .

فلما رآهم عمر ، شاهد رقة بطونهم وجفاف أعضادهم وتغيّر ألوانهم .

فكتب إلى سعد : أخبرني ما الذي غيّر ألوان العرب ولحومهم؟

فكتب إليه : ان الذي غيرهم وخومة البلاد ، وإن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان [1] .

فكتب إليه عمر : أن ابعث سامان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر .

وتم اختيار الكوفة وخططها سعد ووضع حجر أساسها وقال وهو يضع الحجر : اللهم اجعلها عصمة للمسلمين من عدوّهم .

فما استطاع عدو خارجي أن يدخل هذه القلعة أو تطأ أقدامه أرض العراق إلا بعد أن هدمت وصارت أثراً بعد عين في عهد عبد الملك بن مروان ، وبلغ عمر بن الخطاب أن سعد بنى قصراً له ، وأن الناس يسمونه قصر سعد .

فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأمره أن يخرق باب القصر ثم يرجع . وكتب إليه :

« بلغني أنك اتخذت قصراً جعلته حصناً ويسمى قصر سعد بينك وبين الناس باب ، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال ، انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه ولا تجعل على بيتك باباً يمنع الناس من الدخول » [2] .

(1) المصدر السابق ص ٥٢٧ جـ ٢ .

(2) المصدر السابق ص ٥٣٠ جـ ٢ .

إن ما فعله سعد وجنوده فوق أرض العراق يشبه الأساطير.

لقد كانوا جنوداً لله ودعاة في سبيله — هذا حق ولكن هذا كله لا يجيز لسعد — في رأي الاسلام ورأي عمر ، أن يتخذ قصراً.

ولم يتخذ كلّ جنديّ من الجنود أمثال هذا القصر. وإذا جاز هذا لحكام الفرس والروم أن يفعلوا ذلك فلا يحق هذا الفعل لأصحاب الرسالات.

ولا يجوز لهم أن يقيموا الأبواب والأسوار بينهم وبين الرعية ، أو يوقفوا الحجاب ، لحجب الناس عنهم . إن يوسف الصديق كان على خزائن مصر وخيراتها ، ولكنه ما ملأ بطنه قط.

وعندما سئل في ذلك ، قال كلمته المشهورة : أخشى أن أشبع فأنسى الجائع .

« انزل يا سعد من هذا القصر واغلقه ولا تجعل على بيتك باباً يمنع الناس من دخوله » .

سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين.

ولكن الشكوى تزداد من سعد ، ويتهمونه في دينه وبأنه لا يحسن الصلاة.

ويبعث عمر إلى الكوفة يسأل عنه.

فجعل الوفد الذي أرسله عمر لا يسألون أهل مسجد إلا أثنوا خيراً حتى مرّوا بمسجد لبني عيسى ، فقال رجل منهم يقال له أبو سعدة أسامة بن قتادة قال :

إن سعداً كان لا يسير في السرية ، ولا يقسم بالسوية ،

ولا يعدل في الرعية القضية[1] .

فبلغ سعداً فقال :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٧٦.

«اللهم إن كان عبدك هذا قام مقام رياء وسمعه فأطل عمره، وأدم فقره، وأعمِ بصره، وعرضه للفتن»[1] وتم عزل سعد.

وكان سعد مستجاب الدعوة.

ويروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يدعو لسعد فقال:

اللهم سدّد سهمه، وأجب دعوته، وحبّبه إلى عبادك[2].

ويروى أن سعداً قال: يا رسول الله ادع الله أن يجيب دعوتي.

فقال: إنه لا يستجيب الله دعوة عبد حتى يطيب مطعمه.

وفي رواية:
أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة[3].

وكان الصحابة جميعاً يعرفون ذلك عن سعد: وأنه إذا رمى عدواً أصابه.. وإذا طلب من ربّه أجابه.

وفي يوم من الأيام خرجت جارية لسعد وعليها قميص جديد فكشفها الريح فشدّ عليها عمر بالدرة.

وجاء سعد ليمنعه فتناوله عمر بالدرة.

فذهب سعد يدعو على عمر، فناوله الدرة وقال «اقتص مني يا سعد».

فعفا عن عمر.

ويقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٦٠٨.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٧٦، والاصابة في تميز الصحابة جـ ٢ ص ٣٢.

ويأتي عثمان ويعرض عليه تولية الكوفة، فيأبى ويقول: ما كنت أتولى أمر قوم يقولون عني بأنني لا أحسن الصلاة.

ويقتل عثمان، وتشتعل الفتنة بين المسلمين

ويعتزلها سعد.

ويتقدم إليه ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص يقول له: يا عم ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر.

فقال: أريد من مائة ألف سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً، وإذا ضربت به الكافر قطع[1].

ويدخل سعد على معاوية فقال له:

ما لك لم تقاتل معنا؟

فقال سعد: إني مرت بي ريح مظلمة فقلت: أخ أخ فأنخت راحلتي حتى انجلت عني ثم عرفت الطريق فسرت[2].

فقال معاوية: ليس في كتاب الله أخ أخ، لكن قال الله تعالى:

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾[3].

فوالله ما كنت مع الباغية على العادلة، ولا مع العادلة على الباغية.

فقال سعد: ما كنت لأقاتل رجلاً قال له رسول الله ﷺ، أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي.

فقال معاوية من سمع هذا معك؟

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ١٤٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٧٧.

(٣) سورة الحجرات آية رقم ٩.

فقال : فلان وفلان وأم سلمة .

وفي رواية ان معاوية قال له : ما يمنعك أن تسب أبا تراب؟

فقال أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ؟ لأن تكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حمر النعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : لعلي وخلفه في بعض مغازيه .

«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» .

وسمعته يقول يوم خيبر : لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله .

قال : فتطاولت لها .

قال ادعوا لي عليّاً فأتى به أرمد فبصق في عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه[1] .

ولما نزلت هذه الآية :

﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾[2] .

دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ثم قال : «اللهم هؤلاء أهلي»[3] .

فقال معاوية : أما اني لو سمعته منه ﷺ لما قاتلت علياً .

وفي رواية ثالثة ان هذا كان بينهما في المدينة فى حجة حجها معاوية وانهما قاما إلى أم سلمة فسألاها فحدثتهما بما حدث به سعد[4] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٣٨٦ .

(٢) آل عمران آية رقم ٦١ .

(٣) يراجع تفسير ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ﴾ .

(٤) البداية والنهاية جـ٨ ص ٧٧ .

فقال معاوية : لو سمعت هذا قبل اليوم لكنت خادماً لعلي حتى يموت أو أموت.

رحم الله الجميع رحمة واسعة.

ويبلغ الكتاب أجله ، ويفارق سعد هذه الدنيا إلى أصحابه ، وأحبابه في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

عن عائشة رضي الله عنها أنه لما توفي سعد بن أبي وقاص. أرسل أزواج النبي ﷺ أن يمرّوا بجنازته في المسجد ففعلوا ، فوقف به على حجرهن فصلّين عليه ، وخرج به من باب الجنائز الذي كان إلى المقابر.

فبلغهن أن الناس عابوا ذلك.

وقالوا : ما كانت الجنائز يدخل بها المسجد ، فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها.

فقالت : ما أسرع الناس أن يعيبوا ما لا علم لهم به ، عابوا علينا أن نمرّ بجنازة في المسجد وما صلى رسول الله ﷺ على سهيل بن بيضاء إلا في جوف المسجد[1].

وكان ذلك كما ذكر الواقدي سنة خمس وخمسين وهو ابن بضع وسبعين سنة[2].

يا سعد هنيئاً لك جنة ربك.

وهنيئاً لك قربك من حبيبك رسول الله ﷺ.

(١) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ١٤٨.

(٢) الاصابة جـ٢ ص ٣٢ والبداية والنهاية جـ ٨ ص ٧٨ والاستيعاب جـ ٢ ص ٦١.

أسباب نزول الآيات

قال المفسرون[1] نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وذاك أنه لما أسلم قالت له أمه حمنة : يا سعد بلغني أنك صبوت ، فوالله لا يظلني سقف بيت من الضحّ[2] والريح ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد وترجع إلى ما كنت عليه وكان أحب ولدها إياها فأبى سعد.

وصبرت هي ثلاثة أيام لم تأكل ولم تشرب ، ولم تستظل بظل حتى خشي عليها ، فأتى سعد النبي ﷺ وشكا ذلك اليه فأنزل الله تعالى :
﴿ ووصينا الانسان بوالديه حسناً ﴾[3] .

﴿ ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير ﴾[4] .

﴿ ووصينا الانسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ اربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك واني من المسلمين ﴾[5] .

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٨٥ والقرطبي جـ ١٣ ص ٣٢ وابن كثير جـ ٣ ص ٤٠٥ .

(٢) الضح : الشمس .

(٣) سورة العنكبوت آية رقم ٨ .

(٤) سورة لقمان آية ١٤ .

(٥) سورة الاحقاف آية ١٥ .

وقال مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه قال :

نزلت هذه الآية فيّ[1] .

قال : حلفت أم سعد لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب ، ومكثت ثلاثة أيام حتى غشي عليها من الجهد ، فأنزل الله تعالى :

قال : ﴿ ووصينا الانسان بوالديه حسنا ﴾.

وقال سعد بن أبي وقاص أيضاً أنزلت في هذه الآية :

﴿ وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾[2] .

قال : كنت رجلاً براً بأمي ، فلما أسلمت قالت : يا سعد لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي.

فيقال : يا قاتل أمه.

قلت : لا تفعلي يا أماه ، فإني لا أدع ديني لهذا الشيء.

قال : فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ، فأصبحت قد جهدت.

قال : فلما رأيت ذلك.

قلت : تعلمين والله يا أماه ، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت ديني هذا لشيء ، إن شئت فكلي ، وان شئت فلا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكلت فنزلت هذه الآية ﴿ وإن جاهداك ﴾ الآية[3] .

---

(١) راجع صحيح الترمذي ص ٦٤ — ٦٥ جـ ١٢.

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٨.

(٣) راجع الدر المنثور جـ ٥ ص ١٦٥ وتفسير الطبري جـ ١٣ ص ٣٢٨ والقصة موجودة أيضاً في تفسير البغوي والخازن جـ ٥ ص ١٥٦.

تذييل ...

عمر بن الخطاب الذي تقف سيرته على جبهة التاريخ ساطعة مضيئة.

عمر الذي جعل التاريخ لا يعرف في فترة من فتراته الا هذه المنطقة من العالم فجلس فيها يدون ويسجّل أعمال هؤلاء الرجال الذين تربوا في مدرسة القرآن. وسعد ابن أبي وقاص. الذي بهرت عبقريته الحربية الكثير ممن يرصدون المعارك والحروب، ولا زالت خطته التي وضعها للوثوب على المدائن، خطة عبور نهر دجلة نبعاً ثرياً للدراسات الأكاديمية والشؤون الحربية من عمر هذا بغير الدعوة الاسلامية؟

من عمر قبل أن يجلس على مائدة القرآن؟

إنه صاحب خمر لا يفيق. وراعي إبل الخطاب في سفوح مكة.

ومن سعد بن أبي وقاص قبل أن يدخل نور الاسلام قلبه؟ ومن هو قبل أن يتعرف على هذا النور الجديد؟ إنه الرجل الذي يقبع طول يومه في حانوته، يبري النبال ويريش السهام... ولا شيء غير ذلك. إذن الاسلام والقرآن هو الذي فعل فيهم ذلك نقلهم من رعاة إبل جفاة غلاظ يشعلون الحرب لأوهى الاسباب الى هداة ودعاة.. هداة إلى الحق. ودعاة إلى الله الواحد الاحد.

إن القرآن الذي صنع هؤلاء الرجال لا زال بين ايدينا، ولكن ليست العبرة بوجوده ولكن العبرة بتلقيه وتطبيقه.. لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كل المعارك التي خاضها المسلمون في عهده، صاحب غرفة العمليات الحربية الأولى، إن جاز لنا هذا التعبير. فلم يكن عمر بعيداً عن معارك المسلمين فهو الموجه للقادة، ويجلس في المدينة ليكون ردءاً لهم. يشاركهم معاركهم بالكلمة. ويشد

أزرهم بالمشورة ويمدهم بالجنود والعتاد. وفي معركة القادسية يطلب من سعد أن يصف له كل شيء وأن يحيطه بظروف المسلمين على تلك الأرض ويلح عليه أن يخبره بأحواله كلها. حتى كأنه حاضر معهم مشاهد. ليس هذا فقط.. ولكن صاحب غرفة العمليات الحربية يخرج كل يوم إلى مشارف المدينة، يترقب وصول رجل البريد، ولا يطمئن قلبه حتى يصل اليه في دار الامارة، وعندما يراه يخف له، ويخب بقدميه خلفه، يريد أن يسمع منه آخر الأخبار ويرى المسلمون عجباً. عامل البريد فوق دابته يسرع إلى دار الامارة، وخلفه أمير المؤمنين يريد أن يلحق به.

لقد كره عمر أن يوقف جندياً من جنود المسلمين على قارعة الطريق ليسمع منه وبذلك يحول بينه وبين وجهته، حتى ولو كانت وجهته مقر الخلافة، وطلبته أمير المؤمنين نفسه. ويقول عامل البريد: هلا أخبرتني بأنك الأمير؟ هكذا بعزة نفس وبكرامة المؤمن. ويجيبه عمر بتواضع القادرين، وبسماحة العارفين «لا بأس عليك يا أخي يغفر الله لك».

ويكثر أهل الكوفة من الشكوى عند عمر ضد سعد بن أبي وقاص، ويسأل عمر عمرو بن معديكرب عن سيرة سعد فيهم فيقول الرجل:

«متواضع في خبائه، عربي في نمرته، أسد في تاموره، يعدل في القضية ويقسم بالسوية، ويبعد في السرية يعطف علينا الام البرة، وينقل الينا حقنا نقل الذرة[1]».

ما أروعك يا سعد.. وما أحق المدرسة التي خرجتك بالتقدير والخلود؟؟ إنه متواضع لا يعرف الكبر. أسد في عرينه يحمي الديار، عادل لا يعرف الجور، مقدام يقود إلى النصر، رحيم عطوف يأنف أن يكون فظاً غليظاً يجمع لهم رزقهم ويسوي بينهم في قسمته. ومع هذا قرر عمر عزل سعد.

ويقول والله لم أعزله عن عجز أو خيانة وإنما خوف الفتنة. لأن جيوش الفرس في ذلك الوقت كانت تتجمع للغزو والثأر، وكان المسلمون يحشدون جيوشهم في

(١) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٩٢ والذرة أصغر النمل جمعها ذر.

منطقة نهاوند، لصد الخطر الفارسي، فليس من المصلحة اذكاء فتنة في الكوفة لا تعرف نتائجها، والكوفة يومها كانت القاعدة الأمامية الكبرى للجيوش الاسلامية في المشرق. ولعل عمر سره أن يكون سعد إلى جانبه في المدينة يستشيره في أمر المسلمين. وتم عزل سعد وتعيين خلف له عمار بن ياسر الحابي الجليل، الطيب المطيب، الذي مليء إيماناً إلى أخمص قدميه كما قال عنه رسول الله ﷺ ولكن أهل الكوفة لم يرضهم عمار، ولم يوافق هواهم كما لم يوافق هواهم سعد من قبل.

واتهموه عند عمر بالضعف، وانه لا علم له بالسياسة فاستجاب لهم عمر للمرة الثانية وتم عزل عمار وهو يقول: من عذيري من أهل الكوفة. إن استعملت عليهم القوي فجروه، وإن وليت عليهم الضعيف حقروه[1] وفي الفتنة التي اشتعل أوارها بين المسلمين بعد مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه. يتقدم سعد فيبايع علياً كرم الله وجهه بالخلافة. ويتقدم إلى معاوية ومن كان على رأيه بالنصيحة والمشورة ويطالبهم بمبايعة علي.

ولكنهم لم يستمعوا لرأيه، ولم يستجيبوا لنصحه، فاعتزل ولزم بيته، وكانت أمنيته أن تتحقق وحدة الكلمة، ويتجمع الصف ويسير المسلمون جميعاً خلف رجل كانت منزلته من الرسول ﷺ منزلة هارون من موسى. ولكن لم يتحقق ما أراد. فاعتزل الفتنة وعندما ألح أحد أبنائه أن يشارك في أمور المسلمين قال له: لا أفعل إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«انه تكون فتنة، خير الناس فيها الخفي التقي، والله لا أشهد هذا الأمر أبداً»[2].

وعندما استشاره ابن أخيه هاشم قائلاً له: أين الحق يا عماه، في هذه الظلمة الداجية؟ وترى مع من سيكون سيفي؟..

---

(١) البلاذري ص ٢٧٨، وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٨٨.

(٢) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٧٤.

قال له : يا ابن أخي ، ان علياً أحق الناس بهذا الأمر ، ولكنها الفتنة التي حذرنا رسول الله منها والرأي أن تلزم بيتك وتعبد ربك ، فان كان ولا بد فقاتل تحت راية من قال عنه رسول الله ﷺ :

« إن علياً مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي »[1] واستجاب هاشم لأمر عمه.

وكان صاحب لواء الإمام علي رضي الله عنه ، في موقعة صفين. لقد كان سعد ابن أبي وقاص راجح العقل ، بعيد النظر متين الخلق ، عف اليد واللسان ، باراً بأهله ، وفياً لأصحابه ، أحب قريش للناس ، بل أحب الناس للناس وأرفقهم بهم ، وكان يتوقى الشبهات ورعاً ، ويقتفي آثار النبي ﷺ ، فيعمل بعمله.

قال له ابنه : « يا أبت أراك تصنع بهذا الحي من الأنصار شيئاً ما تصنعه بغيرهم ».

فقال : أي بني هل تجد في نفسك شيئاً من ذلك؟

قال : لا ، ولكن أعجب من صنيعك.

قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لا يحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق »[2].

(١) الطبري جـ ٤ ص ٤٩.

(٢) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٩٣.

كعب بن مالك

رضي الله عنه

ما نزل فيهم من الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ
وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[سورة التوبة الآية (١١٨)]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت في كعب بن مالك ، ومرارة بن ربيعه العامري وهلال بنْ أمية الواقفي وكلهم من الأنصار.

ذكر ذلك الإمام القرطبي جـ ٨ ص ٢٨٢.

وذكر ذلك الإمام الطبري جـ ١٤ ص ٤٦٦.

وذكر ذلك الإمام ابن كثير جـ ٢ ص ٣٨٧.

وذكر ذلك الإمام البخاري ومسلم في كتاب التوبة

وذكر ذلك تفسير البغوي والخازن جـ ٣ ص ١٢٠.

وذكر ذلك الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي. في كتابه أسباب نزول القرآن.

فمن كعب بن مالك هذا؟.

كعب بن مالك

رضي الله عنه

كعب بن مالك بن عمرو الأنصاري الخزرجي ، يكنى أبا عبد الله ، وقيل : أبو عبد الرحمن ، كان شاعراً في الجاهلية . والده : مالك بن أبي كعب بن القين. له في حروب الأوس والخزرج التي كانت بينهما قبل الإسلام مواقف وذكر . وعمه قيس ابن أبي كعب ممن شهد بدراً وهو شاعر أيضاً . وأمه ليلى بنت زيد بن ثعلبة من بني سلمة .

شهد كعب بيعة العقبة الثانية(١) . وكان مع الرسول ﷺ في كل غزواته ما عدا غزوة بدر وتبوك. ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بينه وبين طلحة بن عبيد الله. قال الشعر في الجاهلية وعرف به . ولما أسلم كان يدافع عن المسلمين بلسانه وسيفه . قال محمد بن سيرين : كان شعراء المسلمين : حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك. فكان كعب يخوفهم الحرب ، وعبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، وكان حسان يقبل على الأنساب(٢) .

وقال ابن سيرين أيضاً : فبلغني أن « دوساً » إنما أسلمت فرقاً من قول كعب بن مالك :

قضينا من تهامة كل وتر ... وخيبر ثم أجمعنا السيوفا

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٩ ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٣٢٤ .

نسائلها ولو نطقت لقالت قواطعهن «دَوْساً» أو ثقيفا[1]

فقالت دوس : انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف.

ويقال : إن أشجع بيت وصف به رجل قومه قول كعب بن مالك :

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا يوماً ونلحقها إذا لم تلحق[2]

وينزل قول الله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾[3] . فيهتم كعب بن مالك ويتجه إلى الرسول ﷺ . وفي نيته أن يمتنع عن قول الشعر . ويقول : يا رسول الله ، إنني أبغي أن أقلع عن قول الشعر . ويقول له الرسول ﷺ :

«المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه»[4] .

ويُروى عن ابن هشام قوله : «لما قال كعب بن مالك :

جاءت سخينة كي تغالب ربها فليغلبن مُغالب الغلاب

قال رسول الله ﷺ : «لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا»[5] .

وعن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل بما تقولون لهم من الشعر»[6] .

ولما انهزم المشركون يوم الأحزاب قال رسول الله ﷺ :

«إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ، ولكنكم تغزونهم وتسمعون منهم أذى ، ويهجونكم . فمن يحمي أعراض المسلمين..؟

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) كتاب الأغاني ، ترجمة كعب بن مالك.

(٣) سورة الشعراء آية رقم ٢٢٤ .

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ١٣٢٥ .

(٥) المرجع السابق ص ١٣٢٥.

(٦) كتاب الأغاني ترجمة كعب بن مالك ، وكتاب الاستيعاب جـ ٣.

فقام عبد الله بن رواحه فقال : أنا. فقال : «إنك لحسن الشعر» ثم قال كعب : فقال : أنا. فقال النبي : وإنك لحسن الشعر»[1].

قال ابن سيرين : وقف رسول الله ﷺ بباب كعب بن مالك فخرج فقال له رسول الله ﷺ :

أنشد ، فأنشده. ثم قال : إيه ، فأنشده ، ثم قال : إيه ، فأنشده ثلاث مرات ، فقال رسول الله ﷺ : «لَهَذا أشد عليهم من وقع النبل»[2].

وفي غزوة أحد لبس كعب لأمة النبي ﷺ وكانت صفراء ، ولبس النبي ﷺ لأمته. فجرح كعب أحد عشر جرحاً[3]. وعندما وقعت الهزيمة بالمسلمين في غزوة أحد ، وأخذ شعراء المشركين يفتخرون بذلك. قال :

وفينا رسول الله نتبع أمره ... إذا قال فينا القول لا نتظلع[4]
تدلى عليه الروح[5] من عند ربه ... يُنزَّل من جو السماء ويُرفع
نشاوره فيما نريد وقصرنا[6] ... إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع
وقال رسول الله لما بدوا لنا ... ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا
وكونوا كمن يشري الحياة تقرباً ... إلى ملك يُحيا لديه ويرجع
ولكن خذوا أسيافكم وتوكلوا ... على الله إن الأمر لله أجمع[7]

ويقول أيضاً :

---

(١) المصدر السابق.
(٢) ترجمة كعب بن مالك كتاب الأغاني جـ ١٥ ص ٢٩.
(٣) سيرة ابن هشام.
(٤) لا نميل عنه ولا نعدل عما قاله.
(٥) الروح هو جبريل مأخوذ من قوله : نزل به الروح الأمين.
(٦) قصرنا : غايتنا يقال قصرك. وقصاراك وقصارى أمرك.
(٧) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٩١.

فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى[1] وليس لأمرٍ حمَّه الله مدفع
ضربناهم حتى تركنا سراتهم كأنهم بالقاع خشب مُصرَّع[2]
ونحن أناس لا نرى القتل سبة على كل من يحمي الذمار ويمنع[3]
جلادٌ على ريب الحوادث لا نرى على هالك عينا لنا الدهر تدمع[4]
بنو الحرب لا نعيا بشيء نقوله ولا نحن مما جرّت الحرب نجزع
بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحش ولا نحن من أظفارها نتوجع[5]

وفي حصار المسلمين لحصن خيبر، خرج مرحب اليهودي من حصنهم، وقد جمع سلاحه يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أني مَرْحب شاكي السلاح بطل مجرب[6]
أطعن أحياناً وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تُحرّبُ[7]
إن حماي للحمى لا يقرب يحجم عن صولتي المجرب

وهو يقول من يبارز..؟ فخرج إليه كعب وهو يقول:

قد علمت خيبر أني كعب مفرج الغمى جريء صُلْب
إذا شبت الحرب تلتها الحرب معي حسام كالعقيق عضب[8]
تطؤكم حتى يذل الصعب نعطي الجزاء أو يفي النهب[9]

---

(١) رحى الحرب، حمه الله: قدره.
(٢) سراتهم: خيارهم، والقاع: المنخفض من الأرض.
(٣) الذمار: ما يجب الرجل أن يحميه.
(٤) جلاد: جمع جليد وهو الصبور.
(٥) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٩٤.
(٦) شاكي السلاح يريد أن سلاحه حاد ماض، وأصل شاك: شائك.
(٧) تحرب: تغضب.
(٨) شبت: أوقدت وهيجت، والعقيق: شعاع البرق، شبه به السيف.
(٩) أراد بالجزاء هنا الجزي، وهو جمع جزية، والنهب: ما انتهب من الأموال.

وكان كعب : عثمانياً ، وله في عثمان وتحريض الأنصار على نصرته قبل قتله مرات ، وتأنيب لهم على خذلانه بعد ذلك منه :

فلو حلتم من دونه لم يزل لكم مدى الدهر عز لا يبوح ولا يسري
ولم تقعدوا والدار كاب دخانها يحرق فيها بالسعير وبالحجر
فلم أر يوماً كان أكثر ضيعة وأقرب منه للغواية والنكر[١]

ولما بويع علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، بلغه عن حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، والنعمان بن بشير ، وكانوا عثمانية ، أنهم يقدمون بني أمية على بني هاشم ويقولون : «الشام خير من المدينة ، واتصل بهم فدخلوا عليه.

فقال له كعب بن مالك : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن عثمان ، أقتل ظلماً فنقول بقولك .. ؟. أو قتل مظلوماً فنقول بقولنا .. ؟ أم نكلك إلى الشبهة فيه .. ؟ فالعجب من يقيننا وشكك ، وقد زعمت العرب أن عندك علم ما اختلفنا فيه ، فهاته ، نعرفه . ثم قال :

وكف يديه ثم أغلق بابه وأيقن أن الله ليس بغافل
وقال لمن في داره لا تقاتلوا عفا الله عن كل امرئ لم يقاتل
فكيف رأيت الله صبّ عليهم العداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر عنهم وولى كإدبار النعام الجوافل[٢]

فقال لهم علي رضي الله عنه : لكم عندي ثلاثة أشياء : استأثر عثمان فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ، وعند الله ما تختلفون فيه إلى يوم القيامة . فقالوا : لا ترضى ذلك العرب ، ولا تعذرنا به . فقال علي : أتردون علي بين ظهراني المسلمين

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد.

(٢) المصدر السابق.

بلا بينة صادقة ولا حجة واضحة..؟ اخرجوا عني فلا تجاوروني في بلد أنا فيه أبداً[1].

وتوفي في زمن معاوية سنة خمسين، وقيل: سنة ثلاث وخمسين، وهو ابن سبع وسبعين، وكان قد عمي وذهب بصره في آخر عمره[2]، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٣٢٤.

أسباب نزول الآيات

قد خرج الإمام البخاري ومسلم[1] حديثهم فقال الإمام مسلم عن كعب بن مالك : قال : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني تخلفت في غزة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنه ؛ إنّما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم و بين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها . وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلّا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ، واستقبل عدواً كثيراً ، فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد .

فتجهز إليها رسول الله ﷺ وطفقت أعدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً ، وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارض الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتني فعلت . . ! ! ثم لم يقدَّر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج الرسول ﷺ يحزنني أني لا

---

(١) راجع صحيح مسلم كتاب التوبة ، رواه الإمام البخاري ولكن اللفظ لمسلم ، ورواه الإمام القرطبي جـ ٢ ص ٢٨٢ . ورواه الإمام الطبري في تفسيره جـ ١١ ص ٥٨ بسنده عن ابن شهاب .

أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً[1] عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك..؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه والنظر في عطفيه[2]». فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلّا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غداً..؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه، وأصبح الرسول ﷺ قادماً، وكان إذا قدِم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم. ووكل سرائرهم إلى الله حتى جئت. فلما سلمت تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه. فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟». قال: قلتُ: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً[3]. ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه[4] إني لأرجو فيه عقبى الله، والله ما كان لي عذر. والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أي مطعوناً عليه في دينه متهماً بالنفاق.

(٢) كناية عن كونه معجباً بنفسه ذا زهو وتكبر.

(٣) أي فصاحة وقوة كلام.

(٤) تجد: تغضب.

«أما هذا ، فقد صدق . فقم حتى يقضي الله فيك»[1] فقمت وثار [2] رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي :

والله ما علمناك أذنبتَ ذنباً قبل هذا . لقد عجزت في ألا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبكَ استغفار رسول الله ﷺ .

قال : فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي. قال : ثم قلت لهم هل لقي هذا معي من أحد..؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . قال : قلت من هما..؟ قالوا : مُرارة بن ربيعة العامري ، وهلال بن أمية الواقفي[3] . قال : فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة . قال : فمضيت حين ذكروهما لي . قال : ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة ، من بين من تخلف عنه .

قال : فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان . وأما أنا فكنت أشَب القوم وأجلدهم [4] ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه برد السلام أم لا..؟

ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظرَ إليَّ وإذا التفتّ نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة الناس ؛ مشيت حتى تسوّرت

---

(١) رواه الامام البخاري ومسلم في باب المغازي.

(٢) أي وثبوا علي.

(٣) سنترجم لهذين الرجلين منفصلين بمشيئة الله.

(٤) أقواهم على التحمل.

جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليَّ فسلمت عليه، فوالله ما ردّ عليَّ السلام. فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمن أني أحب الله ورسوله..؟ قال: فسكت. فعدت فناشدته فسكت. فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار.

فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: «من يدل على كعب بن مالك..؟

قال: فطفق الناس يشيرون إليَّ حتى جاءني فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه: «أما بعد: فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك. قال فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء فتيامت بها التنور فسجرته[1] بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذا[2] رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: «إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك.. قال فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل..؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربها. قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. قال فقلت: لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: «يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم. فهل تكره أن أخدمه..؟

قال: «لا ولكن لا يقربنك». فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ، إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب..؟ قال: فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا

---

(١) أي أوقدته بالصحيفة.

(٢) قال الواقدي: هذا الرسول هو خزيمة بن ثابت

خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا . قال : ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع[1] يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر.

قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج .

قال : فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشّروننا ، فذهب قِبل صاحبي مبشرون ، وركض رجل إليَّ فرساً وسعى ساعٍ من أسلم قبلي فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت أتأم رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجاً فوجاً ، يهنئونني بالتوبة ويقولون : لتهنك توبة الله عليك . حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس . فقام طلحة بن عبيد الله[2] يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة . قال : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور يقول : «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك» .

قال : فقلت أمن عند الله يا رسول الله أم من عندك ..؟

قال : «لا بل من عند الله» .

قال كعب : والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ .

---

(١) أي أشرف على جبل سلع، قال الواقدي: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) يسمى طلحة الفياض ، وآخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين كعب ولم يشهد بدراً وأجرى له رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، سهمه وأجره.

وأخذ كعب: يرتل في خشوع ودموعه تغمر خديه قول الله تعالى:

﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾[٢].

(١) سورة التوبة آية رقم ١١٨.

تذييل...

غزوة تبوك من الغزوات التي كانت لها ظروف خاصة، وكان للمنافقين فيها دور كبير، وتخلف بعض الرجال المؤمنين المخلصين لدينهم، لأن النفس البشرية توّاقة إلى الراحة. والشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم في العروق.

وعاد الرسول ﷺ والتقى بهؤلاء الرجال ولم يجد لهم عذراً في التخلف.

وكان لا بدّ من العقاب، ولا بدّ من تربية هذا الجيل تربية تناسب المهمة الجليلة التي ألقيت على أعناق هؤلاء الرجال.

إنهم الأمة الوسط التي لها حق الشهادة على الناس، وهم أيضاً خير أمة أخرجت للناس.

لماذا..؟

للمهمة الكبيرة — وهي حمل كتاب الله — وإرشاد البشرية، ونشر دين الله والدعوة إليه. وليست هذه بالمهمة السهلة، ولكنها مهمة تنوء بها جهود الرجال.

وكان في هذه الحادثة خير كثير. لقد وجد للأمة الإسلامية، وللمجتمع الإسلامي داخل المدينة رأي عام، هذا الرأي يجب أن يلتزم به الجميع. وانفضَّ عن المتخلِّفين، الأهل والأحباب، الأبناء والأقارب، البنات والزوجات وأحسَّ هؤلاء

أنّهم طبقة منبوذة من هذا المجتمع .. ليسوا منهم ولم يشذّ عن هذه القاعدة أحد.. حتى إذا أدت التربية الإسلامية دورها وصهروا في دور التجربة أنزل الله توبته عليهم. واطمأنت القلوب المؤمنة بعفو الله وسماحة رسول الله ﷺ.

* * *

ثبتٌ بالمراجع

١. **القرآن الكريم**.

٢. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الشعب — مصر.

٣. **أسباب نزول القرآن للواحدي**: تحقيق الاستاذ أحمد صقر.

٤. **تفسير القرآن العظيم**: للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير، دار الأندلس — بيروت.

٥. **تفسير الطبري**: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعارف — مصر.

٦. **الجامع لأحكام القرآن**: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م.

٧. **الدر المنثور**: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المكتبة الاسلامية — طهران.

٨. **في ظلال القرآن**: سيد قطب، دار احياء التراث العربي: بيروت ١٣٨٦ هـ.

٩. **تفسير الجلالين**: جلال الدين السيوطي وزميله.

١٠. **فتح الباري بشرح البخاري**: للحافظ أبي الفضل العسقلاني: المعروف بابن حجر.

١١. **صحيح الإمام مسلم**، بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩ م.

١٢. **مسند الإمام أحمد**: شرح أحمد محمد شاكر: دار المعارف بمصر ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م.

١٣. **صحيح الترمذي**، بشرح ابن العربي: المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م.

١٤. **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**: أ. ي. ونسنك، تعريب محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة بريل في مدينة لندن ١٩٦٢ م.

١٥. **الجامع الصغير**: للإمام السيوطي، مطبعة البابي الحلبي — القاهرة.

١٦ . **كشف الخفا ومزيل الالباس** : اسماعيل بن محمد العجلوني ، مكتبة التراث الاسلامي — حلب .
١٧ . **تهذيب التهذيب** : لابن حجر العسقلاني ، دار صادر — بيروت .
١٨ . **الكامل في التاريخ** : لابن الأثير ، دار صادر — بيروت ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م .
١٩ . **تاريخ الرسل والملوك** : لأبي جعفر محمد الطبري ، دار القلم الحديث — بيروت .
٢٠ . **البداية والنهاية** : الحافظ ابن كثير ، مكتبة بيروت — ومكتبة النصر — الرياض .
٢١ . **الطبقات الكبرى** : ابن سعد ، صيدا — دار بيروت ١٣٧٧ .
٢٢ . **سيرة النبي لابن هشام** : تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية — القاهرة .
٢٣ . **الروض الأنف** : عبد الرحمن السهيلي ، دار الكتب الحديثة — القاهرة .
٢٤ . **مروج الذهب** : للمسعودي ، دار الأندلس — بيروت — مكتبة نهضة مصر .
٢٥ . **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** : لابن عبد البر ، دار الاندلس — بيروت — مكتبة نهضة مصر .
٢٦ . **أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر** : علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ، دار الفكر بيروت — الطبعة الثالثة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٣ م .
٢٧ . **خلفاء الرسول** : خالد محمد خالد ، دار الكتاب العربي — بيروت . — لبنان الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .
٢٨ . **العبقريات** : لعباس محمود العقاد .
٢٩ . **علي بن أبي طالب** : بقية النبوة — وخاتم الخلافة ، للاستاذ عبد الكريم الخطيب ، دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت .
٣٠ . **هذا هو الطريق** : د . عبد الرحمن عميره ، دار التراث مصر — ١٩٧٣ .
٣١ . **مع الالحاد وجهاً لوجه** : د . عبد الرحمن عميره ، دار الحلبي — القاهرة .
٣٢ . **أشهر مشاهير الاسلام** : رفيق العظم .
٣٣ . **الاعلام** : للزركلي .
٣٤ . **الأغاني** : للأصفهاني .
٣٥ . **تاريخ الخلفاء** : للامام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي : مصر — ١٣٠٥ .

٣٦. **تفسير الخازن والبغوي** : المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل والبغوي المسمى معالم التنزيل ، دار الفكر — بيروت — لبنان.
٣٧. **تلبيس ابليس** : لابن الجوزي ، مصر — ١٣٤٧ هـ.
٣٨. **الرياض النضرة في مناقب العشرة** : للمحب الطبري.. مصر.
٣٩. **سنن الترمذي** : حققه وصححه عبد الرحمن عثمان ، الناشر محمد عبد المحسن الكتبي ، صاحب المكتبة السلفية : المدينة المنورة.
٤٠. **سنن الحافظ ابي عبد الله محمد بن يزيد القزويني «ابن ماجه»** ، حققه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م — دار احياء التراث العربي.
٤١. **تراث الانسانية** : مجموعة من العلماء ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة.

فهرس الموضوعات

رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآناً

الجزء الثانى

د. عبدالرحمن عميره

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمد الله سبحانه وتعالى حمد العارفين، ونصلي ونسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. يطيب لنا أن نقدم للأمة العربيه بعامة والأمة الاسلامية بخاصة الجزء الثاني من كتابنا «رجال أنزل الله فيهم قرآناً» ولقد قلنا في مقدمة الجزء الأول ما نعتقد أنه وضح فكرتنا في إصدار هذه الكتاب بهذه الصورة، وكل ما نريد أن نضيفه في هذه المقدمة أن نلفت نظر القارىء الكريم إلى أن بعض الشخصيات التي يحويها هذا الجزء كان لها دور ودوي في سمع الزمان وعمل خلاق ومبدع في رفع كلمة التوحيد عالية خفاقة في أرجاء المعمورة.

فعبادة بن الصامت مثلاً: دوره لا ينكر في فتح مصر، ولقد استطاع بقوة إيمانه وثبات جنانه أن يقوم بدور الحرب النفسية التي شنها على قادة الجيش الروماني في بداية المعركة حتى فرق جمعهم، وشتت وحدتهم عندما قال لقائدهم:

جئتكم بعشرة آلاف مقاتل، الموت لهم أحب من الحياة، وما منهم من فرد إلّا ويطلب الشهادة، ويسعى جاهداً لنيلها ومن هنا كان النصر المؤزر والفتح المبين لمصر المعمورة. والتي عن طريقها جيشت الجيوش لرفع راية التوحيد بين الأحراج والأسقاع في جنوب افريقية المؤمنة. وامتدت هذه الجيوش حتى وصلت إلى قاعدة بنزرت في الشمال الغربي من تونس، وانطلقت الجيوش الجرارة لتفتح بلاد الأندلس لتنطلق من مآذنها كلمة الله أكبر.

ومنهم : العباس بن عبد المطلب الذي ساهم مساهمة فعالة في مساعدة الضعفاء الذين أعلنوا إسلامهم أمام صناديد قريش ففك قيودهم ، وأعان معسرهم حتى تكونت منهم القوة الضاربة بقيادة الصحابي أبي جندل ، قائد الفدائية الأولى في تاريخ الاسلام ومنهم : أبو عبيدة بن الجراح الذي استطاع بسيفه أن يجندل اباه في المعركة ، وبذلك فتح الطريق للكتائب الإسلامية أن تتوغل في صفوف المشركين ويكون لهم النصر المؤزر والفتح المبين.

لقد تغلبت رابطة الدين على آصرة القربى وكأنه عندما نزل بسيفه على رأس أبيه كان يحطم بذلك كل صنوف الشرك والبهتان والطغيان.

ومنهم : حمزة بن عبد المطلب. عم الرسول صلى الله عليه وسلم عملاق المعارك وأسد الله في عرينه ، والذي جندل بسيفه في غزوة بدر عبدة الأصنام وسدنة الطغيان وملوك الرجس والفجور.

وغير ذلك كثير : إنّنا لا نعيد التاريخ القديم ولا نعيش على مجد مضى وذهب ، ولكننا والحق يقال ، نريد أن نعيد إلى الاسلام مجده ، ونجعل الحاكمية في مجتمعاته لكتاب الله وحده ، ولدينا أمل كبير أن القاعدة الاسلامية العريضة ستتجمع عما قريب لتنادي بتطبيق شرع الله وتدوس بأقدامها العملاقة هؤلاء الأقزام الذين يعطلون مسيرة النور ويقفون حجر عثرة أمام إقامة حدود الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ، والعاقبة للمتقين.

د. عبد الرحمن عميره

عُبَادة بن الصَامت

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ
أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا
فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ
الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) ﴾

صدق الله العظيم

[سورة المائدة آية ٥١ : ٥٣]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض علماء التفسير ورجال السير والتاريخ :
نزلت هذه الآيات في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي بن سلول
قال ذلك صاحب الدر المنثور جـ ٢ ص ٢٩١ .
وقاله أيضاً الإمام الطبري في تفسيره جـ ١ ص ٣٩٥ .
وقاله صاحب السيرة النبوية لابن هشام .
وقاله صاحب كتاب أسباب نزول القرآن الإمام الواحدي ص ١٩١ .

فمن عبادة بن الصامت هذا . ؟

عُبادة بن الصَامت

رضي الله عنه

رجل يعد في الرجال بألف رجل.

هكذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما أرسله مدداً لعمرو في فتح مصر وكان طويلاً فارع الطول، أسمر البشرة، لونته شمس الصحراء، وأكسبت جسمه قوة ونماء.

إنه عبادة بن الصامت.

من السابقين إلى الاسلام، ومن رجال البيعة الأولى ومن بني عوف بن الخزرج الأنصاري. من الأنصار الذين نصروا وآووا وبذلوا أرواحهم وأموالهم رخيصة في سبيل الله.

والده الصامت بن قيس الخزرجي.

وأمه قرة العين بنت عبادة.

وأخوه أوس بن الصامت، وزوجه خولة بنت ثعلبة التي أنزل الله فيها:

﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾[1].

(١) سورة المجادلة آية رقم ١.

كان أحد أفراد الوفد المكون من اثني عشر رجلاً والذين بايعوا الرسول ﷺ البيعة الأولى. وكان حليفاً ليهود بني قينقاع بالمدينة وعندما سمعوا بعودته من مكة، توافدوا إلى منزله ليحدثهم عبادة عن النبي الجديد الذي بمكة، والذي له علامات وآيات في كتبهم التي بين أيديهم والتي لا تخفى على أحد منهم، سأله أحد أحبارهم أن يصف لهم النبي وصفاً كأنه جالس بينهم، ليطابقوا ذلك على ما في كتبهم:

قال عبادة: لقد رأيناه أول مرة، فاستقرت محبته في قلوبنا، حتى لا يستطيع أحدنا أن يحول وجهه عنه. في وجهه وضاءة ونور، وفي عينيه بريق يأخذ بلب صاحبه. ليس بالقصير، ولا بالطويل، أبيض ذو ضفيرتين، بين كتفيه خاتم النبوة، يكثر الاحتباء، ولا يقبل الصدقة. يركب الحمار والبعير ويحتلب الشاة.

وتطاولت أعناق يهود وأرهفت آذانهم للسماع وخيم على المكان صمت شامل لا يقطعه إلّا حديث عبادة. ثم قال: واختبرناه.

فكان ألين الناس وأكرم الناس، وكان ضحاكاً بساماً ليس بفظ ولا غليظ، وليس بفحاش ولا صخّاب، يعفو ويغفر. لا تغلق دونه الابواب ولا تقوم بين يديه الحجبة ولا يغدى عليه بالجفان، ولا يراح عليه. يجلس على الأرض، ويأكل طعامه بالأرض، ويلبس الغليظ، ويردف بعده، ويلعق أصابعه. يتكلم بكلام فصل، يحفظه من يسمعه[1].

وتناول عبادة كوباً من الماء ورفعه فوق شفتيه ليبل ظمأه، لقد كانت كلماته تنساب في سهولة ويسر وتهدج صوته، وأوشكت أن تغلبه دموعه فأراد أن يهدئ من روعه ببعض قطرات الماء.

وتصايح اليهود وسرت بينهم كلمات وهمهمات إنه هو، ما نقص عبادة عما في كتبهم مقدار خردلة. إنها صفات النبي التي توجد عندهم في التوراة، وتناول

---

(١) اعتمدنا في تجميع تلك الصفات على أوثق المصادر من كتب الأحاديث والسيرة النبوية وكتب الطبقات.

رئيسهم ذقنه بيده وأخذ يعبث فيها بأصابعه وسرح في فكر عميق. ولكن ردته إلى يقظته كلمات عبادة وهو يقول :

بايعنا رسول الله ﷺ على : أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف. فقاطعه أحد الرجال قائلاً له : إن فعلتم ذلك ونفذتم ما أمركم به ، ماذا يعطيكم هذا النبي الجديد؟.

قال عبادة : ليس عنده شيء يعطيه من مال أو عقار ، ولكن الرسول ﷺ قال : «فإن وفيتم فلكم الجنة ، وان غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب»[1] . وهنا قال فخناس اليهودي :

« هذا النبي ، ألا يقيم حدوداً ، ألا ينفذ شرعاً ، ألا يطبق أحكام الله».

قال عبادة : قال ﷺ : «إن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء عذب وإن شاء غفر»[2] .

وبدأت الشمس تتجه إلى مغربها ، وأوشك أن تلف المكان ظلمة الليل فافترقوا إلى غد.

واستمر بيت عبادة بن الصامت منتدى لهؤلاء الرجال وغيرهم ، يتعرفون فيه على بعض كلمات القرآن الكريم وتوجيهات الرسول ﷺ والتي حملهم إياها أثناء وجوده معهم بمكة . حتى جاء مصعب بن عمير سفير الرسول ﷺ وداعية الاسلام في يثرب ، والذي اتخذ من منزل اسعد بن زرارة مجلساً له . فانتقلت الوفود إلى هناك.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤١ والبداية والنهاية جـ ٣ ص ١٥٠.

(٢) المصدر السابق وراجع البخاري ومسلم فقد روي هذا الحديث عنهما من طريق الليث بن سعد.

وفي موسم الحج خرجت قافلة من رجال مؤمنين تسرع السير إلى مكة ، كانت قافلة عجيبة الشأن ، ضخمة العدد يتجاوز أفرادها السبعين رجلاً ، وأبت النساء المؤمنات إلّا أن ترسلن سفيرتين ليحدثنهن حديث صدق ، عن رسول الله ﷺ. ووقع الاختيار على نسيبة بنت كعب ، أم عمارة وأسماء بنت عمرو بن عدي[1].

وانبعث صوت القافلة مدوياً يبدد وحشة الطريق ويقطع صمت الصحراء بالنداء القوي :

الله أكبر ، الله أكبر.

وحضر عبادة البيعة الثانية «بيعة الحرب» بايعوا الرسول ﷺ على حرب الأسود والأحمر. وأن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم[2] واستوثق الرسول ﷺ لربه ولدينه ولنفسه. ثم قال : أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم[3]. فكان عبادة بن الصامت أحد النقباء الذين وقع عليهم الاختيار.

في الصحيحين عن الصنابحي عن عبادة بن الصامت قال : «انا من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة»[4] ، وهاجر الرسول ﷺ إلى يثرب. وآخى بين المهاجرين والأنصار ، وكان أخو عبادة في الاسلام أبو مرثد الغنوي. الذي أرسله رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج ناساً من المسلمين بها أسراء. فلما قدمها ، سمعت به امرأة يقال لها عناق ، وكانت خليلة له في الجاهلية ، فلما أسلم أعرض عنها.

فأتته فقالت : ويحك يا مرثد ألا تخلوا؟..

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٩ والبداية والنهاية جـ ٣ ص ١٦٠.

(2) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٥٩ ورواه الامام احمد بسنده عن جابر.

(3) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٦١ ، وطبقات ابن سعد جـ ٤.

(4) صحيح الامام البخاري ومسلم والاصابة في تميز الصحابة جـ ٢ ص ٢٦٠.

فقال لها : إن الاسلام قد حال بيني وبينك وحرمه علينا[1] ما الذي تغير في رثد؟ ما الذي بدله؟ حتى يمتنع عن الإثم وقد كان يأتيه؟.

إنها دعوة حاضرة ومكان معد.؟

ولكن حاشا لله. لقد كانوا يعبدون الأصنام وهي لا ترى ولا تبصر أما الآن فهم يعبدون الله ، الذي يعلم السر وأخفى إنه الإيمان الجديد الذي صنع الأمة الفريدة في التاريخ. وبعد الفراغ من غزوة بدر ، والتي حقق الله فيها النصر لتلك الجماعة المسلمة ، أمره رسول الله ﷺ أن ينادي — وكان جهور الصوت — أن ردوا الأنفال والأسلاب إلى رسول الله ﷺ ، فاستجابوا له. يقول أمامة الباهلي : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال. فقال : «فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في تقسيم النفل فجعله الله إلى رسوله ﷺ فقسمه بين المسلمين على السواء»[2].

وشهد عبادة المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان له دوره في اخراج يهود بني قينقاع حلفائه في الجاهلية من المدينة ، ووقف مع الرسول ﷺ يؤازره ويناصره ضد هؤلاء اليهود والمنافقين. وفي حروب الردة كان فارسها المغوار والمجاهد في سبيل الله الباحث عن الشهادة ، وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب يزيد بن أبي سفيان اليه : قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم. فأرسل اليه عمر ، معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء. فأقام عبادة بحمص فاستخلفه عليها أبو عبيدة بن الجراح ، عندما سار لفتح اللاذقية.

ثم صرفه لفتح «طرطوس» ففتحها[3] وكان أول من ولي قضاء فلسطين من قبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ومن قبل ذلك وفي حياة الرسول ﷺ استعمله

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٨٤.

(٣) الاصابة جـ ٤ ص ٢٨ وأسد الغابة جـ ٣ ص ١٠٦.

رسول الله على الصدقات وقال له : «اتق الله لا تأتي يوم القيامة ببعير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة لها ثواج»[1].

قال عبادة : فوالذي بعثك بالحق لا أعمل عمل اثنين وبايع رسول الله ﷺ على ألا يخاف في الله لومة لائم[2].

فعندما ولي القضاء اختلف مع معاوية، اختلف في شئون الصرف، وكان لا بد أن يختلف مع معاوية بمنعه وبصده، ويحول بينه وبين أشياء كان ينكرها حبيبه رسول الله ﷺ ولقد عاهده على ذلك، فلا بد من تنفيذ عهده. فاغلظ له معاوية في القول.

فقال له عبادة «لا أساكنك بأرض واحدة أبداً»[3] ورحل إلى المدينة ليكون قريباً من عمر رضي الله عنه أقرب الناس تنفيذاً لأوامر الله وأوامر رسوله والتقى به عمر فقال له: ما أقدمك؟

فأخبره خبره. فقال له عمر: ارجع مكانك فقبح الله أرضاً لست فيها ولا أمثالك. فامتثل واطاع، هكذا علمهم حبيبهم رسول الله ﷺ وكتب عمر إلى معاوية: «لا إمرة لك على عبادة»[4].

وفكر المسلمون في فتح مصر التي بشرهم رسولهم بها، واتجه اليها عمرو بن العاص في جيش كبير.

ولكنه عندما وصل إلى أرض مصر، رأى كثرة عدد وعدة من المصريين والروم فطلب مدداً من عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

---

(١) أسد الغابة جـ ٣ ص ١٠٦، ١٠٧.

(٢) تهذيب ابن عساكر جـ ٧ ص ٢٠٧.

(٣) الاستيعاب جـ ٢ ص ٨٠٨.

(٤) أسد الغابة جـ ٣ ص ١٠٦.

واستجاب عمر لرأي عمرو. وأمده بأربعة آلاف رجل وكتب له كتاباً قال فيه:

إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألفٍ رجل منهم مقام ألف[1].

وكان عبادة بن الصامت أحد هؤلاء الأربعة وانتشرت جواسيس المقوقس ورجاله ينعرفون على قوة المسلمين ويعجمون عودهم وعادوا إليه يصفون هؤلاء الرجال الذين خرجوا من بلادهم البعيدة يرددون كلمة واحدة: الله أكبر. فتكون زادهم إن قل الزاد، ومطيتهم إن بعدت المسافة ومددهم إن قل المدد.

قال عيون المقوقس:

« رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب اليهم من الرفعة ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة. وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد».

«وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم»[2].

فقال المقوقس عند ذلك: والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد.

ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم[3].

صدق المقوقس فيما قال. ووصف به هؤلاء الرجال، نعم لو استقبلوا الجبال لأزالوها بإذن الله، إن خرجتهم هذه لم تكن لمغنم أو حكم أو وجاهة، أو لأي

---

(١) معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٧٨.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ١ ص ١١.

(٣) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٢.

هدف من أهداف الدنيا ، وإنّما كانت لله ولنشر دينه واخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وأرسل المقوقس إلى المسلمين أن ابعثوا الينا رسلاً منكم نتعاون نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم .

فبعث عمرو بن العاص نفراً من أصحابه على رأسهم عبادة بن الصامت . وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم وأميرهم .

نعم عبادة الذي طوله كما يصف الرواة ، عشرة أشبار مهيب الطلعة قوي التراكيب ، ترى في عينيه قوة الشكيمة والايمان ، أسود البشرة أبيض القلب . الأمر الذي جعل المقوقس عندما دخلوا عليه يرتعد منه ويخافه ويقول لهم : نحوا عني هذا الأسود ، وقدموا غيره يكلمني[1] . فقال له أصحاب عبادة : ان هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا . ونرجع جميعاً إلى قوله ورأيه . وقد أمره الأمير دوننا بما أمره وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . فقال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ .

إن المقوقس يقيس الناس بمقاييسه الأرضية ولم يسمع أن هذا الدين كانت من أولى كلماته على لسان رسول الله ﷺ :

«كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[2] فلن يتفاضل الناس بالحسب والنسب . ولن يتفاضلوا باللون والجنس . وإنما التفاضل عن طريق شيء آخر كان المقوقس لم يصل اليه بعد . وقال أصحاب عبادة رداً على كلمته : إنه وان كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً وليس ينكر السواد فينا ، ولم يجد المقوقس حيلة لابعاد عبادة عنه .

فقال لعباده : تقدم يا أسود ، وكلمني برفق ، فإنني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك علي ازددت لك هيبة[2] .

(١) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٢ .

(٢) المصدر السابق .

فتقدم إليه عبادة فقال :

قد سمعت مقالتك ، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سواداً مني ، وأفظع منظراً لو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني ، وأنا قد وليت وأدبر شبابي وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي[1] ثم تابع عبادة حديثه قائلاً : وذلك لأن رغبتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدواً من حارب الله لرغبة في الدنيا .. وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك درهماً ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها ، وان كان أحدنا لا يملك إلّا ذلك كفاه .

وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى واقتصر على هذا الذي بيده .

لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة بذلك أمر الله وأمرنا به نبينا ، وعهد الينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا إلّا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه[2] .

أرأيتم يا أتباع محمد ﷺ ماذا قال عبادة؟ لقد أرعب الرجل بسلامة بنيانه وقوة إيمانه . ثم كان رسول حرب من طراز فريد ، عرف كيف يضرب في المحز كما يقولون ، إذا كان شكله أرعبه ، فهناك أصحابه كلهم على شاكلته .

وإن كان أصابه الكبر ، فهناك على الضفة الأخرى من النيل فرسان المعارك رهبان الليالي . آه لو رأيتهم أيها المقوقس لخرجت روحك قبل أن يحادثوك وهؤلاء جميعاً قد فرغوا من الدنيا ، وفرغت منهم الدنيا إنهم أصحاب رسالة يؤدونها كما أمرهم الله ، وبعدها يذهبون إلى هناك الى النعيم المقيم .

---

(١) راجع خطط المقريزي .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٤ .

وكل هؤلاء الرجال يدخلون المعركة يتسابقون إلى الموت ليقربهم إلى ربهم ويجمعهم مع حبيبهم ونبيهم. إنهم ليسوا طلاب دنيا. يا زعيم القبط.

ولكنهم عشاق شهادة.

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط.؟ لقد هبت منظره، وإن قوله لأهيب عندي من منظره، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض، وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها.

ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت قائلاً له: أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلّا بما ذكرت عنك وعن أصحابك.

وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلّا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها.

ثم قال: وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وانا لنعلم أنكم لم تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم[1].

فقال عبادة: يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه.

إن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند الله اذا قدمنا عليه أن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنّته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب الينا من ذلك. وانا منكم حينئذ على احدى الحسنيين: اما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم. أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا.

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٦.

وإنها لأحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا.

وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾[1].

وما منا رجل إلّا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا همّ فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا. وأما قولك إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه، فانظر الذي تريد فبينه لنا.

فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها إلّا خصلة من ثلاث، فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل.

بذلك أمرني الأمير. وبها أمره أمير المؤمنين. وهو ما عهد به رسول الله ﷺ من قبله الينا[2] من كان يتصور أن هؤلاء الرجال الذين خرجتهم البادية وقست عليهم ظروف الطبيعة، وعاشوا حياتهم الجاهلية بعيدين عن خدع الحرب ومعرفة خفايا النفوس، تكون لهم هذه المقدرة الفائقة من الحرب النفسية التي شنها عبادة بن الصامت على عظيم مصر، فقضى على كل مقاومة عنده، وملأ نفسيته بالرعب والفزع وإذا ما وصل قائد من قواد الدول والجيوش إلى هذه الحالة من الاضطراب والهول، فقد خسر المعركة، وسلمت بلاده. أما ما جاء بعد ذلك فهي توسلات المقتول إلى قاتله أن يترفق به في ذبحه ويحد شفرته، حتى لا يحس بألم القتل.

وتمت سفارة عبادة بن الصامت، وعاد إلى عمرو بن العاص يزف اليه فتح مصر بعد أن خرب نفسية القائد، وفت في عضد جنوده.

وبينما هم على أهبة الاستعداد لخوض معركة فاصلة مع احدى حصون الروم،

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٤٩.

(٢) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٧.

والتي لم تستسلم بعد، وصلت رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيها يقول:

أما بعد: فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر إنكم تقاتلونهم منذ سنين، وما ذلك الا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم.

وإن الله تبارك وتعالى: لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت اليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل، على ما كنت أعرف، إلّا أن يكونوا قد غيرهم ما غيرهم.

فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند زوال يوم الجمعة، فإنها تنزل الرحمة، ووقت الاجابة وليعج الناس الله، ويسألونه النصر على عدوهم[1].

ألم يقرأ قواد العرب والمسلمين، وصية عمر بن الخطاب هذه لقواده وجنوده؟...

وإذا كان الجواب نعم.

فكيف لم تؤثر فيهم هذه الوصايا كما أثرت في عمرو وعبادة؟ ألم تحرك شعورهم إلى شيء؟

أيها الرجال يا من تدينون بدين هؤلاء الرجال لقد كان أجدادكم قادة وسادة؟..

عندما حملوا مصحفهم بين قلوبهم. فلماذا أصبحنا في ذيل القافلة؟

ألأننا حولنا هذا الكتاب إلى تمائم لمرضانا، وزينة نزين به عرباتنا وحجراتنا؟.

أم ماذا؟..

---

(١) المصدر السابق.

لقد قرأ عمرو كتاب أمير المؤمنين ، وأخذ يفكر في خطة يفتح بها الاسكندرية .

ولم يحتج إلى مجهود كبير ، لأن الخطة الحية كانت مجسمة أمامه في عملاق المعارك : عبادة بن الصامت . ووجهه اليها ففتح الله على يديه الاسكندرية ..

وأخيراً أما آن لسيد النقباء أن يستريح . أما آن لجامع القرآن والسنة النبوية أن يستقر لقد آن الأوان لسيف فتح «طرسوس» وشارك في فتح مصر ، وقهر الاسكندرية ووقف على ثغرها يفكر في وضع خطة لقهر هذا البحر العظيم لينشر من ورائه اسم الله الأعظم الى أن يلقى الأحبة محمداً وصحبه وفي مدينة الرملة بأرض الشام استراح الراحة الكبيرة سنة أربع وثلاثين وهو ابن اثنتين وسبعين سنة .

رحمك الله رحمة واسعة لجهودك في سبيل الاسلام والمسلمين وصدق والله أمير المؤمنين عمر فيما قال : «قبح الله أرضاً ليس فيها أمثال هؤلاء الرجال» .

أسباب نزول الآيات

انتصر المسلمون في غزوة بدر الكبرى، فآلم هذا النصر اليهود، وأخذوا يتحرشون بالمسلمين، وكان بداية ذلك في سوق بني قينقاع عندما قدمت امرأة من العرب بحليب لها فباعته، وجلست إلى صائغ بالسوق، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها.

فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[1].

وعلم الرسول ﷺ فجاء مسرعاً إلى السوق ثم قال: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فانكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم.

قالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنّا نحن الناس[2].

---

(١) الروض الأنف جـ ٤ ص ٣٥٤ وأسباب نزول القرآن ص ٩٢.

(٢) الروض الأنف جـ ٥ ص ٣٩٢.

ثم أرسلوا إليه عبد الله بن أُبي بن سلول فكلمه فيهم ، فلم يجبه فقال : يا محمد أحسن في موالي ، وكانوا حلفاء الخزرج فأعرض عنه . فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ . قال له رسول الله ﷺ أرسلني وغضب رسول الله ﷺ ، حتى رأوا لوجهه ظللًا ثم قال : ويحك أرسلني . قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ؟ . اني والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله ﷺ : هم لك[1] .

وعندما علم عبادة بن الصامت بما كان من أمر اليهود وأمر عبد الله بن أبي . جاء مسرعاً إلى الرسول ﷺ وقال : يا رسول الله إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم ، كثيراً سلاحهم ، شديدة شوكتهم ، وأنا أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود[2] ولا مولى لي إلا الله ورسوله .

فقال عبد الله بن أبي : لكني لا أبرأ من ولاية يهود إني رجل لا بد لي منهم .

فقال رسول الله ﷺ : «يا أبا الأحباب أرأيت الذي نفست به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت؟ . فهو لك دونه[3] .

فقال : إذن أقبل .

فنزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما اسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا

---

(١) الروض الأنف جـ ٥ ص ٣٩٣ .

(٢) المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٩٤ وأسباب نزول القرآن ص ١٩١ ، وراجع الدر المنثور جـ ٢ ص ٢٩١ وتفسير الطبري جـ ١٠ ص ٣٩٥ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٩ وأسباب نزول القرآن للامام الواحدي وتاريخ ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٣٨ .

خاسرين. يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم. إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾[1].

(١) سورة المائدة الآيات من ٥١ إلى ٥٦.

تذييل ...

مرحى يا أبناء مدرسة القرآن.. مرحى يا أبناء الصحراء...

لقد كانوا في خرجتهم هذه التي خرجوها معلمين وأساتذة، واختطوا للبشرية من شئون السياسة والحكم والاقتصاد.. ما تعمل الدول جاهدة للوصول اليه في القرن العشرين.

لقد خرجوا ولم تكن الدنيا العريضة ولا متاعها الزائل مطلبهم.

وليس الملك والصولجان ولا الرغبة في التسلط هي غايتهم.

وانما خرجوا تنفيذاً لأمر الله الذي اختارهم ليكونوا أمة وسطاً.

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[1].

أمة وسطاً في التصور والاعتقاد لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي أمة وسطاً في التنظيم والتنسيق.. لا تدع الحياة كلها للمشاعر، والضمائر ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب.

أمة وسطا في الارتباطات والعلاقات.. لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة.

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٣.

أمة وسطاً في المكان في سرة الأرض وفي أوسط بقاعها وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الاسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب وجنوب وشمال.

وأمة وسطاً في الزمان.. تنهي عهد الطفولة البشرية من قبلها وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها، وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى(١).

نعم لقد انهوا عهد الطفولة البشرية.. وأقاموا أنفسهم حراساً للرشد العقلي وبهروا قادة العالم وملوك الدنيا بإيمانهم وقوة شخصيتهم والتزامهم بأوامر ربهم وطاعتهم لقادتهم وحدبهم على رعيتهم.

يصفهم رجل من قبيلة قضاعة لقيصر الروم فيقول:

« هم رهبان بالليل فرسان بالنهار، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رجموه إقامة للحد.. ».

فتعجب القيصر مما يقوله هذا الرجل: لأنه لا يكون كذلك إلا أتباع نبي وقال كلمته المشهورة: لئن كنت صادقاً لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها.

لقد خرجوا من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة الموج في المد المرتفع، ليس في داخلها إلّا أنفس مندفعة الى الخارج عنها. ثم يقاتلون بهذه الطبيعة أمماً ليس في الداخل منها إلّا النفوس المستعدة أن تهرب الى الداخل.

انهم يدخلون صلاتهم بكلمة «الله أكبر» وكأنهم يعلنون بذلك انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشهوات الوقت، ومحوها من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها.

لقد كان المسلمون الأول العقل الجديد الذي وضع في العالم المتميز بين الحق

---

(١) في ظلال القرآن بتصرف المرحوم سيد قطب.

والباطل فهم ينبعثون من حدود دينهم وفضائله ، لا من حدود أنفسهم وشهواتها إذا سلوا السيف سلوه بقانون ، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون.. تقدموا إلى الدنيا وهم يحملون السلاح والأخلاق قوية في ظاهرها وباطنها.. فمن وراء أسلحتهم أخلاقهم ، وبذلك تكون أسلحتهم نفسها ذات أخلاق..[1].

ولقد كان ذلك القانون — قانون الأخلاق.. هو المسيطر عليهم في كل معاركهم الحربية.. حتى والاشتباكات على أشدها.. والسيوف تحصد الرقاب وتجندل الابطال.

يتمكن الامام علي رضي الله عنه في أحد المعارك من أحد الأعداء ويلقي به من فوق فرسه.. ويلقي بثقله عليه فوق الأرض.. ويتناول سيفه ليجزّ به عنقه.. ولكنه لم يفعل.. ويتركه في آخر لحظة سليماً معافى لم يمس وكان يجاوره بلال رضي الله عنه فيقول له : يا علي كيف تترك عدو الله ولم تجهز عليه؟

فيقول الامام علي : يا أخي بلال لقد بصق في وجهي فخشيت أن أقتله فأكون قتلته غضباً لنفسي لا لله...

صدق القائل ان سيوفهم نفسها ذات أخلاق.

(١) - مصطفى صادق الرافعي وحي القلم جـ ١ بتصرف.

العَبَّاس بن عَبْد المُطَّلِب

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ
إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ
مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة الأنفال الآية : ٧٠]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

اتفق العلماء على أن المقصود بهذه الآيات هو العباس بن عبد المطلب وأيضاً عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث.

قال ذلك الكلبي.

وذكره الإمام مسلم في صحيحه جـ ٥ ص ١٥٦

وذكره صاحب مجمع الزوائد جـ ٧ ص ٨.

وقاله صاحب المستدرك جـ ٣ ص ٣٢٤.

وذكره صاحب الدر المنثور جـ ٣ ص ٢٠٤.

وقاله الخازن والبغوي في التفسير جـ ٣ ص ٤٣ — ٤٤.

وذكره الإمام الواحدي في كتابه — أسباب نزول الآيات ص ٢٣٨.

فمن العباس بن عبد المطلب؟.

العباس بن عبد المطلب

رضي الله عنه

.. عم الرسول ﷺ ومن أقرب الناس إلى قلبه ، وأحبهم إلى نفسه.

تتفق الروايات التاريخية على تاريخ مولده ، ونحدده قبل قدوم أصحاب الفيل إلى مكة بثلاث سنوات.

والده : عبد المطلب صاحب الكلمة المشهورة مع أبرهة : «أما الإبل فهي لي ، وأما البيت فله رب يحميه..»[1].

وأمه : «نثيلة» ابنة خباب بن كليب ، أول عربية كست البيت الحرام الحرير والديباج ، وذلك أن ابنها العباس ضل وهو صبي فنذرت لله ان وجدت طفلها أن تكسو البيت الحرام الحرير والديباج. فلما وجدته ورده الله اليها وفت بنذرها[2].

وزوج العباس ، أم الفضل ، امرأة حكيمة عاقلة تناولها الشعر العربي بالثناء والتكريم.

ومن أولاده : الفضل وكان أكبر البنين ، أردفه رسول الله ﷺ في حجته ، ومات بالشام في طاعون عمواس.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٥ وراجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٨١.

(٢) الاستيعاب جـ٢ ص ٨١١.

وعبد الله : حبر الأمة دعا له رسول الله ومات بالطائف.

وقثم : وكان يشبه بالنبي عليه السلام ، خرج إلى خراسان مجاهداً فمات بسمرقند.

ومعبد : قتل بافريقيا شهيداً.

وعبيد الله : كان جواداً سخياً ذا مال ، مات بالمدينة.

وأم حبيبة : ويصمت التاريخ فلا يتحدث عنها.

يقول الشاعر عبد الله بن يزيد :

ما ولدت نجيبة من فحل بجبل تعلمه أو سهل
كسته من بطن أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل

وكان للعباس رضي الله عنه في الجاهلية عمارة المسجد والسقاية.

واختلف المؤرخون في تاريخ اسلامه. فقال بعضهم أسلم قبل فتح خيبر. وقيل ان اسلامه كان قبل غزوة بدر بكثير، وكان رضي الله عنه يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ وكان المسلمون يتقوون به بمكة ، بعد هجرة الرسول ﷺ.

بل أكثر من ذلك أنه فكر في الهجرة إلى المدينة ، وأرسل إلى الرسول بذلك فكتب اليه عليه السلام : أن مقامك بمكة خير[1].

فأذعن لأمر الرسول ﷺ ولم يهاجر. ولكننا نتساءل لماذا لم يعلن العباس إسلامه؟.

أكان ذلك لمصلحة الاسلام والمسلمين؟ ان حمزة عم الرسول بادر إلى الاسلام وأعلن ذلك على رؤوس الملإ من قريش فما الذي يمنع العباس من ذلك؟ مع أن رواية رافع تؤكد تبكيره الى الاسلام.

قال رافع : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب ، وكان الاسلام قد دخلنا أهل

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٨١٢.

البيت ، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل ، فكان العباس يهاب قومه ويكره مخالفتهم فكان يكتم اسلامه[1] .

وإذا كان الخوف حال بينه وبين اعلان اسلامه ، فما باله يلازم الرسول ﷺ ويذهب معه إلى الكعبة ويشاركه في كثير من جلساته؟ .

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه :

«خرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ أنا والبراء بن معرور وكنا لا نعرفه ، ولم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال : هل تعرفانه؟ .

فقلنا : لا .

قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ .

قلنا : نعم ، وقد كنا نعرف العباس ، وكان لا يزال يقدم علينا تاجراً .

قال : فاذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس .

فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ، ورسول الله ﷺ جالس معه[2] .

وكان للعباس رضي الله عنه دور لا ينكر في بيعة العقبة الثانية .. وكان أول المتكلمين .. مع الأنصار ، ومن قوله :

«يا معشر الخزرج — وكانت الأوس والخزرج تدعى الخزرج — انكم قد دعوتم محمداً الى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس في عشيرته يمنعه من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فان كنتم أهل قوة وجلد وصبر بالحرب ، واستقلال بعداوة العرب

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ١٠.

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٥٨.

قاطبة فانها سترميكم عن قوس واحدة ، فارتأوا رأيكم ، وائتمروا أمركم ، ولا تفترقوا إلا عن ملإ منكم واجتماع فان أحسن الحديث أصدقه »[1] .

وهي كلمات تدل على بصر بالأمور ، وحكمة في معالجة القضايا ، وتفهم لما تقضيه مثل هذه المواقف..

ولم يكتف بذلك بل أراد أن يعرف حقيقة القوم وأن يعجم عودهم فقال :

صفوا لي الحرب كيف تقاتلون عدوكم . ؟

فقام عبد الله بن عمر بن حرام فقال :

« نحن والله أهل الحرب ، غذينا بها ، ومرنّا عليها ، ورثناها عن آبائنا كابراً عن كابر ، نرمي بالنقل حتى تفنى ، ثم نطاعن بالرماح حتى تكسر الرماح ، ثم نمشي بالسيوف فنضارب بها حتى يموتِ الأعجل منا أو من عدونا » .

فانفرجت أسارير العباس واطمأن إلى هؤلاء الرجال الذين سيسلمهم أحب الناس الى قلبه..

وكأنه نسي شيئاً فقال مستدركاً :

أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع ؟

قالوا : نعم شاملة .

ان من يتدبر محاورة الأنصار والعباس يدرك للوهلة الأولى انه محيط بهذا الأمر الذي يدعو اليه ابن أخيه .

حقيق ان العرب لن تترك هذا الأمر يمر الا مكرهة ، فهي لا بد أن تتصدّى له وتقف في طريقه وتحاربه بكل سلاح فالأمر جد ، ولا بد من اعداد العدة له ، ولن يتحمل هذا الأمر العظيم الا رجال

ولن يكفي لانتشار هذا الأمر الحب وحده فهؤلاء الرجال الذين أتوا إلى الرسول

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٩ .

ﷺ من يثرب كانوا يحبونه أكثر مما يحبون أولادهم وأموالهم وأهلهم وكل ذلك طيب وخير.

ولكن الدعوات لن تقام بالحب فقط، ولن تتغلب على أعدائها بخلجات القلوب ولكن الغلبة تكون بالرجال ممن لهم خبرة ودراية بالحروب والمعارك، وفي نفس الوقت على استعداد تام لبذل أرواحهم رخيصة في سبيل عقيدتهم ومبدئهم

وهذا ما أراد أن يطمئن العباس عليه.

والرجل الخبير بالحياة، العارف بخبايا النفوس لم يكتف منهم بقولة هم قائلوها بل طلب منهم أن يصفوا له الحرب ليتأكد من صدق نواياهم، وعندها فقط سمحت نفسه بتمام البيعة بين الانصار والرسول.

وتم ما أراد الله، وأخذ الرسول ﷺ، يعد العدة الى الهجرة إلى يثرب.

أكان العباس يعلم بوقت الهجرة؟

أترى أخبره الرسول ﷺ بميعادها؟

لا نجد بين أيدينا من الأدلة ما يثبت ذلك.

وبقي العباس في مكة يستقبل أخبار الفئة المؤمنة التي هاجرت بدينها إلى المدينة ويرسل للرسول عليه السلام بأخبار قريش وتحركاتها.

حتى كانت غزوة بدر، وعرف الرسول ان العباس وأهله أخرجتهم قريش للقتال معهم وهم لهذا الأمر كارهون. فقال عليه السلام:

«اني عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، من لقي العباس بن عبد المطلب عم النبي فلا يقتله فإنما أخرج مستكرهاً»[1].

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٩.

قال الرسول ﷺ ذلك وسرت مقالته بين رجال بدر فتقبلوها ولم يعترض أحد ما عدا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة.

فإنه قال: «نقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لأضربنه بالسيف»[1].

فبلغت مقالته رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟

فقال عمر: دعني أضرب عنق أبي حذيفة بالسيف فوالله لقد نافق...

ولكن الرسول ﷺ لا يوافق عمر على قتل أصحابه ويتركهم ليتوبوا ويكفروا عن خطئهم.

ولقد ندم أبو حذيفة على ما تلفظ به ونطق به لسانه، وكان يكرر دائماً.

«والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا ازال منها خائفاً إلّا أن يكفرها الله عز وجل عني بالشهادة»[2].

فاستجاب الله له، وحقق له طلبته فقتل يوم موقعة اليمامة شهيداً.

واستقرت أمور المسلمين.. وفتح الله لهم فتحاً مبيناً وهاجر العباس إلى المدينة ومعه نوفل بن الحارث.. وتضطرب المصادر التاريخية في تاريخ هجرته، وتتفق على أن الرسول ﷺ اقطعه وصاحبه موضعاً بالمدينة متجاوراً.

وفي المدينة وقع رجل في أب للعباس كان للعباس في الجاهلية، وتكرر ايذاء الرجل لشعور العباس رضي الله عنه، ولما لم يكف عن ذلك لطمه العباس لطمة اجتمع على أثرها قومه..

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٩.

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٠.

فقالوا : والله لنلطمنه كما لطمه، ولبسوا السلاح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاء وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال :

أيها الناس أي تعلمون أكرم على الله؟

قالوا : أنت .

قال : فإن العباس مني وأنا منه ، لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا[1] .

فجاء القوم فقالوا :

«يا رسول الله نعوذ بالله من غضبك ، استغفر لنا يا رسول الله».

ويؤكد هذه الواقعة ما يرويه أبو مجلز رضي الله عنه ، قال :

قال رسول الله ﷺ انما العباس صنو أبي فمن آذى العباس فقد آذاني .

ويتقدم العباس الى الرسول ﷺ قائلاً : يا رسول الله ألا تؤمرني على امارة؟ ..

انه صاحب رأي وحنكة .

وله خبرة ودراية بالنفوس البشرية .

ولكن القائد يرفض أن يقلد عمه ولاية . قد يكون غيره من آحاد المسلمين من هو أحق بها منه .

فيقول له في رفق : يا عباس يا عم النبي :

«نفس تنجيها خير من امارة لا تحصيها»[2] .

ويقنع العباس ويرضى بما رآه له الرسول ﷺ .

وتمر الأيام ويحتاج الرسول ﷺ إلى عمال يجمعون الزكاة والصدقات من المسلمين. ويعلن ذلك بين أصحابه . فيتقدم العباس مرة ثانية الى الرسول عليه السلام طالباً منه أن يستعمله في أحد الأعمال الجديدة .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٢٤.

(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٧.

فقال الرسول ﷺ :

«ما كنت لأستعملك على غسالة ذنوب الناس».

ان الرسول ﷺ وهو أعلم الناس به . لم يستعمله على ولاية ، ولم يستعمله في جمع الزكاة والصدقات .

ولا أمل له في عمل من أعمال الدنيا . فليبحث عما ينفعه في الآخرة ويتجه مرة ثالثة إلى الرسول ﷺ قائلاً :

«أنا عمك ، كبرت سني واقترب أجلي ، فعلمني شيئاً ينفعني الله به».

فقال الرسول ﷺ :

«يا عباس أنت عمي ولا أغني عنك من أمر الله شيئاً ، ولكن سل ربك العفو والعافية». عليك سلام الله وبركاته يا رسول الله .

ويبلغ الكتاب أجله ، ويكون العباس أشد الناس حزناً على فراق الرسول ﷺ .

مات الرسول ﷺ وعاش العباس مع ابي بكر الصديق رضي الله عنه عزيزاً كريماً .

ثم جاء عمر رضي الله عنه .

وكان طريق عمر إلى المسجد ماراً بدار العباس بن عبد المطلب ، وكان للدار ميزاب .

وفي يوم من الأيام لبس عمر ثيابه واتجه إلى المسجد ، فلما وافى الميزاب صب فيه ماء فأصابه فأمر عمر بقلعه . ثم رجع فطرح ثيابه ولبس غيرها وجاء فصلى بالناس فأتاه العباس فقال :

والله انه للموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ يقصد الميزاب .

فقال عمر للعباس : فأنا أعزم عليك أن تصعد على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ .

ففعل العباس ذلك.

لا يغضب العباس لقلع الميزاب ولكن يذكر عمر... بأن الذي وضعه رسول الله ﷺ.

وترتعد فرائص عمر القوي خوفاً وفزعاً..

كيف يأمر بقلع ما وضعه رسول الله؟..

ويكفر عن فعلته تلك بأن ينصب ظهره ليرتفع عليه العباس ليعيد تثبيت ما وضعه الرسول..

ثم ماذا يا حاكم المسلمين؟. يطبع قبلة حب ورجاء على جبين العباس تكريماً واعزازاً له.

وفي يوم من الأيام أحس عمر رضي الله عنه ان المسجد لم يعد يسع كل المصلين وفكر في توسيعه، واستشار أصحابه فوافقوه على ما ذهب اليه.

وأخذ في شراء ما حول المسجد من دور..

وبقي دار العباس بن عبد المطلب، أيمكن أن يتبرع به لبيت المال؟..

أيقبل أن يشترى منه ويقبض الثمن؟..

ويتقدم عمر اليه قائلاً:

يا أبا الفضل ان مسجد المسلمين قد ضاق بهم، وقد ابتعت ما حوله من المنازل نوسع به على المسلمين في مسجدهم إلا دارك وحجر أمهات المؤمنين، أما حجر أمهات المؤمنين فلا سبيل اليها، وأما دارك فبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين أوسع بها في مسجدهم..

فقال العباس: ما كنت لأفعل..

فقال عمر: اختر مني إحدى ثلاث:

اما أن تبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين، وإما أن أخططك حيث شئت من المدينة وابنيها لك من بيت مال المسلمين، واما أن تتصدق بها على المسلمين فنوسّع بها في مسجدهم..

فقال العباس : لا ولا واحدة منها.

فقال عمر : اجعل بيني وبينك من شئت.

فقال : أبي بن كعب.

فانطلقا الى أبي فقصا عليه القصة..

فقال أبي : ان شئتما حدثتكما بحديث سمعته من النبي ﷺ.

فقالا : حدثنا..

فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ان الله أوصى الى داود ان ابن لي بيتاً أذكر فيه ، فخطّ له هذه الخطة ، خطة بيت المقدس ، فإذا تربيعها بيت رجلٍ من بني اسرائيل.. فسأله داود أن يبيعه إياه فأبى..

فحدث داود نفسه أن يأخذه منه ، فأوحى الله إليه :

« ان يا داود أمرتك أن تبني لي بيتاً أذكر فيه ، فأردت أن تدخل في بيتي الغصب وليس من شأني الغصب ، وان عقوبتك أن لا تبنيه..

قال : يا رب فمن ولدي؟..

قال : من ولدك.

قال : فأخذ عمر بمجامع ثياب أبي بن كعب وقال :

جئتك بشيء فجئت بما هو أشد منه ، لتخرجن مما قلت..

فجاء يقوده حتى ادخله المسجد فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله ﷺ.. فيهم أبو ذر.

فقال : إني نشدت الله رجلاً سمع من رسول الله ﷺ يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه إلا ذكره.

فقال أبو ذر : أنا سمعته من رسول الله ﷺ.

وقال آخر : أنا سمعته .

وقال ثالث : أنا سمعته يعني من رسول الله ﷺ .

فقال عمر للعباس : اذهب فلن اعرض لك في دارك .

فقال العباس : أما اذا فعلت فاني قد تصدقت بها على المسلمين أوسع بها عليهم في مسجدهم ، فأما وأنت تخاصمني فلا ..

ان عمر يجادل ويخاصم ما دام الأمر يخص المسلمين ولا يتعارض مع شرع الله أما وهناك نص فلا اجتهاد من عمر ، بل يذعن ويستسلم ، ويرى العباس استسلام عمر وان الأمر لم يكن أمر خصام أو اعتداء على حقوقه ، وإنما يبغي هذا الحاكم مصلحة المسلمين وحدها ...

فلماذا ينفرد عمر بهذا الأمر وحده ، ولما لا يشاركه اهتمامه بأمر المسلمين.

ان هذا من واجبه. بل من أوجب الأمور عليه ، فيقرر أن يقدم داره هبة للمسلمين لتوسيع مسجدهم .

انهم رجال مدرسة الرسول ﷺ .

ممن نهلوا من ينابيع القرآن.

انهم الرعيل الأول الذين حملوا راية القرآن ، وانداحوا بها في أربعة أركان الأرض فمدنوا الدنيا ، وهذبوا العالم ، وقرروا الحق للانسان.

وتمر الأيام ، وتكر الليالي ، وتعترض عمر إحدى المشكلات العويصة التي تحتاج إلى ذهن ألمعي ، وعقل ذكي ، وتوفيق من الله سبحانه وتعالى. لقد أجدبت الأرض إجداباً شديداً وهلكت الماشية ،وأصيب الناس بمسغبة شديدة وهرع الناس إلى عمر يشكون اليه ما هم فيه من جوع ومخمصة.

ويدعو عمر الموسرين من المسلمين إلى البذل والانفاق ، ويرسل إلى الولاة يطلبَ منهم المدد.

ولكن الأزمة تزداد سوءاً ، ويجلس عمر في مسجده ضارعاً إلى ربه متوسلاً اليه أن يكشف ما هم فيه من ضر.

ويدخل كعب بن أبي على عمر ويلقي عليه بتحية الاسلام ثم يقول : يا أمير المؤمنين ان بني اسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بعصبة الأنبياء. ونحن معنا عم الرسول ﷺ وصنو أبيه وسيد بني هاشم.

واقتنع عمر بما قاله أبي واتجها إلى العباس رضي الله عنه وحدثاه بما يريدان. وشكى اليه عمر بما فيه الناس من جهد ومشقة. ويستجيب العباس لطلب المسلمين ويتجه مع عمر إلى المسجد ثم صعدا إلى المنبر ، ورفع عمر أكف الضراعة إلى ربه قائلاً : «اللهم إنا توجهنا إليك بعم نبينا وصنو أبيه فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين».

ثم تقدم العباس فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه :

«اللهم ان عندك سحاباً ، وعندك ماء فانشر السحاب ثم أنزل الماء منه علينا فاشدد به الأصل وأدرّ به الضرع.

اللهم انك لم تنزل بلاء إلّا بذنب ، ولم تكشفه إلا بتوبة ، وقد توجه القوم اليك فاسقنا الغيث.

اللهم اسقنا سقياً وادعاً نافعاً.

اللهم انا لا نرجو إلّا ايّاك ولا ندعو غيرك ، ولا نرغب إلا اليك ، اللهم اليك نشكو جوع كل جائع ، وضعف كل ضعيف ، اللهم فأغثهم بغيائك من قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، فانه لا ييأس من روحك إلّا القوم الكافرون.

واستجاب الله لهذا الدعاء. فجادت السماء بالمطر ، وجاءت بأمثال الجبال حتى استوت الحفر بالآكام ، وأخصبت الأرض ، وطفق الناس يتجهون اليه قائلين :

هنيئاً لك ساقي الحرمين[1].

وأنشد شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت قوله:

سأل الامام وقد تتابع جدبنا   فسقى الغمام بغرة العباس
عم النبي وصنو والده الذي   ورث النبي بذاك دون الناس
أحيا الاله به البلاد فأصبحت   مخضرة الأجناب بعد الياس[2]

وعاش العباس ما عاش وهو موضع الإجلال والإكبار من المسلمين وحكامهم.

روى ابن أبي الزناد عن أبيه قال:

لم يمر العباس بعمر ولا بعثمان وهما راكبان إلا نزلا حتى يجوز العباس إجلالاً له، ويقولان:

«عم النبي ﷺ وصنو أبيه».

ثم ماذا.؟

لكل بداية نهاية.

ولكل سافرة حجاب.

ولكل أجل كتاب.

وسافر العباس في رحلته الأخيرة، رحلة الخلود والأبدية، وفر إلى ربه ليلحق بالأصحاب الكرام البررة، وكان ذلك يوم الجمعة لاثني عشرة ليلة خلت من رجب سنة اثنتين وثلاثين ودفن بالبقيع، وهو ابن ثمان وثمانين سنة.

رحمه الله رحمة واسعة وأسبغ عليه سحائب فضله ورحمته جزاء ما قدم من خير للاسلام والمسلمين.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب حـ ٢ ص ٨١٥.

(٢) المصدر السابق.

أسباب نزول الآيات

أسر العباس رضي الله عنه يوم بدر ، وكان الذي اسره «أبو اليسر كعب بن عمرو» ويذكر المؤرخون عن أبي اليسر هذا انه كان رجلاً دقيق الذراعين ، ضعيف البنية .

وكان العباس رضي الله عنه رجلاً جسيماً .

فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر.. كيف اسرت العباس يا أبا اليسر؟

فقال : يا رسول الله لقد اعانني عليه رجل ما رأيته قبل ولا بعد ، هيئته كذا ، وهيئته كذا .

فقال رسول الله ﷺ لقد اعانك عليه ملك كريم[1] .

وعندما وقع العباس في الأسر كان أول شيء سأل عنه رسول الله ﷺ .

فقال لأبي اليسر: ما فعل محمد اما به القتل؟..

قال أبو اليسر: الله أعز وأنصر..

فقال العباس: كل شيء ما خلا الله خلل فما تريد؟..

قال أبو اليسر: ان رسول الله ﷺ نهى عن قتلك.

فقال العباس: ليس بأول صلته وبره.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ١٢.

ثم ماذا؟.. يوضع العباس مع الأسرى موثقين بالحبال وأخذ يتضجر من وثاقه، وارتفع أنينه الى سمع الرسول ﷺ فأقلقه هذا الأنين وأرهقه.. وامتنعت عيناه من الغمض.

ويدخل عليه بعض الصحابة ويحسون بما يعانيه الرسول ﷺ فيقولون:

ما أسهرك يا نبي الله؟

فقال: أنين العباس[1].

فقام رجل فأرخى وثاقه..

فقال رسول الله ﷺ ما لي لا أسمع أنين العباس؟..

فقال رجل من القوم: اني ارخيت من وثاقه شيئاً يا رسول الله..

فقال عليه السلام:

«فافعل ذلك بالأسارى كلهم».

وفي الصباح عرض الأسرى على الرسول عليه السلام، فلما جاء دور العباس قال الرسول ﷺ:

يا عباس أفد نفسك وابن أخيك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو بن جحدم فانك ذو مال..

قال يا رسول الله: اني كنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني..

وقال الرسول ﷺ:

«الله أعلم باسلامك، ان يك ما تذكر حقاً فالله يجزيك به، فاما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك»[2].

---

(١) الاستيعاب جـ ٢ ص ٨١٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٢٩٩.

وتذكر الروايات التاريخية ان الرسول ﷺ قد أخذ منه عشرين أوقية من ذهب...

فقال العباس: يا رسول الله احسبها من فداي.

قال: لا، ذاك شيء أعطاناه الله منك.

قال: فانه ليس لي مال..

قال عليه السلام:

«فأين المال الذي وضعت بمكة حين خرجت وقلت لأم الفضل بنت الحارث لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فهذا لك وللفضل ولعبد الله وعبيد الله وقثم».

فقال العباس: من أخبرك بهذا؟.. فوالله ما اطلع عليه أحد من الناس غيري وغيرها..

فقال عليه السلام:

«الله اخبرني بذلك».

فقال له: فأنا أشهد أن لا اله إلا الله وأنك رسول الله حقاً، وانك لصادق[1] وذلك معنى قول الله تعالى:

﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً، يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم، والله غفور رحيم﴾[2].

ثم يقول العباس: ولقد تحقق ما وعدني ربي من خير، فأعطاني مكان عشرين أوقية عشرين عبداً وأنا أنتظر المغفرة من ربي.

وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أرجو المغفرة من ربي[3].

---

(١) راجع أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢٣٩.

(٢) سورة الانفال، آية رقم ٧٠.

(٣) راجع مجمع الزوائد جـ ٧ ص ٨، والمستدرك جـ ٣ ص ٣٢٤ والدر المنثور جـ ٣ ص ٢٠٤.

ولكن من أين له هذا المال الذي اشترى به عشرين عبداً كل منهم له مال يتاجر به؟.

يذكر ابن سعد في طبقاته الكبرى: ان العلاء بن الحضرمي، بعث إلى رسول الله ﷺ من البحرين بثمانين الفاً فما أتى رسول الله ما أكثر منه. فأمر بها فنشرت على حصير ونودي بالصلاة فجاء رسول الله ﷺ فمثل على المال قائماً، وجاء الناس حين رأوا المال، وما كان يومئذ عدد ولا وزن، وما كان إلا قبضاً.

فجاء العباس فقال: يا رسول الله انني أعطيت فداي وفدى عقيل بن أبي طالب يوم بدر ولم يكن لعقيل مال، فأعطني من هذا المال.

فقال عليه السلام: خذ.

فحثا العباس في خميصة كانت عليه ثم ذهب ينهض فلم يستطع فرفع رأسه إلى رسول الله وقال:

«يا رسول الله ارفع عليّ».

فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه أو نابه.

وقال: ولكن أعد في المال طائفة وقم بما تطيق.

ففعل وانطلق بالمال وهو يقول:

«أما احدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزها ولا أدري ما يصنع في الأخرى»[1].

(١) رواه الحاكم في المستدرك من حيث عبد الله بن موسى، وطبقات ابن سعد جـ ٤ ص ١٦.

تذييل ...

العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، رجل من أولئك الرجال الأفذاذ الذين كان لهم دور في رفع لواء الاسلام وانتشار هديه.

ولقد كانت حياته رضي الله عنه مملوءة بالجلاد والمثابرة ، فكان لا يرى إلّا في كبريات الأمور ، ولا يسمع له صوت إلا عندما يكون الأمر جدّ كله لا يحتمل التأجيل أو التسويف.

ولقد كانت له مواقف سجلها التاريخ له بأحرف من نور ، ففي بيعة العقبة الكبرى كان موقفه موقف السفير المحنك الذي يعرض سفارة قومه بالحكمة والذهن اللماح وعرض موقف ابن أخيه ﷺ من العرب ، وموقف العرب منه ، وتنبأ بالصعاب التي يتعرض لها الرجال الذين يربطون حياتهم بصاحب الدعوة الجديدة وما يمكن أن ينزل بهم من مشقة وجهد في أنفسهم وأموالهم وأهليهم ، لأن العرب لن تترك محمداً وما يدعو اليه إلّا وهي مكرهة على ذلك.

وكان موقفه أيضاً موقف الخبير بنفوس الرجال العارف بطبائعها وخصائصها وموقف الفارس المحارب الذي يختار جنوده من بين طعنات السيوف وتلاحم الفرسان.

ولقد اطمأن في نهاية الحوار الذي دار بينه وبين الأنصار ، إلى أن رجال يثرب هم العمالقة الذين اختارتهم العناية الإلهية للوقوف خلف محمد ﷺ.

وعندئذ أخذ بيد ابن أخيه عليه السلام وأيدي الأنصار في بيعة موثقة وأشهد الله على ذلك.. وطلب في النهاية من ربه بعد أن اتخذ الأسباب لانجاح هذه البيعة التوفيق والسداد.

وعندما هاجر النبي ﷺ إلى يثرب استشاره العباس في اللحاق به ليكون بجانبه.. ولكن النبي ﷺ أشار عليه بالبقاء ليقوم بمهمة جليلة ويتحمل مسئولية عظيمة، هي مساندة المسلمين الضعفاء بمكة الذين حالت بينهم وبين الهجرة ظروف قاهرة.

فأذعن العباس لأمر الرسول ﷺ وبقي مع الفئة المؤمنة التي لم تهاجر يقوي ضعيفهم، ويهيء الراحلة لمهاجرهم، ويسدد ديون غارمهم ويرصد تحركات قريش ومخططاتها لتكون تحت أعين الرسول عليه السلام وصحبه، حتى لا يؤخذوا على غرة أو تعمى عليهم الأمور.

فعل العباس ذلك في صدر الاسلام. وما أحوج الأمة الاسلامية الآن في وقتنا هذا إلى عباس جديد يسدد ديون الغارمين من البلدان الاسلامية حتى لا تقع فريسة للالحاد والتبعية والشيوعية. ويقف حائلاً وسداً منيعاً ضد دعايات الكبار من الغزو الفكري والتبشير الصليبي والتوسع الصهيوني الذي يتعرض له ضعاف المسلمين.

الأمة الاسلامية الآن في حاجة إلى عباس جديد، يضع تحت بصر القيادة المؤمنة أحوال المسلمين وظروفهم لتعمل القيادة البصيرة على انقاذ المسلمين من الابادة الشاملة التي يخطط لها المد الصهيوني الصليبي في الصومال وفي فلسطين وفي موريتانيا وفي جزر القمر، وفي الحبشة والفليبين.

فمن هو العباس الجديد الذي يحمي أعراض المسلمين من التهتك والاباحة نتيجة للتبعية والتقليد؟.

ويحمي افكار المسلمين وأبناءهم من الحاد ماركس ولينين، ومن اباحة «فرويد» و«داروين» ويحمي بلاد المسلمين من اطماع الطامعين. وغارات المغامرين.

من العباس الجديد يا ترى؟

إذا كان للعباس رضي الله عنه هذا الدور العظيم في انقاذ الفئة المؤمنة بمكة والحيلولة بينهم وبين طواغيت قريش. فان دوره في فتح مكة كان كبيراً وخلاقاً. وأنقذ العرب من حرب طاحنة تستنفذ بعض قواهم، والتي كان يجب أن تدخر في هذا الوقت لتبليغ دين الله إلى البشرية قاطبة.

لقد قام بدور «الحرب الباردة» كما يسمى في عصرنا الحاضر، وكان بداية ذلك عندما التقى بالقرب من مكة ببعض صناديد قريش وقادتها من أمثال أبي سفيان وحكيم بن حزام وغيرهم.

ومن اللحظات الأولى أخذ يفت في عضدهم. ويوضح لهم القوة الضاربة التي أعدها المسلمون لهذا اليوم. ولم يكتف بذلك بل وقف بهم على ربوة عالية ليشاهدوا كتائب المسلمين وهي تسرع الخطا إلى مكة لا يرى منهم إلّا الحدق من الحديد. وعيون يملأها الايمان والصلابة والتصميم على نشر دين الله..

الأمر الذي جعل أبا سفيان ينطلق إلى مكة، ويصرخ فيهم بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. وعندما وقفت امرأة موتورة قتل الكثير من أهلها في الحروب التي دارت بين المسلمين وعصابة الكفر ترد على أبي سفيان وتحرض قومها من قريش على الحرب والقتال، هاجمها بشدة وقال:

لا يغرنكم هذه من أنفسكم فانه قد جاءكم بما لا قبل لكم به وأخذ يفرق من تجمعاتهم ويقول:

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.. ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.. ومن دخل المسجد فهو آمن..

فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد.. وتمّ نصر الله، وفتحت مكة أبوابها لرجالات الاسلام وتحطمت الأصنام، واستسلمت قريش وتغنّى الوجود كله بقوله تعالى:

﴿ انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾.

يا مدرسة القرآن...

يا أمة الاسلام..

أين ابناؤك من أمثال العباس بن عبد المطلب؟..

إن البشرية في حاجة ماسة اليهم الآن..

فتى نلمحهم على الأفق مقبلين؟..

حَمزة بن عَبد المُطَّلِب

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن
ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ
عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ
لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا
بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا
يَمْكُرُونَ (١٢٧) ﴾

صدق الله العظيم

[سورة النحل ١٢٥ : ١٢٧]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

قال المفسرون : نزلت هذه الآيات عندما قتل حمزة — رضي الله عنه .

قاله الامام ابن كثير في تفسيره ج ٤ ص ٥٩٣

ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١١٩

والدر المنثور ج ٤ ص ١٣٥

وقاله ابن سعد في طبقاته ج ٣ ص ١٣

وقاله الامام الواحدي في كتابه أسباب نزول القرآن ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

فمن هو حمزة بن عبد المطلب..؟

حمزة بن عبد المطلب

رضي الله عنه

أسد الله، وأسد رسوله، وسيد الشهداء — كما قال رسول الله — ﷺ.

وسفير الرسول ﷺ إلى خويلد بن أسد في خطبة خديجة رضي الله عنها.

وصاحب أول لواء عقده رسول الله ﷺ لحرب الفئة الباغية من قريش.

فإذا أردنا أن نتعرف على بعض أحوال طفولته وشبابه، فنقول: في احد البيوتات المحيطة بالكعبة إحاطة السوار بالمعصم كانت طفولته ونشأته. وعلى رُبى مكة وسهولها الممتدة عبر الأفق فتح عينيه، وأدرك بعض دنياه.

... وبين لداته وأترابه من أطفال قريش وشبابها تعود الحركة والوثب، وأتقن إرسال الرمح وإصابة الهدف.

حتى إذا ما اشتد عوده، وخط شاربه، ووقف على أول أعتاب الشباب ضاقت دروب مكة وملاعبها عن آماله، فكان يخرج كل يوم الى الوديان الفسيحة، ويعتلي قمم الجبال العالية، منقباً وباحثاً عن صيد يصيده أو طائر يقتنصه، أو أرنب يرسل خلفه رمحه..

فإذا آذنت الشمس إلى المغيب عاد الى مكة، يحمل صيده على راحلته ويحث خطاه إلى منزله.. ليعود بعدها مسرعاً الى الكعبة يشارك أبناء قريش فيما يأخذون أنفسهم به من عبث الحياة وجدها.

حتى كان يوم أحس فيه أن جديداً يجري من حوله ، وأن همساً يدور على الشفاه ، في أمور لا تكاد تبين ، وأن قريشاً قررت أن تجتمع في دار الندوة ، اجتماعاً غير عادي ، لتتشاور في أمر محمد الذي يدعوها إلى دين جديد ، دين لم يعرفه الأجداد ولا الأحفاد ، ومع ذلك ما كاد شباب مكة يسمع بذلك حتى بادروا بالانضمام اليه ، يشاركهم في ذلك كل المستضعفين والخدم ، وتابعوا محمداً فيما يدعو إليه .

الأمر الذي أهمها وأقلق راحتها ، وجعلها تركب رأسها ، لتذيق هؤلاء المستضعفين من عبيد وخدم ألوان العذاب ، وصنوف التنكيل .

أي دين هذا الذي يدعو اليه محمد؟ .

إن حمزة يعرف ابن أخيه جيداً .

فهو أخوه من الرضاعة ، ورفيق حياته ، وصديق طفولته ، ويعرف عنه مكارم الأخلاق ، ورقة الشمائل ، ومحبة الضعفاء ، والوقوف في وجه الظلم .

وهو من قبل هذا ومن بعده الأمين الصدوق بين أهله وعشيرته والحائل بين قريش وبين إراقة الدماء عندما اختلفت في وضع الحجر الأسود فعل ذلك وهو صغير ، أما وقد بلغ مبلغ الرجال أيأتي لقومه بما يفرق جمعهم ويشتت وحدتهم؟ .

محال أن يفعل محمد ذلك .

إنه لن يأتي منه إلا الحق والعدل ، ولن يدعوهم إلا إلى خير .

إن محمداً فيما يدعو اليه يحدث عن ربه .

أيكون صادقاً مع الناس أميناً بينهم كاذباً على ربه ، يتقوّل عليه بما لم يوح اليه به . ؟

لا : إن هذا لن يكون .

هكذا كان يفكر حمزة بينه وبين نفسه ، وهو يسرع براحلته إلى مكان الصيد ، وأخرجه من تأملاته تلك ، ظهور ثعلب من جحره فلكز راحلته لتتجه اليه ، وأسرع

نحوه ، ورماه بسهمه فأرداه قتيلاً . وشغله ما فيه من أمور الصيد عن حديث محمد ، وما تدبره له قريش .

وفي المساء عاد حمزة من مكان صيده متوشحاً رمحه وسيفه ، سعيداً بما جمعه من غزلان وطيور ، وحيوانات برية ، وما كاد يقترب من دروب مكة حتى سمع صوتاً يناديه ، فالتفت نحوه ، فاذا مولاة عبد الله بن جدعان تطلبه ، فاتجه نحوها فقالت له :

« يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام وجده جالساً فآذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد »

قالت المرأة ذلك فأخذ الغضب بمجامع قلبه وقرر في نفسه أمراً . فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد ، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر اليه جالساً في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ثم قال :

أتشتمه..؟ فأنا على دينه أقول ما يقول.. فرد ذلك عليّ إن استطعت فقام رجال من بني مخزوم الى حمزة لينصروا أبا جهل..

فقال أبو جهل : « دعوا أبا عمارة ، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً » .

وعاد حمزة إلى بيته ، ونفى عنه متاعب يومه ، وجلس يفكر ، ويعاود خواطره على هذا الذي حدث من قريب .

كيف أعلن اسلامه ولماذا ؟

لقد أعلنه في لحظة من لحظات الغضب والانفعال ، لقد ساءه أن يهان ابن أخيه ، ويظلم دون أن يجد ناصراً أو معيناً من أهله فغضب من أجله ، وأخذته الغيرة على شرف بني هاشم ، ففعل ما فعل ، وشج رأس أبي جهل . ثم صرخ في وجهه متحدياً معلناً اسلامه ، ومتابعة محمد فيما يدعو إليه .

ولكن هل من العقل أن يغادر الانسان دين آبائه وأجداده دين الأهل

والأحباب ، ويستقبل ديناً جديداً لم يختبر بعد تعاليمه ولا يعرف عن حقيقته إلا قليلاً بهذه الصورة؟.

صحيح أنه لا يشك لحظة في صدق محمد ، ونزاهة مقصده ، ولكن أيمكن أن يستقبل امرؤ ديناً جديداً ، بكل ما يفرضه من مسئوليات وتبعات في لحظة غضب مثلما صنع هو الآن؟.

وعند الكعبة ، كان يستقبلها ضارعاً مبتهلاً. رافعاً أكف الضراعة إلى السماء ، كي يهتدي الى الحق ، والى الطريق المستقيم.

ولنصغ اليه وهو يروي لنا بقية النبإ فيقول :

« ثم أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي ، وبت من الشك في أمر عظيم ، لا اكتحل بنوم ، ثم أتيت الكعبة ، وتضرعت الى الله أن يشرح صدري للحق ، ويذهب عني الريب.

فاستجاب الله لي وملأ قلبي يقيناً ، وغدوت الى رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من أمري ، فدعا الله تعالى أن يثبت قلبي على دينه ».

وهكذا تم إسلام حمزة رضي الله عنه ، وتابع الرسول فيما يدعو إليه ،عندها أيقنت قريش أن حمزة سيمنع ابن أخيه ، فكفت عن بعض ما كانت تفعله معه.

وعرف حمزة الطريق الى دار الأرقم بن أبي الأرقم — المدرسة الأولى في الاسلام ، والتي تلقى فيها أجلاء الصحابة ، الدستور الخالد لتنظيم الدنيا والآخرة. دستور الاسلام الذي ينظم العلاقة بين الفرد ونفسه ، وبين الفرد ومجتمعه ، وبين الفرد وربه.

وعندما جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تلك الدار وطرق بابها بعنف وارتعدت بعض فرائص الرجال عندما سمعوا صوته من الداخل ، كان حمزة أول من تقدم ليفتح له الباب .. وقال لمن معه من الرجال لا تراعوا : إن كان عمر قد جاء يريد منا خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد بنا شراً قتلناه بسيفه.

وأقبل حمزة على التفقه في دينه، والجلوس بين يدي الرسول ﷺ يسمع ويستفسر، ويرهف سمعه لكل ما يقوله الرسول ﷺ، حتى لا يفوته شيء، وكلما عرف شيئاً زاده إلى أن يعرف غيره، حتى كان يوم، أحس حمزة رضي الله عنه أن مجلس الرسول ﷺ خال إلّا منه فتوجه اليه قائلاً: يا رسول الله.. إنّني أريد أن أرى جبريل في صورته.

فقال عليه السلام: إنك لا تستطيع أن تراه.

قال: بلى.

قال عليه السلام: فاقعد مكانك.

قال: فنزل جبريل على خشبة في الكعبة كان المشركون يضعون ثيابهم عليها إذا طافوا بالبيت.

فقال عليه السلام: ارفع طرفك فانظر، فنظر فإذا قدماه مثل الزبرجد الأخضر فخرّ مغشياً عليه[1].

وتعوّد حمزة رضي الله عنه بعدها، الا يسأل الرسول ﷺ شيئاً إلّا ما يتعلق بأمور دينه، وما يتقبله عقله ولا يضيق عنه فكره.

ثم ماذا؟ أراد الله بالمؤمنين خيراً وأذن للرسول عليه السلام بالهجرة إلى يثرب، فامتثل لأمر ربه ثم تتابعت هجرة الرجال المؤمنين الذين فضّلوا اللحاق برسولهم ﷺ ليكونوا على مقربة منه، ومن الاستماع لهديه. وإن كان في ذلك مفارقة الأهل والولد والمال.

وكان في مقدمة المهاجرين إلى يثرب حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وفي المدينة ألقى رحله في منزل أسعد بن زرارة الأنصاري وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة رضي الله عنهما.

واستقر المسلمون بالمدينة، ووفر لهم الأنصار كل ما يحتاجون اليه في حياتهم

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٢ طبعة دار صادر — بيروت.

الجديدة ، وقامت لهم قيادة توجه وترشد ، وتعمل وتخطط وكان على هذه القيادة أن تعمل جاهدة لارهاب قريش ، والعمل على كسر شوكتها ، وتضييق الخناق عليها في تجارتها ، وذلك بإرسال الغزاة اليها وبث العيون في مسالكها.

وكان أول لقاء عقده الرسول ﷺ لهذه الغاية لواء حمزة بن عبد المطلب ، حيث أرسل إلى سيف البحر من ناحية العيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة . وأوشك أن يدور بينهم قتال ، ليحكم السيف بين الفئة المؤمنة ، حريته ، فقد كان الرجل واسمه «وحشي» عبداً لجبير بن مطعم ، وكان عم جبير قد لقي مصرعه يوم بدر فقال له جبير:

وفي ذلك يقول سيد الشهداء حمزة — رضي الله عنه — مصوراً هذه الحادثة :

بأمر رسول الله أول خافق ... عليه لواء لم يكن لاح من قبلي
لواء لديه النصر من ذي كرامة ... إله عزيز فعله أفضل الفعل
فلما تراءينا أناخوا فعقلوا ... مطايا وعقلنا مدى عرض النبل
فقلنا لهم حبل الإله نصيرنا ... وما لكم إلا الضلالة من حبل
فثار أبو جهل هنالك باغياً ... فخاب ورد الله كيد ابي جهل

علام تدل هذه الحادثة؟ وإلى أي شيء تشير؟

تدلّ على أن هؤلاء المهاجرين بدينهم ، الفارين إلى ربهم ، لم تكن هجرتهم من أجل السلامة ، وحفاظاً على المهج والأرواح ، وبحثاً عن الحياة الناعمة الطيبة . إن ذلك كله لم يكن وارداً في حساباتهم وإنما كانت الهجرة من أجل إعداد القوة لإرهاب الكفرة المشركين الذين يصدون عن سبيل الله.

وتشير هذه الكتيبة الصغيرة التي خرجت تتحدى قوة قريش وجبروتها ، وتصاول طغيانها وسيوفها . ان الحياة عند هؤلاء لم يكن لها وزن كبير إلّا بمقدار ما

تؤدّيه لنشر دين الله. وإلّا ما فكر الثلاثون فارساً أن يدخلوا مع ثلاثمائة — يملكون العدة والعدد، والسيوف والدروع — معركة ضارية.

ولكنه الإيمان الذي يهب الانسان القوة، فلا يخاف أحداً، ولا يهاب إنساناً وكيف يداخلهم خوف، أو يكون في قلوبهم وهن، وهم يتلون قول الله تعالى:

﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين (٦٤) يا أيها النبي حرِّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون (٦٥) الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله، والله مع الصابرين (٦٦) ﴾[1].

وتأبى قريش إلّا أن تركب رأسها، وتأتي بقضها وقضيضها تريد القضاء على محمد ﷺ والمهاجرين معه، ونزلت بماء بدر وخرج المسلمون اليهم قلة في العدد والعدة، ولكنهم كثر في أعين الأعداء، ترعاهم عناية الله، وتشد من أزرهم ملائكته الأبرار ونزل المسلمون على الماء، وأقسموا أن لا ينال كافر منها شربة ماء. ولكن الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلاً شرساً سيء الخلق، خرج من صفوف قريش وهو يقول:

«أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه».

وما كاد يتقدم ناحية الماء حتى برز اليه حمزة رضي الله عنه، فلما التقيا ضربه حمزة فأطار قدمه بنصف ساقه، وهوى دون الحوض فوقع على ظهره تشخب رجله دمه، ثم حبا الى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يبر بيمينه، فاتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.. إن هذا الأسود بن عبد الأسد المخزومي الذي نال جزاءه وعقابه أحد اتباع حزب الشيطان الذين خرجوا من مكة بطراً ورياء لتسمع العرب بهم، وتتحدث عن شجاعتهم وقوتهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وجندل

---

(١) سورة الأنفال الآيات من ٦٤ الى ٦٦.

البعض قريباً من ماء بدر ، وعاد البعض الآخر مدحوراً مهزوماً ، وتدل فلولهم الفارة نحو مكة بأن جند الله هم الغالبون.

ولقد قام أسد الله حمزة في غزوة بدر ، بدوره كاملاً في تشتيت الأعداء وتفريق وحدتهم ، ويكفيه في هذا اليوم ما فعله — يرجو به وجه الله — من قتله صنديداً من صناديد قريش ، وفارساً من فرسانها هو شيبة بن ربيعة ، وكر مع علي رضي الله عنه وقتلا أخاه أيضاً عتبة بن ربيعة.

فإذا ما انتهت معركة بدر التي كان يحارب فيها بسيفين كما يقول بعض الرواة ، وقرت بذلك عيون المؤمنين وقلوبهم .. فإنه لم يفكر في الراحة بل أخذ يشنف آذانهم على قيثارة الشعر ، ويفتخر بهذا اليوم المبارك الأغر ويكبت حزب الشيطان والضلال بقوله :

أولئك قوم قتلوا في ضلالهم	وخلوا لواء غير محتضر النصر
لواء ضلال قاد إبليس أهله	فخاس بهم ان الخبيث الى غدر
وقال لهم إذ عاين الأمر واضحاً	برئت اليكم ما بي اليوم من صبر
فاني أرى ما لا ترون وانني	أخاف مقام الله ، والله ذو قسر

حقاً لقد كانت موقعة بدر احدى العلامات البارزة في تاريخ المسلمين ، فيها خنس الشرك ، وذلت الجهالة ، واستخذت قريش .. فأخذت تعد العدة لما بعدها ، وتجمع الرجال ليوم تأخذ فيه بثأرها ، وتسترد كرامتها .. حتى كان يوم أحد ذلك اليوم الذي حددته قريش ، لتنال من محمد ومن رجال محمد ، وعلى رأس هؤلاء الرجال حمزة الذي جندل ابطالهم ، أجل حمزة : لأن الذي كان يسمع أحاديثهم ومؤامراتهم قبل الخروج للحرب يرى كيف أن «حمزة» بعد الرسول ﷺ كان هو القصد وهدف المعركة.

ولقد اختاروا قبل الخروج ، الرجل الذي وكلوا اليه أمر حمزة ، وهو عبد حبشي ، كان ذا مهارة خارقة في قذف الحربة ، جعلوا كل دوره في المعركة أن يقتل

حمزة ، ويصوب اليه ضربته القاتلة من رمحه . ووعدوه بثمن غال وعظيم . هو : حريته ، فقد كان الرجل واسمه « وحشي » عبداً لجبير بن مطعم ، وكان عم جبير قد لقي مصرعه يوم بدر فقال له جبير :

« أخرج مع الناس ، وان أنت قتلت حمزة فأنت حر » .

ثم أحالوه الى هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان لتزيده تحريضاً ودفعاً الى الهدف الذي يريدون .

وكانت هند قد فقدت في معركة « بدر » أباها وعمها وأخاها وابنها وقيل لها ان حمزة هو الذي قتل بعض هؤلاء وأجهز على البعض الآخر .

من أجل هذا .. كانت أكثر القرشيين والقرشيات تحريضاً على الخروج للحرب ، لا لشيء إلّا لتظفر برأس حمزة مهما يكن الثمن الذي تتطلبه المغامرة .

ولقد لبثت أياماً قبل الخروج للحرب ، ولا عمل لها إلا افراغ كل حقدها في صدر « وحشي » ورسم الدور الذي عليه أن يقوم به .

ولقد وعدته ان هو نجح في قتل حمزة بأثمن ما تملكه المرأة من متاع وزينة ، فلقد أمسكت بأناملها الحاقدة قرطها اللؤلؤي الثمين وقلائدها الذهبية التي تزدحم حول عنقها ، ثم قالت وعيناها تحدقان في « وحشي » : كل هذا لك ان قتلت حمزة »[1] .

وخرجت قريش برجالها ونسائها وشبابها وكل فرسانها ، تحمل السلاح والعتاد وفي قلبها انتقام الحقود .

والتقى الجمعان واشتد أوار المعركة ، وقاتل حمزة قتالاً شديداً ، ثم مر به سباع ابن عبد العزّى ، أحد كفار قريش ، وكان يكنى بأبي نيار فقال حمزة : إليَّ يا ابن مقطعة البظور ، وكانت أمه أم انمار ختانة بمكة فلما التقيا ضربه حمزة فقتله .

ثم ماذا ؟

---

(١) رجال حول الرسول ــ خالد محمد خالد .

يقول قاتل حمزة «وحشي» غلام جبير بن مطعم» : والله اني لأنظر لحمزة يهدد الناس بسيفه إذ تقدمني إليه سباع. فقال حمزة هلم يا ابن مقطعة البظور فضربه ضربة فكأنما أخطأ رأسه وهززت حربتي حتى إذا رخيت منها دفعتها فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحوي فغلب فوقع وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتي ثم تنحّيت إلى العسكر ولم يكن لي بشيء حاجة غيره[1].

قتل سيد الرجال، وسيد الشهداء بعد أن أدى ما عليه تجاه ربه وتجاه دينه، وترك خلفه زوجة وبنتاً.

أما الزوجة فهي سلمى بنت عُميس الخثعمية لها صحبة، وهي إحدى الأخوات التي قال فيهن رسول الله ﷺ الأخوات مؤمنات[2].

وقد تزوجها بعد مقتل حمزة شداد بن أسامة الليثي.

وأما الابنة فهي عمارة بقيت بمكة بعد مقتل والدها حتى كانت عمرة القضاء كلم علي بن أبي طالب رسول الله ﷺ فقال علام نترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهري المشركين؟

فلم ينهه النبي ﷺ عن إخراجها فخرج بها فتكلم زيد بن حارثة وكان وصي حمزة، لأن النبي عليه السلام — آخى بينهما حين آخى بين المهاجرين.

فقال : أنا أحق بها ابنة أخي تبقى معي وتعيش في منزلي.

فلما سمع بذلك جعفر بن أبي طالب قال : الخالة والدة، وأنا أحق بها لمكان خالتها عندي اسماء بنت عميس.

فقال علي رضي الله عنه : ألا أراكم تختصمون في ابنة عمي، وأنا أخرجتها من بين أظهر المشركين، وليس لكم اليها نسب دوني، وأنا أحق بها منكم.

فقال رسول الله ﷺ أنا أحكم بينكم، أما أنت يا زيد فولى الله ومولى رسوله.

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة﴾ عن الامام القرطبي.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ١.

وأما أنت يا علي فأخي وصاحبي.

وأما أنت يا جعفر فشبيه خَلقي وخُلقي، وأنت يا جعفر أولى بها تحتك خالتها، ولا تنكح المرأة على خالتها ولا عمتها، فقضي بها لجعفر.

قال محمد بن عمر: فقام جعفر فحجل حول رسول الله ﷺ فقال النبي عليه السلام: ما هذا يا جعفر؟.

فقال: يا رسول الله كان النجاشي إذا أرضى أحداً قام فحجل حوله.

فقيل للنبي: تزوجها.

فقال عليه السلام: ابنة أخي من الرضاعة.

فزوجها رسول الله سلمة بن أبي سلمة، فكان النبي ﷺ يقول: هل جزيت سلمة[1]؟.

رضي الله عن سيد الشهداء، وأسكنه فسيح جناته، بمقدار ما قدم من نشر لدينه، والدفاع عن شريعة ربه.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٨.

أسباب نزول الآيات

قال ابن عباس رضي الله عنه :

لما انصرف المشركون عن قتلى أُحد ، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه ، ورأى حمزة قد شُق بطنه ، واصطلم أنفه وجدعت أذناه فقال :

« لولا أن تحزن النساء أو تكون سنة بعدي ، لتركته حتى يبعثه الله تعالى من بطون السباع والطير ، لأقتلن مكانه سبعين رجلاً منهم » ، ثم دعا ببرده فغطى بها وجهه فخرجت رجلاه ، فجعل على رجليه شيئاً من الإذخر ، ثم قدمه وكبّر عليه عشراً ، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه حتى صلّى عليه سبعين صلاة . وكان القتلى سبعين فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية :

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ .

وعن أبي هريرة قال :

أشرف النبي ﷺ على حمزة فرآه صريعاً ، فلم ير شيئاً كان أوجع لقلبه منه وقال :

« والله لأقتلن بك سبعين منهم » فنزلت :

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » . فقال رسول الله ﷺ :

« بل نصبر يا رب » .

وقال المفسرون : إن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أُحد من تبقير البطون ، وقطع المذاكير والمثلة السيئة ، قالوا حين رأوا ذلك : لئن أظفرنا الله عليهم لنزيدن على صنيعهم ، ولنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط ، ولنفعلن ولنفعلن.

ووقف رسول الله ﷺ على عمه حمزة ، وقد جدعوا أنفه وأذنه ، وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه ، وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم ابتلعتها لتأكلها ، فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها ، فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فقال : « أما أنها لو أكلتها لم تدخل النار أبداً ، حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيئاً من جسده النار » .

فلما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة ، نظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء كان أوجع لقلبه منه فقال :

« رحمة الله عليك ، إنك كنت ما علمت وصولاً للرحم ، فعالاً للخيرات ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى تحشر من أجواف شتى ، أما والله لئن أظفرني الله تعالى بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك » فأنزل الله تعالى :

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

فقال النبي ﷺ :

بلى نصبر. وأمسك عما أراد وكفر عن يمينه.

تذييل ...

كان حمزة بن عبد المطلب هدفاً من أهداف معركة أحد ، وحتى قبل أن تعد قريش العدة لتلك الغزوة ، وتجيش الجيوش لخوضها .. كانت هناك التدابير والمؤامرات لقتل هذا البطل مهما كلفها ذلك من ثمن.

.. وكانت الوعود تطرح ، والأماني تقدم لمن يأتي برأس حمزة بن عبد المطلب. حتى المرأة في قريش كان لها دور في هذه المؤامرة الدنيئة.

المرأة الحاقدة الكافرة الموتورة .. التي وعدت بتقديم أغلى ما تملكه امرأة من جواهر وكنوز لمن يأتي لها بخبر مجندل الأبطال ومصارع الفرسان.

ولكن لماذا حمزة؟ وحمزة بالذات.

ولم يكن له دور أكثر من غيره من الصحابة في غزوة بدر.

أهناك شيء فيه يميزه عن بقية أبطال الاسلام؟

الحقيقة التي لا يختلف فيها أحد أن حمزة وهب نفسه للدعوة ، وأوقف حياته لنصرتها ، ولقد حباه الله سبحانه وتعالى الملكات التي تمكنه من أداء تلك المهمة الجليلة.

الأمر الذي جعل الأعداء يحسون منه بالخطر على مراكزهم وحياتهم ، إن حمزة في منطق الأعداء ، هو قوة باطشة كفيلة بتفريق جموعهم ، وقتل صناديدهم ، دون أن ينال منه أحد ، أو تقف في سبيله عقبة.

وما دام ذلك كذلك، فلا بد لدعوة الاسلام أن تنتشر، ولاتباعه أن ينداحوا في الأرض الفسيحة للدعوة له، وازالة الطواغيت عن طريقه واكتساب الأنصار لمبادئه.

وهذا ما يرعب قوة الكفر والشرك والالحاد.

واذا كانت الجاهلية القديمة التي عبدت الأصنام وكفرت بالرحمن، جمعت جموعها، وحشدت حشودها، ولم يهدأ لها بال أو استقر لها قرار حتى تم القضاء على حمزة — رضي الله عنه — فإنه وعلى مدار التاريخ كان الإسلام في كل عصر ومصر لا يعدم حمزة جديداً، يهب نفسه للاسلام ويبيع روحه في سبيل الله. فيرعب أعداء الدين، ويجمع صفوف المسلمين الشاردين من حوله. ويحول بين الأعداء أن ينالوا من خيرات بلاد المسلمين حتى ولو كانت شربة ماء كما فعل حمزة الأول.

وهنا تحس عصبة الكفر بالخطر على مصالحها، وببوار معتقداتها وضلالها فتشحذ أسلحتها للقضاء عليه، أو النيل منه في خلقه ودينه.

وعلى الرغم من مضي أربعة عشر قرناً على تاريخ المؤامرة الأولى التي دبر فيها القضاء على رجل من رجالات الاسلام؛ فلا زالت بعض الطوائف الحاقدة على الاسلام وأهله، تستعمل نفس الأسلوب، ونفس الأسلحة التي استعملتها قديماً.

لقد ظهر بالأمس القريب رجل في مصر، يدعو إلى دين الله على صدق ويطالب بتطبيق شرع الله بلا عنف، وصادفت دعوته هوى في القلوب المتعطشة إلى نبع الايمان، فالتفوا حوله، وأخذت الدعوة الاسلامية تجمع رجالها وتعد جنودها في الشرق والغرب، وكلها تدين لهذا الرجل بالولاء والحب.

وأحست عصبة الكفر، من أتباع الصليبية الحاقدة، واليهودية المتنمرة أن الاسلام يجمع شمله، ويستعيد قوته — وهذا ما لا ترضاه بحال — لأنه على أقل تقدير يمثل خطراً على كفرها وضلالها.

فدبرت مؤامرتها بليل للقضاء على هذا الرجل، ولم يعدموا في هذه المرة أيضاً رجلاً ممن ينتسب إلى الاسلام.

وأغروه بلعبة من لعب الحياة.

وبمنصب من مناصب الغرور.

وأموال أضيفت لرصيده لأنه كان من هواة جمع الكنوز.

واستجاب الرجل لهم ووكل أمر فعلته لأتباعه البلهاء، وبعض أنصاره الجهلاء فنفذوا جريمته كما نفذ وحشي فعلته في حمزة.

وسقط في ساحة الايمان شهيد جديد، وسالت دماؤه الطاهرة فوارة متدفقة لتروي الثرى الطيب، حتى يظهر عليه بطل جديد.

ولم يمض على اغتيال الرجل حسن البنا بضعة أعوام، حتى ظن البلهاء من أعداء الاسلام أن الساحة أصبحت خالية من الرجال الاشداء وان الجو ممهد لمؤامراتهم ضد الدين وأهله.

ولكن محال أن يكون ذلك. فقد قيض الله لدينه من يدافع عنه، ولشرعه من يحميه، وبرز إلى ساحة الايمان هذه المرة رجل آخر في السعودية ومن طراز فريد لم تعرفه الدعوات من قبل.

لقد كان أعداء الاسلام يدّعون على دعاته دائماً أنهم طلاب ملك أو غنيمة، ودعاة فوضى أو هزيمة.

ولكن الرجل الذي يدعو بدعوة الاسلام هذه المرة لم يكن طالب ملك فهو ملك.

ولم يكن طالب رياسة بل في يده مقاليدها.

ولم يكن هدفه الغنى والمال، لأن الله سبحانه وتعالى أغدق عليه من الكنوز الشيء الكثير.

انه يطالب فقط أن يعود للاسلام مجده وللقرآن عهده.

وأخذ يعد العدة لذلك ، وبرز اسمه في الساحة عملاقاً جريئاً ليس من السهل على أعداء الله أن ينالوا منه.

بل استطاع هذا الرجل في فترة وجيزة — أن يرعب أعداء الاسلام ويدخل الخوف في قلوبهم ، ويوقف مصالحهم ، ويعطّل انتاجهم.

ليس هذا فحسب ، بل شارك في معركة رمضان المجيدة فكان النصر المؤزر والفتح المبين.

ولم يسكت الأعداء ، وأخذوا يعدون العدة ، لمؤامرة جديدة ، واستقر سهمهم المسموم في صدر الرجل العملاق الذي حمل راية الاسلام فترة ، ودعا إلى جمع شمل المسلمين في معركة.

قتل الملك فيصل الذي دافع عن قضايا الاسلام والمسلمين.

كما قتل قبله حسن البنا الرجل الذي دعا بدعوة الاسلام.

ومن قبل حسن البنا جندل الكثير من الأبطال.

ومن بعد حمزة ارتوت الأرض بالكثير من دماء الشهداء الذين وهبوا أرواحهم في سبيل الله.

ومع كل هذه المؤامرات التي حيكت ودبرت بليل.

وبالرغم من كثرة من قتلوا وجندلوا من أبطال الاسلام.

فإننا نلمح في الأفق فجراً جديداً ، فجراً مشرقاً يعود علينا برجل جديد ، ينشر النور والأمان ، ويحمي أتباع الاسلام والايمان حتى يفرح المؤمنون بنصر الله.

فمن يا ترى يكون هذا الرجل العملاق؟

إنا لمنتظرون ! !

أبو عُبَيدة بن الجراح

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ
يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ
أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ
أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة المجادلة آية رقم ٢٢]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض علماء التفسير نزلت هذه الآية في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح.

قاله الامام ابن كثير في تفسيره جـ ٦ ص ٥٩١.

وقاله الامام القرطبي في تفسيره جـ ١٧ ص ٣٠٧

وقاله الامام السيوطي في تفسير الدر المنثور.

نقلاً عن أبي حاتم والطبراني والحاكم جـ ٦ ص ١٨٦

وذكره الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء جـ ١ ص ١٠١

فمن هو أبو عبيدة بن الجراح؟..

ابو عبيدة بن الجرّاح
رضي الله عنه

من ابن الجراح.. هذا؟ وما مكانته في الدعوة إلى الله؟

إنه القائد الذي ملأ سمع الدنيا انتصاراً وفوزاً.

والانسان الذي سخر من الدنيا وبهرجها الزائف، والقى بنفسه في أتون المعارك يطلب الموت، فكانت توهب له الحياة.

والقوي الأمين الذي اختاره رسول الله ﷺ لأهل نجران معلماً وأميناً.

وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

والقائد الذي طلب من ربه أن تكون آخر أيامه وسط جنوده فحقق الله له مطلبه.

تلك هي أهم الخطوط البارزة في شخصية أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح وناشر كلمة «الله أكبر» في ربوع الشام وبطاحها.

أما عن صفاته الجسدية، فيقول عنه الرواة، بأنه كان معروق الوجه خفيف اللحية، طوالاً أثرم — وما رئي أهتم قط أحسن منه — وكان يخضب رأسه ولحيته بالحناء.

ويتقدم أحد الرجال إلى عبد الله بن عمر قائلاً له: ماذا كان ابن الجراح؟

فيقول ابن عمر رضي الله عنه : كان رحمه الله أصبح الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً ، وأشدهم حياء.

وكان يطيب لنا أن نلقي بعض الظلال على أيامه الأولى بين أترابه ولداته ، ولكن التاريخ يصمت عن تلك الفترة ، فلا يتحدث عن طفولته اليافعة ، ولا عن شبابه المبكر.

ولكن التاريخ الذي لم يعر طفولة هذا العملاق اهتمامه ، يقف عنده فجأة ليسجل لنا وقع خطواته إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم لينضم الى تلك الفئة المؤمنة التي اختارت الاسلام ديناً ، وآمنت بالله رباً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

لقد كان ابن الجراح من السابقين الى الاسلام ، ومن أوائل الملبين داعي الله.

يقول صاحب الطبقات : انطلق عثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو سلمة بن عبد الأسد وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله ﷺ فعرض عليهم الاسلام وأنبأهم بشرائعه فأسلموا جميعاً في ساعة واحدة وذلك قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم وقبل أن يدعو فيها.

ومن هذا التاريخ تحول انساناً جديداً يكاد يكون مبتوت الصلة عن الانسان الأول ، الذي عاصر جهالة قريش ، وتقديسها لأصنامها وتخبطها في معتقداتها.

وعندما ركبت قريش رأسها ، وأعلنت الحرب على الفئة المؤمنة وسامتها صنوف العذاب ، واذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة ، كان أبو عبيدة بن الجراح في مقدمة المهاجرين بدينهم الفارين إلى ربهم.

وعلى الرغم من الحفاوة البالغة التي قابلهم بها ملك الحبشة ، والتكريم لهم ولأسرهم ، واغداق الأموال عليهم ، وتقريبهم له في مجلسه.. فإن ذلك كله ، لم يعوضهم — ولو للحظات معدودة — ما كان يشنف آذانهم ويملأ قلوبهم بالايمان والغبطة من آيات التنزيل ، وهدى الرسول الكريم ، بل نراهم يعودون مسرعين إلى مكة ، عندما نقلت اليهم أخبار الصلح بين محمد وقريش ، ولقد أنستهم الفرحة

الغامرة التي لفتهم جميعاً من أن يتحققوا من صدق الخبر واستقبلتهم قريش بعذاب أشد وتنكيل أكبر، وسقط البعض صرعى الحقد الأسود الذي يملأ بعض القلوب من أعداء الدعوة الوليدة.

ولم يدم بقاء ابن الجراح بمكة طويلاً فقد استيقظ في يوم على جلبة وأصوات مختلطة، وعندما تعرف عليها أدرك الحسرة التي تملأ قلوب زعماء قريش لانفلات محمد من الحصار الذي أعدته له، وهجرته الى يثرب، لتكون هذه البلدة الطيبة قاعدة الاسلام والمسلمين، ينطلق منها الابطال الذين تربوا في مدسة الاسلام إلى أقطار الأرض قاطبة، داعين عباده اليه، ومطالبين البشرية كلها بكلمة التوحيد، وعبادة الواحد الأحد، الفرد الصمد.

وشاهدت الطريق الممتدة إلى يثرب فارساً يطلق العنان لراحلته لتسابق الريح، وتطوي الأرض تحت أقدامها طياً، حتى يلحق بالعصبة المؤمنة الفارة بدينها، ولم يكن هذا الفارس سوى أبي عبيدة بن الجراح الذي وقف أمام الرسول ﷺ ووجهه لا يكاد يبين من كثرة ما تراكم عليه من رمال الصحراء وعناء الطريق، فاستقبله الرسول وهش لمقدمه، وآخى بينه وبين سعد بن معاذ.

نعم سعد بن معاذ الذي قدم نفسه وماله في سبيل الاسلام ورفض أن يصالح اليهود بعد نقضهم عهدهم مع رسول الله ﷺ وأصيب يوم الاحزاب بجرح غائر فقال:

اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني في بني قريظة — ولقد استجاب الله له، وطلب منه الرسول ﷺ أن يحكم على بني قريظة فكان حكمه:

أن تقتل رجالهم.

وتسبى نساؤهم وذراريهم.

وتصادر أموالهم فيستعين بها المسلمون.

فقال له الرسول ﷺ لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات[1].

وفي الأثر: لو نجا أحد من صغطه القبر لنجا منها سعد بن معاذ[2].

ومن أول يوم وطئت فيه أقدام ابن الجراح أرض يثرب وطن نفسه وحياته لجليل التبعات، وعظيم المسئوليات، ولقد ظهر أثر ذلك في كل الغزوات التي خاضها بمفرده أو مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف أبو عبيدة عن واحدة منها.

فمثلاً في غزوة بدر كان ابن الجراح جندياً ملتزماً أوامر القائد، وكان مؤمناً واثقاً من نصر الله الذي وعده المؤمنين، وكانت طبيعة المعركة واضحة أمام عينيه لا لبس فيها ولا غموض، فكل المحاربين تحت لواء الرسول ﷺ الناطقين بكلمة التوحيد، هم أهله وعشيرته وأحبابه، وان نأت بينهم المسافات، وتباينت فيما بينهم الجنسيات، واختلفت فصيلة الدم والنسب.

وكل من حارب تحت لواء قريش وانضم اليها فهو من أعدائه واعداء عقيدته، حتى ولو كان من أقرب المقربين اليه.

ومن هذا المنطق لفهم عقيدته ودينه، وطبيعة الدور الذي يقوم به، شاهد والده، وهو يحارب بسيفه في صفوف المشركين، ويقتل أحبابه المؤمنين. وعندما اقترب منه أراد أن يقتله هو، فحاد عنه، ولكنه تبعه، فما كان من أبي عبيدة، إلّا أن قصده وقتله.

.. إن والده كافر يشرك مع ربه غيره.
كافر بالاله الذي خلقه وسواه وعدله، إذن لا خير فيه.
ومن لا خير فيه لربه فلا خير فيه للناس أجمعين.

وفي غزوة أحد وقد بلغ القتال ذروة ضراوته أحاط الأعداء برسول الله ﷺ

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٤٢٣.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٦٠٤.

وشاهد أبو عبيدة سهماً ينطلق من احدى الأيادي الآثمة، ويصيب رسول الله ﷺ فاقترب منه مع بقية الصحابة وعمل سيفه في الذين يحيطون به. وشاهد دمه الزكي يسيل على وجهه، والرسول يمسح الدم بيمينه وهو يقول[1] : «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم»؟

يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، مصوراً الدور الذي قام به ابو عبيدة لما كان يوم أحد، ورُمي رسول الله ﷺ حتى دخلت في وجنته حلقتان من المغفر، أقبلت أسعى إلى رسول الله ﷺ وإنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيراناً، فقلت: اللهم اجعله طاعة، حتى إذا توافينا الى رسول الله إذا هو أبو عبيدة بن الجراح قد سبقني فقال:

أسألك بالله يا أبا بكر أن تتركني فأنزعها من وجه رسول الله، فتركته فأخذ أبو عبيدة بثنيته إحدى حلقتي المغفر فنزعها وسقط على الأرض وسقطت ثنيته معه.

ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فسقطت فكان أبو عبيدة في الناس أثرم[2].

وفي غزوة ذات السلاسل أرسله الرسول ﷺ في مجموعة من الصحابة فيهم أبو بكر وعمر مدداً لعمرو بن العاص.

وأوصاه الرسول ﷺ وقال له: لا تختلفا.

حتى إذا قدم على عمرو، قال له عمرو: يا أبا عبيدة إنما جئت مدداً لي.

قال أبو عبيدة: لا ولكني على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه.

ولكن عمرو يرفض تعدد الإمارة ويصر على أنه مدد له:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٤١٠.

فقال أبو عبيدة : يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال لي : لا تختلفا ، وانك إن عصيتني أطعتك[1] .

.. يا لروعة هؤلاء الرجال !؟

لقد صنع الاسلام منهم نماذج جديدة ، للانسان الكامل الذي رباه ربه ، وصفى روحه وقلبه ، من كل ترابية الأرض ، واسفافية البشر مرحى يا أبا عبيدة وهنيئاً لك .

ما أصدق هذه الكلمة في ميزان الرجولة — إن عصيتني أطعتك — عندما يكون الدافع لها من الداخل مصلحة الجماعة ، وخير الاسلام والمسلمين !

وتتمرد إحدى قبائل «جهينة القبلية» فيرسله الرسول ﷺ على رأس ثلاثمائة رجل من المهاجرين والانصار فيهم عمر بن الخطاب لتأديب الخارجين على شرع الله . وليس معهم من زاد إلا أقل القليل والمهمة شاقة ، والسفر طويل .

ولكن أبا عبيدة وجنوده ، تفانوا في أداء ما كلفوا به ، ولم يقف قلة الزاد وفقده عن القيام بأمر الرسول ﷺ لقد أخذوا يتصيدون الخبط[2] أي ورق الشجر فيسحقونه ويسفونه ويشربون عليه الماء ليتقووا بذلك على أداء واجبهم ، واستمروا على ذلك حتى ألقى لهم البحر حوتاً عظيماً فأكلوا منه ، ثم انصرفوا دون أن يلقوا كيدا[3] .

ويأتي وفد من نجران للنبي ﷺ يطلب منه أن يرسل معهم رجلاً يعلمهم أمور دينهم ويفقههم في شريعة ربهم .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٩٩ .

(٢) الخبط : ورق الشجر .

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١٣٢ وسيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٠٩ ، وفتح الباري على صحيح البخاري جـ ٨ ص ٢٦ .

ويحكم بينهم فيما اقتسموا، ويعدل بالسوية اذا اختلفوا.

فقال لهم رسول الله ﷺ ائتوني العشيةأبعث معكم القوي الأمين.

فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول:

«ما أحببت الامارة قط حبي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها فرحت إلى الظهر مهجراً، فلما صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر سلم ثم نظر يمينه ويساره. فجعلت أتطاول له ليراني، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه فقال: «اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه»[1].

قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة.

وفي رواية ان النبي ﷺ قال لأهل نجران لابعثن حق أمين».

فأشرف أصحابه فبعث أبا عبيدة.

وكان الرسول ﷺ يقول عن أبي عبيدة:

«ان لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

وصدق ما قاله الرسول ﷺ فقد كان ابن الجراح أميناً في خلقه فلم يأخذ أحد عليه شيئاً.

وأميناً على دينه عاملاً على انتشاره والدعوة اليه.

وأميناً على ثغور المسلمين فلم تأخذ من قبله مطلقاً.

وكيف لا يكون كذلك، وهو أحد العشرة السابقين إلى الاسلام، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة.

ولما توفي رسول الله ﷺ، أتى بعض الناس أبا عبيدة ليبايعوه بالخلافه فقال:

«أتأتوني وفيكم ثالث ثلاثة»[2].

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري جـ ٧ ص ٧٤.

(٢) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٣٩٥.

يريد أبا بكر الصديق رضي الله عنه إشارة للآية الكريمة :

﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾[1] .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ممن أتاه يومذاك فقال :

« ابسط يدك فلأبايعك أمين هذه الأمة على لسان رسول الله ﷺ فقال أبو عبيدة لعمر :

« وما رأيت لك فهة[2] قبلها منذ أسلمت أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين؟ . فكأنه رد عمر إلى شيء كان قد غاب عنه .

فأرسل عمر الى أبي بكر في بيت عائشة أم المؤمنين ، وقصدوا ثلاثتهم سقيفة بني ساعدة .

فقال أبو بكر : ما هذا؟

فقال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير » .

فقال ابو بكر : منا الأمراء ومنكم الوزراء ، ثم قال : وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين : عمر وأبا عبيدة أمين هذه الأمة .

فقال كل من عمر وأبي عبيدة : لا ينبغي لأحد أن يكون فوقك يا أبا بكر فبايعاه .

انهم أتباع محمد وأصحابه ، صقلهم بقرآن ربه ، وخط لهم شئون الحياة بهديه وأدبه .

ويطلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أبي عبيدة أن يتولى قيادة جيوش المسلمين على أرض الشام بدلاً من خالد بن الوليد .

فلم يخبر أبو عبيدة خالداً بعزله إكراماً له واجلالاً .

---

(١) سورة التوبة ٤٠ .

(٢) الفهة : السقطة .

فلما علم خالد بعزله واستعمال أبي عبيدة مكانه قال للناس :

«بعث عليكم أمين هذه الأمة».

وقال أبو عبيدة للناس عن خالد :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«خالد سيف من سيوف الله، نعم فتى العشيرة»[1] .

إنها القيادة، ولكنها لا تغرهم.

وهي الدنيا ولكنها لا تبطرهم، لأن رسالتهم محددة، ومهمتهم واضحة كما قال ربعي بن عامر :

«الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده».

وإذا كانت المناصب لا تغرهم ولا تنال منهم، فإن الدنيا كلها عندهم كذلك.

أرسل عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار وقال لرسوله : انظر ما يصنع.

فقسمها ابو عبيدة. فلما أخبر عمر رسوله بما صنع أبو عبيدة بالمال قال : الحمد لله الذي جعل في الاسلام من يصنع هذا.

ولما قدم عمر الشام تلقاه أمراء الأجناد وقادة الجيوش، فسألهم أين أخي؟

فقالوا من؟ قال ابو عبيدة.

قالوا : يأتيك الآن. فجاء على ناقة مخطومة بحبل فسلم عليه، فقال عمر للناس : انصرفوا عنا، وسار مع أبي عبيدة حتى أتى منزله فنزل عليه فلم يرَ في بيته إلا سيفه وترسه فقال عمر :

«لو اتخذت متاعاً». أو قال : شيئاً.

فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين إن هذا سيبلغنا المقيل[2] .

(1) الاصابة في معرفة الصحابة جـ ٢ ص ٥٩٥، وأسد الغابة جـ ٣ ص ٥٨.

(2) الاصابة جـ ٤ ص ١٢.

مرحى يا بطل الأبطال.

يا مجندل الكفر وأهله.

وحاطم الشرك وحزبه، يا من لم تعرفك الدنيا إلا فوق فرسك فاتحاً، أو على الثرى ساجداً، ولربك شاكراً.

فإذا لم يجد في بيتك عمر الطنافس والرياش لأنك لست قعيد المنازل وإذا لم يجد في بيتك زهرات الدنيا، وكنوز الحياة، لأنك كنت دائماً تتطلع إلى ما بعد الحياة.. إنما يحرص على الدنيا من تزين له الشياطين انه مخلد فيها.. أما أنت فكنت تعرف الطريق جيداً الى حياة الخلود والابدية.

وإذا كانت هذه طبيعة أبي عبيدة، صرامة وقوة، ودراية بالحياة وخبرة بالنفوس، والتزاماً بالحق فانه هو هو لا يعرف المجاملة أو الحيدة قيد شعرة عن العدل بين الناس مهما اختلفت منازلهم أو تباينت جنسياتهم. وهذه الحادثة تدل دلالة واضحة على صدق ما نقول:

لقد أسلم جبلة بن الايهم ملك غسان، عندما كتب له الرسول ﷺ يدعوه الى الاسلام، ولم يزل مسلماً حتى كان يوماً وهو يسير في سوق دمشق، إذ وطىء رجلاً من مزينة، فوثب المزني فلطمه، فأخذ وانطلق به الى أبي عبيدة بن الجراح، فقالوا:

«هذا لطم جبلة».

قال أبو عبيدة: فليلطمه!!

قالوا: وما يقتل؟..

قال: لا، قالوا: فما تقطع يده؟ قال: لا، انما أمر الله تبارك وتعالى بالقود.

قال جبلة: أو ترون أني جاعل وجهي نداً لوجه جدي جاء من عَمْق.. ثم ارتد نصرانياً وترحل بقومه، حتى دخل أرض الروم.

ويريد الله سبحانه وتعالى لدينه أن ينتشر، وتدين به منطقة الشام كلها، ولكن

بقيت القلاع والحصون ، واستمر الجند على أهبة الاستعداد لفتح جديد ، ومعهم قائدهم أبو عبيدة بن الجراح .

ولكن الله سبحانه وتعالى يختار الخير لعباده ، وهو أعرف بهم وأعلم بما يصلحهم . ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [1] . فقد أنزل عليهم بلاءه وأصيب الجيش بالطاعون ، واخذ يحصد الجند حصدا ، ويعلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهذا الوباء وكأنه يضن بأبي عبيدة على الموت فأرسل اليه يطلب منه الخروج اليه ، قال عمر رضي الله عنه :

« سلام الله عليك أما بعد ، فقد عرضت لي اليك حاجة أريد أن أشافهك فيها . فعزمت عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل » .

ويقرأ أبو عبيدة خطاب عمر ، ويعرف منه ما أراد ، فكتب اليه :

« يا أمير المؤمنين ، قد عرفت حاجتك إليّ ، وإني في جند المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه فخلني من عزيمتك » .

وبقي أبو عبيدة وأهله وسط جنوده سليماً معافى من الطاعون فقال : اللهم نصيبك في آل أبي عبيدة .

فخرجت في خنصره بثرة فجعل ينظر اليها ، فقيل له إنها ليست بشيء ، فقال : إني لأرجو أن يبارك الله فيها ، فانه إذا بارك في القليل كان كثيراً .

ويصل خطاب أبي عبيدة إلى عمر فلما قرأه بكى فقال الناس : يا أمير المؤمنين : أمات ابو عبيدة ؟

فقال : لا ، وكأن قد [2] .

ومات رحمه الله بالطاعون سنة ثماني عشرة للهجرة في خلافة عمر بن الخطاب

(١) سورة الملك آية رقم ١٤ .

(٢) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢١٦ .

وهو ابن ثمان وخمسين سنة. مات الرجل الذي قال عنه رسول الله ﷺ نعم الرجل أبا عبيدة.

وقال عمر رضي عنه: لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح فاستخلفته فسألني ربي لقلت سمعت نبيك يقول:

«هذا أمين هذه الأمة»[1].

من أجل ذلك تروى هذه الرواية عن عمر أنه جلس في يوم مع اصحابه، وقال لهم تمنوا، فتمنوا، وعندما فرغوا من أمنياتهم قال عمر:

ولكني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح.

صدق ابن الخطاب في قولته..

لقد كان أبو عبيدة أمة وحده في مزاياه الانسانية الرفيعة.

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٤١٢ والامامة والسياسة لابن قتيبة جـ ١ ص ٢٣.

اسباب نزول الآيات

قال تعالى : ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه﴾.

يقال : أنزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر.

ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل أمر الشورى بعده في أولئك الستة رضي الله عنهم ليختاروا من بينهم خليفة — ولو كان ابو عبيدة حياً لاستخلفته.

وبعض رجال التفسير يرى أن هذه الآية نزلت في مجموعة من رجال الاسلام الأول — الذين كانت العقيدة عندهم هي رباطة النسب ووشيجة القرب — وصلة تربط المختلفين في اللون والجنس والأصل فتجعل منهم اسرة واحدة متحابة.

فيقولون بأن قوله تعالى : ﴿ولو كانوا آباءهم﴾.

نزلت في أبي عبيدة بن الجراح عندما قتل والده في غزوة بدر الكبرى وقوله تعالى ﴿أو أبناءهم﴾.

نزلت في ابي بكر الصديق رضي الله عنه عندما همّ بقتل ابنه عبد الرحمن وقوله تعالى ﴿أو اخوانهم﴾.

نزلت في مصعب بن عمير رضي الله عنه قتل أخاه عبيد بن عمير وقوله تعالى ﴿أو عشيرتهم﴾.

نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل قريباً له أيضاً في تلك الغزوة وأيضاً نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث قتلوا من هم من العشيرة:

«عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة».

ومن هذا القبيل أيضاً حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر، فأشار الصديق رضي الله عنه بأن يفادوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين وهم بنو العم والعشيرة ولعل الله تعالى أن يهديهم.

وقال عمر رضي الله عنه: لا أرى ما رأى يا رسول الله — هل تمكنني من فلان قريب لعمر — فأقتله.

وتمكن علياً من عقيل.

وتمكن فلاناً من فلان ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادة للمشركين فأنزل الله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾.

تذييل...

استطاع الاسلام في فترة قصيرة أن يصهر نفسية المسلم، وينفي عنها الخبث فصار انساناً جديداً لا يكذب، ولا يسرق، ولا يزني، ولا يخون، ولا يغش، ولا يتجسس، يخلص لعقيدته أكثر مما يخلص لنفسه، ويطيع أوامر الله ورسوله، ويدين بالولاء والحب لأخوته في الاسلام أكثر مما يدين لأهله وذوي قرابته إذا كانوا على غير الاسلام.

وعندما نزل قول الله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1].

ووضع جميع اللذائذ والمطامع والرغائب ونقط الضعف الانساني ازاء الآباء والأبناء والأزواج والعشيرة والأموال وجميع متطلعات البشرية في كفة ووضع في الكفة الاخرى حب الله ورسوله، وحب الجهاد في سبيله. رجحت كفة الله ورسوله، وتسامت النفوس عن رغباتها وترفعت عن شهواتها، وتجردت عن كل ما يربطها بالأرض. ومن أمثلة هذا: تلك النماذج من تاريخ المسلمين.

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٢٤.

لقد نشأ عمير بن سعد في حجر جُلاس بن سويد بن الصامت إذ خلف جلاس هذا على أم عمير بعد أبيه..

وفي يوم سمع عمير كلمة نابية قالها جلاس ضد رسول الله ﷺ فقال: والله يا جلاس، انك لأحب الناس إليّ وأحسنهم عندي يداً، واعزهم أن يصيبه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك، ولئن صمت عليها ليهلكن ديني ولإحداهما أيسر عليّ من الأخرى ثم مشى الى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال جلاس[1] وانتصرت رابطة الدين على رابطة الدنيا.

وان كان في ذلك الجوع والمسغبة، وقلة ذات اليد.

وزيد بن الدثنة عندما أخرجته قريش لقتله اجتمع رهط منهم أبو سفيان بن حرب، فقال ابو سفيان حين قدم زيد ليقتل:

«أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وانك في أهلك؟».

فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه واني جالس في أهلي.

فقال ابو سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً. ثم قتلوه. قتل زيد.

ولكن بقيت مدرسة الايمان لتخرج الآلاف المؤمنة التي تحب دينها ورسولها أكثر من حبها لأنفسها.

وفي احدى الغزوات تقاتل رجل من الانصار مع آخر من المهاجرين فوقف عبد

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٤١.

الله بن أبي زعيم المنافقين ، وأنذر وهدد وقال : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الأذل .

وتطوع بعض المسلمين لقتله ، ولكن الرسول ﷺ رفض هذه الفكرة وقال لعمر : كيف يا عمر اذا تحدثت العرب غداً وقالت محمداً يقتل أصحابه .. ودعا رسول الله ابنه وقال :

«ألا ترى ما يقول أبوك؟» .

قال : ما يقول بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟

قال : يقول : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الأذل .

فقال : فقد صدق والله يا رسول الله ، أنت والله الاعز وهو الأذل ، أما والله إن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد ابرّ بوالديه مني ، ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيه برأسيهما لأتيت بهما .

فقال رسول الله ﷺ : لا .

فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه ثم قال أنت القائل لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الأذل؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسوله ، والله لا تدخل الا بإذن من الله ورسوله .

فقال : يا للخزرج ابني يمنعني بيتي ! . وكرر ذلك مراراً .

فاجتمع اليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله فأتوا النبي ﷺ فأخبروه .

فقال : اذهبوا اليه فقولوا له : خله ومسكنه فأتوه فقال : أما اذا جاء أمر النبي ﷺ فنعم .

وهذا الذي كان يحدث لم يكن خاصاً بالرجال فقط ، ولكن النساء أيضاً كان لهن دور لا ينكر ، من ذلك :

إن أبا سفيان بن حرب قدم المدينة لأمر يريده من الرسول ﷺ فدخل على ابنته أم حبيبة — زوج الرسول — ﷺ فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه.

فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟

قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس[1] هكذا فعلت الفتاة المسلمة مع أبيها جابهته بكلمة حق، وخرقت القاعدة التي تقول: كل فتاة بأبيها معجبة.

وصفعته بحقيقة موقفه. ﴿انما المشركون نجس﴾[2]

وإذا كان ذلك كذلك فمحال أن يمس هذا الفراش فضلاً عن أن يجلس عليه، حتى ولو كان هو الوالد الذي له كل الحقوق وكل الواجبات.

قال عروة بن مسعود الثقفي لأصحابه بعد أن رجع من الحديبية: أي قوم: والله لقد وفدت على الملوك: على كسرى، وقيصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً، والله إن تنخم نخامه إلّا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون اليه النظر تعظيماً له[3].

ليس الحب فقط، وليس الاحترام والتأدب أمام رسول الله ﷺ الرسول الذي أخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الايمان، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان، ولكن هناك ما هو أكبر من ذلك، إنه بذل الأرواح رخيصة فداء لرسول البشرية.

---

(١) سيرة ابن هشام ذكر الأسباب الموجبة للمسير الى مكة.

(٢) سورة التوبة آية رقم ٢٨.

(٣) زاد المعاد جـ ٣ ص ١٢٥.

رفع المشركون خبيباً — رضي الله عنه — على الخشبة ونادوه يناشدونه : أتحب أن محمداً مكانك؟.

قال : لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه ، فضحكوا منه..

وترس أبو دجانة يوم أُحد على رسول الله ﷺ بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك.

فعل ذلك حتى ينجو رسول الله ، وإذا نجا فلا يبالون بعدها إن وقعت السهام على ظهورهم أم على بطونهم. ! !

هذا مع الرسول ﷺ فاذا تعلق الأمر باسلامهم والدفاع عنه كانوا لا يبالون عندها بشيء الا بانتصار هذا الدين ، ورفع كلمة الله عالية خفاقة ، لقد التقى في معركة بدر الآباء والأبناء والإخوة والأخوات خالفت بينهم المبادىء ، ففصلت بينهم السيوف.

كان ابو بكر الصديق رضي الله عنه مع المسلمين ، وكان ابنه عبد الرحمن مع المشركين وكان عتبة بن ربيعة مع قريش ، وكان ولده أبو حذيفة مع المسلمين.

قال عبد الرحمن بن أبي بكر بعد إسلامه لأبيه : لقد أهدفت لي يوم بدر مراراً فصدفت عنك.

فقال أبو بكر : لو هدفت لي لم أصدف عنك.

وفي هذه المعركة أيضاً قتل ابو عبيدة بن الجراح أباه ، لا لأنه أباه ، ولكن لأنه مشرك. فعندما رفع سيفه عليه كان يهوي به على كل الأصنام والأوثان ، وعلى كل ضلالات البشرية ، التي تردت فيها ردحاً من الزمن فعبدت الحجر والشجر ، وتقربت للنجوم والكواكب ، ودانت بالولاء للكهان والجان ، فتهاوت ، وعرف الإيمان الحق طريقه إلى القلوب..

فمن للاسلام بأبي عبيدة جديد ، يقضي على العصبية ، والوثنية ، ويحارب الالحاد المتنمر ، ويزيل الجاهلية الجديدة في القرن العشرين .. من يا ترى .؟ من من أبناء المسلمين سيقوم بهذا الدور ويلهمه الله الرشد والسداد .؟

عَبد ٱللهِ بن رواحة

رَضِيَ ٱللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ
مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟
ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ
أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى
ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة البقرة آية رقم ٢٢١]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

قال صاحب الدر المنثور نزلت هذه الآية في الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة..

قال ذلك في تفسيره جـ ١ ص ٢٥٦.

وقاله أيضاً الامام الطبري في تفسيره جـ ٤ ص ٣٦٨.

وقاله صاحب أسباب نزول القرآن الامام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ص ٦٦.

من هو عبد الله بن رواحة..؟

عبد الله بن رواحه
رضي الله عنه

هو أحد النقباء في بيعة العقبة.

وفارس الفرسان في المعارك الضارية التي خاضها المسلمون مع عصبة الكفر والالحاد.

وأحد القادة الثلاثة في غزوة مؤته.

وشاعر رقيق الحاشية، عذب الألفاظ، قوي الكلمات على الكفار كان يرسلها عليهم في شعره. فيكبتهم وينكل بهم، وكأنه يهدهم بها هدا.

.. ولد في يثرب، وبين سهولها ووديانها ترعرع عوده، وعلى رباها الأخضر وفوق عيونها الثرة بالماء أرسل أجمل الألحان وأعذب الأشعار.

وعندما وصل إلى مرحلة الشباب.. كان يشغل فكره دائماً شيء لا يدري حقيقته، فيرسل بريد عينيه الى السماء. تفتش عن مجهول حتى كان يوم، علم فيه بدعوة النبي ﷺ.

فكان في مقدمة الوفد المتجه إلى مكة الظاعن لرسول الله ﷺ ليتعرف على حقيقة هذا الدين الجديد.

.. وفي مجلس الرسول ﷺ جلس عبد الله بن رواحة يرهف أذنيه، ليتزود من هديه، ويرتوي من نبعه، ويهدأ بالاً بعد أن عرف حقيقة الكون وأسرار الوجود.

ولما تمت البيعة بين رسول الله ﷺ وبين وفد الأنصار قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت..

فقال عليه السلام:

أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم.

قالوا: فاذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟

قال: الجنة.

قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل[1] فنزل قول الله تعالى:

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[2].

وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى يثرب كان عبد الله بن رواحة في مقدمة المستقبلين له، وأخذ بزمام ناقته، وقال له: الينا يا رسول الله حيث العز والمنعة، ولكن الرسول عليه السلام رد عليه كما ردّ على الآخرين وأمره بترك زمام الناقة بقوله:

«اتركوها فانها مأمورة»[3].

وفي غزوة بدر كان له دور بطولي في محاربة أعداء الله، وعندما دعت قريش

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٥٨ إلى ١٦٥ وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٥٢.

(٢) سورة التوبة آية رقم ١١١.

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١١٢.

للمبارزة كان ابن رواحة من أوائل المتقدمين الداعين إلى المبارزة وخرج معه عوف ابن الحارث وأخوه معوذ.

ولكن عتبة بن ربيعة وأخاه شيبة قالا لابن رواحة ومن معه.. من أنتم؟.. قالوا: رهط من الانصار.

قالوا: ما لنا بكم من حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا[1].

وعرفت قريش بعد اشتباك الفريقين أنهم أقل من أن يكونوا أكفاء لأتباع محمد ﷺ ورجالات الاسلام.

ومنّ الله على المؤمنين بالنصر العظيم والفوز الكبير، وطلب رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة ولما مثل بين يديه، أرسله إلى العالية ليخبر أهلها بالنصر الكبير والفوز الذي أعطاهم الله فكان صوته في العالية يجلجل بكلمة: الله أكبر، الله أكبر.. فأثلجت قلوب المؤمنين.. وضاقت بها نفوس الكافرين من اليهود والمنافقين فأخذوا ينفثون سمومهم، ويجمعون ويرسلون وفودهم إلى قريش وغيرها من القبائل لتتجمع لقتال محمد وصحبه. ولكن المسلمين تنبهوا لهذا الكيد الذي يدبر لهم، من زعماء اليهود، فقرروا قتل كعب بن الأشرف ورافع بن سلام، زعيمي اليهود في ذلك الوقت.. هذا وقد أمر اليهود عليهم «أسير بن زارم» وكان رجلاً حقوداً ضيق الأفق، متهوراً لم يعتبر بمن قتل قبله، فأخذ يؤلب غطفان وبقية القبائل، على حرب الرسول ﷺ.

وعندما أحيط المسلمون بهذا الخبر أرسلوا عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر ليتأكد من صحة ما يشاع عن ذلك.

وأدى عبد الله وصحبه سفارتهم على خير وجه، وعرفوا نوايا (أسير بن زارم) وإعداده العدة لحرب المسلمين.

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٧٣.

عندها كلف الرسول ﷺ عبد الله بن رواحة بالسير اليهم وندب الناس للانضمام اليه.

وخرج ابن رواحة ومعه هذه الكوكبة من الفرسان — وكلهم شوق ورغبة في قتال هؤلاء الأعداء وتطهير الأرض من شرورهم .. وكان لا بد من استعمال الحيلة، والحرب خدعة وعندما وقفوا على «أسير» قالوا له: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له..؟

قال: نعم ولي منكم مثل ذلك.

قالوا: نعم.. ثم تكلم عبد الله بن رواحة قائلاً:

إن رسول الله بعثنا اليك لتخرج اليه فيستعملك على خيبر ويحسن اليك.. !! (1).

فطمع «أسير» في ذلك وتجهز للرحيل معه لمقابلة رسول الله ﷺ وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود، مع كل رجل رديف من المسلمين.

حتى إذا ما وصلوا الى «قرقرة ثبار» مكان خارج المدينة ندم «أسير» على خروجه مع ابن رواحة على هذه الصورة.

يقول: عبد الله بن أنيس أحد رجال عبد الله بن رواحة، أهوى «أسير» بيده على سيفي ففطنت له، ودفعت بعيري بعيداً عنه، وقلت: عذراً أي عدو الله؟.. فعل ذلك مرتين.

فنزلت فسقت بالقوم حتى انفرد لي «أسير» فضربته بالسيف فقطعت فخذه بساقه، وسقط عن بعيره، وملنا على أصحابه، فقتلناهم كلهم غير رجل واحد أعجزنا شداً (2) ولم يُصب من المسلمين أحدٌ، وعاد عبد الله وصحبه إلى رسول الله ﷺ.

---

(1) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٩٢.

(2) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٩٣ والبداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٢٢.

عادوا بعد أن ارتوت سيوفهم من دماء أعداء الله.

وقضوا على الفئة الباغية من هؤلاء اليهود، قتلة الأنبياء والذين أشاعوا في الأرض التخريب والدمار، وأشاعوا بين العباد التجسس والرذيلة.

ووقف عبد الله بن رواحة بين يدي القائد الأكبر ليضع أمامه صورة ما حدث، ويخبره خبر هؤلاء اليهود.

فقال الرسول ﷺ:

«قد نجاكم الله من القوم الظالمين»[1].

وظل عبد الله بن رواحة بعد ذلك الجندي المخلص للدعوة الاسلامية الذي يتتبع خطوات الرسول ﷺ ويحرص على غشيان مجالسه، وفي يوم من الأيام سمع الرسول ﷺ بمرض سعد بن عبادة... فركب رسول الله وأردف خلفه أسامة بن زيد وفي الطريق إلى منزل سعد، شاهد الرسول ﷺ عبد الله بن أبي زعيم المنافقين يجلس في ظل الحصن، وحوله رجال من قومه، فكره أن يجاوزه دون أن ينزل فيسلم عليه، وعندما جلس عليه السلام بينهم تلا آيات من القرآن، ودعا إلى الله عز وجل، وحذر من عقابه، وبشر بثوابه، وخوف من ناره.

وعندما فرغ رسول الله ﷺ من ذلك، قال عبد الله بن أبيّ، والحقد يملأ قلبه، موجهاً كلامه إلى رسول الله: يا هذا إنه لأحسن من حديثك هذا — إن كان حقاً — أن تجلس في بيتك فمن جاءك فحدثه اياه، ومن لم يأتك فلا تعذبه به، ولا تأته في مجلسه بما يكره منه. فما كاد عبد الله بن رواحة يسمع كلمة هذا المنافق، حتى انتفض واقفاً وبيده سيفه، والتف حوله جماعة من المسلمين، يريدون أن يؤدبوا عدو الله وعدو رسوله وقال:

«يا رسول الله.. إن الذي قلت لهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا

---

(١) أي انه افلت من القوم.

من خلفه. تنزيل من حكيم حميد، وإنه والله لأحب شيء إلى نفوسنا وقلوبنا، فأغشنا به، وائتنا به في مجالسنا ودروبنا وبيوتنا فهو — والله — ما نحب، ومما أكرمنا الله به وهدانا بك..

فخنس وجه النفاق وارتعدت فرائصه مما سمع، ولم يجد بين يديه حيلة ولا قوة كأنه يخاطب نفسه:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازي بغير جناحه وإن جذ يوماً ريشه فهو واقع (١)

وعبد الله بن رواحة من قبل هذا ومن بعده، شاعر يجود شعره، ويرسله من حنايا قلبه، ومن شغاف فؤاده. يروي عن نفسه فيقول:

«مررت في مسجد الرسول، ورسول الله ﷺ، جالس عنده أناس من أصحابه في ناحية منه، فلما رأوني أصبوا إليّ قائلين يا عبد الله بن رواحة، يا عبد الله ابن رواحة.

فعلمت أن رسول الله يدعوني فانطلقت نحوه. فلما كنت بين يديه. قال عليه السلام: اجلس ها هنا.

فجلست، فقال: كيف تقول الشعر إذا أردت أن تقول؟..

كأنه يتعجب لذلك، قلت: أنظر في ذاك ثم أقول.

قال: فعليك بالمشركين.

ولم أكن هيأت شيئاً، فنظرت في ذلك ثم أنشدته:

يا هاشم الخير إن الله فضلكم على البريــة فضلاً ما لــه غيرُ
إني تفرست فيك الخير أعرفه فراسة خالفتهم في الذي نظروا

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢١٩.

ولو سألتَ أو استنصرت بعضهم   في جُل أمرك ما آووا ولا نصروا
فثبت الله ما آتاك من حَسنٍ   تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

قال ابن رواحة:

فأقبل رسول الله بوجهه متبسماً وقال: وإيّاك فثبت الله.

واستمر عبد الله يرسل أجمل الاشعار في السلم والحرب، في الحياة وما بعد الحياة.

حتى نزل قول الله تعالى:

﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾.

قال عبد الله بن رواحة: قد علم الله أني منهم، وامتنع عن قول الشعر حتى بعد أن نزل قول الله تعالى:

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾.

وافتقد المسلمون أحاديث ابن رواحة، واشتاقت آذانهم إلى سماعها، ولكن هيهات، لقد انشغل لسانه بذكر الله، وأوقف جنانه على ترديد كلمات التوحيد والتنزيل.

حتى كان يوم.. وخرج رسول الله ﷺ مع أصحابه في سفر طويل، وكان عبد الله لا يتخلف عنه في سفر ولا حضر، فقال عليه السلام لعبد الله بن رواحة:

«انزل فحرك بنا الركب».

قال يا رسول الله: اني قد تركت قولي هذا.

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اسمع وأطع.

فنزل وهو يقول:

- يا رب لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلت سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الكفار قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

فقال النبي ﷺ :

« اللهم ارحمه ».

فقال عمر : وجبت[1].

وجبت له الجنة ، أو وجبت له الرحمة ، لأنه من جنود الله ، ومن الذين استجابوا لداعي الله عندما دعاهم ، إنه من الرعيل الأول الذين بذلوا المهج والأرواح عندما بخل بعض الناس ، وقدموا أرواحهم رخيصة في سبيل الله عندما جبن الآخرون.

هنيئاً لك يا ابن رواحة دعوة نبيك ، ورضي الله تعالى عنك.

ثم ماذا . ؟ لا زال القلب الفياض بالخير يعطي ويعطي .. وكان ذلك في عمرة القضاء والمسلمون خلف نبيهم يطوفون بالبيت على ذلك المستوى من العزة والقوة ، وترتفع أصواتهم مهللة مكبرة إلى عنان السماء عندها أخذ الحماس بمجامع نفس ابن رواحة الذي كان آخذاً بزمام القصواء ناقة رسول الله ﷺ التي كان يطوف عليها بالبيت ، فأرسلها من داخل المسجد اثناء الطواف صيحة حرب في وجه قريش قائلاً :

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير مع رسوله
نحن ضربناكم على تأويله كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

وقد ألهبت هذه الأبيات الحماسية المثيرة ، مشاعر بعض الصحابة فتحركت نوازع الحرب ضد قريش.

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٥٢٧.

فخاف ابن الخطاب أن يكون في قوله دعوة للحرب، وهو ما يخالف اتفاقية صلح الحديبية.

فقال كالمحذر: يابن رواحة؟..

أي ما هذا الذي تقول؟..

فسمع النبي ﷺ ما وجهه ابن الخطاب من تحذير إلى عبد الله، فقال عليه السلام:

«يا عمر إني أسمع». فسكت عمر.

ثم أمر الرسول الكريم عبد الله أن يبتعد في أقواله عن ما يثير العواطف نحو الحرب قائلاً: إيه يابن رواحة قل: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده[1].

فأخذ ابن رواحة يردد ما قاله الرسول ﷺ رافعاً بها صورته، وأخذ الناس يرددونها خلفه.

ولم يكن ابن رواحة، فارساً يخوض المعارك فقط، أو شاعراً يذوب قلبه في شعره فحسب، ولكنه فوق ذلك كان خبيراً بشؤون الحياة عليماً بطرق التجارة وأساليبها، وتقدير الأثمان ومقاديرها.

ولقد بعثه رسول الله ﷺ إلى خيبر ليقدر بين المسلمين واليهود، واستمر في عمله هذا أكثر من عام، وكان يمكن أن يبقى في عمله هذا أكثر من ذلك. لولا اختيار الرسول ﷺ له ليكون أحد الأمراء في غزوة مؤته..

وفوجيء ابن رواحة بهذا الاختيار، وأخذت الأفكار المتضاربة تملأ عقله وتحيط به، لقد تعود أن يحارب بجوار الرسول ﷺ حارب معه في غزوة بدر وغزوة أحد، وفي كل المعارك التي خاضها رسول الله، وكان يحارب هؤلاء الاعراب الذي

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١٢٢.

يعرف جيداً مداخلهم ومخارجهم ، وخبر سيوفهم ورماحهم ، أما هؤلاء الروم... فماذا يفعل معهم؟.. وأخرجه من تأملاته تلك تهيؤ الناس للخروج إلى مؤته..

وعند وداعه لأصحابه ، غلبته دموعه فبكى .. فقالوا ما يبكيك يا ابن رواحة؟.

فقال : أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة لكم ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار.

﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾.

— فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟.

قال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم وردكم الينا صالحين ، فقال عبد الله ابن رواحة :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مرّوا على جدثي أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم يتجه ابن رواحة إلى رسول الله ﷺ ليودعه ويتزود منه ويقول له :

يا رسول الله : مرني بشيء أحفظه عنك.

قال عليه السلام :

«انك قادم غداً بلداً السجود فيه قليل فأكثر السجود».

قال عبد الله : زدني يا رسول الله.

قال : «اذكر الله فانه عون لك على ما تطلب».

فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهباً رجع اليه فقال :

يا رسول الله ، إن الله وتر يحب الوتر.

قال : يابن رواحة :

«ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشراً أن تحسن واحدة».

فقال : لا أسألك عن شيء بعدها.

ثم قال وهو يودعه :

فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا
إني تفرست فيك الخير أعرفه فراسة خالفتهم في الذي نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر

.. ويتجه الجيش الاسلامي بقيادة الأمراء الثلاثة إلى أرض الروم وما كادوا يصلون إلى مشارف (معان) من أرض الشام حتى بلغهم أن هرقل قد أعد عدته وجيش جيوشه ونزل (مآب) من أرض البلقاء في مائة الف من الروم..

عندها أقام الجيش الاسلامي على أرض (معان) ليلتين واجتمع القادة ينظرون في أمرهم واقترح بعضهم أن يكتبوا لرسول الله ﷺ بعدد عدوهم فإما أن يمدهم بالرجال ، وإما أن يأمرهم بالقتال.. عندها انبرى لهم عبد الله بن رواحة قائلاً :

يا قوم والله إن الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة. ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فانما هي إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة ، فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة

فمضى الناس إلى طريقهم..

.. لقد كان عبد الله بن رواحة يعد نفسه لهذا اليوم.. لينال الشهادة بعد أن يقدم خيراً لدينه وللمسلمين.. إنهم لم يكونوا يطلبون الموت فراراً من الحياة.. ولكنهم كانوا يحرصون على الموت.. حتى ينتشر دين الله وتزال الطواغيت والجبابرة من طريقه.. ولقد كانوا في خرجتهم هذه يقدرون التبعة الملقاة عليهم.. والأمر العظيم الذي ينتظرهم..

يقول زيد بن أرقم كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره ، فخرج بي في سفره ذلك مردفي على حقيبة رحله ، فوالله إنه ليسير ليلتئذ سمعته وهو ينشد أبياته هذه :

إذا أدنيتني وحملت رحلي مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعم وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وجاء المسلمون وغادروني بأرض الشام مستنهى النواء
وردك كل ذي نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلع بعل ولا نخل وعيش ذو رواء

قال زيد : فلما سمعتهن منه بكيت ، فخفقني بالدرة وقال : «ما عليك يا لكع أن يرزقني الله الشهادة ، وترجع بين شعبتي الرحل»؟..

.. ثم مضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها (مشارف).

ودنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها (مؤتة) ولقد هال أبو هريرة ما رآه من عدد وعدة المشركين وما يحملونه من السلاح والكراع والديباج والحرير والذهب..

فقال له ثابت بن أرقم : يا أبا هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة.

قال أبو هريرة : نعم.

قال : انك لم تشهد بدراً معنا إنا لم ننصر بالكثرة.

والتحم الجيشان في قتال مروع ، وقاتل زيد بن حارثة حتى قتل ، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

فاستقبل القوم وهو يرتجز ويقول :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كـافـرة بـعـيـدة أنسـابها
عليّ إن لاقيتها ضرابها

وقاتل حتى قتل.. فأخذ الراية عبد الله بن رواحة ثم تقدم بها وهو على فرسه وهو يقول :

أقسمت يا نفس لتنزلنه لـتـنـزلن أو لـتـكـرهـنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه ما لي أراك تكرهين الجنه
قد طال ما قد كنت مطمئنه هل أنت إلّا نطفة في شنه

وقال أيضاً :

يا نفس إن لا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقدْ أعطيت إن تفعلي فعالها هديت...

وأخذ يهد الأعداء هدا.. واستبشر المسلمون خيراً وجاءه ابن عم له بعرق من لحم فقال :

«شد بهذا صلبك فانك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه فانتهس منه نهسة. ثم سمع الحطمة في ناحية الناس. فقال :

وأنت في الدنيا ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه..

قتل عبد الله بن رواحة بعد أن وقف على مشارف أرض الروم ، وكأنه يقول لمن يأتي بعده من جنود المسلمين، هذا هو الطريق لنشر دين الله في تلك البقاع معبد مهيأ ، بعد أن ارتوى من دماء الشهداء..

أسباب نزول الآيات

.. عن السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس رضي الله عنهم — في هذه الآية قال:

نزلت في عبد الله بن رواحة، وكانت له أمة سوداء، وانه غضب عليها فلطمها، ثم إنه فزع فأتى النبي ﷺ فأخبره خبرها فقال له النبي ﷺ:

ما هي يا عبد الله؟.

فقال: يا رسول الله: هي تصوم وتصلي، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله.

فقال: يا عبد الله هذه مؤمنة.

فقال عبد الله: فوالذي بعثك بالحق نبياً لأعتقنها ولأتزوجنها. ففعل.

فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا:

نكح أمة، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم[1]، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾.

وقال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس:

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٣/ ٦٧ والدر المنثور جـ ١ ص ٢٥٦.

إن رسول الله ﷺ، بعث رجلاً من غنيّ يقال له مرثد بن أبي مرثد حليفاً لبني هاشم إلى مكة ليخرج ناساً من المسلمين بها أسراء فلما قدمها سمعت به امرأة يقال لها : عناق.

وكانت خليلة له في الجاهلية ، فلما أسلم أعرض عنها فأتته فقالت :

ويحك يا مرثد ألا تخلو؟.

فقال لها : إن الاسلام قد حال بيني وبينك وحرمه علينا ، ولكن إن شئت تزوجتك ، إذا رجعت الى رسول الله ﷺ استأذنته في ذلك ثم أتزوجك.

فقالت له : أبي تتبرم؟.

ثم استغاثت عليه فضربوه ضرباً شديداً ، ثم خلوا سبيله ، فلما قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله ﷺ راجعاً وأعلمه الذي كان من أمره وأمر عناق وما لقي في سبيلها فقال :

يا رسول الله أيحل لي أن أتزوجها؟[1].

فأنزل الله ينهاه عن ذلك بقوله :

﴿ولا تنكحوا المشركات﴾.

---

(١) أسباب نزول القرآن لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ص ٦٧.

تذييل...

عبد الله بن رواحة لم يكن هو الشاعر الذي عرفته سهول المدينة ووديانها وهو يرسل أعذب الأشعار وأجمل الألحان فقط.

ولم يكن هو الرجل العاقل الذي سخر قبل ظهور الاسلام من أصنام قريش وأوثانها فحسب.

ولم يكن الرجل المفكر المتأمل، الذي يرسل بريد عينيه يفتش في أبراج السماء العالية، وفي أعماق البحار الزاخرة عن شيء مجهول لا يدري كنهه وكفى.

إن هذه الأشياء إن دلت على شيء فإنما تدل على بعض ملامح ابن رواحة، أما حقيقته فهو أحد الرجال الذين تخرجوا من مدرسة الاسلام وتشربت قلوبهم مبادئه، فكانوا صفوة مختارة مدحها رسول الله ﷺ وأثنى عليها قرآن ربه.

ومن هذه النخبة الممتازة تكونت أمة الجهاد، أمة الأبطال والفرسان وأعدهم الرسول ﷺ إعداداً حربياً.

وعلمهم استراتيجية المعارك ومتطلبات النصر.

قال تعالى: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر

أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾[1].

وأعدهم الرسول أيضاً إعداداً روحياً، قال تعالى:

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾[2].

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾[4].

ولكن النصر في النهاية لن يكون بقوة السلاح.

ولن يكون بعدد الجنود.

ولن يكون بصلابة القلاع والحصون.

وكل هذه الأشياء عوامل لا بد منها في الجيش المقاتل، لا يصح اغفالها بحال من الأحوال.

ولكنها ليست كل أسباب النصر، ولن يتحقق النصر عن طريق العبادة الكثيرة ولا عن طريق القوة الروحية، ولن يتحقق النصر عن طريق معرفة الله فحسب، ولن يتحقق النصر عن طريق فرد من الأفراد، أياً كان هذا الفرد رسولاً أو غير رسول..!!

النصر في النهاية من عند الله.

فقد يكون الجيش المحارب ضعيفاً في العدد وضعيفاً في السلاح، وفي غير استعداد كامل ومع ذلك يحقق النصر.

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٠٢.

(٢) سورة التوبة آية رقم ٥١.

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٤٥.

(٤) سورة الأنفال آية رقم ١٢.

قال تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾[1].

وقد يكون الجيش أكثر عدداً وعدة في الرجال والسلاح ومع ذلك لا يحقق النصر، قال تعالى:

﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾[2].

وإذا كان النصر من عند الله، فعلام يترك الجهاد؟.. وتحتل البلاد ونعيش في خوف ورعب؟..

ومم نخاف؟.. أمن القتل؟.. ومتى كان المسلمون يحرصون على الحياة والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾[3].

قدمت الآية القتل لأن المؤمنين لا يتشبثون بالبقاء ولا يحرصون على هذه الدنيا. ولكنهم يحرصون فقط على دينهم أو يموتون دونه وإذا خرجوا لملاقاة الأعداء كان نصب أعينهم إما النصر وإما الشهادة ولم يكن حب البقاء في حسابهم قط.

ولهذا قال رسول الجيش الاسلامي في مجلس ملك الفرس:

«جئنا لكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة».

وإذا كان النصر من عند الله، فالهزيمة قد تكون بسبب سلوك الأفراد بسبب بعدهم عن الله، أو بسبب المعاصي التي يرتكبها المجتمع، قال تعالى:

﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾[4].

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٢٣.

(٢) سورة التوبة آية رقم ٢٥.

(٣) سورة النساء آية رقم ٧٤.

(٤) سورة الشورى آية رقم ٣٠.

وبهذا الفهم لطبيعة الجهاد في الاسلام خرج فرسان النهار رهبان الليل من الجزيرة العربية، ينشرون الأمن بعد الخوف والنور بعد الظلام والهدى بعد الضلال.

خرجوا يحملون المصحف للهداية والسيف لازالة الباطل.

والقتال في الاسلام لن يكون إلا باسم الله وبإذن منه، وبتوفيقه وقدره، قال تعالى:

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾[1].

لقد قيل انه من أسباب دواعي الهزيمة في حرب ٦٧ كما وضحها بعض القادة المنهزمين وجود الباخرة «لابرتي».

باخرة بأجهزة معقدة، قيل إنها تلتقط إشاراتنا وبياناتنا، وتكشف عن خططنا، وتقرأ أفكارنا، وتكاد تعد علينا أنفاسنا، ويتكشف لها الغيب — ونعوذ بالله من الضلال — فتعرف ما نأتي وما ندع!؟

أحقاً كان ذلك؟.

إن هذه الأجهزة — وبهذه الصورة — قد توجد وقد لا توجد. قد تخطىء وقد تصيب، قد تنجح وقد تخيب، إنها مرحلة من العلم، والعلم لا يزال قاصراً في ميدان الحروب.

والعلم — كما يقال — لا يعرف الكلمة الأخيرة.

ولكن المسلمين الأول كان لديهم السلاح الذي لا يهزم، سلاح الايمان كان عندهم شفافية الايمان، وإشراقة الإحسان، كان عندهم «الرادار» الذي ينقل، والأجهزة التي تصور.

كانت عندهم فراسة المؤمن وهي أقوى الأسلحة وأعتى الحصون، لأن الرسول ﷺ يقول:

---

(١) سورة الحج آية رقم ٣٩.

«اتقوا فراسة المؤمن لأنه ينظر بنور الله»[1].

وبهذا الفهم لطبيعة النصر، وبهذه الثقة لوعد الله لهم، انداحوا في أربعة أركان الأرض، وطويت الدنيا تحت أقدامهم، ولم تمض إلّا فترة وجيزة، حتى كان صوت المؤذن يدوي بـ «الله أكبر» في أنحاء المعمورة.

لقد كانت غزوة مؤتة بداية لهذا المد الاسلامي الكبير، المد الذي اخترق بلاد الاندلس وسار حتى مشارف أوروبا.

والمد الذي وصل إلى الصين وتوغل حتى نهاية السند والهند.

والمد الاسلامي الذي استولى على «القيروان» وواصل زحفه إلى آخر شواطىء «بانزرت».

إن الدماء الاسلامية التي أُريقت على بطاح «مؤتة» كانت هي الدليل للجيش الاسلامي ليواصل زحفه إلى البحر الأبيض المتوسط، ويتوغل في جزره، حتى شمل قبرص، وصقلية وكورسيكا.

إن الصيحة التي أطلقها ابن رواحة فوق تلك البلاد البعيدة كانت النفير لأبناء المسلمين فانطلقوا سراعاً إلى مشارف روسيا وحطموا أسوارها ودمروا قلاعها واستولوا على ثلاثة أرباعها.

واستولوا على بخارى والقوقاز.

واستولوا على طشقند وسبيريا.

واستولوا على جبال الأورال وعلى بحر قزوين. وزالت الحدود والسدود وسار المسلم بلا جواز أو هوية سوى جواز الاسلام وهوية التوحيد.. إن الاسلام الآن في حاجة إلى مثل هؤلاء الرجال..

فمتى يا رب نجدهم على الأفق مقبلين؟..

---

(١) رواه الطبراني والترمذي من حديث أبي أمامة وأخرجه الترمذي أيضاً من حديث أبي سعيد، ورواه العسكري عن أبي الدرداء موقوفاً بلفظ: اتقوا فراسة العلماء فانهم ينظرون بنور الله.

ثابت بن قَيس

رَضيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ
ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ
أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة الحجرات آية رقم ٢]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس رضي الله عنه.

راجع تفسير الامام الطبري ج ٢٦ ص ٧٥.

وراجع الدر المنثور ج ٦ ص ٨٤ — ٨٦.

وراجع صحيح مسلم ج ١ ص ٧٧.

ومسند الامام أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٣٧ طبع الحلبي.

وقاله الامام الواحدي في كتابه أسباب نزول القرآن ص ٤٠٧.

من هو ثابت بن قيس؟.

ثابت بن قيس

رضي الله عنه

يكنى أبا محمد، وقيل يكنى أبا عبد الرحمن.

وعندما رزق بابنه الأول، حمله وهرول به إلى الرسول ﷺ، فحنكه بتمرة عجوة، وسماه محمداً.

وله من البنين ثلاثة، قتلوا جميعاً في الدفاع عن الاسلام.

وأمه امرأة من طيء، وصفت بالعقل والحكمة، وشجعت ابنها على تعلم القراءة والكتابة — حتى يوصف بالكامل — تلك الصفة التي كانت تطلقها العرب على من يجيد الكتابة.

ومن زوجاته حبيبة بنت سهل، التي رأت في خلقه شدة — كما تقول — فجاءت الى النبي ﷺ تطلب منه أن يخلعها من ثابت.

فقال النبي: أوتردين له ما أعطاك؟.

فقالت: يا نبي الله كل ما أعطاني فهو عندي.

فقال: يا ثابت خذ منها. فأرسلت به اليه، وأقامت في أهلها فترة ثم تزوجها أبي ابن كعب. هذه بعض ملامح وظلال ثابت بن قيس والذي كان يطلق عليه قبل الاسلام خطيب الأنصار، ثم سمي خطيب الاسلام، ثم سمّي خطيب رسول الله ﷺ بعد ذلك.

شهد غزوة أُحد مع رسول الله ﷺ وما بعدها ، وشارك بسيفه ولسانه في الدفاع عن الاسلام.

كان يحرص على مجلس الرسول ﷺ والاستماع لهديه والتفقه في دينه..

وفي يوم جاء متأخراً عن مجلس الرسول ، وكان من عادته أن يجلس بجواره حتى تلتقط أذناه كل ما يقول ، فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول : «تفسحوا ، تفسحوا» .

فقال له رجل : قد أصبت مجلساً فاجلس ، فجلس ثابت مغضباً ، وبعد أن استقر في مجلسه ، تحرش بالرجل قائلاً : من هذا؟..

فقال : أنا فلان ! !

فقال ثابت : ابن فلانة؟..

وذكر أماً كان يعير بها في الجاهلية ، فنكس الرجل رأسه استحياء فأنزل الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾[1] ، وعندما دعا الرسول للخروج إلى بني قريظة الذين خانوا عهد رسول الله ، وتحالفوا مع الأحزاب ، وألبوا الأحمر والأسود على حرب رسول الله ﷺ كان ثابت بن قيس في مقدمة البارزين اليهم ، وكان له دور لا ينكر في التنكيل بهم.. ووقع الزبير بن باطا القرظي اليهودي أسيراً في يده.

وعندما تفرس ثابت في وجه أسيره ، عرف أن هذه ليست المرة الأولى التي التقيا فيها بين الرماح والسيوف ، لقد سبق أن وقع ثابت أسيراً في يد الزبير في الجاهلية

(١) سورة الحجرات آية رقم ١١.

وعلى وجه التحديد في يوم «بعاث» وكان الزبير على غير عادة اليهود كريماً معه، فلم يطلب فدية أو مالاً ولم ينكل به، أو يجلد ظهره كما كان يحدث مع الأسرى في الجاهلية، وكل الذي فعله معه أن أخذه فجز ناصيته ثم خلى سبيله..

عندها قال ثابت للزبير — وهو شيخ كبير — يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟.

قال اليهودي: وهل يجهل مثلي مثلك؟؟..

قال ثابت: اني أردت أن أجزيك بيد لك عندي.

قال: إن الكريم يجزي الكريم..

ثم أتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه كانت للزبير علي منّة، وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لي دمه.

فقال رسول الله ﷺ هو لك.

فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك فهو لك.

فقال له: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فماذا يصنع بالحياة؟..

فأتى ثابت رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله هب لي امرأته وولده.

قال عليه السلام: هم لك.

فأتاه ثابت فقال: قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك فهم لك.

قال اليهودي: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك؟..

فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ماله..

قال: هو لك..

فأتاه ثابت فقال: قد أعطاني رسول الله ﷺ مالك فهو لك..

قال الزبير: أي ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة يتراءى فيها عذارى الحي: كعب بن أسد؟..

قال ثابت: قد قتل.

قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب.

قال: قتل.

قال: فما فعل مقدمتُنا إذا شببنا، وحاميتنا إذا فرغنا (عزّال بن سَمْوال).

قال ثابت: قتل.

قال: فما فعل المجلسان: يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة.

قال: قتلوا.

قال الزبير: فاني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا الحقتني بالقوم فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر بعدهم حتى ألقى الأحبة[1].

فقدمه ثابت فضرب عنقه..

فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله «ألقى الأحبة».

قال: يلقاهم في نار جهنم خالداً فيها مخلداً[2].

إن هذه الحادثة الفردية مع هذا اليهودي، تدل دلالة عميقة على أغوار النفس اليهودية، وعلى طبيعة الجشع والطمع المتأصل في جبلتهم.

وتدل من جانب آخر على سماحة الاسلام ورقة قلوب أصحابه، وانه دائماً يفتح ابوابه أبواب الرحمة والمغفرة.

أبواب العطاء والمنع أمام البشرية قاطبة، دون تفرقة بين جنس وجنس ولون ولون، حتى وإن اختلفت العقيدة، وتباينت الاتجاهات.

وإذا كان ذلك كذلك فلنتابع رحلتنا مع ثابت بن قيس أحد رجالات الاسلام ممن تشربته أرواحهم وتأصلت مبادئه في قلوبهم.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٦١ — ٢٦٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٢.

لقد كانت غزوة بني قريظة إحدى المعالم البارزة في تاريخ الدعوة، وكان دور ثابت بن قيس ظاهراً لا يخفى، واضحاً لا ينكر. فلما كانت غزوة بني المصطلق اندفع فيها اندفاع من يطلب الشهادة، أو اندفاع الظاعن البعيد عن أهله والآيب اليهم بعد فرقة وحرقة، وغربة وابتلاء، وانتهت المعركة، وعاد وفي يده أجمل فتيات الحي، وابنة مليكهم «جويرية بنت الحارث»، إنها غنيمة غالية، وكنز عظيم أليست ابنة ملك، وعاشت في كنف أبيها آمرة ناهية، تحكم ولا تحكم، وتطلب فلا يرد طلبها.

وإذا كان هذا حقيقة أمرها، وصفة حياتها، أتقبل أن تكون أسيرة، وتؤخذ سبية؟ لا: إن هذا لن يكون.. وتقدمت إلى ثابت فكاشفته بخبيئة قلبها ووضعت أمامه حقيقة أمرها، فكاتبته على نفسها.. ولكن ماذا تفعل في المال وهي لا تملك من حطام الدنيا شيئاً — وفقدت في هذه الغزوة كل ما تملك، وهي فتاة، ولا تقدر سواعدها على العمل.. عندها فكرت في الاتجاه إلى النبي ﷺ فلما مثلت بين يديه قالت:

يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس فكاتبته على نفسي فجئتك استعينك على كتابتي..

قال الرسول ﷺ:

«فهل لك في خير من ذلك؟».

قالت: وما هو يا رسول الله؟.

قال: أقضي عنك كتابتك وأتزوجك.

قالت: نعم يا رسول الله.

قال: قد فعلت[١].

---

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص ١٥٩.

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية ابنة الحارث.

فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ وأرسلوا ما بأيديهم.

قالت عائشة رضي الله عنها:

«فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها».

إن المعارك التي خاضها المسلمون كان الهدف من ورائها رفع كلمة الله، ونشر دين الله، والقضاء على هؤلاء الأباطرة والملوك الذين كانوا يمنعون أتباعهم من اعتناق هذا الدين. فاذا استجاب الفريق الآخر لداعي الله ونطقوا بكلمة الاسلام كانوا إخوة متحابين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ولقد كان لزواج الرسول من إحدى المسبيات إشارة وأمراً للجيش المحارب أن يكف عن هؤلاء الناس، وينفض يديه من كل أموالهم ونسائهم ومتاعهم.

ولقد استجاب المسلمون لرغبة نبيهم، وسرت ومضة من نور الايمان في قلوب الآخرين، فأعلنوا اسلامهم وأنابوا إلى ربهم، وأصبح أصهار رسول الله ﷺ — قوة ضاربة لصالح المسلمين — ستدعى عما قريب للمشاركة في الفتح الأكبر، وتطهير الجزيرة العربية من بقايا الشرك والوثنية.

وإذا كان هذا دور ثابت بن قيس في المعارك والحروب، فلقد كان له دور آخر في مجال الخطابة والمفاخرة، وتعدد المآثر. مع وفد بني تميم الذين جاءوا إلى النبي ﷺ ونادوه قائلين:

«يا محمد اخرج الينا.. فان مدحنا زين، وإن ذمنا شين».

فلما سمعهم النبي ﷺ خرج اليهم وهو يقول:

«إنما ذلكم لله الذي مدحه زين، وذمه شين»[1].

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٢٥.

فقالوا نحن ناس من بني تميم ، جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك.

فقال رسول الله ﷺ :

«ما بالشعر بعثت ولا بالفخر أمرت ، ولكن هاتوا» .

فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبابهم قم فاذكر فضلك وفضل قومك..

فقام فقال : الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه ، وآتانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء فنحن من خير أهل الأرض ، ومن أكثرهم عدة ومالاً وسلاحاً ، فمن أنكر علينا قولنا فليأت بقول هو أحسن من قولنا وفعال هي خير من فعالنا.

فقال رسول الله ﷺ لثابت : قم فأجبه.

فقام فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله دعا المهاجرين من بني عمه أحسن الناس وجوهاً وأعظمهم أحلاماً فأجابوه ، فالحمد لله الذي جعلنا أنصاره ووزراء رسوله ، وعزاً لدينه فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قالها منع منا نفسه وماله . ومن أباها قاتلناه ، وكان قتله في الله تعالى علينا هيناً. أقول قولي هذا واستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات..

فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبابهم قم يا فلان فقل أبياتاً تذكر فيها فضلك ، وفضل قومك..»[1] .

فقام الشاب فقال :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع[2]

ونطعم الناس عند القحط مكرمة ونؤنس الضيف إن أمسى به فزع

إذا أبينا فلا يأبى لنا أحدٌ إنا كذلك عند الفخر نرتفع

(١) المصدر السابق.

(٢) البيع : أماكن الصلوات والعبادات.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى حسان بن ثابت فانطلق اليه الرسول فأحضره ، فقال حسان :

نصرنا رسول الله والدين عنوة على الرغم بادٍ من معد وحاضر
ألسنا نخوض الموت في حومة الوغى إذا طاب ورد الموت بين العساكر
ونضرب هام الدارعين وننتمي إلى حسب من جذم غسان قاهر
فلولا حياء الله قلنا تكرماً على الناس بالخفين هل من منافر
فأحياؤنا من خير من وطيء الحصى وأمواتنا من خير أهل المقابر

فقام الأقرع بن حابس يقول :

إن محمداً لمؤتى له.. والله ما أدري ما هذا الأمر ، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً ، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر ، ثم دنا من رسول الله ﷺ فقال :

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله.

فقال النبي ﷺ :

«ما يضرك ما كان قبل هذا»[1] ؟

ثم أعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم.

وهكذا قام ثابت بن قيس رضي الله عنه بدور جديد قد كلف به ، فوفاه حقه ، وأحسن وأجاد ، وانتصر المسلمون في معركة الكلام ، كما انتصروا سابقاً في معركة السيف والسنان.

وفي يوم من الأيام والمسلمون يعدون العدة ، للخروج تحت قيادة اسامة بن زيد نعى الناعي اليهم رسولهم وكان وقع هذا الخبر على ثابت بن قيس كما كان على غيره شيء لا يطاق.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٤.

ولكن بدأ يردهم إلى صوابهم ، ويخفف عنهم هول الصدمة الأولى.

ان لكل أجل كتاباً ، وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾[1] .

وكان على المسلمين أن يجابهوا أمرهم بحزم وقوة ، وخصوصاً بعد أن ارتد كثير من العرب عن الاسلام ، وظهر بينهم الكذبة وأدعياء النبوة ، يمنونهم الأماني ، ويتقولون على الله ما لم يقل.

وأخذ خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ، الأمر بجد كله ، وسير الجيوش للقضاء على هؤلاء المرتدين عن دينهم ومحاربة الأدعياء والتنكيل بهم. وخرج ثابت ابن قيس مع جيش خالد بن الوليد الذي اتجه إلى اليمامة ، لمحاربة مسيلمة الكذاب — مدعي النبوة — والذي التف حوله مجموعة من صناديد العرب وفرسانها..

والتقى الجيشان في معركة ضارية ، وانكشف المسلمون في الجولة الأولى عندما يتقدم ثابت بن قيس ومعه سالم مولى ابي حذيفة إلى مقدمة الجيش ويصرخ في هؤلاء المنكشفين عن مواقعهم بقوله : يا أبطال الاسلام يا جنود الرحمن ، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قتلا.

قتل هذان البطلان بعد أن فتحا في صفوف الأعداء ثغرة نفذ منها فرسان الاسلام إلى قلب الأعداء.

وكأن دماءهم التي سالت على أرض المعركة ، بداية النصر الكبير من الله سبحانه وتعالى لمن خرجوا من ديارهم لا يرجون إلا إعلاء كلمته ، ونشر دينه.

قتل ثابت بن قيس ، وكان عليه يوم مقتله درع له نفيسة ، فمر به رجل من

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤٤.

المسلمين حديث عهد بالاسلام فأخذها لنفسه، ولم يتقدم بها الى أهله ! .. وظن أنه ما دام لم يره أحد من الجنود فلا خوف عليه.

ولكن نسي أن هذه الدرع هي لرجل شهيد.

لرجل قاتل لإعلاء كلمة الله حتى سقط في أرض المعركة.

والشهداء ليسوا بأموات ولكنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

فلما كان اليوم التالي للمعركة، رأى رجل آخر من المسلمين في نومه أن ثابتاً قد أتاه وقال له : إني أوصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه، إني لما قتلت أمس مرّ بي رجل من المسلمين، فأخذ درعي ومنزله في أقصى الناس وعند خبائه فرس يعده لمرحه ونشاطه. وقد كفأ على الدرع بُرمة وجعل فوق البرمة رحلاً، فأتِ خالداً فمره أن يبعث إلى درعي، فيأخذها[1].

وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ يعني ابا بكر الصديق رضي الله عنه فقل له : إن علي من الدين كذا وكذا وفلان من رقيقي عتيق وفلان.

فأتى الرجل خالداً فأخبره، فبعث الى الدرع فأتى بها، وحدث ابا بكر رضي الله عنه برؤياه فأجاز وصيته بعد موته.

قال : ولا نعلم أحداً أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رضي الله عنه[2].

إن هذه الحادثة قد لا يستريح اليها مجموعة من الناس حصرت نفسها داخل العالم المادي، الذي يبصر، أو يلمس أو يشم.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ١ ص ٢٣.

(٢) البداية والنهاية جـ ٥ ص ٣٣٤.

ونسي هؤلاء الناس أن كون الله الفسيح أكبر من أن يحيط به عقلهم القاصر، أو يشمله بصرهم الكليل. ولقد كفانا كتاب ربنا مؤنة الرد عليهم في آية واحدة قال تعالى:

﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾[1].

---

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩.

أسباب نزول الآيات

قال الامام الواحدي : نزلت هذه الآية وهي قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ في ثابت بن قيس ابن شماس . وكان في أذنه وقر ، وكان جهوري الصوت وكان اذا كلم انساناً جهر بصوته ، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته فأنزل الله تعالى هذه الآية[1] .

.. وروى ابن جرير بسنده قال لما نزلت هذه الآية : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول :

قال : قعد ثابت بن قيس رضي الله عنه في الطريق يبكي ..

قال : فمر به عاصم بن عدي من بني العجلان . فقال : ما يبكيك يا ثابت؟ ..

قال : هذه الآية ، أتخوف أن تكون نزلت فيّ ، وأنا صليت رفيع الصوت وغلبه البكاء فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي سلول فقال لها : إذا دخلت بيت فرس ، فشدي على الضبة بمسار ، فضربته بمسار ، وقال : لا أخرج حتى يتوفاني الله تعالى ، أو يرضى عني رسول الله ﷺ .

قال : وأتى عاصم رضي الله عنه رسول الله ﷺ فأخبره خبره .

---

(١) راجع تفسير الطبري جـ ٢٦ ص ٧٥ والدر المنثور جـ ٦ ص ٨٤ — ٨٦ والاستيعاب في معرفة الاصحاب جـ ١ ص ٢٠١ ، وأسباب نزول القرآن للواحدي ص ٤٠٧ .

فقال : اذهب فادعه لي.

فجاء عاصم رضي الله عنه إلى المكان فلم يجده فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس ، فقال له :

«إن رسول الله ﷺ يدعوك».

فقال : اكسر الضبة.

قال : فخرجا ، فأتيا النبي ﷺ.

فقال له رسول الله ﷺ : ما يبكيك يا ثابت؟..

فقال رضي الله عنه : أنا صليت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول﴾.

فقال له النبي ﷺ :

أما ترضى أن تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً وتدخل الجنة.؟

فقال : رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ. قال وأنزل الله تعالى :

﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ [1].

وقال الامام البخاري عن نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ ، حين قدم عليه ركب بني تميم.

فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر.

---

(١) تفسير الامام ابن كثير جـ ٤ ص ٢٢ وراجع صحيح الامام البخاري.

قال نافع : لا أحفظ اسمه.

فقال ابو بكر لعمر رضي الله عنهما : ما أردت إلا خلافي.

قال : ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾[1].

---

(١) راجع تفسير الطبري جـ ٢٦ ص ٧٦ ، وتفسير القرطبي جـ ١٦ ص ٣٠٣ والدر المنثور جـ ٦ ص ٨٤ وأسباب نزول القرآن ص ٤٠٧.

تذييل...

للاعلام دوره الكبير في حياة الدول والشعوب، لأنه الصورة الصادقة المعبرة عنها في الداخل وفي الخارج، وكلما كانت الدولة صاحبة مذهب تريد أن ينتشر، أو دعوة تريدها أن تعم، كان اهتمامها بالاعلام أكبر، وبوسائله المؤثرة في حياة الأفراد والجماعات أكثر.

والاعلام في عصرنا الحاضر، عصر الصواريخ والأقمار الصناعية، لم يعد قاصراً على الدول والممالك فقط، بل تخطى ذلك إلى كل فرد، كل يريد أن يعلن عن نفسه، أو عن فكره، أو عن مؤسساته وأعماله. وتختلف وسائل الاعلام وأدواته من عصر إلى عصر، بل من دولة إلى أخرى، وبمقدار نجاح تلك الوسائل، وذلك عن طريق معرفتها لرغبات الافراد ومتطلبات الشعوب، كلما كان دور الاعلام، ناجحاً وموفقاً في أداء مهمته.

والاسلام لم يغفل الاعلام ووسائله في أيامه الأولى، ولم يكتف رسول الله ﷺ، بجهوده وجهود رجاله في الدعوة إلى الاسلام ونشر مبادئه، في داخل الجزيرة العربية، بل تعدى حدودها إلى ما يحيط بها من أمم أو يتاخمها من شعوب..

وحياة الرسول ﷺ دليل على أنه لم يغفل أمر الدعوة إلى الله لفترة واحدة من أيامه، ولم يتوان عن ارسال الرسل والوفود والاعلام عن مبادىء الاسلام إلى آخر لحظة من لحظات حياته.

من ذلك أن ابن كثير يذكر في كتابه البداية والنهاية، أن رسول الله ﷺ قام ذات يوم على المنبر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وتشهد ثم قال:

«أما بعد فاني أريد أن أبعث بعضكم إلى ملوك الأعاجم فلا تختلفوا عليّ كما اختلف بنو اسرائيل على عيسى بن مريم».

فقال المهاجرون: يا رسول الله إنا لا نختلف عليك في شيء أبداً فمرنا وابعثنا فبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب إلى كسرى ملك الفرس، وبعث دحية بن خليفة إلى هرقل عظيم الروم، وبعث أيضاً إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق. كما بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الاسكندرية [1].

وكل هؤلاء الرسل كانوا يحملون معهم مبادىء الاسلام وتعاليمه وكانوا قبل إرسالهم يختارون على مبادىء معينة، ويشترط فيهم صفات خاصة، تؤهلهم لأداء مهمتهم، وإقناع الملوك وأتباعهم برسالتهم.

ولقد كان للشعر دوره في الاعلام عن أمجاد القبيلة، وتعداد انتصاراتها وكان للعرب موسمها السنوي الذي تلتقي فيه بأسواق عكاظ ومجنة ذوو المجاز، ويتبارى الشعراء والخطباء في تعداد المفاخر، وذكر المحاسن فلما جاء الاسلام استمر للشعر دوره، وللكلمة مجالها في التعبير والاعلام.

قال محمد بن سيرين: كان شعراء المسلمين حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، فكان كعب يخوفهم الحرب، وعبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر، وكان حسان يقبل على الأنساب.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

وقال ابن سيرين أيضاً : فبلغني أن «دوساً» إنما أسلمت فرقاً من قول كعب بن مالك :

قضينا من تهامة كل وتر   وخيبر ثم أجمعنا السيوف
نسائلها ولو نطقت لقالت   قواطعهن «دَوْسا» أو ثقيفا

فقالت دوس : انطقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف ويقال أن رسول الله ﷺ وقف بباب كعب بن مالك فخرج فقال له رسول الله أنشد ، فأنشده ، ثم قال : إيه فأنشده ثم قال : إيه فأنشده ثلاث مرات . فقال رسول الله ﷺ : «لهذا أشد عليهم من وقع النبل»[1] .

والآن ما موقف وسائل الاعلام في بلادنا من الاسلام؟..

نعني وسائل الاعلام التي تصدر في بلاد المسلمين، وتنفق عليها الأموال من خزائنهم ! ..

إن المتتبع لتلك الوسائل، سواء الصحافة والاذاعة المرئية والمسموعة يلحظ مدى الخصومة المتأصلة بين الاسلام وبين القائمين على تلك الاجهزة فلماذا هذه الخصومة؟..

وما الذي يغضبهم من الاسلام وشرعه؟..

الإجابة على هذه الاسئلة يفتش عنها في داخل أولئك الذين وكل اليهم أمر الاعلام ـــ ولعلنا نلتمس لهم بعض العذر في ذلك ـــ لأن أكثرهم تربى على موائد الشرق والغرب، بعيداً عن هدى الاسلام ونوره، وعبوا من أفكار الهابطين ومبادىء الملحدين، وبالجملة فقد تتلمذوا على ايدي اليهود، اليهود الذين يعملون على تدمير العالم بتدمير أخلاقيات أفراده حتى يتحقق لهم حلمهم القديم، وهو جعل العالم مملكتهم.

---

(١) طبقات ابن سعد.

ونحن الآن في القرن العشرين ، نرقب طغيان الأفكار الأجنبية ، والعادات الأجنبية على حياتنا ، وتغلغلها في أعماقنا ، وسيطرتها على مناهج التعليم والتوجيه في بلادنا .

اننا لا نذهب لاستيراد هذه الأفكار في أكثر الأحيان ، ولكنها ترد الينا عن طريق أصحابها أو أتباعهم ، فتعمل في حياتنا عمل السحر ، وتأكل رصيدنا من الأخلاق كما تأكل النار الهشيم ، وتتدخل في كل شئوننا فتحرك كل يد ، وتسيطر على كل نفس ، وتتغلغل في كل بيت إلّا من عصم ربي ..

إن وسائل الاعلام في بلادنا يجب أن تنطلق من توجيهات الاسلام ومبادئه ، لتربي أجيالنا على الخلق والفضيلة ، وتنشىء أبناءنا على توحيد الله ومعرفته والعمل على مرضاته .

أما في الخارج فما موقف اعلامنا تجاه ديننا واسلامنا؟

إن موقفها في الخارج لا يقل تهاوناً عن موقفها في الداخل ، وتصمت هذه الأجهزة ، فلا تذكر الاسلام من قريب أو بعيد ، وكأن الاسلام تهمة يجب الابتعاد عنه ، وعدم الاقتراب منه . تفعل وسائل الاعلام في بلادنا ذلك تجاه دينها ، في الوقت الذي تقوم في البلاد التي يدينون لها بالولاء اذاعات كاملة ، وصحافة موجهة — لا عمل لها إلا التبشير بالانجيل والدعوة إلى المسيحية .

وإذا كانت الدول المسيحية — وعلى رأسها امريكا — تفعل ذلك فإن دولة الصهيونية ، أشد اغراقاً وتعصباً في الاهتمام بدينها والدعوة له ، ولقد اقيمت في تل ابيب اذاعة تنطق باللغة العبرية لتشنيف آذان المستمعين بكلمات العهد القديم ، والتبشير باقامة هيكل سليمان والاستيلاء على أرض الميعاد التي تمتد من النيل الى الفرات ، والتي لم تكن دولة فلسطين إلا جزءاً يسيراً منها .

فتى نرى اذاعة اسلامية تنطق باسم الاسلام وتعمل على نشر مبادئه والدفاع عنه ، في كل أرض يصل اليها الأثير ، ويمكن أن ينقل اليها صوت البشير؟ ..

إن تم ذلك فلا بد أن يستجيب الناس لصوت الحق ، ويدخلون في دين الله أفواجاً . . .

أنعجز في القرن العشرين — ومعنا كل الوسائل ، والتجهيزات الحديثة من صحافة ، واذاعة ، ودعاية ، وسياسة أن نفعل كما فعل ثابت بن قيس؟ .

لا : إن الاسلام وأهله بخير. وإذا عم الظلام فارتقب الفجر..

أسيد بن حضير

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ
تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ
وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا
تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ
بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا
حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾

صدق الله العظيم

[سورة آل عمران الآيات من ١٠٠ - ١٠٣]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير ورجال السير نزلت هذه الآيات في أسيد بن حضير، وقال البعض الآخر نزلت في الأوس والخزرج عامة.

راجع الدر المنثور جـ ٣ ص ٥٧.

وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٠٤

وتفسير الإمام الطبري جـ ٧ ص ٥٥.

وراجع أسباب نزول القرآن للامام أبي الحسن الواحدي

فمن هو أسيد بن حضير..؟

أسيد بن حضير

رضي الله عنه

يكنى أبا يحيى ، وكناه رسول الله ﷺ أبا عيسى . وسمي في الجاهلية بالكامل ، لمعرفته الكتابة باللغة العربية ، وتفوقه في العوم والرمي ، ومن كانت فيه هذه الخصال مجتمعة أطلقوا عليه لفظ «الكامل»[1] .

والده فارس الفوارس في الجاهلية ، وكان يسمى «حضير الكتائب» ورئيس قبيلة الأوس ، وحامل لوائها يوم موقعة «بعاث» آخر المعارك الكبرى بين الأوس والخزرج قبل هجرة الرسول اليها .

وأمه سليلة بيت عز وشرف ، ابنة النعمان بن امرئ القيس ،كان لها دورها الكبير في تربية «أسيد» وتنشئته ، وأرضعته — وهو صغير — حب معالي الأمور ، والبعد عن سفسافها .

ولد أسيد في يثرب .

تلك المدينة الخالدة ، التي دخلت التاريخ من أوسع أبوابه ، ومن فوق هضابها السمر ، جيشت الجيوش ، وهيئت الكتائب لنشر دين الله .

---

(١) الاستيعاب في معرفة الاصحاب جـ ١ ص ٩٢ وطبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٦٠٣ .

وعرفت دروب المدينة «أسيد» الفتى الشجاع، الذي يمتطي صهوات الخيل ويتغنى بالبطولة، ويحب مكارم الاخلاق.

وقتل والده وهو في أول الشباب فتوّجته القبيلة رئيساً لها خلفاً عن والده، وتحمل تبعات الحياة، وعرك سياسة الأفراد مبكراً.

وكان صديق طفولته وشبابه، ومستشاره في هومه الكبار، وتبعاته الجسام، سعد بن معاذ، فتى الفتيان، وفارس الشجعان في الجاهلية.

.. وكان أسيد وسعد لا يفترقان في ظعن أو إقامة، ولا يتباعدان إلا عندما يأوي كل منهما إلى فراشه.

وكانت لهما جلستها المفضلة تحت ظلال النخيل الذي يحيط «ببئر مرق» خارج المدينة.

يجلسان كل يوم يتسامران، ويتشاكيان، ويدبران شئون الأوس ويستعدان لجولة جديدة مع قبيلة الخزرج، يثأران فيها «لحضير» الذي قتل يوم موقعة بعاث

وفي يوم من الأيام وهما يجلسان في مجلسهما هذا؛ جاء اليهما كعب بن الحرث وأخذ يحدثهما عن رجل يدعى: مصعب بن عمير، جاء من مكة، ونزل ضيفاً على أسعد بن زرارة، وهو يدعو إلى دين يسمى — الاسلام — ويزعم مصعب أنه رسول من قبل النبي الذي ظهر بمكة.

ثم قال كعب: وقد سمعته البارحة يتفق مع اسعد بن زرارة ليحضرا عندكما اليوم ويعرضا عليكما الدين الجديد.

ثم تابع كعب كلامه قائلاً: وانني لأعجب من جلوسكما فوق هذه الربوة، وقد يكون الرجل يجلس في ناديكما الآن!..

عندها قال سعد بن معاذ مستفسراً:

دين جديد.. أي دين هذا؟..

قال كعب .. إنه يزعم أن صاحبه بمكة يهبط عليه الوحي من السماء ويطالب بنبذ عبادة الاصنام، ويدعو الناس إلى عبادة الواحد الأحد. ولم يطق سعد أن يسمع أكثر من ذلك فقال لأسيد:

«انطلق يا أخي إلى هذين الرجلين اللذين قد يأتيا الينا ليسفها ضعفاءنا، ويفرقا جمعنا، فازجرهما — إن استطعت. وانههما أن يأتيا دارينا»[1].

ثم خفتت حدة صوته، ولانت كلماته، وتابع حديثه لأسيد قائلاً: «والله لولا أن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدمة وهو مني حيث قد علمت كفيتك هذا؟؟..[2].

وأما أنا فسأذهب إلى نادينا لأكون على أهبة الاستعداد، لأحول بينهما وبين ما يريدان، إن فشلت جهودك في منعهما من الحضور.

فأذعن أسيد لما قاله سعد، وتناول حربته وسار يحث الخطى إلى منزل أسعد بن زرارة.

وفي الطريق أخذت كلمات كعب بن الحرث ترن في أذنيه، وكأنها تلقى عليه مرة أخرى.

«نبذ الأوثان».

«عبادة الواحد الأحد».

«وحي السماء».

«نبي جديد» ما هذا؟.

وأخرجته من تأملاته تلك، دقات يده، وهي تطرق الباب بعنف على منزل أسعد بن زرارة.

---

(١) الروض الانف جـ ٤ ص ٧٦.

(٢) المصدر السابق.

وفتح الباب له ، وعندما رآه أسعد هش لمقدمه ، وسلم عليه ، وقال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه ، قد جاءك فاصدق الله فيه .

قال مصعب : إن يجلس أكلمه .

ولكن «أسيد» ما جاء ليجلس ، ولم يأت ليستمع ، لقد جاء ليلقن هذا الرجل ، درساً قاسياً يرد له عقله ، ويرجعه إلى بلده ، ويجعله لا يفكر في العودة مرة أخرى إلى تلك البلاد .

وبدأ حديثه قاسياً غاضباً ثم قال :

«ما جاء بك الينا تسفه ضعفاءنا وتغير أحوالنا ؟ . اعتزلنا إن كانت لك بنفسك حاجة » .

فقال مصعب له :

«أوتجلس فتسمع ، فان رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره » .

إن مصعباً يدعو أسيداً ليستعمل عقله ، يدعوه للتعرف على ما يدعو اليه ، إنّها بداية طيبة من هذا الرجل .

إذن لِمَ لا يستمع اليه ؟

وقد يكون ما سمعه عنه وشاية ، أو حديثاً مفترى ، أيرفض أسيد هذا المنطق — وهو الرجل الذي يسمى بالكامل ؟

أيجهل على رجل من غير هذه الديار .. ؟

وأين كرم الضيافة وحقوق الضيف .. ؟

ثم أيحكم على قول قبل أن يستمع اليه .. ؟ إن هذا لمن قلة الرأي . !

وما لبث أن استوقفه عقله ، وردته الى صوابه الكلمات البسيطة الصادقة التي نطق بها مصعب .

عندها قال أسيد لمصعب أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس اليه، فكلمه مصعب بالاسلام، وشرح له أصوله، وقرأ عليه القرآن.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون، تنزيل من رب العالمين﴾[1].

وقول الله تعالى أيضاً: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين﴾[2].

فما لبث أن أشرق وجهه، وانفرجت أساريره، وتفتح قلبه للهدى الجديد، وقبل أن ينتهي مصعب من حديثه، قال أسيد:

«ما أحسن هذا الكلام وأجمله. ماذا تصنعون إذا أردتم الدخول في هذا الدين.؟».

قال مصعب: تغتسل فتتطهر، ثم تشهد شهادة التوحيد وتصلي.

فقام فاغتسل، وطهر ثوبه، وبدنه، ونطق أمام مصعب بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعلمه مصعب الصلاة، فقام فركع ركعتين[3].

هنيئاً لك يا أسيد لقد هداك ربي إلى الفطرة إلى دين الاسلام. ومن اللحظات الأولى بعد إسلامه، تحول إلى داعية للاسلام، ومبشر بهذا الدين الجديد.

وأطلق لفرسه العنان، متجهاً إلى هناك حيث يجلس صديق طفولته ورفيق شبابه، سعد بن معاذ.

وعندما رآه سعد، رأى شخصاً جديداً غير أسيد الذي يعرفه من قبل فبادره بقوله: أحلف بالله لقد جئتنا يا أسيد بغير الوجه الذي ذهبت به. ما وراءك.؟

---

(١) سورة الواقعة آية رقم ٧٧ ــ ٨٠.

(٢) سورة الشعراء آية رقم ١٩٤.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٥٣.

ولكنه لم يمهله ، بل حمله إلى هناك حيث سفير الرسول ﷺ فاستمع اليه كما استمع أسيد ، ولقن الشهادة ، واطمأن قلبه بالاسلام .

ثم عادا إلى قومهما شخصين آخرين ، وكأنهما عندما تحرك لسانهما بهذه الكلمة الجديدة (كلمة التوحيد) تلاشت مرة واحدة كل وساوس الشرك ، وكل تطلعات الجاهلية ، وانسلخا من عرفها وطبائعها بالكامل ، الأمر الذي جعل أسيد بن حضير يقف في نادي قومه قائلاً :

يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ..؟

قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة ..

قال : فان كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله[1] .

قالوا : فوالله ما أمسى دار من بني عبد الأشهل إلا وفيه رجل مسلم أو امرأة مسلمة .

ورجع سعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقاما عنده يدعوان الناس إلى الاسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلّا وفيها رجال ونساء مسلمون .

ونجح مصعب في سفارته ، وأجاب الأنصار داعي الله — وأخذت النفوس المؤمنة من الأنصار تتطلع إلى رؤية رسول الله ﷺ وتهفو إلى مكة تلك البقعة المباركة ، التي اختارها الله لتكون منارة نور وهداية ، ومبعث وحيه ودينه .

.. وفي موسم الحج .. خرجت قافلة الايمان ، تسرع السير إلى مكة قافلة عجيبة الشأن ، ضخمة العدد ، يتجاوز عددها السبعين رجلاً . وأبت النساء المؤمنات من زوجات الأنصار واخواتهن إلا أن تشاركن في هذه الرحلة ، بارسال سفيرتين ليحدثنهن حديثاً طويلاً عن رسول الله ﷺ .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٥٣ راجع الروض الأنف جـ ٤ ص ٧٨ .

ووقع الاختيار على نسيبة بنت كعب أم عمارة ، وأسماء بنت عمرو بن عدي[1]
وانبعث صوت القافلة مدوياً يبدد وحشة الطريق ، ويقطع صمت الصحراء بالنداء القوي :

«الله أكبر، الله أكبر».

وكان أسيد بن حضير أحد حداة القافلة ، قافلة الايمان التي سيكون لها شأن أي شأن في ذاكرة التاريخ.

وفي مكة ، وفي مكان أمين بعيد عن عيون المشركين المتلصصة وتحت جنح الليل الساتر ، والذي أضاء بنور الايمان طريق تلك القافلة . التقوا بالرسول ﷺ ومن اللحظات الأولى لهذا اللقاء أظهر الانصار بطولة فائقة ، واثبتوا ان ايمان قلوبهم أقوى من الجبال الراسيات ، فبايعوه على حرب الأحمر والأسود ، وأن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم وذراريهم.

وتكلم الرسول ﷺ فقال :

«أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم»[2] .

وتم اختيار النقباء ، وكان أسيد بن حضير أحد هؤلاء الرجال الذين وقع عليهم الاختيار.

ثم ماذا ؟ . عادت القافلة بعد ذلك إلى يثرب ، يملأ قلوب أصحابها نور الايمان وتباركها عناية الرحمن.

وفي يثرب عاش أسيد شخصاً جديداً يتفقه في دينه ، ويؤدّي فرائض ربه ، ويتفقد أحوال العشيرة . فإذا جَنّ المساء تحولت داره إلى منتدى لدراسة الدين ،

---

(١) الروض الانف جـ ٤ ص ٨١.
(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٦١.

ومعرفة أصوله ، وكان اليهود في المدينة يشتركون في هذه المناقشات ويحاولون بأساليبهم الملتوية أن يشككوا في الرسالة والرسول .

فكان أسيد يغلبهم بالحجة مرة ، ويوقفونه موقف الحيرة والشك بأسئلتهم المتلاحقة مرات .

حتى جاء البشير بقرب وصول الرسول ﷺ الى يثرب بعد أن خرج من مكة مهاجراً اليها ، فكان أسيد يخرج كل يوم على رأس قبيلته يترقب وصول رسول الله اليها .

وما أن تراءى لعيونهم من قرب ، ودلفت ناقته القصواء إلى داخل المدينة حتى أخذ أسيد بزمامها قائلاً :

(هلم يا رسول الله الينا إلى العدد والعدة والمنعة) .

فقال الرسول ﷺ خلوا سبيل الناقة فانها مأمورة .

وتتابعت طلبات الأنصار كل يرجو أن ينزل عنده ، ولكن الرسول ﷺ كان يردهم رداً كريماً مردداً كلمته : خلوا سبيلها فانها مأمورة[1] .

وأقام الرسول ﷺ بناء مسجده واشترك أسيد مع بقية الأنصار في عملية البناء .

وآخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، وكان أخو أسيد ، حب الرسول ومولاه ، زيد بن حارثة[2] .

وفي العام الثاني من هجرة الرسول ﷺ جيشت قريش الجيوش ، وأعدت العدة والرجال ، للقضاء على تلك الفئة المؤمنة التي هاجرت إلى ربها واستقرت في يثرب .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٩٨ والروض الأنف جـ ٤ ص ٢٣٢ .

(٢) ذكر ابن هشام أن زيد بن حارثة كانت مؤاخاة بينه وبين حمزة ولكن ابن سعد ذكر ذلك في طبقاته .

وكانت موقعة بدر الكبرى ، التي نصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً ، ولكن أسيد ابن حضير تخلف عن هذه الموقعة الفاصلة ، وأكل الندم قلبه لما حدث ، وأصيب بهمّ وغمّ شديدين لتخلفه عن أول موقعة خاضها المسلمون لرفع كلمة الله.

وعاد الرسول ﷺ من بدر وفي طريق عودته التقى به أسيد فقال : الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك.

ثم تابع حديثه قائلاً :

«والله يا رسول الله ، ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً.. ولكن ظننت أنها العير ، ولو كان علمي أنه عدو الله ما تخلفت».

فقال رسول الله ﷺ :

«صدقت»[1].

ولم يتخلف بعدها عن موقعة من مواقع الرسول ﷺ.

وفي غزوة أُحد ، جرح أسيد ، سبع جراحات ، وثبت مع رسول الله حين انكشف الناس عنه.

وانتهت معركة أُحد بالنتيجة المعروفة ، وتذكر الرجال في مجلس الرسول ﷺ بلاءهم ومواقفهم في تلك الغزوة.

ولم يتكلم أسيد ولم يعلن عن نفسه.

فقال الرسول ﷺ :

«نعم الرجل أسيد بن حضير»[2].

انها شهادة من قائد المعركة ، بأن أسيداً قام بواجبه كاملاً وأدى ما عليه في هذه

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٦٠٥.

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٦٠٥.

ـ سيرة ابن هشام والروض الأنف جـ ٦ ص ٢٤.

المعركة تجاه ربه ، وتجاه دينه ، وتجاه رسوله ، وإذا قال القائد.. فلا مقال بعده لقائل.

ويمر الرسول ﷺ بعد موقعة أحد بدار من دور الأنصار ، فسمع البكاء والنواح على قتلاهم ، فجدد هذا البكاء شجونه ، وتذكر عمه حمزة بن أبي طالب ، وما فعله الأعداء به فذرفت عينا رسول الله ﷺ فبكى. ثم قال :
«لكن حمزة لا بواكي له».

وتصل هذه الكلمة إلى مسامع سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير فرجعا إلى دورهما وأمرا نساء الأنصار أن يتخمرن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ﷺ.

فلما سمع رسول الله ﷺ بكاءهن قال :

«رحم الله الأنصار ، فان المواساة منهم ما علمت لقديمة مروهن فلينصرفن»[1].

رحم الله الأنصار ، ورحم الله أسيد بن حضير ، الذي كان يحب الله ورسوله ويحب دينه ، ومن أجل ذلك كان يتحرى أوامر الرسول ﷺ فينفذها ، وما نهى عنه فيبتعد عنه.

وكان كبير العقل ، ثابت الجنان ، عرفته الحوادث والظروف رجلاً محنكاً حكيماً لا يعرف الطفرة ولا الرأي الفطير.

والحادثة التي نضعها أمام القراء تلقي أضواء كثيرة على هذه الشخصية الفذة المؤمنة ، شخصية أسيد بن حضير.

.. انتهى رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق ، وتزاحم الرجال على بئر الماء ، وتناوش رجل من المهاجرين مع آخر من الأنصار ، وصرخ كل منهما يستنجد بأهله وعشيرته.

---

(١) الروض الانف جـ ٦ ص ٢٤ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٤٧.

ووجدها عبد الله بن أبي زعيم المنافقين فرصة، ينفس فيها عن حقده وغيظه، وخبيئة نفسه.

فقال: أوَقد فعلوها؟. يقصد المهاجرين.

ثم تابع حديثه قائلاً: لقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله لقد أصبح حالنا مع جلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول:

«سمن كلبك يأكلك».

«أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم:

«هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم».

وسمع الرسول ﷺ بما قاله هذا المنافق، وخشي أن يقتله رجل من المسلمين، غضباً لله ورسوله، وخصوصاً بعد أن قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«يا رسول الله مر به عبّاد بن بشر فليقتله».

فقال له الرسول ﷺ فكيف يا عمر إذا تحدث الناس «أن محمداً يقتل أصحابه»؟. لا: ولكن آذن بالرحيل[1].

وكان ذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها.

فلما تحرك الجيش، جاء أسيد بن حضير إلى الرسول ﷺ وقال: يا نبي الله، والله لقد رحلت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها..

فقال له رسول الله ﷺ:

«أوما بلغك ما قال صاحبكم؟..»

قال: وأي صاحب يا رسول الله؟

---

(١) راجع أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٤٥٩.

قال : عبد الله بن أبي .

قال : وما قال يا رسول الله؟

قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الاعزُّ منها الأذل[1] .

قال : فأنت يا رسول الله ، والله تخرجه منها إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز .

ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وان قومه لنظمون له الخرز ليتوجوه ، فانه ليرى انك قد استلبته ملكاً .

بهذه الكلمات الواضحة القوية الصادقة ، عالج أسيد قضية عبد الله بن أبي وكأنه من أكبر النفسانيين الذين يتعمقون إلى أغوار النفس البعيدة ويعرف أحاسيسها وشعورها وملابساتها وأطوارها .

إن هذا المنافق أساء إلى المسلمين جميعاً واساء إلى الرسول ﷺ ، وأساء إلى نفسه بإظهار نفاقه ، وغيظه ، ولقد كان يهدف من وراء ذلك — وفي كل موقف كان يقفه — إلى تفتيت الصف المسلم وطرد المسلمين من المدينة إن أمكن ذلك ، وكان يعتقد أن بداية ذلك أن ينال المسلمون بعضهم من بعض ، وأن تثار بينهم معركة تسيل فيها الدماء ، ليكون هذا مدعاة لخروجهم من المدينة ، حتى يعود اليه الملك والتاج الذي كان يعد له .

وكان الرسول ﷺ يفوت عليه غرضه ، ويبطل كيده .

ثم ان أسيداً استطاع أن يخفف من غضب الرسول ﷺ بتصوير حال الرجل ، وبأنه موتور ، لضياع فرصة غالية ، كان ينتظرها ويمني نفسه بها .

والرسول عليه السلام يعلم ذلك ، ولكن كلمات أسيد التي جاءت في حينها كانت شهادة على صدقه ، والتماسه من الرسول ﷺ عذراً لهذا الرجل .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٣٩.

والرسول — من قبل هذا ومن بعد — وهو صاحب السماحة ، الذي يتجاوز عن هفوات الآخرين واخطائهم .

ولا يقف كيد النفاق والمنافقين عند حد ، بل يستمرون في غيهم ويتقولون الأقاويل ، ويشيعون الأكاذيب ، ويشككون في الرسول والرسالة ، وتطورت أساليبهم ، حتى أشاعوا كلمة « الإفك » عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها .

فعلوا ذلك لتلويث الصف الاسلامي باطلاق الشائعات بالباطل ، ظناً منهم أن تلك الأقاويل والمفتريات يمكن أن تضع ذلك من المكانة الخلقية للحركة الاسلامية .

ووقف الرسول ﷺ وقال :

« أيها الناس ، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ؟ . ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل ، والله ما علمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتي الا وهو معي »[1] .

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة ، وقف أسيد بن حضير منافحاً ومدافعاً عن الرسول وأهل بيته ، ثم قال :

« يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكهم ، وإن يكونوا من اخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم »[2] .

لقد كان أسيد في الموقف السابق سمحاً ليناً يلتمس الأعذار للناس ، ويقدر ظروفهم ، أما هذا الموقف ، فهو شاق على النفس البشرية ، مؤلم لها ، لا يحتمل أعذاراً ، ولا تجدي فيه كلمات .

.. إنه الطعن في الشرف بلا دليل ، ورمي أطهر نساء الأرض بغير بينة وتلويث بيت النبوة . لهذا كانت كلماته حاسمة وقاطعة :

---

(١) راجع أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٣٣٣ وتفسير الطبري جـ ١١ ص ٧١ .

(٢) راجع تفسير البغوي والخازن جـ ٥ ص ٤٦ والدر المنثور جـ ٥ ص ٢٤ — ٢٦ .

«إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم».

إنه موقف الرجولة من رجل كريم، وموقف الجندي الذي ينتظر أمر القائد فينفذه بلا بطء، أو هوادة.

وفي يوم لم يعرف المسلمون مثله قسوة وبلاء وزعزعة، واضطراب وقف الناعي لينعي لهم رسول الله ﷺ.

وعاش المهاجرون في هول الصدمة الأولى، وتصدعت نفوس المسلمين من الداخل عندما أحسوا أنه لا لقاء بعد اليوم برسولهم الذي أنقذهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان.

وفي وسط هذه الأحزان التي عصفت بصبر الحليم، اجتمع رجال الأنصار في سقيفة بني ساعدة، لاختيار خليفة رسول الله ﷺ وقدموا سعداً بن عبادة ليتولى أمور المسلمين، ووقف خطيب الأنصار وقال:

نحن الأنصار وكتيبة الاسلام.

وعلم المهاجرون بهذا الاجتماع، فتدافعوا اليهم، وأوشكت أن تكون فتنة لا تبقي ولا تذر.

أين الرجل حكيم الأنصار في هذا الهول؟.

أين أسيد بن حضير؟. ليهدىء من ثورة النفوس الثائرة، ويخفف من وقدة القلوب الفائرة، ويرد المسلمين إلى عقلهم وصوابهم؟.

أين هو؟. أيفتقد في مثل هذا الوقت؟.

لا إن هذا لن يكون، فهو يدلف من باب السقيفة ويدافع الناس بيده داخلها حتى يصل إلى مكان مرتفع، ليسمع الحاضرين صوته.

وقبل أن تعم الفتنة، ويلفهم ليل من الاختلاف طويل، كانت كلمات أسيد تشق هذا الجمع الحاشد لتستقر في قلوبهم، وتعيد السكينة والأمن والهدوء إلى نفوسهم.

قال أسيد : مخاطباً الأنصار من قومه : تعلمون أن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين ، فخليفته إذن ينبغي أن يكون من المهاجرين.

ولقد كنا أنصار رسول الله ﷺ وعلينا اليوم أن نكون أنصار خليفته.

واستراح المسلمون لكلمات أسيد ، ووقى الله جموعهم شر الفتنة وتمت مبايعة الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

صدق رسول الله ﷺ في قوله :

«نعم الرجل أسيد بن حضير».

وبعد عام السقيفة عاش أسيد عابداً متبتلاً يترقب تحقيق ما وعده رسول الله ﷺ هو وأصحابه بقوله :

«اصبروا حتى تلقوني على الحوض».

لقد كان أسيد بن حضير من الرجال القلائل الذي يجود بهم الزمن — ثم عاش في مدرسة الاسلام الأولى — فكان من الصفوة المختارة التي يحبها الله ورسوله ، لقد كان شجاعاً في الحق ، كريماً لا يبخل ، عطوفاً لا يقبل الظلم واستمر على ذلك حتى وافاه أجله عام عشرين للهجرة.

مات أسيد بن حضير ، وشارك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حمله إلى مقره الأخير.

مات الرجل الكريم وعليه أربعة آلاف درهم ديناً للغرماء ، وأراد الدائنون أن يبيعوا أرضه وعقاره وفاء للدين ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فبعث إلى غرمائه فقال :

هل لكم أن تقبضوا كل عام الفاً فتستوفوه في أربع سنين؟

وكان ماله يغل كل عام ألفاً.

قالوا: نعم يا أمير المؤمنين[1].

يا حكام المسلمين في القرن العشرين. من منكم يكون خليفة أسيد بن حضير يعمل لدينه وربه، ويجاهد في سبيل الله بماله ونفسه، ويموت فتقوم تركته سداداً لدينه؟

من يا أتباع محمد؟. أم ترى عقمت هذه الأمة، فلم تعد تنجبْ أمثال هؤلاء الرجال؟!!.

(١) .الاصابة في معرفة الصحابة والاستيعاب جـ ١ ص ٩٢.

أسباب نزول الآيات

كان بين الحيين الأوس والخزرج قتال في الجاهلية ، وكانت آخر المعارك بينهم قبل الاسلام معركة «بعاث» التي قتل فيها (حضير الكتائب) والد أسيد بن حضير وأخذ أسيد بعد العدة لمعركة كبيرة بينه وبين أعدائه ليأخذ بثأر أبيه.. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بهم خيراً فهداهم الى الاسلام وألف بين قلوبهم.

.. ولكن يهود المدينة آلمهم ذلك كيف يتم الاتفاق بين هذين المتحاربين ان معنى ذلك بوار تجارتهم ، وتوقف كيدهم ، وانكشاف أمرهم..

إذن لا بد من عودة الشقاق والخلاف بين الأوس والخزرج حتى يزاولوا نشاطهم وتروج أموالهم ، واذا لم يكن هناك تنافر أوجدوه ، واذا كان هناك سلم اصطنعوا أسباب الحرب..

وفي يوم من الايام مر «شاس بن قيس» اليهودي — وكان شيخاً قد كبر سنه وكان شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم — على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الاوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم ، وصلاح ذات بينهم في الاسلام ، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة.

فقال : قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار[1] .

فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال : اعمد اليهم فاجلس معهم ، ثم ذكرهم بيوم «بعاث» وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، وكان «بعاث» يوماً — كما قلنا سابقاً — اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا ، وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين أوس بن قيظي أحد بني حارثة من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج ، فتقاولا ، وقال أحدهما لصاحبه :

إن شئت والله رددتها الآن جذعة ، وغضب الفريقان جميعاً وقالا قد فعلنا ، السلاح ، السلاح ، موعدكم الظاهرة — وهي حرة — فخرجوا اليها وانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال :

«يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالاسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية ، فألف بينكم ، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً ..؟ الله ، الله»[2] .

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، وألقوا السلاح من أيديهم ، وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ متسامحين مطيعين فأنزل الله عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾[3] .

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ١١١ والدر المنثور جـ ٢ ص ٥٧ وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٠٤ .

(٢) الدر المنثور جـ ٢ ص ٥٧ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٠٠ .

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : أومأ الينا رسول الله ﷺ فكففنا ، وأصلح الله تعالى ما بيننا فما كان شخص أحب الينا من رسول الله ﷺ فما رأيت قط يوماً أقبح ولا أوحش أولاً ، وأطيب آخراً من ذلك اليوم .

.. وفي رواية عن عكرمة رضي الله عنه : اجتمع الأوس والخزرج وأخذوا السلاح ، واصطفوا للقتال فنزلت هذه الآية ، فجاء النبي ﷺ حتى قام بين الصفين فقرأها ورفع صوته ، فلما سمعوا صوته انصتوا له وجعلوا يستمعون اليه ، فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً وجثوا يبكون» .

رحم الله الأنصار وأبناء الأنصار .

تذييل...

إنهم اليهود قديماً وحديثاً، حرفوا التوراة وادعوا على الله، وقتلوا الأنبياء ورموهم بكل نقيصة، وتقولوا عليهم الأقاويل.

وارتكبوا أول جريمة من جرائم السرقة في التاريخ عندما خدعوا نساء المصريين واستولوا على ذهبهم، ومجوهراتهم، وصنعوا منه فيما بعد معبودهم.

واتقنوا أعمال اللصوصية، وتفننوا في أساليب السرقة والنهب، نهب الأفراد ونهب الشعوب، وكانوا دائماً وراء الأسباب التي أدت إلى اشعال الحروب وتدمير الحضارات، وتخريب المدن.

ليس هذا فحسب، بل نجد دائماً اليهود وأبناء اليهود، وراء حركات الإلحاد والزندقة، والتشكيك في الرسالات والرسل.

والهدف الذي يبغونه من وراء ذلك تحطيم القيم والأخلاق، واشاعة الرجس، وإفساد الشباب. والحصول على الذهب، والتحكم في أسواق العالم واقتصادياته.

تاجروا بالرقيق الابيض، وهرّبوا المخدرات والافيون إلى كثير من البيوت والاسر، وعملوا على صناعة الافلام الساقطة، والروايات الداعرة بغية تحطيم القيم والفضائل عند الافراد.

انشأوا بيوت الأزياء «المُودَةِ» من أجل تخريب البيوت، وتدمير الاسر وتقويض الحياة الزوجية.

.وعملوا على سفور المرأة، وعرضوها سلعة رخيصة في سوق النخاسة:

تقول «بروتوكولات»[1] اليهود: يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا إن «فرويد» منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس، لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه».

وتقول أيضاً: لقد رتبنا نجاح «دارون» و«ماركس» و«نيتشه» وذلك بالترويج لآرائهم، وإن الاثر الهدّام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي، واضح لنا بكل تأكيد.

ولقد تعقب القرآن الكريم، الخلق اليهودي والجبلة اليهودية وما انطوت عليه من جبن وقسوة، وطغيان، وكفر، وكذب وافتراء، ومكر وحقد، وجشع وذلة، وانحطاط.

أما عن الجبن، فهو طبيعة متأصلة في نفوسهم، ومظهر عام فيهم، وإن تظاهروا بعكس ذلك. قال تعالى:

﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾[2].

ومن دلائل الجبن المختلط بذواتهم حبهم الحياة وكراهيتهم الموت، وفرارهم من كل ما يتصورونه أنه يقربهم منه قال تعالى:

﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾[3].

إنهم جبناء بالفطرة يهابون الموت، وحينما يحاربون يفضلون معارك الليل في

---

(١) بروتوكولات صهيون: تحقيق التونسي.

(٢) سورة الحشر آية ١٤.

(٣) سورة البقرة آية ٩٦.

الظلام وعندما طلب منهم موسى عليه السلام الذهاب معه إلى فلسطين كان قولهم كما يحكيه القرآن عنهم:

﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾[1].

وأما عن القسوة: فقد صورها القرآن أكمل تصوير في قوله تعالى:

﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾.

إنها قسوة في القلوب، وقسوة في المعاملة، وقسوة في الأخذ وفي العطاء قسوة لازمتهم على مدار التاريخ واكتوت البشرية بنارها، وأريقت الدماء من ضحاياها دون أن تنبض قلوبهم برحمة أو شفقة.

جاء في الكتاب الذي وضعه المؤرخ كاسيوس ما نصه:

«حينئذ عمد اليهود إلى «كيرين» شواطىء طرابلس الغرب حالياً بقيادة «اندريا» إلى ذبح الرومان واليونان وأكلوا من لحمهم وشربوا دماءهم.

وسلخوا جلودهم ولبسوها، وقطعوا أجسام كثيرين منهم نصفين من الرأس فنازلاً، وألقوا بالكثيرين الى الحيوانات المفترسة، وكذلك فعلوا في مصر وقبرص».

وتقول جريدة الديلي ميل البريطانية تصف بعض المشاهد من الحرب الأهلية الاسبانية:

«في مقاطعة قرطبة وجد ٩١ مذبوحاً، وآخرون وجدوا محروقين وهم أحياء من بينهم راهبان من كنيسة العذراء سحلت عيونهما بالمخارز، وفي سافيل هجم الشيوعيون بقيادة امرأة يهودية، وقتلوا السجناء ثم صبوا البنزين على أجسامهم وأشعلوا فيها النيران.

---

(٢) سورة المائدة آية ٢٤.

وعلى أرض العرب في فلسطين وفي قرية دير ياسين العربية جمع اليهود سكان القرية صفاً واحداً، رجالاً ونساء وشيوخاً وأطفالاً، ثم صبوا عليهم المدافع الرشاشة وأخذوا في حصدهم وتعذيبهم أثناء عملية القتل والذبح، فبقروا بطون الحبالى وأخرجوا الأطفال وذبحوهم، وقطعوا أوصال الضحايا وشوهوا أجسامهم حتى يصعب التعرف عليهم.

إنها طبيعة اليهود الوحشية، وهمجيتهم التي لا تجارى، مارسوها منذ أن كان لهم تاريخ ولا يزالوا يزاولونها.. إلى يومنا هذا.

وكما سجل القرآن جبنهم وقسوتهم سجل عليهم أيضاً قتلهم أنبياءهم وتقولهم عليهم، ورميهم بالفجور والزنا. قال تعالى:

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾[1].

وقال أيضاً:

﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾[2].

وإذا كان هذا حالهم مع أنبيائهم، فكيف حالهم مع البشر؟..

إنهم يستعملون معهم الكذب والافتراء لزعزعة العقيدة، وتهوينها في قلوبهم ويستعملون المكر والكيد من أجل تحقيق غايتهم وتحطيم غيرهم ممن ليسوا على دينهم، ولقد شهد القرن العشرون عملية بارزة تدل على مدى المكر المتأصل في طبائعهم، لقد تظاهروا باعتناق الاسلام ليسهموا في القضاء على الخلافة الاسلامية، ولقد تحقق لهم ما أرادوا، ولم يتنصل اليهود من فعلتهم التي ارتكبوها في

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٨٧.

(٢) سورة البقرة آية رقم ٩١.

حق الاسلام والمسلمين. بل كان أحدهم «قراصو» ثالث ثلاثة أبلغوا السلطان عبد الحميد قرار الخلع.

وقد وجه السلطان العثماني كلامه إلى الصدر الاعظم وكان أحد الذين أبلغوه القرار قائلاً: أفهم أن يخلعني المسلمون وتبلغني أنت قرار الخلع بحكم مركزك الديني ولكن ماذا يفعل معكم هذا اليهودي؟ وأشار إلى «قراصو».

لقد حضر «قراصو» مندوباً عن اليهود حتى يفهم السلطان أنهم وراء هذا الخلع وانه تم بتدبيرهم، وأنهم خططوا له من يوم أن رفض أن يبيع قطعة غالية من أرض العرب وطرد مندوبهم (هرتزل).

ولن نستطيع في تلك العجالة أن نحيط بكل أساليب اليهود، ولا أن نحصي أفعالهم، والقضية الهامة التي يجب أن يتنبه لها المسلمون الآن أن الأمر لم يعد أمر خلافة تسقط.

ولا قطعة غالية من أرض المسلمين استولوا عليها.

إن الأمر أعمق من ذلك.

إن اليهودية العالميه لن يهدأ لها بال ولن يستقر لها قرار حتى يتحقق لها ما تعمل له من قديم وهو تحويل أبناء المسلمين عن دينهم إلى الالحاد والتبعية وأن تجعل منهم أنفسهم أداة هدم لدينهم وأخلاقهم ومثلهم..

انها تستعمل كل الوسائل في ذلك حتى يتحقق لها الأمل الكبير أمل الاستيلاء على أرض الميعاد التي يحددها تلمودهم بما بين النيل إلى الفرات.

إن الأمل معقود في الله سبحانه وتعالى الذي يقول في محكم كتابه: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾(١).

يا حكام المسلمين وقادتهم.. إن الطريق أمامكم ممهد، والمستقبل لكم لو أعددتم للأمر عدته.. فهل أنتم فاعلون..؟

(١) سورة النور آية رقم ٥٥.

عَبد الله بن جحش

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ
فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ
أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن
دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن
دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة البقرة آية ٢١٧]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين نزلت هذه الآية في سرية عبد الله بن جحش الأسدي.
قال ذلك صاحب الدر المنثور جـ ١ ص ٢٥١.
وقال ذلك ابن كثير في تفسيره جـ ١ ص ٢٥٢.
وقاله ابن هشام
وذكره ابن كثير في البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٥٠.
وذكره ابن الأثير في كتابه الكامل جـ ٢ ص ١١٤.
وذكره الامام الواحدي صاحب كتاب نزول القرآن ص ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣.

فمن هو عبد الله بن جحش؟

عبد الله بن جحش

رضي الله عنه

يعرف بالمجدع.

لأنه مثل به وجدع أنفه وأذناه في غزوة أحد، تلك الغزوة التي تحول فيها جنود قريش ونساؤها إلى ذئاب مفترسة، تبقر البطون، وتنهش الآذان والأنوف وله سابقة كان يعتز بها دائماً.

فهو صاحب أول لواء عقده رسول الله ﷺ. وأول من سن الخمس من الغنيمة ﷺ قبل أن يفرض الخمس.

أما عن والده فهو جحش بن رئاب بن خزيمة الأسدي.

وأمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم.

وأخته أم المؤمنين زينب بنت جحش زوج الرسول ﷺ.

كانت ولادته في مكة، قريباً من بيتها الحرام، ولما شب عن الطوق، عرف الطريق إلى الكعبة، وكان يقف أمامها طويلاً، يشاهد الوفود الجرارة، التي تفد إلى تلك البقعة المباركة من كل أنحاء العالم.

وكم رأى بعينيه دموعاً تتساقط، وابتهالات وأدعية أمام الكعبة من الرجال والنساء، الذين يفدون حجاجاً إلى بيت الله الحرام.

وكم سمع تمتمات، وهمهمات، تعيها أذناه ولا يفهم لها معنى.

عندها يطلق قدميه تسبقان الريح ويرتمي بين أحضان أمه يسألها مستفسراً ملحاً.

وتجيبه حانية عاطفة، حتى تأخذه سنة من النوم فتربت على كتفه، وتلفه بغطائه، وتدعو رب البيت أن يحرسه ويرعاه.

وعاد لها في يوم من الأيام حزيناً باكياً، لقد شاهد الرجال يعملون معاولهم في أركان وجدران الكعبة، وتوجه اليها بالسؤال قائلاً: لماذا يفعلون ذلك يا أماه؟..

وهدأت الأم من روعه، إنهم يفعلون ذلك لإعادة بنائها حتى تكون جديدة وحتى لا تمتد أيدي اللصوص عن طريق جدرانها الذي هدمه السيل، فيسرقون ما فيها من حلي وجواهر. وشاهد عبد الله تشاحن القبائل، وتنافر البطون في مكة، واشهارهم السلاح، ودعوتهم للحرب والقتال من أجل التنافس على وضع الحجر الأسود.

وأخيراً قرروا أن يحكموا أول داخل عليهم ليختار القبيلة التي يكون لها شرف تثبيت الحجر الأسود في مكانه.

ولقد كان محمد الأمين الذي قرر أن تشترك كل القبائل في وضعه وفرش رداءه ووضعه عليه، وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف وحسمت مشكلة الحجر الأسود.

وأخذ الرجال يعودون إلى عملهم في البناء.

ومن يومها أحب عبد الله محمداً الأمين كل الحب، وأعجب به كل الاعجاب فاتخذه قدوة ومثالاً، يتابعه في كل ما يأتي من أمر أو يلقي من حديث.

وفي كل يوم يخرج عبد الله إلى محمد يجلس اليه إن جلس ويتبع خطواته إذا سار. وفي يوم من الأيام افتقد محمداً فلم يعد يراه. وبحث عنه فلم يجده.

وطرق بابه فأخبر من أهله أنه في غار حراء.

وعاد إلى بيته تعلو وجهه مسحة من الحزن والكآبة ، إنه في شوق إلى هذا الرجل فمتى يعود؟

وفي يوم من الأيام ومع ضياء الفجر الوليد ، ومع النسمات الندية التي تملأ الكون قبل مشرق الشمس ، فتوقظ الحياة والأحياء.

كان ﷺ ، ساجداً في مصلاه يعبد ربه ويتبتل اليه عندما سمع صوتاً كصلصلة الجرس ، ونزل عليه جبريل عليه السلام بكلمات ربه ويأمره ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[1].

وارتفعت الشمس قدر رمح أو رمحين وأخذ رسول الله ﷺ يسرع الخطى ناحية الصفا مسرعاً حتى استوى عليه وأخذ ينادي:

يا صبحاه ، يا صبحاه[2].

وكان عبد الله لا زال في فراشه مفتح العينين يفكر في الذهاب اليه في غار حراء كما أخبرته خديجة ، عندما سمع صوته يملأ الكون.

يا صبحاه ، يا صبحاه ، إن صوت محمد ينادي من فوق الصفا ، والقى غطاه من عليه وخرج مسرعاً إلى هناك.

واجتمعت اليه قريش تريد أن تعرف ماذا يريد هذا الأمين بدعوته المبكرة اليهم.

لقد عرفوه ميمون الطالع فلا يأتي إلا بخير.

وصادق الكلمة فلا ينطق بغير الحق.

وتربى في بني سعد ، فملك ناصية البيان فإذا استمعوا اليه ، استمعوا إلى كلام

---

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢١٤.

(٢) راجع تفسير القرطبي عند قوله تعالى: تبت يدا أبي لهب وتب سورة المسد آية رقم ١.

بين، فصل. ولما رأى رسول الله ﷺ اجتماعهم قال: يا آل غالب، يا آل لؤي، يا آل مرة، يا آل كلاب، يا آل قصي، يا آل عبد مناف.

لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟

قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً.

قال: فإني رسول الله اليكم خاصة، والناس عامة[1] وتلا قول الله تعالى:

﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين، وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾[2].

وانفضوا من حوله. بين مصدق ومكذب. وسرت همهات لا تفصح ولا تبين.

وعاد الرسول ﷺ إلى بيته، وعاد عبد الله بن جحش بتلك الكلمات التي سمعها، فأضاءت قلبه وأثلجت صدره، ووجهته إلى دار محمد حيث وضع يده في يده، ونطق بكلمة الشهادة.

أسلم عبد الله وحسن اسلامه، ودعا أخويه وأختيه الى الاسلام فاستجابوا له.

واتخذ من بيته مصلى ومسجداً. ولكن قريشاً ركبت رأسها، وأخذت تشن حرباً لا هوادة فيها على المستضعفين الذين تابعوا محمداً على دينه، وكان عبد الله من هؤلاء الرجال الذين أصابهم شر كبير.

وذهب بعض المستضعفين إلى الرسول ﷺ يطلبون منه أن يدعو ربه ليخفف عنهم ما هم فيه. فجلس محمراً وجهه ثم قال:

«والله إن من كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيشق اثنين ما يصرفه عن دينه شيء أو يمشط بأمشاط الحديد ما بين عصب ولحم ما يصرفه عن دينه شيء. وليتمن الله هذا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٢١٣ — ٢١٥.

الأمر حتى يسير الراكب منكم من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخشى إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم قوم تعجلون»[1] .

وأخذ العذاب يشتد ، والهول يصب عليهم صباً ، ويدخل أبو جهل على سمية أم عمار فيرقتها ويركلها ، ثم يطعنها بالحربة في قبلها فماتت[2] .

وسرى الخبر بين المستضعفين ، فأرّقهم وأقلق بالهم أن الرسول ﷺ لم يأذن لهم بحرب فماذا يفعلون؟ .

وهؤلاء يشنون عليهم حرب إبادة .

واجتمعوا عند الرسول ﷺ ووضعوا بين يديه ما يراد بهم ، وما ينتظرهم من بلاء على يد هؤلاء القساة غلاظ الأكباد .

عندها قال الرسول ﷺ : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه[3] إنها الهجرة إذن ، والأمر من الرسول ﷺ بذلك .

عندها خرج عبد الله بأختيه وأخويه وأهل بيته جميعاً إلى تلك الأرض التي حددها لهم رسولهم إلى أرض لا يظلم فيها أحد ، وإلى ملك كان يعرف ربه ، ويتابع محمداً على دينه ويتبع أنباءه مع قريش ، ومعاركه في سبيل نصرة هذا الدين .

يقول عمرو بن العاص ، رضي الله عنه : كنت أجلس عند النجاشي ، فدخل عمرو بن أمية الضمري ، وكان رسول الله ﷺ بعثه بكتاب اليه ، فلما خرج قلت للنجاشي : هذا الرجل رسول عدو لنا قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا ، فأعطنيه فأقتله .

---

(١) حلية الأولياء.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٤ ص ١٨٦٥.

(٣) الروض الأنف جـ ٣ ص ٢٠٣.

فغضب من ذلك ورفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كسره فابتدرت أنفي، فجعلت أتلقى الدم بثيابي، فأصابني من الذل ما جعلني أتمنى أن تنشق لي الأرض لأتوارى فيها ثم قلت أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك.

قال: فاستحيا وقال:

يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، والذي كان يأتي عيسى لتقتله؟.

قال عمرو: فغير الله قلبي عما كنت عليه.

وقلت في نفسي: عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت ثم قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟.

قال: نعم أشهد به عند الله يا عمرو فأطعني واتبعه فوالله إنه لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: أتبايعني له على الاسلام؟.

قال: نعم، فبسط يده فبايعني على الاسلام[1].

وعاش عبد الله وأسرته في الحبشة في جوار هذا الملك الكريم، حتى جاءتهم الأخبار أن قريشاً رجعت عن ضلالها، وتابعت محمداً فيما يدعو اليه. فعاد إلى قريش.

وفي مكة عرف أن ذلك لم يكن سوى خدعة من قريش أشاعتها حتى يعود اليها هؤلاء الفارون بدينهم لتباشر معهم صنوف التعذيب والتنكيل.

وأقام عبد الله وأسرته بمكة، حتى أذن الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة.

فهاجر وهاجرت معه أسرته كلها، وأصبحت ديارهم في مكة يباباً لا يسكنها

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٢٣٧.

أحد فلما رأى أبو سفيان ذلك عدا على دورهم فباعها ، فلما بلغ بني جحش ما فعله أبو سفيان. ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ.

فقال له رسول الله ﷺ : «ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك بها داراً خيراً منها في الجنة ؟».

قال : بلى.

قال الرسول عليه السلام : فذلك لك[1]. فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة ، كلمه أبو أحمد[2] أخو عبد الله بن جحش في دارهم. فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال الناس لأبي أحمد ، يا ابا أحمد ، إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب منكم في الله عز وجل ، فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ ، وقال لأبي سفيان :

أبلغ أبا سفيان عن أمر عواقبه ندامه
دار ابن عمك بعتها تقضي بها عنك الغرامه
وحليفكم بالله ر ب الناس مجتهد القيامه
اذهب بها اذهب بها طوقتها طوق الحمامه

وعبد الله بن جحش صاحب السرية التي أرسلها رسول الله ﷺ إلى مكة.

والتي قتل فيها عمرو الحضرمي من قريش. وأسر عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان والتي أثارت قريش : وقالت محمداً وأصحابه يستحلون الشهر الحرام.

وشهد عبد الله مع الرسول ﷺ غزوة بدر وكل المشاهد بعدها. حتى كانت غزوة أحد ، التي أراد فيها سبحانه وتعالى ابتلاء المسلمين واختبارهم.

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١١٧.

(٢) قال السهيلي : أبو احمد هذا اسمه عبد وقيل ثمامة والأول أصح وكانت عنده الفارعة بنت أبي سفيان ولهذا تطرق أبو سفيان إلى بيع دار بني جحش.

فعاد عبد الله بن أُبي المنافق من نصف الطريق بثلث الجيش. وأكره المسلمون رسول الله ﷺ على الخروج.

وجلس رسول الله ﷺ قبل بداية المعركة في عريش له.

وجاءته أم سلمة بكتف مشوية فأكلها.

ثم جاءته بنبيذ فشرب، ثم أخذه رجل من القوم فشرب منه، ثم أخذه عبد الله ابن جحش فعب فيه. فقال له رجل: بعض شرابك أتدري أين تغدو؟.

قال: نعم ألقى الله وأنا ريان، أحب إليّ من أن ألقاه وأنا ظمآن.

اللهم إني أسألك أن أستشهد في سبيلك وأن يمثل بي[1].

وعن ابن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنه قال: إن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا نأتي فندعو الله؟..

فجلسوا في ناحية فدعا سعد وقال: «يا رب إذا لقيت العدو غداً ألقني رجلاً شديداً بأسه شديداً حرده، أقاتله وآخذ سلبه».

فأمن عبد الله بن جحش ثم قال:

«اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده أقاتله فيك ويقاتلني فيقتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني.

فإذا لقيتك قلت: يا عبد الله فيم جدع أنفك وأذنك؟ فأقول فيك وفي رسولك.

فتقول: صدقت.

قال سعد: كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي لقد رأيته آخر النهار وإن أذنه وأنفه معلقان جميعاً في خيط[2].

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٩١.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ٨٧٩.

هكذا كان أتباع محمد ﷺ : يندفعون إلى المعركة اندفاع من يريد شيئين ويتمناهما :

أولهما : اعلاء كلمة الله ونصرة دينه.

وثانيهما : أن يرزقه الله الشهادة.

ولقد كان الله سبحانه وتعالى يحقق لهم ما يريدون فإن دعوا أجيبت دعوتهم.

وإن سألوا الله كان قريباً منهم.

﴿ادعوني أستجب لكم﴾[1].

ولقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعوة عبد الله بن جحش لقد أدى ما عليه تجاه ربه وتجاه دينه، وتجاه رسوله. إذن فلا بد من بلوغ الكتاب أجله أما سعد بن أبي وقاص، فلا زالت أمامه الشقة بعيدة والاعباء الجسيمة ومعارك الكفر الضارية التي تنتظره.

وتفقد الرسول ﷺ القتلى بعد موقعة أحد، وامر أن يدفن عمه حمزة وعبد الله ابن جحش في قبر واحد.

وقال لهم أيضاً، انظروا إلى عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمر ابن حرام فانهما كانا متصافيين في الدنيا فأجعلوهما في قبر واحد[2].

ثم قال ﷺ : «أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح يجرح في سبيل الله، إلّا والله يبعثه يوم القيامة يدمي جرحه. اللون لون دم والريح ريح مسك، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر»[3]. صلى الله عليك يا رسول الله. وأسكن أصحابك فسيح جناته فهو العفو الغفور.

---

(١) سورة غافر آية رقم ٦٠.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٩.

(٣) المصدر السابق ص ٤٩.

أسباب نزول الآيات

قال المفسرون : بعث رسول الله ﷺ ، عبد الله بن جحش في جمادى الآخرة ، قبل قتال بدر بشهرين ، على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمه المدينة . وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين[1] .

وكتب لأميرهم عبد الله بن جحش كتاباً وقال : سر على اسم الله ، ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين. فاذا نزلت منزلين ، فافتح الكتاب واقرأه على أصحابك ثم امض لما أمرتك ، ولا تستكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك.

فسار عبد الله يومين. ثم نزل وفتح الكتاب فإذا فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فسر على بركة الله بمن تبعك من أصحابك حتى تنزل بطن نخله فترصد بها عير قريش لعلك أن تأتينا منه بخير[2] فلما نظر عبد الله في الكتاب قال : سمعاً وطاعة. ثم قال لأصحابه ذلك وقال : انه قد نهاني أن استكره أحداً منكم.

وسارت هذه القافلة بأمر رسول الله ﷺ وتحرسها عناية الله. وفي مكان يسمى «بحران» ضل لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعير لهما كانا يتعقبانه فتخلفا في

---

(١) ابن الاثير جـ ٢ ص ١١٣.

(٢) ابن الأثير جـ ٢ ص ١١٤.

طلبه . ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة . فرت عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان . فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريباً منهم . فأشرف لهم عكاشة بن محض وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا . وتشاور الصحابة فيهم ، وذلك في آخر يوم من رجب . فقالوا : والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم . ولئن قتلتموهم لنقتلنهم في الشهر الحرام؟..

فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم فرمى أحد أصحاب عبد الله بن جحش عمرو الحضرمي فقتله . واستأسر عثمان بن المغيرة ، والحكم بن كيسان .

وأفلت نوفل أخو عثمان . وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسير حتى قدموا على رسول الله ﷺ . وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش ان عبد الله قال لأصحابه : إن لرسول الله ﷺ فيما غنمنا الخمس فعزله وقسم الباقي بين أصحابه ، وذلك قبل أن ينزل الخمس . فقال لهم رسول الله ﷺ : «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين ، فيما صنعوا .

وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال . وقالت يهود : تفائل بذلك على رسول الله ﷺ .

عمرو بن الحضرمي ، قتله واقد بن عبد الله .

عمرو : عمرت الحرب .

وواقد : وقدت الحرب[1] .

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ١١٤ .

فلما أكثر الناس في ذلك، أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾.

قال ابن اسحاق:

فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه.

قبض رسول الله ﷺ العير والاسيرين وبعثت قريش في فداء عثمان والحكم بن كيسان فقال رسول الله ﷺ:

«لا نفديكما حتى يقدم صاحبانا، يعني سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان فانا نخشاكم عليهما، فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم، فقدم سعد وعقبة فأفداهما رسول الله ﷺ».

فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً. وأما عثمان فلحق بمكة فمات بها كافراً. وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق على المسلمين.

فوقع في الخندق مع فرسه فتحطما جميعاً، فقتله الله تعالى، وطلب المشركون جيفته بالثمن. فقال رسول الله ﷺ:

خذوه فانه خبيث الجيفة خبيث الدية[1].

وقال عبد الله بن جحش:

تعدون قتلاً في الحرام عظيمه   وأعظم منه لو ترى الرشد راشد

---

(1) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٦٤.

(١) الروض الأنف جـ ٥ ص ٦٧ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٢٥٢.

تذييل ...

بجوار بيت الله الحرام ، البيت الذي جعله الله أمناً وسلاماً لعباده ، استجابة لدعوة أبي الأنبياء ابراهيم الخليل عليه السلام.

«رب اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً».

قتلت أسماء أم عمار بن ياسر ، وقتل زوجها أيضاً قتلا بيد الغدر والكبرياء الزائفة لا من أجل جريرة ارتكباها ولكن لأنهما يقولان ربنا الله.

وفي هذه المنطقة التي اختارها الله ليرفرف عليها السلام المطلق الشامل بين المتخاصمين والمتحاربين والمتصارعين والمتزاحمين على الحياة ، ليعودوا إلى رشدهم ويردوا إلى صوابهم بمجرد دخولهم إلى أرض هذه المنطقة حولتها قريش إلى ساحة قتال مع فئة لا تملك من وسائل الحرب والقتال شيئاً.

وفتنتهم عن دينهم:

وحالت بينهم وبين الاستماع لهدي نبيهم.

لقد أراد الله لمنطقة بيته الحرام أن تكون واحة للأمان يأمن فيها الطير فلا يصاد أو يقنص ويأمن فيها الحيوان والحشرات فلا تروع ويأمن فيها الانسان فلا قتل ولا قتال. فما بال قريش تحول الأمان إلى خوف... وترد السلام إلى قتال. وتقلب الحرية إلى عبودية بمحاسبة الناس على معتقداتهم وانتظام حركة أنفاسهم.

وتعتبر الاستجابة لدعوة التوحيد الخالص التي دعا اليها الرسول ﷺ كفراً وزندقة، ما دام يخرج بدعوته هذه عن الخضوع للات والعزى ومناة وكل الأصنام التي يزخر جوف الكعبة. لقد جعل الله حرمة هذا البيت منذ أن رفع إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام قواعد البيت وجعله منذ ذلك التاريخ، مثابة للناس وأمناً.

﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾[1].

نعمة ومنة يمن الله بها على عباده. ولكن قريشاً ركبت رأسها فقتلت بجوار البيت الحرام وعذبت المستضعفين في منطقة الأمان، وطاردت المؤمنين داخل الكعبة. وكذبت دعوة النبي، وسخروا من صلاته، ومما يدعو اليه وآذوه في نفسه وأهله وذويه.

﴿وقالوا: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾[2]، من يستطيع غيرهم أن يجور على هذه المنطقة كما جاروا؟

ومن في مقدوره أن يعتدي على حرم الله كما اعتدوا؟ لقد فكر «أبرهة» في الاعتداء على بيت الله الحرام، وركب عقله واغتر بقوته، ولم يستمع لنصيحة ناصح وسار إلى الكعبة بأفياله، وأشباله وجنوده.

وأحست قريش بما يريده أبرهة.

فلم تفكر في الدفاع عن البيت. ولم تر فيهم جموع الفيلة المهاجمة النخوة فيرفعوا السلاح في وجهها، دفاعاً عن هذا البيت. بل تركوا الكعبة وفروا إلى الشعاب. فروا وهم على علم بنتيجة هذه الحرب الخاسرة التي يشنها «أبرهة» على منطقة الأمان التي أقامها الله سبحانه وتعالى في أرضه.

وعندما تعجب أبرهة من طلب عبد المطلب إبله ولم يحدثه في أمر البيت قال كلمته المشهورة: «أما الابل فهي لي وأما البيت فله رب يحميه».

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٢٥.

(٢) سورة القصص آية رقم ٥٧.

وحمى رب البيت بيته ، وأحاطه بحفظته وجنوده ، وأنزل عقابه وهوله ، على هؤلاء الذين يتجاوزون حدودهم ويريدون أن يعكروا صفو الأمان في تلك المنطقة ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾ (١).

ويتعجب الله سبحانه وتعالى من قولتهم تلك ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ (٢). إنهم كذبة فيما يدعون ، يخفون الحقائق ، ويصمون آذانهم عن دعوة الحق . ويجابههم رب العزة بقوله ﴿ أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء ﴾ (٣) . وكما أوجد الله سبحانه وتعالى مكان الأمان في مكة . أوجد أيضاً زمان الأمان في الأشهر الحرم ، ولكن العرب أخذت تتلاعب أيضاً بهذه الأشهر حسب الأهواء فتؤجل بفتوى بعض الكهان أو بعض زعماء القبائل الأقوياء من عام إلى عام .

فلما جاء الاسلام قرر ان هذا التأجيل والتعطيل والتغيير كفر وباطل ، وضلال لا يعتمد على أساس .﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ (٤) .

فقريش هي التي غدرت بمنطقة الأمان وهي التي تلاعبت بالأشهر الحرم وفتنت المسلمين عن دينهم ، وقتلتهم وسفكت دماءهم وأدمت ظهورهم بالسياط ورضخت أجسادهم بالحجارة ، وانضجت جلودهم على البطحاء وحالت بينهم وبين كلمة الحق .

حتى فروا بدينهم إلى مهجرهم الجديد ، عندما أذن لهم الرسول بذلك . فروا بدينهم واستولت قريش على أموالهم وتجارتهم ومنازلهم وكل ما يملكون .

---

(١) سورة الفيل آية رقم ٣ — ٤ — ٥ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٥٧ .

(٣) الآية السابقة .

(٤) سورة التوبة آية رقم ٣٧ .

وكان لا بد من الانتقام من الفئة الباغية الضالة ، وكانت سرية عبد الله بن جحش وقتل فيها من قتل. وأسر من أسر كما بينا ذلك سابقاً.

وقامت قريش ولم تقعد ، وأخذت تؤلب القبائل على هؤلاء الفارين الى الله ، والمهاجرين اليه .. وتقول بين العرب إن محمداً وأصحابه يعتدون في الأشهر الحرم ، ظانين أنهم بذلك ينالون شيئاً من وحدة الصف الاسلامي أو يفت ذلك في عضد المؤمنين.. وينزل القرآن بالفصل في هذه القضية :

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(١) .

هذا هو وجه قريش الذي كشفه الوحي وتلك غايتها وما تريد وما تطلب. إن بغيتهم أن يفتنوا المسلمين عن دينهم ، ويردوهم إلى الكفر بعد إيمانهم — إن استطاعوا — ولكن الله سبحانه وتعالى يأبى ذلك.

ولقد ارتفعت الآداب الاسلامية ، والتوجيهات السماوية بالمؤمنين وبالجماعة الاسلامية ، التي أناط الله بها قوامة البشرية كلها.

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾(٢) .

نقول ارتفعت الجماعة الاسلامية على العواطف الذاتية والملابسات العارضة في الحياة واستجابوا لأمر ربهم بعدم الاعتداء على الذين صدوهم عن منطقة الأمان ،

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٤٣ .

وأخرجوهم منها وردوهم عن البيت الحرام.. وتركوا في قلوبهم الكره والبغض، فهذا كله شيء وواجب الأمة المسلمة شيء آخر يناسب دورها العظيم.

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[1].

وقال المسلمون سمعاً وطاعة لأمر ربنا. ثم حملوا راية الله، ودعوا بدعوة الله فاستقبلتهم الدنيا أحسن استقبال وأقامتهم على ظهرها قادة ومعلمين. فما بال الأحفاد في ذيل القافلة اليوم؟.. وكيف أضاع الأبناء ما شيده الآباء؟..

يا أتباع محمد هذا هو الطريق فولوا شطركم نحوه..

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٢.

ثبت المراجع

١. **القرآن الكريم**.

٢. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الشعب — مصر.

٣. **أسباب نزول القرآن للواحدي** : تحقيق الاستاذ أحمد صقر.

٤. **تفسير القرآن العظيم** : للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير ، دار الأندلس — بيروت.

٥. **تفسير الطبري** : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار المعارف — مصر.

٦. **الجامع لأحكام القرآن** : لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م.

٧. **الدر المنثور** : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، المكتبة الاسلامية — طهران.

٨. **في ظلال القرآن** : سيد قطب ، دار احياء التراث العربي : بيروت ١٣٨٦ هـ.

٩. **تفسير القرآن العظيم** : لأبي الفداء اسماعيل بن كثير.

١٠. **تفسير الدر المنثور** : للإمام السيوطي.

١١. **تفسير الجلالين** : جلال الدين السيوطي وزميله.

١٢. **أسباب نزول القرآن** : لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي.

١٣. **فتح الباري بشرح البخاري** : للحافظ أبي الفضل العسقلاني ، المعروف بابن حجر.

١٤. **صحيح الإمام مسلم** ، بشرح النووي ، المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩ م.

١٥. **مسند الإمام أحمد** : شرح أحمد محمد شاكر : دار المعارف بمصر ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م.

١٦. **صحيح الترمذي** ، بشرح ابن العربي : المطبعة المصرية بالأزهر ، ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م.

١٧. **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي** : أ. ي. ونسنك ، تعريب محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة بريل في مدينة لندن ١٩٦٢م.

١٨. **الجامع الصغير**: للإمام السيوطي ، مطبعة البابي الحلبي — القاهرة.

١٩. **كشف الخفا ومزيل الالباس** : اسماعيل بن محمد العجلوني ، مكتبة التراث الاسلامي — حلب.

٢٠. **تهذيب التهذيب** : لابن حجر العسقلاني ، دار صادر — بيروت.

٢١. **الكامل في التاريخ** : لابن الأثير ، دار صادر — بيروت ١٣٨٥هـ — ١٩٦٥م.

٢٢. **تاريخ الرسل والملوك**: لأبي جعفر محمد الطبري ، دار القلم الحديث — بيروت.

٢٣. **البداية والنهاية** : الحافظ ابن كثير ، مكتبة بيروت — ومكتبة النصر — الرياض.

٢٤. **الطبقات الكبرى** : ابن سعد ، صيدا — دار بيروت ١٣٧٧.

٢٥. **سيرة النبي لابن هشام** : تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية — القاهرة.

٢٦. **الروض الأنف**: عبد الرحمن السهيلي ، دار الكتب الحديثة — القاهرة.

٢٧. **مروج الذهب**: للمسعودي ، دار الأندلس — بيروت — مكتبة نهضة مصر.

٢٨. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** : لابن عبد البر ، دار الأندلس — بيروت — مكتبة نهضة مصر.

٢٩. **أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر** : علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ، دار الفكر بيروت — الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ — ١٩٧٣م.

٣٠. **خلفاء الرسول** : خالد محمد خالد ، دار الكتاب العربي — بيروت — لبنان الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م.

٣١. **العبقريات** : لعباس محمود العقاد.

٣٢. **علي بن أبي طالب — بقية النبوة — وخاتم الخلافة** : للاستاذ عبد الكريم الخطيب ، دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت.

٣٣. **هذا هو الطريق** : د. عبد الرحمن عميره ، دار التراث مصر — ١٩٧٣.

٣٤. **مع الالحاد وجهاً لوجه** : د. عبد الرحمن عميره ، دار الحلبي — القاهرة.

٣٥. **أشهر مشاهير الاسلام** : رفيق العظم.

٣٦. **الاعلام** : للزركلي.

٣٧. **الأغاني** : للأصفهاني.
٣٨. **تاريخ الخلفاء** : للامام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، مصر — ١٣٠٥.
٣٩. **تفسير الخازن والبغوي** : المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل والبغوي المسمى معالم التنزيل ، دار الفكر — بيروت — لبنان.
٤٠. **تلبيس ابليس** : لابن الجوزي، مصر — ١٣٤٧ هـ.
٤١. **الروض الأنف** : للامام السهيلي.
٤٢. **الرياض النضرة في مناقب العشرة** : للمحب الطبري.. مصر.
٤٣. **سنن الترمذي** : حققه وصححه عبد الرحمن عثمان ، الناشر محمد عبد المحسن الكتبي ، صاحب المكتبة السلفية : المدينة المنورة.
٤٤. **سنن الحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني «ابن ماجه»** : حققه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م — دار إحياء التراث العربي.
٤٥. **تراث الانسانية** : مجموعة من العلماء ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة.

فهرس الموضوعات

رجال ونساء
أنزل الله فيهم قرآناً

الجزء الثالث

د. عبدالرحمن عميره

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين النبي الأمي الكريم، وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعد، كان من توفيق الله سبحانه وتعالى علينا أن أعاننا بفيض من عنده لنقدم للأمة الاسلامية نخبة من هؤلاء الرجال الذين أنزل الله فيهم قرآناً.

ولقد قلنا في مقدمة المجلد الأول: إن هدفنا من إخراج هذه السلسلة هو ربط جيل المسلمين في القرن العشرين بكتاب ربهم.

وذلك لإيماننا الجازم أن كتاب الله — هو العلاج الناجع لكل ما تعانيه البشرية من أوجاع — فهو فضلاً عن أنه نور وهداية، يعتبر المنهج الأمثل والدستور الخالد الذي يرشد البشرية إلى الخير في عاجل دنياها وآجل أخراها.

إن القرآن الكريم جاء من عند الله سبحانه وتعالى، ليكون للبشرية — كل البشرية — المنهج الذي يجب أن تلتزمه في حياتها وتسير على مبادئه في كل أمورها.

وقد التزم الجيل الأول — جيل الصحابة والتابعين — ومن بعدهم السلف الصالح — بما كان يمليه عليهم هذا الكتاب — فماذا كانت النتيجة؟.. لا ينكر منصف في الشرق والغرب — أنهم أصبحوا به سادة وقادة.

سادة تتلمذت على أيديهم الدنيا في كل شئون الحياة.

وقادة انقادت لهم البشرية وتابعتهم في الإيمان بكلمة التوحيد.

ثم عاشوا حياتهم على ظهر الأرض قادة ومعلمين.

ثم ماذا؟..

ثم خلف من بعدهم خلف.. جعلوا كتاب ربهم وراءهم ظهرياً، فلفهم ليل طويل — ودخلوا في معارك طاحنة — معارك داخلية ومعارك خارجية، وكان لا بد من هزيمتهم.

انهزموا في معاركهم السياسية.

وانهزموا في معاركهم الحربية.

وانهزموا في معاركهم الفكرية.

وكانت الأخيرة أخطر أنواع الهزائم، لأنهم تعرضوا بعد ذلك لغزو فكري منظم أبعدهم عن كتاب ربهم وهدى نبيهم.

والراصد لحركات التاريخ في هذا العصر، يرى أن الأمة الإسلامية التي أرهقتها الحروب المتتابعة والانهزامات المتلاحقة في هذا القرن وما سبقه من قرون، قد آن لها الآن أن تستيقظ، وتأخذ طريقها في مقدمة الركب.

إننا نلمح على الأفق بشائر النصر.

ونلحظ كتائب الإيمان تسرع الخطا إلى طريق المجد.

ونشاهد جند الرحمن يعدون عدتهم لمعركة فاصلة مع حزب الشيطان الذي بغى وتسلط، وملأ الأرض بالركام المتعفن.

إن هذه الصحوة التي تعمّ الآفاق الإسلامية، لهي دليل على أن أبناء الأمة الإسلامية، أخذوا يعودون الى كتاب ربهم، ويحكّمونه في كل شئون حياتهم.

إن التاريخ يعيد نفسه.

وبشائر الفجر أوشكت على الظهور.

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

د. عبد الرحمن عميره

عَبدُ اللهِ بنُ مَسْعُود

رَضِيَ اللهُ عَنهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم
بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ
تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن
ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾

صدق الله العظيم

[سورة الكهف آية رقم ٢٨]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير والحديث : نزلت هذه الآية في ستة من الصحابة رضوان الله عليهم ، هم : ابن مسعود ، وصهيب ، وعمار ، والمقداد ، وبلال ، وسعد بن أبي وقاص.

قال ذلك صاحب الدر المنثور	جـ ٣ ص ١٣ .
وقاله الإمام القرطبي	جـ ٦ ص ٤٣١ .
وقاله الإمام الطبري	جـ ١١ ص ٣٧٨.
وذكره ابن ماجه في سننه	جـ ٣ ص ١٣٨٣ .
وتفسير الخازن	جـ ٢ ص ١١٣ .
والإمام مسلم	جـ ٧ ص ١٢٧ .
وحلية الأولياء لأبي نعيم	جـ ١ ص ١٤٦ .

فمن هو عبد الله بن مسعود؟..

عبد الله بن مسعود

رضي الله عنه

يكنى أبا عبد الرحمن.

وهو من السابقين إلى الإسلام.. الملبين دعوة الرسول ﷺ عندما نادى بكلمة التوحيد.

ومن الذين تحملوا الجانب الكبير من أذى قريش وتسلطها، عندما وقفت لهذه الفئة المؤمنة، وصبت عليها العذاب صباً.

والده: مسعود بن غافل، كان رقيق الحال — في الجاهلية — غير ميسر عليه في الرزق فحالف بني زهرة.

وأمه: أم عبد بنت عبد ود، من كرائم النساء، ومن قبيلة تميم بن سعد بن هزيل، وأمها هند بنت عبد الحارث بن زهرة.

وأخوه: عتبة بن مسعود، هاجر معه إلى أرض الحبشة، الهجرة الثانية، ثم قدم المدينة، فشهد أُحداً وما بعدها من المشاهد، ولما مات بكى عليه عبد الله. فقيل له: أتبكي؟..

قال: نعم. أخي في النسب وصاحبي مع رسول الله ﷺ وأحب الناس إليّ. فكيف لا أبكي؟..

وأما عن حياة ابن مسعود فقد تحمل أعباء الحياة مبكراً. من ذلك أنه كان يرعى الغنم لعقبة بن معيط نظير أجر زهيد.

ولقد كان هذا العمل سبباً في سعادته، وتفتح قلبه لنور الاسلام مبكراً قبل غيره.

من ذلك أن رسول الله ﷺ ومعه أبا بكر مرا عليه في مزرعته التي يرعى فيها، فقالا له: يا غلام، هل عندك من لبن تسقينا؟

فقال: إني مؤتمن ولست ساقيكما.

فقال النبي ﷺ: هل عندك من جذعة[1] لم ينز عليها الفحل؟

قلت: نعم. فأتيتهما بها.

فاعتقلها النبي ﷺ ومسح الضرع ودعا، فحفل الضرع، ثم أتاه أبو بكر بصخرة متقعرة فاحتلب فيها فشرب أبو بكر، ثم شربت ثم قال للضرع: اقلص، فقلص.

قال: فأتيته بعد ذلك، فقلت: علمني من هذا القول.

قال: إنك غلام معلم.

فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد[2].

ويقال: إن عبد الله بن مسعود أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم.

قال عن نفسه: «لقد رأيتني سادس ستة، ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا»[3].

ويقول ابن الجزري: إنه أسلم قبل عمر[4].

---

(١) الثنية من الضأن.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٥١.

(٣) أسد الغابة ٢٥٦.

(٤) غاية النهاية لابن الجزري جـ ١ ص ٤٥٨.

إن القلوب الصافية ، لا تتلكأ عندما ترى نور الإيمان ، ولا تتباطأ عندما تشاهد دلائل الحق. وهذا هو الذي حدث مع ابن مسعود.

لقد سارع إلى الدخول في ساحة الإيمان. وأعلن على الملإ من قريش أنه كفر بآلهتهم ، وتبرأ من أصنامهم ، واتجه بقلبه إلى فاطر السموات والأرض وموجد الحياة والموت ، المتفرد في ملكه ، لا يشاركه فيه أحد من خلقه ، سبحانه لا إله إلا هو.

ويعتبر ابن مسعود أول مَن جهر بالقرآن في مكة بعد رسول الله ﷺ وهو الفقير الذي لا يغرّه المال ، والحليف الذي لا تمنعه العشيرة ، لكنه الفتى المؤمن الذي اعتز بالإسلام فأعزه ، واعتمد على خالقه فلم يضعْه.

قال ابن إسحق : وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير ، عن أبيه قال : كان أول مَن جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال : اجتمع يوماً اصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط. فمن رجل يسمعهموه؟..

فقال عبد الله بن مسعود : أنا.

قالوا : إنا نخشاهم عليك. إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه.

قال : دعوني ، فإن الله سيمنعني.

فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ : «بسم الله الرحمن الرحيم». ﴿الرحمن علّم القرآن. خلق الإنسان علّمه البيان. الشمس والقمر بحسبان﴾[1].

قال : وتأملوه ، فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد؟

ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد ﷺ.

---

(1) سورة الرحمن الآيات ١ ، ٢ ، ٣.

فقاموا إليه ، فجعلوا يضربون في وجهه . وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ثم انصرف إلى أصحابه ـــ وقد أثروا في وجهه ـــ فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك !

فقال : ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً .

قالوا : لا ، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون[1] .

ونقف وقفات أمام كلمة عبد الله بن مسعود : « ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن » ! !

إن الإيمان إذا استقر في القلوب ، هانت الدنيا فأصبحت لا تساوي شيئاً .. والجبن لن يأتي الا من التكالب على الدنيا والاهتمام بأعراضها الزائلة من منصب أو جاه أو مال .

... وهذا هو السبب في أن الصف الأول من المسلمين كانوا يدخلون معاركهم ، وليس في مخيلتهم إلا طلب النصر والشهادة .. والنصر كان يُطلب لا لأنفسهم ، ولا من أجل تسلطهم ولكن من أجل رفع كلمة الله تعالى .. من هنا هان الأعداء من صناديد قريش في نظر عبد الله بن مسعود ، لأنهم لا يستطيعون أن يأخذوا منه شيئاً يحرص عليه أو يخاف عليه .. إنه لا يملك إلّا قلبه وروحه ، وكلاهما لا يستطيع أي بشر من البشر ، مهما بلغت سطوته ، أن ينال منهما شيئاً .. فالقلب يملكه مقلّب القلوب ، وأجله محدد ومؤجل .. ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾[2] .

وإذا كان ذلك كذلك .. فلا نامت أعين الجبناء .

... واشتد أذى المشركين للفئة المؤمنة . وأذن الرسول ﷺ بالهجرة إلى يثرب

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٦ ـــ ٣٣٧.

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٥.

بعد عودة المهاجرين من أرض الحبشة. وهاجر عبد الله بن مسعود إلى المدينة، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين الزبير بن العوام من المهاجرين، وبينه وبين معاذ بن جبل من الأنصار رضوان الله عليهم أجمعين.

... وأراد الله سبحانه وتعالى أن تكون دار ابن مسعود قريبة من المسجد، الأمر الذي جعله قريباً من الرسول ﷺ.

ولم يمض على وجوده في المدينة فترة حتى كان صاحب سواد رسول الله يعني: سره، ووساده، وسواكه، ونعليه، وطهوره.

يقول ابن سعد: كان عبد الله بن مسعود يستر رسول الله ﷺ إذا اغتسل. ويوقظه إذا نام، ويلبس رسول الله نعليه ثم يمشي أمامه بالعصا، حتى إذا اتخذ مجلسه نزع نعليه، فأدخلها في ذراعيه، وأعطاه العصا، فإذا أراد رسول الله ﷺ أن يقوم ألبسه نعليه، ثم مشى بالعصا أمامه حتى يدخل الحجرة قبل رسول الله ﷺ.

وحدث عبد الله عن نفسه قال: «قال لي رسول الله ﷺ: آذنك على أن ترفع الحجاب وأن تسمع سوادي حتى أنهاك»[1].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم ينظرون إلى ابن مسعود ويتمنون مكانه، ويعترفون له بالفضل الذي لم يؤته غيره، حتى ليقول أبو موسى عنه: «إنه كان ليدخل إذا حجبنا ويشهد إذا غبنا».

ولقد عرف عبد الله فضل ما هو فيه، فعض عليه بالنواجذ، وتربص بكل مَن قد ينفسه عليه أو يزاحمه فيه، وما أكثر المنافسين والمزاحمين، حتى إنه اضطر إلى أن يكذب مرة كي لا يستأثر غيره بأمر من أمور الرسول ﷺ.

قال: «ما كذبت على عهد النبي ﷺ إلا كذبة واحدة. كنت أرحل لرسول

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٠١.

الله ، فجاء رجل من الطائف ، فقلت : هذا يغلبني على الرحال . فقال : أي الرحال أحب إلى رسول الله؟ فقلت : الطائفية المكية . فرحل بها . فقال الرسول ﷺ : مَن رحل لنا هذا؟ فقالوا : الطائفيّ . فقال : مروا عبد الله فليرحل لنا . فعدت إلى الرحال »[1] .

ولقد استغرق في خدمة الرسول ﷺ وملاصقته ، حتى قال أبو موسى الأشعري : لقد رأيت النبي ﷺ وما أرى إلا ابن مسعود من أهله .

ويقول تلميذه علقمة : كان عبد الله يشبه النبي في هديه ودله وسمته .

ويقول حذيفة : أشبه الناس هدياً ودلاً وسمتاً بمحمد ﷺ ابن مسعود[2] .

وكان صوته ندياً بالقرآن ، يملأ القلوب خشية وإيماناً من ذلك .

قال عبد الله : « قال لي النبي ﷺ : اقرأ عليَّ . قلت : يا رسول الله أأقرأ عليك ، وعليك أُنزل؟ قال : نعم . فقرأت سورة النساء حتى أتيت الى هذه الآية : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾[3] . قال : حسبك الآن . فالتفت اليه فإذا عيناه تذرفان »[4] .

وقال عمر : « إنا سمرنا ليلة في بيت أبي بكر في بعض ما يكون من حاجة النبي ﷺ ، ثم خرجنا ورسول الله يمشي بيني وبين أبي بكر فلما انتهينا الى المسجد إذا رجل يقرأ ، فقام النبي ﷺ يستمع إليه .

فقلت : يا رسول الله ، أعتمت . فغمزني بيده اسكت .

قال : فقرأ وركع وسجد وجلس يدعو ويستغفر .

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ ٢ ص ٣٠ .

(٢) ابن سعد جـ ٣ ص ١٠٩ .

(٣) سورة النساء آية ٤١ .

(٤) فتح الباري جـ ٩ ص ٧٧ .

فقال النبي ﷺ : سل تعطه . ثم قال : مَن سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أُنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد[1] .

إنهم رجال مدرسة القرآن.

مدرسة النبوة ، مدرسة الإسلام.

يسهرون ليلهم ، ويقومون نهارهم — لا يشغلهم عمل عن عمل ، يعطون الدنيا ما تطلبه منهم ، ويعدون نفوسهم لنصرة دين الله — وتشتاق نفوسهم للشهادة في سبيله ، فهم كما وصفهم ربهم بقوله تعالى :﴿محمد رسول الله — والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركَّعاً سجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ .

وهكذا كانت حياة ابن مسعود الذي عاش لكتاب ربه ، وملأ قلبه به ، إنه رجل القرآن في مدرسة القرآن والذي يصفهم بقوله :

«ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس يفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخلطون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون.

وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً ، حكيماً حليماً ، عليماً سكيتاً . ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً ، ولا غافلاً ولا صخاباً ولا صيَّاحاً ، ولا حديداً»[2] .

إنه يحمل هداية السماء إلى الأرض فيجب أن يكون هادياً .

ويحمل نور الله في غبشة الليل الداكنة فيجب أن يكون مضيئاً .

ويحمل الرحمة المهداة من خالق الأرض والسماء — فعليه أن يكون رحيماً .

هذه هي بعض الصفات التي يجب أن يتحلى بها أولئك الذين رزقهم الله سبحانه وتعالى نعمة حفظ القرآن وترتيله.

---

(١) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٢٤ .

(٢) الحلية جـ ١ ص ١٣٠ .

وفي غزوة بدر الكبرى قام ابن مسعود بعمل بطولي، وهو جز رقبة عدو الله أبي جهل.

من ذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم أن يبحثوا في القتلى عن جثة أبي جهل — بعد انتهاء المعركة وقال لهم:

«انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته، فإني ازدحمت يوماً أنا وهو على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان، وكنت أشف[1] منه بيسير فدفعته فوقع على ركبته فجُحش[2] في إحداهما جحشاً لم يزل أثره به».

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: فوجدته بآخر رمق، فعرفته فوضعت رجلي على عنقه، قال: وقد ضبث[3] بي مرة بمكة فآذاني ولكزني. ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله..؟

قال: وبماذا أخزاني..؟ أخبرني لمن الدائرة اليوم..؟

قلت: لله ولرسوله. ثم احتززت رأسه، وجئت به رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل.

فقال رسول الله ﷺ: الله الذي لا إله غيره.

قلت: نعم. والله الذي لا إله غيره. ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله ﷺ — فحمد الله[4].

جز ابن مسعود رقبة فرعون هذه الأمة كما كان يسميه رسول الله ﷺ.

وامتثل لأمر رسول الله — وقام به على الفور — وكأنما كان ينتظر هذا الأمر.

---

(١) أشف: أقوى.

(٢) جحش: جرح جرحاً غائراً.

(٣) ضبث: قبض عليه ولزمه.

(٤) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٧٦ — ٢٧٧.

إنهم أصحاب رسول الله ﷺ صنعهم على عينه وأدبهم بكتاب ربه. وجعل منهم سادة وقادة، وأساتذة يختطون من شئون السياسة والتنظيم الاجتماعي ما تعمل الدول جاهدة للوصول إليه.

... وكان ابن مسعود فصيحاً لسناً قوي الحجة، واضح الدليل، قوي العبارة.

يقول أبو الدرداء:

«خطب النبي ﷺ خطبة خفيفة ثم قال: قم أبا بكر فقام فخطب فقصَّر دون النبي ﷺ. فقال: قم يا عمر فاخطب، فخطب فقصَّر دون النبي ﷺ. ثم قال: قم يا فلان فاخطب إلى أن قال: قم يابن أم عبد فاخطب. فقام عبد الله بن أم عبد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أيها الناس، إن الله ربنا، وإن الإسلام ديننا، وإن هذا نبينا، وأومى بيده الى النبي ﷺ رضينا ما رضي الله لنا ورسوله والسلام عليكم».

قال رسول الله ﷺ: «أصاب ابن أم عبد، صدق ابن أم عبد»[1].

ولقد كان قربه من الرسول يدفعه إلى أن يعلق عليه برأي في المهم من الأمور، فلا يرد له الرسول ﷺ رأياً.

في أسرى بدر قال عليه السلام:

«أنتم اليوم عالة فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء، أو ضرب عنق».

قال عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام.

فسكت رسول الله ﷺ.

يقول ابن مسعود: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليَّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ:

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي جـ ١ ص ١٤.

«إلا سهيل بن بيضاء»[1].

هنيئاً لك يا ابن مسعود استجابة الرسول ﷺ لقولك.

لقد كان لك في قلبه مكان وتقدير، وكيف لا يكون كذلك، وهو القائل صلوات الله وسلامه عليه:

«اهدوا هدى عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد».

ثم قال أيضاً:

«رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد وسخطت لأمتي ما سخط لها ابن أم عبد»[2].

ثم كانت الدرجة العالية التي لا تتطاول.. عندما شهد له بالجنة».

عليك صلوات الله وسلامه يا رسول الله.

ثم ماذا...؟

مات رسول الله ﷺ وانداح المسلمون في جنبات الأرض يحملون المصحف في يد وفي الأخرى سيف لم يسل من غمده إلا في سبيل الله، ورفع كلمته، ونصرة دينه. فأين موقف ابن مسعود في هذه الجيوش الخارجة في سبيل الله..؟

لقد صدر أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن يتجه عبد الله بن مسعود إلى الكوفة. والكوفة في عهد عمر كانت موطناً للشغب والفتن وإثارة القلاقل.

وكانت مهمة عبد الله بن مسعود محددة وهي تعليم الأمة وتفقيهها في أمور دينها، ومدارستها كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتابه لأهل الكوفة:

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ١٣٥٧.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ١ ص ٣٧١.

«إني قد بعثت عمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن أهل بدر فاقتدوا بهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي»[1] .

ولقد عاش ابن مسعود فترة طويلة في الكوفة ، يقضي بين الناس ويعلمهم ويشرف على بيت المال .

وتولى أمر الكوفة — وهو فيها — ستة من الولاة :

عمار بن ياسر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

والمغيرة بن شعبة في عهد عمر وسنة من عهد عثمان .

وسعد بن أبي وقاص .

والوليد بن عقبة .

وسعيد بن العاص .

وأبو موسى الأشعري .

وعاش معهم عبد الله بن مسعود يعاونهم ، ويضيء لهم طريق الحكم ، وهو يعرف مكانتهم ، ويقدرون هم مكانته . وكان يأخذ على أيديهم إذا بدرت منهم بادرة يراها تضر بالدولة ، أو بقيمة من قيَم الإسلام .

واختلف مع سعد بن أبي وقاص ، والوليد بن عقبة ورفع أمرهما إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه ، فأقره على ما رأى وعزلهما عن ولاية الكوفة .

ولقد كان أجلاء الصحابة يستمعون له وينزلون على رأيه . فهو أحد المبشرين بالجنة ، وقدمه في الميزان أثقل من جبل أُحد كما أخبر بذلك الصادق الأمين رسول الله ﷺ .

عن أبي موسى الأشعري قال : سمعت علياً كرم الله وجهه يقول : أمر رسول الله

---

(1) أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ ٣ ص ٢٥٩ .

ﷺ عبد الله بن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها. فنظر أصحابه إلى دقة ساقه فضحكوا.

فقال النبي ﷺ: ما يضحككم؟ لرجلا عبد الله في الميزان أثقل من أُحد»[1].

إنه قارىء القرآن غضاً طرياً، والمتبتل به ليل نهار، والذي وهب نفسه للإسلام والدعوة إليه — فجزاؤه الجنة كما قال الله تعالى:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعَدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. نُزُلاً من غفور رحيم. ومَن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾[2].

وحدث بعض أهل الكوفة قالوا:

«وفدنا على عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فأجازنا، وفضَّل أهل الشام علينا في الجائزة فقلنا:

يا أمير المؤمنين.. أتفضل أهل الشام علينا..؟

فقال: يا أهل الكوفة، أجزعتم أن فضلت أهل الشام لبعد مشقتهم، لقد آثرتكم بابن أم عبد»[3].

إذا كان عمر يعطي أهل الشام زيادة في عروض التجارة. فقد أعطى أهل الكوفة عبد الله بن مسعود.

ويمنّ عليهم أن آثرهم به عن نفسه.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ٩٨٩.

(٢) سورة فصلت الآيات رقم ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣.

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٤.

فعمر يعرف قيمة هذا الرجل ويقدره حق قدره، ويدخره للأمر العظيم الذي لا يقدر عليه إلا أمثال ابن أم عبد كما كان يطلق عليه.

وعمر أقدر الولاة في معرفة اقدار الرجال.

والذي قاله عمر بن الخطاب في ابن مسعود، قاله كل مَن عرفه، أوكانت له خبرة به.

يقول حبة بن جوين:

«كنا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه فذكرنا بعض قول ابن مسعود وأثنى القوم عليه، ثم قالوا: يا أمير المؤمنين، ما رأينا رجلاً كان أحسن خلقاً ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعاً من عبد الله بن مسعود.

فقال علي: نشدتكم الله إنه لصدق من قلوبكم..؟

قالوا: نعم.

فقال: اللهم إني اشهدك، اللهم إني أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل»[1].

وأبو موسى الأشعري — رضي الله عنه — العالِم الجليل والفقيه الكبير يطلب من الناس ألا يسأله أحد عن شيء من الفتيا ما دام ابن مسعود موجوداً. والدافع إلى ذلك أن أبا موسى سئل يوماً وهو أمير الكوفة عن رجل قُتل في سبيل الله مقبلاً غير مدبر أين هو...؟

فقال أبو موسى: في الجنة.

فقال ابن مسعود للسائل: أعد على الأمير فتياك فلعله لم يفهم.

قال السائل: قلت أيها الأمير، ما قولك في رجل قاتل في سبيل الله فقُتل مقبلاً غير مدبر، أين هو..؟

فقال أبو موسى: في الجنة.

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ١١٠.

فقال ابن مسعود رضي الله عنه : أعد على الأمير فلعله لم يفهم. فأعاد عليه ثلاثاً.. كل ذلك يقول أبو موسى : في الجنة.

ثم قال : ما عندي غير هذا ، فما تقول أنت..؟

فقال ابن مسعود : لكني لا أقول هكذا.

فقال : فما قولك..؟

فقال : أقول إن قُتل في سبيل الله فأصاب الحق فهو في الجنة.

فقال أبو موسى : «صدق. لا تسألوني عن شيء ما دام هذا الحبر بين أظهركم»[1].

وكان داعية للعلم والمعرفة ، وهو بهذا يلتزم بما أمر به الإسلام من الدعوة الى العلم ، لأن العلم في الإسلام دعامة من دعائمه ، وركن من أركانه.

ولقد منَّ الله سبحانه وتعالى على العلماء بقوله :

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[2].

من هنا كان ابن مسعود معلماً وداعية إلى العلم. يقول لعامة المسلمين وخاصتهم :

«عليكم بالعلم قبل أن يُقبَض وقبضه ذهاب أهله ، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إليه ، وستجدون أقواماً يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم ، فعليكم بالعلم وإياكم والتعجل وإياكم والتنطع»[3].

وهو داعية عرف طبيعة النفس البشرية وخصائصها. وتعمق في خلجاتها وخفاياها. فهو عالم نفساني يطب للنفوس الدواء بعد أن يشخص لها الداء. ويطالب

---

(١) قوت القلوب جـ ٢ ص ٢١ نقلاً من كتاب عبد الله بن مسعود. د. عبده الراجحي.

(٢) سورة فاطر الآية رقم ٢٨.

(٣) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٥.

العاصين بالنهوض من عثراتهم ، آخذاً بأيديهم إلى طريق التوبة عملاً بقول الله تعالى :

﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾[1] .

فيقول : إذا رأيتم أخاكم قارف ذنباً فلا تكونوا أعواناً للشيطان عليه فتقولوا : اللهم اخزه اللهم العنه . ولكن سلوا الله العافية فإنا أصحاب محمد ﷺ كنا لا نقول في أحد شيئاً حتى نعلم علامَ يموت .. ؟ فإن ختم له بخير علمنا أنه أصاب خيراً ، وإن ختم له بشر خفنا عليه .

ومات ابن مسعود رحمه الله بالمدينة سنة ثنتين وثلاثين هجرية ودفن بالبقيع ، رضوان الله عليه .

---

(١) سورة الزمر الآية ٥٣.

أسباب نزول الآيات

عن المقدام بن شريح، عن أبيه عن سعد قال:

نزلت هذه الآية فينا ستة: فيَّ، وفي ابن مسعود، وصهيب، وعمار، والمقداد، وبلال. قالت قريش لرسول الله ﷺ: إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء فاطردهم [عنك] فدخل قلب رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل. فأنزل الله تعالى عليه:

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعَشيِّ يريدون وجهه﴾[1].

وعن خباب بن الأرت قال:

فينا نزلت، كنا ضعفاء عند النبي ﷺ بالغداة والعشي فعلمنا القرآن والخير، وكان يخوفنا بالجنة والنار، وما ينفعنا، وبالموت والبعث، فجاء الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن الفزاري فقالا: إنا من أشراف قومنا، وإنا نكره أن يرونا معهم، فاطردهم إذا جالسناك.

قال: نعم.

قالوا: لا نرضى حتى تكتب بيننا كتاباً. فأتى بأديم ودواة، فنزلت هذه الآيات:

---

(١) رواه مسلم عن زهير بن حرب. والآية سورة الأنعام آية ٥٢.

«ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» ، إلى قوله تعالى : ﴿وكذلك فتنّا بعضهم ببعض﴾.

وعن ابن مسعود قال(1) :

مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب بن الأرت ، وصهيب ، وبلال ، وعمار فقالوا : يا محمد رضيت بهؤلاء؟ أتريد أن نكون تبعاً لهؤلاء؟

فأنزل الله تعالى : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾.

وبهذا الاسناد قال : حدثنا عبيد الله عن أبي جعفر عن الربيع(2) قال : كان رجال يسبقون إلى مجلس رسول الله ﷺ ، ومنهم بلال ، [وعمار] ، [وابن مسعود] وصهيب ، وسلمان ، فيجيء أشراف قومه وساداتهم وقد أخذ هؤلاء المجلس فيجلسون إليه ، فقالوا :

صهيب رومي.

وسلمان فارسي.

وبلال حبشي.

يجلسون عنده ونحن نجيء فنجلس ناحية ، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، وقالوا : إنا سادة قومك وأشرافهم. فلو أدنيتنا منك إذا جئنا ، فهمَّ أن يفعل ، فأنزل الله تعالى هذه الآية(3) .

وقال عكرمة(4) : جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحارث ابن نوفل ، في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب فقالوا :

---

(1) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٣٤ والدر المنثور جـ ٣ ص ١٢ ومسند أحمد جـ ٦ ص ٣٦. وتفسير الطبري جـ ١١ ص ٣٧٤ ومجمع الزوائد جـ ٧ ص ٢٠ ، ٢١.

(2) هو الربيع بن أنس البكري روى عن أنس بن مالك وتوفي سنة ١٣٩هـ.

(3) الدر المنثور جـ ٣ ص ١٣.

(4) تفسير الطبري جـ ١١ ص ٣٧٩ والخازن والبغوي جـ ٢ ص ١١٢ — ١١٣.

«لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وعبيدنا كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له .

فأتى أبو طالب النبي ﷺ ، فحدثه بالذي كلموه . فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون..؟ وإلامَ يصيرون من قولهم..؟

فأنزل الله تعالى هذه الآية .

فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعتذر عن مقالته .

تذييل...

مدارسة كتاب الله تعالى ومحاولة فهمه، نعمة كبرى لا يعرفها إلا مَن ذاقها، لأنها نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

وابن مسعود - رضي الله عنه - أحد هؤلاء الرجال الذين تخرجوا من مدرسة القرآن، وعبوا من ينابيعه الصافية، ثم جعلوه سلوكاً لهم ومنهجاً لحياتهم فمدنوا الدنيا وهذبوا العالم وقرروا الحق للإنسان.

ولهذا يقول عن نفسه وعن الفئة المؤمنة التي تابعت محمداً ﷺ فيما دعا إليه:

«كنا نتعلم من النبي ﷺ عشر آيات، فما نتعلم العشر التي بعدهن حتى نتعلم ما أنزل الله في هذه العشرة من العمل».

فمدارسة القرآن ليس هو ترديد الذي لا يعي ولا يفهم ما يقول، وإنما هو التطبيق العملي والفعلي للقرآن في كل جوانب الحياة.. القرآن الذي يتعلم منه الإنسان أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ولا للفلتة العابرة العارضة، وإنما كل شيء بقدر وحساب. قال تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿إنَّا كل شيء خلقناه بقدر﴾[2].

---

(1) سورة الفرقان الآية ٢.

(2) سورة القمر الآية ٤٩.

ويتعلم الإنسان منه أيضاً أن كل أمر في هذا الكون ، وكل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود ، وجدت لحكمة وخلقت لغاية .

ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة ، ولا للعقل المحدود الذي خلقه الله لغاية ، وزود الإنسان به لهدف — ألا وهو عبادة خالقه ، وتعمير هذا الكون بتحقيق الخلافة فيه . قال تعالى :

﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾[1] .

وقال : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[2] .

إن كل ما فعله الجيل الأول — جيل الإسلام أنهم أخذوا نفوسهم بكتاب الله ، فكان التغير الشامل ، والفوز العظيم — والمستعرض لتاريخ هذه الأمة يجد مصداق ما نرمي إليه .

لقد كانت بلادهم مجدبة قاحلة ، وأرضهم محدودة ضيقة ، ورزقهم لا يأتيهم إلا بالجهد والمثابرة .

فتغير الحال بأكمله . وفتحت الدنيا أبوابها إليهم بأسرها ، واتسعت رقعة أرضهم بالفتوحات والجهاد ، وجاءهم الخير الكثير والمال الوفير . حتى بدت قصورهم في بغداد والقاهرة والقيروان — قلاع الملوك والقياصرة على مشارف الفرس والروم .

وكانوا قبائل متفرقة ، وجماعات ممزقة ، لا تجمعهم قيادة ، ولا يلمّ شملهم ملك أو سلطان ، وإنما هي غارة يقومون بها مرة من هنا ومرة من هناك ، ويحاولون اختلاسها في غيبة فارس القبيلة ، أو قلة أبطالها الشجعان .

... فأصبحوا بعد الإسلام سادة وقادة ، ينتصرون على أعدائهم بالرعب وتسلم

(١) سورة النساء الآية ١٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٦ .

لهم الممالك والحصون بمجرد الإنذار ، ويسير جيشهم الظافر يقطع الأرض ويطوي البلاد ، حتى تقف خيلهم على شاطىء البحر ، تريد أن تعبر ماءه ، وتقتحم أمواجه. إن كان يوجد بعده قوم لا يؤمنون بالله ، ولا يصدقون بمحمد ، ولا يدينون بدينهم الذي ارتضاه الله لهم.

واستمر الحال على ذلك فترة طويلة من الزمان — حتى تجاهلوا هذا الكتاب وابتعدوا — راضين أو مكرهين — عن هديه ، ولم يعد تدار عليه قضاياهم أو يحكمونه في شئونهم — كما فعل الجيل الأول — فعادوا كما كان عليه العرب سابقاً قبل أن ينعم عليهم بنعمة الإسلام.

عادوا قبائل متفرقة تدعي أنها دول وممالك.

وعادت الدسائس تدبَّر بينهم ، والمكائد تحاك من خلفهم.

وأصبحت رقعة أرضهم تنحسر من تحت أقدامهم. إما عن طريق الحرب تارة ، أو عن طريق الغزو الفكري تارة أخرى.

وأخذ يتنكر لهم العدو والصديق ، ويغار عليهم فلا يصدون غارة وتغتصَب منهم بلادهم فلا يحمى لهم أنف ، ولا ينتصب لهم رأي.

ونتساءل ونتعجب : ماذا دهى أبناء خالد..؟

وماذا حل بأحفاد أبي عبيدة وعمرو بن العاص..؟

ولكن لا عجب ولا عجاب من أن يحدث ذلك لهم ، وتتكالب الممالك عليهم يريدون نهب خيراتهم ، وغزو بلادهم ، وإبعادهم عن دينهم.

لأنهم انقطعوا عن مستودع النور فحل بهم ظلام حالك..؟

وانحرفت عن الطريق أقدامهم فتشعبت بهم المسالك. وهم الآن بين طريق لا يعرف له نهاية ، وبين ظلام لا تكشف له بداية.

وهم يتساءلون ويتخبطون : أين المخرج؟.. وكيف الطريق ؟..

الطريق أن تعودوا من حيث بدأتم، وتسلكوا الطريق الذي اتبعتم، ولن يتم لكم ذلك إلا بالعودة الى كتاب ربكم وتحكيمه في حياتكم، وجعله دستوراً وشريعة لأعمالكم.

عندها تعود اليكم البلاد المغصوبة، وترد إليكم مرة أخرى الديار المنهوبة.

حكّموا كتاب الله، حتى تنقذوا أنفسكم من الهاوية، وتنقذوا البشرية مما تردّت فيه.. من الدمار والحروب وضياع الأخلاق والقيَم، واتباع سياسة الظفر والناب.

حكّموا كتاب الله فأنتم الأمة الوسط — التي اختارها الله وفضلها على كثير من خلقه وامتن عليها بالخيرية بقوله تعالى:

﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[1].

حكّموا كتاب الله — وتحكيمه له صورة واحدة وطريق واحد — هو العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم. إنّه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتكم والتحاكم إليه وحده في شئونكم وإلّا فهو الفساد في الأرض والشقاوة للناس.

إن الاحتكام الى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعاً ولا موضع اختيار إنما هو الإيمان أو فلا إيمان. قال الله تعالى:

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرَة من أمرهم﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٦.

وقال أيضاً :

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين ﴾[1] .

فهل يستجيب المسلمون لهذه الصيحة..؟

نرجو من الله ذلك...

---

(1) سورة الجاثية الآية ١٨ ــ ١٩

صهيب بن سنان

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ
مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة البقرة الآية رقم ٢٠٧]

أقوال العلماء في نزول الآية

قال بعض رجال التفسير وكتاب السيَر:

نزلت هذه الآية في صهيب بن سنان.

قال ذلك صاحب الدر المنثور ج ١ ص ٢٣٨.

وقاله الإمام الطبري ج ٤ ص ٢٢٩.

وقاله صاحب كتاب أسباب نزول القرآن الإمام الواحدي ص ٥٨.

وقاله ابن سعد في طبقاته ج ٣ ص ٢٢٩.

وقاله صاحب كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ٢ ص ٧٢٩.

لمن هو صهيب بن سنان..؟

صُهيب بن سنان

رضي الله عنه

فارس من الفوارس الشجعان لا يخطىء سهمه ، وبطل من أبطال المعارك لا ينبو سيفه ، ومسلم عرف الإيمان طريقه إلى قلبه ، فحرك كل ذرة من ذراته ، وكل جارحة من جوارحه ، فرفض عرض الدنيا الزائل وخرج بدينه مهاجراً إلى ربه .

إنه صهيب بن سنان بن مالك بن عبد عمر ، كان والده عاملاً لكسرى على الأبلة ، وكانت قبيلته تعيش بأرض الموصل ، أما والده فكان يقطن قرية على شط الفرات مما يلي الجزيرة .

وأمه سلمى بنت قعيد بن عمرو بن تيم ، من كرائم الأسر ، ومن ذرى القبائل ، تذكرها كتب التاريخ عرضاً عند الحديث عن ابنها فتصفها بالعفة والنبل وكرم السجايا وحسن الأحدوثة .

عاش صهيب في تلك البقعة الفسيحة المطلة على نهر الفرات ، يلعب مع لداته ويشاركهم لهو الطفولة الخالية من هموم الحياة .

ولقد كان لوالدته قرة عينها ، ولوالده الأمل الكبير عندما يتخيله يشارك فرسان القبيلة في ساحة الكر والفر ويعود إليه وأكاليل النصر على مفرق رأسه . هكذا كان يتصوره والده عندما يبلغ مبلغ الشباب .

ولكن هذه الأماني لم تتحقق ، إذ غارت جحافل الروم على تلك الناحية

وساقت الكثير من الأسرى ومن بينهم الطفل صهيب ، وهكذا عرف قساوة الهجر مبكراً ، ولم ينعم بحنان الوالدين إلا فترة يسيرة من عمره ، وعاش في أرض الغربة فترة محدودة بلغ فيها مبلغ الشباب واكتمل عوده ، واشتد ساعده.

وفي يوم من الأيام وصلت إلى أرض الروم قافلة من قوافل قريش التي كانت تأتي للتجارة الى تلك البلاد ، والتقى أحد أفراد قبيلة بني كلب بالفتى العربي ، فابتاعه من الروم ، ثم قدم به مكة ، فاشتراه منه عبد الله بن جدعان ثم أعتقه[1].

وعرفت دروب مكة ووديانها الفتى الرومي — كما كان يطلق عليه — عرفته بحركته الدائبة ، وبصيده الكثير ، وباتقانه لكثير من الصناعات المختلفة ، وبحسن إصابته الهدف ، وخفته في امتطاء صهوات الخيل ، وبراعته في الانقضاض على خصمه ، وبالإضافة إلى ذلك تناسق أعضائه وحسن هندامه ، وعفة لسانه.

ويصفه الرواة والمؤرخون فيتفقون على أنه كان أحمر شديد الحمرة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، وكان غزير شعر الرأس ، يلفت النظر إليه.

هذا هو صهيب يعيش في مكة ، ويشارك أهلها حلو الحياة ومرها ، وتمر الأيام عليه رتيبة مملة ، حتى يقترب موسم الحجيج الذين يأتون من كل مكان ، فتمور مكة بالحركة ، وتملأ أزقتها ودروبها زمر الوافدين فتنحر الذبائح ويعم الخير ، وتعيش قريش فترة رخاء وشبع . وتكثر اللقاءات حول الكعبة ، وترتفع الأصوات بالتهليل ، ويختلط الوافد بالمقيم وتقام أسواق الشعر وتنصب بلاغة الكلام. ويتبارى الخطباء والشعراء في تعداد مناقب القبيلة ، وشجاعة الفرسان.

حتى كان يوم وصهيب عائد من صيده آخر النهار فسمع لغطاً كثيراً وأحس حركة دائبة وأصواتاً ترتفع حيناً وتخفت أخرى ... وتساءل بينه وبين نفسه : ماذا حدث في مكة..؟

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٧٢٩.

أهو موسم الحجيج..؟ ولكنه تذكر أن وقته لم يحن بعد.

أغار على الكعبة مغير..؟ فهم يعدون العدة لصده..؟ واستبعد هذا أيضاً. إذاً ماذا يكون..؟ وما حقيقة الذي يراه ويسمعه..؟

دارت هذه الأفكار بمخيلته حتى اقترب براحلته من جمع من القرشيين.. واستطاعت أذناه أن تلتقط ما يتحدثون به.

إنه النور الجديد الذي يربط السماء بالأرض.

إنه الأمل المرتقب للحيارى والمستضعفين.. والباحثين عن نور الإيمان.

إنه الضياء الذي يملأ الكون ويبدد ظلام الكفر والشرك.

إنه الرسول الخاتم الذي طال انتظاره.

إنه العدل والسلام على الأرض.

إنها كلمة التوحيد الذي صدع بها محمد الأمين في جنبات الكعبة وفوق الصفا. فتهاوت الأصنام، وزعزع البهتان.

واشتاقت نفس صهيب على أن تعرف الكثير عن هذا الدين الجديد الذي أصبح حديث قريش وأنديتها.. وشغل كل بيت وتحدث به كل فرد، ولم يطق صبراً فسأل عن الداعي لهذا الدين فأرشدوه إلى دار أبي الأرقم.

ويحدثنا عمار بن ياسر عن إسلام صهيب فقال: لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله ﷺ فيها. فقلت له: ما تريد..؟

فقال لي: ما تريد أنت..؟

فقلت: أردت الدخول على محمد فأسمع كلامه.

قال: وأنا أريد ذلك.

فدخلنا فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، ثم مكثنا يوماً على ذلك حتى أمسينا، ثم خرجنا ونحن مستخفون[1].

... ولكن نور الإيمان لا يخفى، وكلمة التوحيد تدل على صاحبها وترشد إليه.. ولم تطق قريش صبراً على هؤلاء الذين يتبعون محمداً ﷺ ويسخرون من أصنامهم ومعتقداتهم وأخذت تصب عليهم العذاب صباً. وتحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تفتن هؤلاء عن دينهم.. ولم يسلم الرسول ﷺ من هذا الأذى.. حتى أراد الله سبحانه وتعالى له ولصحبه بالهجرة إلى يثرب.. وتتابع المهاجرون. وأحس صهيب أنه أصبح وحيداً في تلك الديار التي تضيق بكلمة التوحيد، وفكر في الهجرة.

... وما هي إلّا أيام معدودة حتى أعد راحلته وجمع سهامه وتقلّد سيفه وخرج ميمماً شطر يثرب.. وما كاد يفارق أبواب مكة حتى ظهر له صناديد الكفر يحولون بينه وبين الهجرة.

ويحدثنا سعيد بن المسيب عن هجرة صهيب فيقول:

«أقبل صهيب مهاجراً نحو المدينة فتبعه نفر من قريش فنزل عن راحلته وأخرج ما في كنانته من سهام ثم قال:

«يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً، وأيم الله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء فافعلوا ما شئتم، فإن شئتم دللتكم على مالي وخليتم سبيلي.

قالوا: نعم. ففعل[2].

وسار حتى دخل المدينة، ورسول الله ﷺ كان يجلس بقباء ومعه أبو بكر وعمر وبين أيديهم رطب قد جاءهم به كلثوم بن الهدم. وصهيب قد رمد بالطر. وأصابته مجاعة شديدة فوقع في بالرطب فقال عمر·

(1) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢٢٧.

(2) المصدر السابق.

يا رسول الله ألا ترى إلى صهيب يأكل الرطب وهو رمد..؟

فقال رسول الله ﷺ :

تأكل الرطب وأنت رمد..؟

فقال صهيب : وإنما آكله بشق عيني الصحيحة.

فتبسم رسول الله ﷺ .

وجعل صهيب يقول لأبي بكر : وعدتني أن تصطحبني فرحت وتركتني.

ويقول : وعدتني يا رسول الله أن تصاحبني فانطلقت وتركتني ، فأخذتني قريش فحبسوني فاشتريت نفسي وأهلي بمالي..

فقال رسول الله ﷺ : ربح البيع ، ربح البيع[1] .

وفي المدينة آخى رسول الله ﷺ بينه وبين معاذ بن أبي جبل رضي الله عنه.

معاذ الذي قال عنه رسول الله ﷺ :

«أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل».

وعندما وجهه الى اليمن سأله رسول الله ﷺ :

«بم تقضي..؟»

قال : بما في كتاب الله.

قال : فإن لم تجد؟

قال : بما في سنَّة رسول الله.

قال : فإن لم تجد؟

قال : أجتهد رأيي.

فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذي وفق رسولَ رسول الله لما يحب رسول الله.

(١) المصدر السابق ص ٢٢٨.

وشهد صهيب مع رسول الله ﷺ غزوة بدر الكبرى ورأى أبطال الإسلام الأول وهم يخرجون لملاقاة المشركين، وقد أحاطوا بنبيهم وباعوا نفوسهم في سبيل الله. لقد خرجوا لا يرجون من الله إلا النصر، نصر هذا الدين الذي أكرمهم بحمله، أو الشهادة في سبيله، ووعت أذن صهيب قول الرسول ﷺ وهو يقول بعد أن تأكد له أن قريشاً لا تريد استخلاص القافلة، ولكنها تريد الحرب:

«أشيروا عليَّ أيها الناس».

فقام سعد بن معاذ سيد الأنصار وقال: كأنك يا رسول الله تريدنا..؟

قال: أجل.

قال: فامض يا نبي الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد.

فقال رسول الله ﷺ: سيروا على بركة الله.

وتم النصر للمسلمين.. وأخزى الله الكفر وجنده.

واشترك صهيب مع بقية المسلمين في حفر الخندق في غزوة الأحزاب واستمع إلى الرسول ﷺ وهو يقول:

«اللهم إن الخير خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة».

فأجابوه وصهيب معهم:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً.

وقرت عين صهيب، وهو يشاهد اندحار الأحزاب بعد أن أرسل الله عليهم جنداً من عنده. فهتكت القباب وكفئت القدور، ودفنت الرحال وقطعت الأوتاد فانطلقوا لا يلوي أحد على أحد.

وجلس صهيب مع المسلمين وهم يتحلقون حلقاً أمام رسول الله ﷺ وهو يتلو عليهم قول الله تعالى بعد هزيمة الأحزاب: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، من المؤمنين

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فنهم مَن قضى نحبه ومنهم مَن ينتظر وما بدلوا تبديلاً ، ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً ، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾[1] .

لقد كان صهيب يكنى : أبا يحيى .

ويقول عن نفسه إنه من العرب .

وكان يطعم الطعام الكثير .

ولقد لفتت هذه الأشياء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له :

يا صهيب ما لك تكنى أبا يحيى وليس لك ولد .. ؟

وتقول إنك من العرب وأنت رجل من الروم .. ؟

وتطعم الطعام الكثير وذلك سرف في المال .. ؟

فقال صهيب :

أما عن الكنية فإن رسول الله ﷺ كناني أبا يحيى .

وأما قولك في النسب وادعائي إلى العرب ، فإني رجل من النمر بن قاسط من أهل الموصل ولكن سبيت ، سبتني الروم غلاماً صغيراً بعد أن عقلت أهلي وقومي وعرفت نسبي .

وأما قولك في الطعام وإسرافي فيه فإن رسول الله ﷺ كان يقول :

«إن خياركم مَن أطعم الطعام وردَّ السلام»[2] .

فذلك الذي يحملني على أن أُطعم الطعام .

لقد كان صهيب بن سنان رضي الله عنه نسيج وحده .. من الرجال التزم

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٢ — ٢٥ .

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٧٣٠ .

بكتاب ربه ، ونفذ سنّة نبيه ، واقتدى بسلوكه في حله وترحاله ، وكان يترسم خطى نبيه في كل ما يأتي وما يدع . عرف أن الدنيا ليست بدار قرار فتخفف منها . وعرف أن المال عرض زائل فلم يتكالب عليه . فأطعم الطعام . وتصدق بالمال . وفرج كرب المكروبين لا يبغي من ذلك إلا التقرب من ربه ، باتباع تعاليم دينه وهديه .

وكيف لا يكون صهيب بهذه الصورة وهو القائل :

« لم يشهد رسول الله ﷺ مشهداً قط إلّا كنت حاضره ، ولم يبايع بيعة قط إلا كنت حاضرها ، ولم يسر سرية قط إلّا كنت حاضرها ، ولا غزا غزاة قط أول الزمان وآخره إلّا كنت فيها عن يمينه أو شماله ، وما خافوا أمامهم قط إلّا وكنت أمامهم ، ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم ، وما جعلت رسول الله ﷺ بيني وبين العدو قط ، حتى توفي رسول الله ﷺ »(1) .

إنه دائماً بجوار القائد لا يتخلف عنه ، ولا يغيب عن مشهد يشهده وهو حريص كل الحرص على أن يفديه بروحه ... إن كان هناك مكروه أو خطر .

إنه الإيمان الذي خامر قلوبهم ، فوهبوا نفوسهم لدينهم وحرصوا كل الحرص على الالتفاف برسول الله ﷺ يدافعون معه ، ويبذلون نفوسهم رخيصة في إعلاء كلمة الله ، ويستمعون من هدي النبوة ، ويقتدون بكل ما يأتيه من قول أو فعل .

وفي غزوة حنين رأى صهيب رسول الله ﷺ يحرك شفتيه فاقترب منه أكثر حتى تعي أذناه ما يقول .. ولكنه لم يسمع شيئاً وكره أن يسأل رسول الله ﷺ عن ذلك حتى يخبرهم به .

ثم صلى رسول الله ﷺ صلاة الغداة فأخذ في تحريك شفتيه مرة أخرى .

عندها لم يطق صهيب صبراً فقال : يا رسول الله أراك تحرك شفتيك بشيء وكنت لا تفعله .

---

(1) حلية الأولياء جـ 1 ص 151.

فقال عليه السلام : إن نبياً كان قبلنا أعجبته كثرة أمته فقال : «لا يروم هؤلاء» — أحسبه قال شيئاً —.

فأوحى الله تعالى إليه أن خيِّر أمتك بين ثلاث : إما أن أُسلط عليهم الموت ، أو العدو ، أو الجوع.

فعرض عليهم نبيهم ذلك فقالوا :

أما الجوع فلا طاقة لنا به ، ولا طاقة لنا بالعدو ، ولكن الموت . فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفاً.

فأنا اليوم أقول :

«اللهم بك أحاول ، وبك أصاول ، وبك أقاتل»[1] .

قال الرسول ﷺ ذلك في غزوة حنين عندما اغتر المسلمون بكثرتهم ، حتى قال بعضهم : لن نُغلب اليوم عن قلة .

نسي المسلمون في هذا الموقف أن النصر هو من عند الله — بعد اتخاذ أسبابه — ولن يكون ولن يأتي عن طريق العدد أو العدة .

وفي هذا الموقف نزل قول الله تعالى :

﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ ثم وليتم مدبرين ﴾[2] .

... ويريد الله سبحانه وتعالى أن تتم هذه الرسالة الخاتمة ، ويؤدّي الرسول ﷺ ما كلفه به ربه ، ثم يأتيه أجله . ويعيش المسلمون من بعده فترة يعملون لدينهم ويجيشون الجيوش لمحاربة أعدائهم حتى تم لهم ما أرادوا . وانتشر الاسلام في جنبات الأرض الأربعة .

---

(١) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٥٥ .

(٢) سورة التوبة الآية ٢٥ .

ثم ماذا بعد هذا..؟

لقد لفّت المسلمين فتنة عارمة، فانقسموا على أنفسهم وأصبح بأسهم بينهم شديداً، ويقتَل الخليفة عثمان رضي الله عنه.

ثم يبايعون علياً كرم الله وجهه، فأين صهيب في هذا المعترك..؟

لقد انضم للحزب الذي يناوىء الخليفة الجديد ولكنه كان يلتزم الصمت ويحاول مع مجموعة من الصحابة أن يجمع المسلمين على خير، وهذه الواقعة التي يذكرها ابن الأثير تؤيد ما نرمي إليه من أنه التزم الصمت ولم يحاول الاشتراك في الفتنة بقول أو فعل.

«لقد سار كعب بن سور الى أهل المدينة يسألهم. فلما قدمها اجتمع الناس إليه — وكان يوم جمعة — فقال:

«يا أهل المدينة، أنا رسول أهل البصرة إليكم، نسألكم: هل أكره طلحة والزبير على بيعة علي أم أتياها طائعين»..؟

فلم يجبه أحد إلا أسامة بن زيد رضي الله عنه، فإنه قام وقال:

« إنهما بايعا وهما مكرهان!!».

فواثبه سهل بن حنيف والناس، فقام صهيب وأبو أيوب في عدة من أصحاب النبي ﷺ — ومعهم محمد بن سلمة — حين خافوا أن يقتل أسامة، فقالوا: اللهم نعم. فتركوه.

وأخذ صهيب أسامة بيده إلى منزله وقال له: أما وسعك ما وسعنا من السكوت..؟

قال: «ما كنت أظن أن الأمر كما أرى»[1].

ومات رحمه الله بالمدينة سنة ثمان وثلاثين وهو ابن ثلاث وسبعين سنة ودُفن بالبقيع. رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) تاريخ ابن الأثير جـ ٣ ص ٢١٥.

أسباب نزول الآيات

قال سعيد بن المسيب : أقبل صهيب مهاجراً نحو رسول الله ﷺ ، فاتبعه نفر من المشركين ، فنزل عن راحلته ، ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه ثم قال :

« يا معشر قريش ، لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً وأيم الله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بما في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ثم افعلوا ما شئتم. فقالوا :

دلنا على بيتك ومالك بمكة ونخلي عنك ، وعاهدوه إن دلهم أن يدعوه ، ففعل.

فلما قدم على النبي ﷺ قال :

أبا يحيى ربح البيع ، ربح البيع ، وأنزل الله قوله تعالى :

﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد ﴾[1] .

وقال المفسرون :

أخذ المشركون صهيباً فعذبوه. فقال لهم صهيب : إني شيخ كبير لا يضركم أمنكم كنت أم من غيركم ، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني؟ .

ففعلوا ذلك. وكان قد شرط عليهم راحلة ونفقة ، فخرج إلى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر في رجال :

فقال له أبو بكر : ربح بيعك أبا يحيى.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٧.

فقال صهيب : وبيعك فلا يخسر. ما ذاك؟

فقال : أنزل الله فيك كذا وقرأ عليه الآية.

وأخرج الحاكم في المستدرك نحوه من طريق بن المسيب عن صهيب موصولاً، وأخرج أيضاً نحوه من مرسل عكرمة.

وأخرجه أيضاً من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس وفيه التصريح بنزول الآية وقال صحيح على شرط مسلم.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : نزلت في صهيب وأبي ذر، وجندب بن السكن أحد أهل أبي ذر.

وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله كما قال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة آية ١١١.

تذييل...

ماذا فعل الاسلام بهؤلاء الرجال..؟ رجال الجيل الأول.

وما هي المعطيات التي قدمها لهم حتى آثروه على الأهل والمال والولد.؟

إن الواقع يقرر أن حب النفس لهذه الأشياء عميق ومتأصل في داخلها ولا تستطيع الانفكاك من أسره إلّا بمشقة قال تعالى:

﴿ زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾[1].

فكيف تخلصوا منها وتحرروا من ثقل قيودها.؟

الحقيقة التي يقررها تاريخهم أن وسيلتهم إلى ذلك كانت هي الإيمان.. الايمان الذي ملأ قلوبهم، وسيطر على كل جارحة من جوارحهم، فوضّح أمامهم حقائق الحياة، كما بيّنها الله سبحانه وتعالى، وكما أرادها لهم فعرفوا أن هذه الأشياء — وكل عرض من أعراض الدنيا زينة.

وفرق كبير في ميزان الاسلام بين الزينة والقيمة.

وهذه الحقيقة هي التي توصل اليها صهيب بن سنان عندما عرف الاسلام طريقه إلى قلبه، وعرفها عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وكل المهاجرين الذين فرّوا بدينهم إلى يثرب، وتركوا المال والأهل والولد.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤.

فماذا فعل صهيب بعد أن عرف فآمن..؟

لقد وضع ماله وحياته، وكل ما يربطه في هذه الحياة في كفة، ووضع في الكفة الأخرى دينه ومحبة الله ورسوله، فرجحت الأخيرة ففرَّ مهاجراً إلى ربه.

والمشاهد في حياتنا المعاصرة أن كثيراً من الناس قد شغلهم جمع المال وكنزه، ومحاولة الحصول عليه، وسلكوا في سبيل ذلك كل الطرق وطوفوا بالعديد من المسالك. وتراهم وهم يتكالبون على ذلك لا يهمهم إن كانت هذه الطرق التي يسيرون فيها شريفة أو غير شريفة، تتفق مع شرع الله ومع القواعد التي قعدها أو تختلف معها، تليق بكرامة الانسان الذي فضله الله وكرمه على كثير من خلقه أو لا تليق.

فكل هذه الأشياء لا تخطر لعبّاد المال على بال.؟

وتراهم في سبيل تحقيق هذه الغاية — غاية جمع المال وكنزه يضحون بأغلى القيم عندهم، ويهملون أولادهم وزوجاتهم، ويتجاهلون تعاليم دينهم وأوامر ربهم.

وهؤلاء قد يطول بهم العمر، وتمتد بهم السنون، وهم سادرون فيما هم فيه، غارقون ومستغرقون في المضاربات والمحاسبات وموازنة الربح والخسارة.

ثم يفيقون على الحقيقة المرة، ويتنبهون في نهاية الطريق عندما يولي شبابهم، وتذبل زهرة أيامهم، وتتركهم الدنيا على قارعة الطريق.

وقد لا يتنبهون إلا بعد فوات الأوان عندما يقترب ملك الموت من قبض نفوسهم، وازهاق أرواحهم.

ولو حكَّم هؤلاء عقولهم لأدركوا أن المال عرض زائل، وعارية مردودة ومطية لنا نستعمله عندما نريد، وليس من الحكمة أن نعكس قانون الحياة ونقلب ناموس الكون، ونصبح مطية للمال — ننقله على ظهورنا من بنك إلى بنك، ونقف «كالديدبان» حراساً عليه — ونلهث خلفه من مكان إلى آخر.

إن المال الذي يزيد عن الحاجة — يدخل في حساب الفائض ، هذا الفائض هو أخطر ما تصاب به الجماعات والأفراد أياً كان نوعه.

فإذا كان فائضاً في الوقت تحول إلى ملل مدمر يصيب النفس بالكآبة ويحول الأيام إلى جحيم قاتل.

وإذا كان فائضاً في الجنس — ولا ضابط له من شرع ودين — حوّل صاحبه إلى غول مدمر — يعيث في الأرض فساداً بالاعتداء على أعراض الآخرين وحرماتهم. وتتحول الحياة به أو معه إلى مباءة للرجس والفجور.

والفائض في الثروة ، عبء على صاحبه — وإن لم يشعر بذلك — وذلك بانشغال فكره عند عده ونقده — وقد يكون عاملاً من عوامل التدمير والانفلات من قواعد الخلق والدين ، ومسرح الحياة وما يجري فيها دليل وشاهد على ذلك.

من هنا كانت دعوة الاسلام إلى الاعتدال والانضباط. ومطالبة الفرد في عدم الاسراف والتبذير في هذا الفائض — سواء أكان وقتاً أو مالاً أو جنساً أو طعاماً.

فالاسراف في الطعام فائض يضر الجسم ، ويفسد الأجهزة في داخله ويصيب الانسان بالكسل والخمول.

والاسراف في العبادات — هروب من تعمير الكون ، وابتعاد عن العمل في مرضاة الله — ولهذا نهى الرسول ﷺ قوماً أرادوا أن يشغلوا وقتهم كله بالعبادة — هروباً من العمل — وإخلاداً للراحة أو ظناً منهم أن ذلك يقربهم إلى الله.

جاء في الصحيحين من رواية أنس — رضي الله عنه — قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا عنها كأنهم تقالوها.

قالوا : أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟.

قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً.

وقال آخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال ثالث : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ فقال : «أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له. ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وبعد، لقد هاجر صهيب بن سنان لينضم للجيش الذي اراد الرسول ﷺ أن يعده لفتح مكة وتطهيرها من عبث الوثنية ورجس الأصنام، ولم يمض على الهجرة إلى يثرب إلا فترة وجيزة من عمر الزمن حتى تحقق للمسلمين ما أرادوا وعادوا الى مكة مهللين مكبرين يحطمون الأصنام ويقهرون الكفر وأهله — ويرددون في داخل الكعبة — كلمة التوحيد، ووقف الرسول ﷺ على بابها مردداً :

لا إله إلا الله.

صدق وعده.

ونصر عبده.

وأعزَّ جنده.

وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله.

فمن القائد الجديد الذي يفعل كما فعل صهيب بن سنان؟.

من القائد الجديد الذي يترك ماله ومعها الدنيا وكل ما حوَت ويهاجر في رحلة الى ربه، يعود بعدها لاعداد جيش الإيمان وتنظيم جنود الحق والرحمن.؟

نعم من القائد الذي يحرر أرض الاسلام ويعمل على جلاء البهتان ويعيد المشردين إلى أرضهم وديارهم؟

ترى من يكون هذا الرجل.؟

وفي أي البقاع أو البلدان يكون ظهوره.؟

الله يعلم أن المسلمين الآن وفي كل بقاع الأرض ينتظرون فجره وبزوغ نجمه فهل تتحقق الأمنية؟. ويعيد التاريخ نفسه؟.

نتمنى من الله ذلك!!

الزُّبَير بن العَوَّام

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

صدق الله العظيم

[سورة النساء آية رقم ٦٥]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين ورجال السنن نزلت هذه الآية في الزبير بن العوام ورجل من الأنصار.

قال ذلك الامام ابن كثير في تفسيره	جـ ٢ ص ٥٠٣ — ٥٠٤.
وقاله الامام القرطبي في تفسيره	جـ ٥ ص ٢٦٦ — ٢٦٧
وقاله الامام الطبري في تفسيره	جـ ٨ ص ٥١٨ — ٥١٩.
ورواه النسائي	جـ ٢ ص ٣٠٨ — ٣٠٩
ورواه الامام أحمد في مسنده	جـ ٤ ص ٤ — ٥
ورواه الامام البخاري	جـ ٦ : ٢٦ — ٢٨.
ورواه الامام مسلم	جـ ٢ : ٢٢١

فمن هو الزبير بن العوام؟..

الزبير بن العوّام

رضي الله عنه

حواري رسول الله ﷺ وفارس عرفته المعارك وفر من أمامه الفرسان، وأحد الرجال السابقين للاسلام، وأحد الستة من رجال الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليختاروا من بينهم خليفة من بعده.

.. والده العوام بن خويلد، قتل يوم حرب «الفجار».

وأمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف عمة الرسول ﷺ وشقيقة حمزة.

يجتمع نسب الزبير ونسب رسول الله ﷺ في قصيّ بن كلاب وينسب إلى أسد ابن عبد العُزّى بن قصيّ، فيقال الأسدي.

وقد قال الزبير لابنه عبد الله: كانت عندي أمك، وعند رسول الله ﷺ خالتك عائشة، وبيني وبينه من الرحم ما قد علمت، وعمة أبي أم حبيبة بنت أسد جدته، وأُمي عمته، وأُمه آمنه وجدتي هاله بنتا وهب بن عبد مناف، وزوجته خديجة بنت خويلد عمتي.

فهو من أسرة عريقة في النسب، كان لها دورها في الجاهلية والاسلام تعود رجالها أن يجندلوا الابطال ويلقوا مصارعهم في أتون المعارك دفاعاً عن العرض والمال، وحمى الديار.

من أجل ذلك تربى الزبير منذ نعومة أظفاره تربية قاسية عنيفة ، وأعد إعداداً كاملاً لمصارعة الفرسان.

ومن وسائل الإعداد لتلك المهمة ، أنه كان يتلقى الضربات الموجعة من أمه وينال على يديها الركل والتعذيب ، ولقد مرَّ عليها أحد رجالات الأسرة وشاهد ما تفعله أمه فيه.. فتقدم اليها قائلاً :

قتلته ، خلعت فؤاده ، أهلكت هذا الغلام.

قالت : إنما أضربه كي يَلَبْ ويجرّ الجيش ذات الجَلَبْ.

وفي دروب مكة ووديانها ، كان يزاول هوايته المحببة مع أترابه ، ويطبق عليهم الدروس العنيفة التي يتلقاها من أمه. الأمر الذي ترتب عليه كسر ذراع غلام.

وعندما علمت أمه بذلك ، كان هذا مدعاة لسرورها وفخرها.

أسلم مبكراً عندما علم بدعوة الاسلام وهو ابن ست عشرة سنة فعلقه عمه في حصير ، ودخّن عليه ليرجع إلى الكفر فكان يقول :

(لا أكفر أبداً).

لقد ذاق حلاوة الايمان وأضاء قلبه بنور الاسلام ، فمحال أن يعود إلى ظلام الجاهلية ، أو الى ربقة الأصنام..

وعندما أذن مؤذن الهجرة إلى الحبشة كان الزبير بن العوام في مقدمة المهاجرين إلى هناك. حيث لقي المسلمون في جوار النجاشي كل رعاية وعناية ، وعندما نازع النجاشي رجل من الحبشة ، حزن المسلمون لذلك حزناً شديداً. وأخذوا يترقبون أخبار المعركة بينه وبين خصمه ، التي كانت تدار على الجانب الاخر من النيل ، ولما لم تسعفهم رواة الأخبار ، اجتمع المسلمون على أرض الحبشة وقالوا : من رجل يخرج إلى أرض المعركة ثم يأتينا بالخبر؟..

فقال الزبير (أنا) وكان احدث القوم سناً ، فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ،

ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم.. ثم انطلق حتى حضرهم.

وانتصر النجاشي على عدوه، فعاد الزبير إلى المسلمين ليبشرهم بهذا النصر قائلاً:

(ألا ابشروا فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده).

ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً.

وعاد الزبير مرة أخرى إلى مكة مع العائدين عندما علموا بخديعة قريش وإشاعتهم الصلح بينهم وبين محمد، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وإذا كان سعد بن أبي وقاص أول من أراق دماً بمكة بعد دعوة الاسلام فان الزبير بن العوام، كان أول من سل سيفاً عندما أذاع المشركون (أن رسول الله ﷺ قد قتل).

فأقبل الزبير يشق الناس بسيفه والنبي ﷺ بأعلى مكة فقال النبي ﷺ مالك يا زبير؟؟؟

فقال: أخبرت أنك أخذت.

فأثنى عليه، ودعا له ولسيفه،

وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، ورأى الزبير أن أحبابه وأصحابه أخذوا يتفلتون الواحد تلو الآخر، في رحلات متتابعة إلى المدينة، وأحس إن توانى في الهجرة، لن يبقى معه أحد من الصفوة المختارة، فكلهم لا يطيقون فراق رسول الله ﷺ ولا يقبلون الحياة بعيداً عنه.

وقرر أن يلحق بالرسول ﷺ وهاجر بمفرده حتى دخل المدينة فنزل على المنذر ابن محمد بن عقبة.

وآخى النبي ﷺ بينه وبين سلمة بن سلامة بن وقش الذي استعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على اليمامة.

وفي المدينة عاش الزبير بن العوام جندياً من جنود الاسلام، يعمل بأوامر رسوله، ويأتمر بأمر القائد.. حتى كان يوماً وهو يصلي في المسجد ركعات لربه ويتبتل ببعض آيات من قرآنه، اذ سمع جلبة وضوضاء خارج المسجد وما كاد يتفلت من صلاته، حتى خرج مسرعاً يستطلع الخبر..

وكم كانت فرحته عندما علم بأنه رزق بغلام من زوجته أسماء بنت أبي بكر، ولقد كان سروره عامراً ومعه كل المسلمين، لأن عصابة الكفر من اليهود قبل ذلك قد أشاعوا (أنهم سحروا المسلمين فلا يولد لهم) فكان ابنه عبد الله أول مولود في الاسلام للمهاجرين بالمدينة..

وعندما ركبت قريش رأسها وجاءت لحرب الرسول في موقعة بدر، كان الزبير ابن العوام يركب فرسه ويعتمر بعمامة صفراء ويقود ميمنة الجيش وجندل من صناديد قريش عبيدة بن سعيد بن العاص، ونوفل بن خويلد بن أسد وجرح جرحين غائرين.

وفي غزوة أُحد ثبت مع الرسول ﷺ وبايعه على الموت وكانت مع الزبير إحدى رايات المهاجرين الثلاث.

وعندما جاء الأحزاب وحاصروا مدينة الرسول ﷺ واضطرب المسلمون وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، قال رسول الله ﷺ:

من يأتيني بخبر القوم..؟

فقال الزبير: أنا.

فقال: من يأتيني بخبر القوم..؟

فقال الزبير: أنا.

فقال : من يأتيني بخبر القوم..؟

فقال الزبر : أنا.

فقال النبي ﷺ إن لكل نبي حوريًا وان حواريي الزبير.

مرحى يا ابن العوام، لقد أجبت داعي الله وداعي رسوله، وكنت لدينك حافظاً ولربك شاكراً ولنبيك مخلصاً حتى مات وهو راض عنك...

عن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال :

قلت لأبي يوم الأحزاب : قد رأيتك يا أبت تحمل على فرس أشقر؟

قال : قد رأيتني أي بني؟

قلت : نعم.

قال : فإن رسول الله حينئذ جمع لي أبويه يقول : فداك أبي وأمي.

وانتهت غزوة الأحزاب بفرار عصابة الشرك والكفر وفتح الله على المسلمين وبشر الرسول ﷺ أصحابه بأن قريشاً لن تغزوهم بعد اليوم.. إذن الطريق ممهد الى مكة، وشوق المسلمين إلى الكعبة يزددا وبشرى القرآن بدخولهم المسجد الحرام إن شاء الله تملأ حياتهم، وتجمل أيامهم، وتحول بينهم وبين النوم.

حتى كان يوم نقضت قريش العهد الذي بينها وبين المسلمين، اذن لا بد من فتح مكة، وتطهيرها من الأصنام، وتأديب تلك الفئة الباغية التي لا تحفظ عهداً ولا ترعى حرمة.

وسار جيش الله بقيادة الرسول ﷺ متجهاً نحو مكة وكان المقداد بن الأسود على مجنبة الجيش اليمنى، وكان الزبير بن العوام على مجنبة الجيش اليسرى.

فلما دخل رسول الله ﷺ مكة، وهدأ الناس جاءا بفرسيهما فقام رسول الله ﷺ، يمسح الغبار عن وجهيهما بثوبه وقال :

إني قد جعلت للفرس سهمين، وللفارس سهماً فمن نقصهما نقصه الله.

إن هذا العمل من رسول الله ليدل على فهم عميق لطبيعة القيادة، ودراسة واعية للنفس البشرية، هذه اللمسات التي يقدمها القائد لجنوده كم تكلفه؟ لا شيء الا النذر اليسير من وقته.

ولكنها في داخل نفوس الجنود تعمل عمل السحر، وتجعل الجندي يدخل المعركة لا يبالي بما يناله سوى رفع كلمة الله أو الشهادة.

إن هؤلاء العمالقة الذين تربوا في مدرسة الاسلام كانوا نماذج فريدة في تاريخ البشر. ونرجو من الله أن تتكرر ما دام كتاب الله الذي صنع تلك النماذج لا زال بين أيدينا، وهدي الرسول ﷺ ليس ببعيد عنا.

فلما مات الرسول ﷺ كان جندياً عارفاً لطبيعة عمله الذي يجب عليه أن يؤديه في غياب صاحب الرسالة.. فهو مرة يعيد العقل إلى مانعي الزكاة في الجزيرة العربية.

وأخرى يرسل مدداً على مشارف الروم ليشارك في معركة اليرموك الفاصلة، وثالثة على أرض مصر مع عمرو بن العاص محاصراً (حصن بابليون) وطال الحصار حتى بلغت مدته سبعة أشهر فقيل للزبير إن به الطاعون فابتعد عنه فقال:

(إنما جئنا للطعن والطاعون).

ثم يتقدم إلى عمرو بن العاص قائلاً:

يا عمرو اني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوافقه عمرو على ذلك.

فتقدم الزبير ووضع سلماً واسنده الى جانب الحصن ثم صعد، وأمر بقية الجنود إذا سمعوا تكبيرته أن يجيبه جميعاً.

وأخذ الاعداء على غرة، وأصابهم الهول والفزع عندما شاهدوا الزبير على رأس الحصن يكبر والجنود من خلفه يتدفقون.

وانتهت بفتح الحصن المعركة الحاسمة لفتح مصر.

وطلب المقوقس الصلح ، فأجابه المسلمون إلى ما طلب ، وكان الزبير بن العوام وابنه عبد الله ومحمد شهوداً على وثيقة الصلح بين الطرفين..

صدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله :

الزبير عمود من عمد الاسلام ، وركن من أركان الدين.

ثم ماذا؟ حدث في صفوف المسلمين شرخ كبير ، وحدثت الفتنة التي كان يتعوذ منها عمار بن ياسر ، واضطرب أمر الجماعة ، وقتل عثمان رضي الله عنه ، وأصبح المسلمون بلا خليفة فترة.

تقول بعض الروايات التاريخية : اجتمع بعد قتل عثمان أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم طلحة والزبير فأتوا علياً فقالوا له :

«لا بد للناس من امام».

فقال : لا حاجة لي في أمركم ، فمن اخترتم رضيت به.

فقالوا : ما نختار غيرك.

وترددوا اليه مراراً وقالوا له : إنا لا نعلم أحداً أحق به منك ، ولا أقدم سابقة ، ولا أقرب قرابة من رسول الله ﷺ.

فقال : لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً.

فقالوا : والله ما نحن فاعلين حتى نبايعك.

قال : ففي المسجد ، فإن بيعتي لا تكون خفية ولا تكون إلا في المسجد.

فكان أول من بايعه طلحة بن الزبير.

فقال لهما : إن أحببتما أن تبايعاني ، وإن أحببتما بايعتكما.

فقالا : بل نبايعك.

وتمت البيعة لعلي ثم استأذن طلحة والزبير في العمرة فأذن لهما فلحقا بمكة والتقيا بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فحرضاها على الخروج وقتال علي فأجابتهم لذلك..

وقبل أن يتحرك الجيش أحس الزبير أنها معركة خاسرة ، فقال لابنه عبد الله الذي كان بجواره : يا بني لا يقتل إلا ظالم أو مظلوم ، وإني لأراني إلا سأقتل مظلوماً ، وإن من أكبر همي ديني الذي عليّ. أفترى ديننا يبقي من مالنا شيئاً؟

ثم قال : يا بني بع مالنا واقض ديني.

ثم تابع حديثه بقوله : وإن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه مولاي.

قال عبد الله : فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت : يا أبت من مولاك..؟

قال : الله.

يقول عبد الله : فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت يا مولى الزبير اقض عنه دينه فيقضيه.

وبلغ علياً خروجهم إلى البصرة فخرج هو أيضاً ، وحاول بكل وسلة أن يتفادى الحرب بين الطرفين. وعمل على مقابلة طلحة والزبير حتى تحقق له ذلك.

فقال علي : يا زبير ما أخرجك..؟

فقال : أنت. ولا أراك لهذا الأمر أهلاً ولا أولى به منا.

فقال له : تذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ وهو متكىء على يدك ، فسلم عليّ رسول الله ﷺ وضحك إليّ ثم التفت اليك فقال لك :

«يا زبير إنك تقاتل علياً وأنت له ظالم».

فقال الزبير : اللهم نعم فقال علي : فعلام تقاتلني؟».

فقال الزبير : نسيتها والله لو ذكرتها ما خرجت اليك ولا قاتلتك.

ثم التقى به عبد الله بن عباس فقال له :

«أين صفية بنت عبد المطلب حيث تقاتل بسيفك علي بن أبي طالب بن عبد المطلب».

ثم سمع أن عمار بن ياسر موجود مع علي بن أبي طالب فخاف أن يقتل عمار وقد قال النبي ﷺ :

«يا عمار تقتلك الفئة الباغية».

فدخل على عائشة رضي الله عنها فقال:

«يا أماه ما شهدت موطناً قط في الشرك ولا في الاسلام إلّا ولي فيه رأي وبصيرة غير هذا الموطن، فإنه لا رأي لي فيه ولا بصيرة، اني لعلى باطل».

وقال لابنه: اني راجع، ولا تعد هذا مني جبناً، فوالله ما فارقت أحداً في جاهلية ولا إسلام».

وعاد الزبير أدراجه ولم يقاتل علياً وانطلق براحلته يريد المدينة، فلقيه رجل يقال له الثغر بن زمام فقال له:

يا حواري رسول الله إليّ إليّ فأنت في ذمّتي لا يصل اليك أحد من الناس. فرآه رجل من بني تميم فأقبل على الأحنف بن قيس فقال:

«هذا الزبير في وادي السباع».

فرفع الأحنف صوته، وقال هذا هو الزبير في وادي السباع يريد اللحاق بأهله فسمعته مجموعة من الرجال فاقبلوا نحوه. وركبوا أفراسهم في طلبه، فلحقوه فحمل عليه عمرو بن جرموز فطعنه طعنة خفيفة، فحمل عليه الزبير، فلما ظن أن الزبير قاتله قال: الله، الله يا زبير. فكف عنه.

ثم سار فحمل عليه القوم جميعاً فقتلوه، رحمه الله.

وأخذ ابن جرموز سيفه حتى أتى به علياً فأخذه علي وقال:

«سيف والله طالما جلا به عن وجه رسول الله ﷺ الكرب».

ودفن الزبير رحمه الله بوادي السباع، وجلس علي يبكي عليه هو وأصحابه وجاء ابن جرموز يستأذن على علي فاستجفاه فقال — كلمة أحفظت علي. فقال علي رضي الله عنه: *بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال* الله في حقهم:

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾[1].

مات الرجل الورع التقي الذي كان يخاف الله ويخشى عقابه، ويتحرج أن يروي عن رسول الله ﷺ.

قال له ابنه عبد الله: ما يمنعك أن تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث عنه أصحابه؟..

فقال: أما والله لم أفارقه منذ أسلمت، ولكنني سمعته يقول:

«من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

رحم الله الزبير وأسكنه فسيح جناته بمقدار ما قدم من خير للاسلام والمسلمين».

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٤٧.

أسباب نزول الآيات

روى الإمام البخاري بسنده عن الزهري عن عروة قال : خاصم الزبير رجلاً في سقي بستان فقال النبي ﷺ :

«اسق يا زبير ثم ارسل الماء إلى جارك».

فقال الأنصاري : يا رسول الله ان كان ابن عمتك.؟

فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال :

«اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع الماء إلى الجُدُرَ ثم أرسل الماء إلى جارك».

فاستوعب النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، وكان اشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة.

قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾.

وهناك رواية عن أبي الاسود قال : اختصم رجلان إلى النبي ﷺ فقضى بينهما.

فقال المقضي عليه : ردنا إلى عمر بن الخطاب.

فقال رسول الله ﷺ : نعم انطلقا إليه.

فلما أتيا اليه، فقال الرجل : يا ابن الخطاب قضى لي رسول الله ﷺ على هذا فقال : ردنا إلى عمر بن الخطاب فردنا إليك.

فقال عمر : أكذلك ؟ .

قال : نعم .

فقال عمر : مكانكما حتى أخرج اليكما فأقضي بينكما ، فخرج اليهما مشتملاً على سيفه فضرب الذي قال ردنا الى عمر فقتله ، وأدبر الآخر ، فأتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : قتل عمر والله صاحبي ، ولولا أني أعجزته لقتلني .

فقال رسول الله ﷺ ما كنت أظن أن يجترىء عمر على قتل مؤمن .

فأنزل الله تعالى : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك﴾ الآية .

فهدر دم ذلك الرجل وبرىء عمر من قتله .

تذييل...

لا بد من تحكيم أوامر الرسول ﷺ ونواهيه التي هي أوامر الله تعالى ونواهيه، في كل ما نأتي من أمر أو نسلك من سلوك.

والقرآن الكريم يطالب المسلمين باتباع أوامر الرسول ونواهيه قال تعالى:

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[1].

وما دام ذلك كذلك فـ «من يطع الرسول فقد أطاع الله».

ومن طاعة الرسول أن نتلمس طريقة حياته التي تعتبر مواد السلوك للفرد المسلم والجماعة المسلمة، والدستور الخالد الذي يخرج صاحبه من عثرات الهوى وكبوات الضلال.

والمتتبع لأحاديث الرسول ﷺ يرى أنه تناول حياة الفرد في الصغير منها والكبير، ونظم سلوكه وأخلاقه بأوسع ما تضمنته كلمة أخلاق.

وهذا التنظيم يتناوله منذ أن يصبح إلى أن يمسي، ومنذ ميلاده إلى أن تنتهي به الحياة، ثم ينظم شئون ميراثه، إن كان له ميراث. إنه ينظم سلوكه مع نفسه يقول الرسول ﷺ لعمرة سفيان بن عبد الله الثقفي:

«قل آمنت بالله ثم استقم».

---

(١) سورة الحشر آية رقم ٧.

وينظم سلوكه مع مجتمعه يقول الرسول عليه السلام : اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن.

وينظم سلوكه مع ربه ، ويمكن العبد الفاني الضعيف من الاتصال بخالقه والقرب منه ، وفي الحديث القدسي :

«ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه».

ومن تحكيم الرسول ﷺ في أمورنا أن نلتزم أوامره فان دعا إلى العلم التزم الفرد بالعلم ، وإن دعا إلى الأخلاق التزم بالأخلاق ، وإن دعا الى القوة بحث ونقب عن أسباب القوة وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، فلا بد من طلبه من المهد إلى اللحد ، ولا بد من الضرب في فجاج الأرض بحثاً عنه ، والعلماء ورثة الأنبياء ، والخشية من الله والخوف منه خاص بالعلماء ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[1].

ولن يحول بعد المسافة أو وعورة الطريق عن السعي لطلب العلم (اطلب العلم ولو بالصين).

وطلاب العلم تحفهم الملائكة وتنزل عليهم الرحمة وتغمرهم السكينة.

يقول الرسول ﷺ :

(ما من قوم اجتمعوا في بيت من بيوت الله يذكرون الله ويتدارسون العلم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده).

والعلم في الاسلام يتناول كل موجود ، وكل ما يوجد ، فهو علم أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر ، فالعلم عبادة وفي الأثر :

(فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد).

---

(١) سورة فاطر آية رقم ٢٨.

ومن خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع.

وإذا كانت رسالة الاسلام دعوة الى العلم، فلا بد أن تكون القراءة وأن يكون العلم باسم المربي.

(اقرأ باسم ربك).

تعلم العلم باسم ربك.

اضرب في فجاج الأرض للبحث عن كنوزها وكشف مخبياتها باسم ربك، ضع يدك على سلاحك لترد كيد الكائدين، وتطهر الأرض من الغاصبين باسم ربك.

فلن يكون طلب العلم باسم بشر من البشر، أو باسم فرد من الناس أياً كان هذا الفرد مصلحاً اجتماعياً أو زعيماً سياسياً أو مربياً عالمياً فمن خرج عن هذا الطريق أو انحرف عن هذا النهج، أو أخذ بعض الكتاب وترك بعضه فهو لم يرض بحكم الله وحكم رسوله.

والعلم يجب أن يكون باسم الخبير الصانع، باسم الخالق المبدع الذي أوجد الجهاز الآدمي، وصنع أجزاءه ومركباته، وأوجد سمعه وبصره وقدر حياته وموته، وحدد رزقه وأجله، لأنه وحده القادر على وضع ما يصلح حياته ويحقق سعادته، ويملأ حياته بالأمن والاطمئنان.

ومن تحكيم شرع الله، والاطمئنان اليه، أن نستفيد من تجارب الآخرين في كل مجالات الحياة شريطة أن نستعملها باسم الله وفي سبيل الله.. ولنضرب لذلك مثلاً:

فالمدفع انتاج بشري ساهمت في تطويره وصنعه أجيال من البشرية متتابعة، ولكنك حين تستخدمه في الاعتداء على الآخرين أو في قتل الأطفال والنساء.

إذا استخدمته في تخريب الأرض وإشاعة الدمار فيها.

إذا استخدمته في ازعاج الآمنين واغتصاب أرضهم وديارهم. فأنت لا تحكم شرع الله ولا تلتزم بأحكام الرسول ﷺ.

فشرط استخدامه في الاسلام أن يكون إحقاقاً لكلمة الله في الأرض وأن يكون الدين كله لله، قال تعالى:

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾[1].

وقس على ذلك كل المخترعات الحديثة.

فوسائل العرض، والاذاعة المرئية يمكن أن تستعمل في عرض العواطف النظيفة، والانسانية الرفيعة، وصراع البشرية في سبيل الخير.

يمكن استخدامها في زيادة الانتاج الزراعي والحيواني بعرض تجارب الآخرين في هذا الميدان والاستفادة من خبراتهم.

يمكن استخدامها في ميدان الصناعة والتطور «التكنولوجي» بعرض نماذج حية من تسابق العقول في هذا المضمار.

يمكن استخدامها في تكتيك الحروب وخدع المعارك والاستفادة من خطط الآخرين في ميدان الحروب والقتال.

يمكن استخدامها في ميدان الطب والوقاية الصحية.

يمكن استخدامها في دور التعليم بمراحله المختلفة.

ولكننا لن نكون محكمين شرع الله ورسوله ولسنا بمؤمنين إذا كنا نستخدمها في عرض الشهوات الفاجرة، والنظرات الداعرة والانسانية الهابطة، وصور المجتمعات التي تردت في حمأة الرذيلة من كل نوع التي تسمى بمسميات مختلفة.

مرة باسم الأخلاقيات وهي منحرفة عن هدى السماء.

ومرة باسم الفكر وهي لا تلتزم بكتاب الله.

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٩٣.

وثالثة باسم الحضارة ، وهي تعيد لنا تردي الجاهلية واسفاف الهمجية اذا كانت الحضارة هي الخمر والميسر.

وإذا كانت الحضارة هي الدعارة الخلقية.

وإذا كانت الحضارة بيع النساء في سوق النخاسة.

إذا كانت كذلك فنحن لا نريدها ولا نقبلها لأنها حضارة التعفن والطين، حضارة الغاب وشريعة الذئاب.

أما حضارتنا التي نؤمن بها وندعو لها فهي حضارة التعمير والبناء حضارة الايمان والاسلام ، حضارة السلام والحب.

النجَاشي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً
لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
(٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ
مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا
فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا
جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ
ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٤) ﴾

صدق الله العظيم

[سورة المائدة الآية ٨٢ - ٨٤]

أقوال العلماء في نزول الآيات

اتفق العلماء على أن المقصود بهذه الآيات هو النجاشي ملك الحبشة.

قال ذلك صاحب الدر المنثور جـ ٢ ص ٣٠٣.

والإمام الطبري في تفسيره جـ ١٠ ص ٤٩٩

وفي تفسير الخازن جـ ٢ ص ٦٧.

وفي أسباب نزول القرآن للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ص ١٩٦

فمن النجاشي هذا..؟

النجاشي

على بطحاء مكة الملتهبة بأشعة الشمس المسلطة ، وفي الرمضاء المحرقة ، طرحت أجساد الفئة المؤمنة حتى تعود إلى دين الآباء والأجداد . وبقطع الحديد المحماة على النار المشتعلة طبعت قريش على أجساد وأبشار أصحاب محمد بن عبد الله ﷺ حتى يكفوا عن قولتهم المرعبة لقريش والمحببة إلى نفوس المؤمنين «أحد ، أحد»[1] . وبالسياط ذات الشعب المتعددة والتي شبعت بالزيوت والدهون أدمت ظهر عمار ، وصهيب ، وبلال .

إن هذه الدعوة الجديدة فيها القضاء الكامل على نفوذهم وصولجانهم في الجزيرة العربية وخارجها . وركبت قريش رأسها ولم تسمع قولاً أو تستجب لنصيحة وأخذت تصب جام غضبها على هؤلاء . وسلطت عليهم حديدها ونارها . وتساقط القتلى من أصحاب هذه الدعوة ، وأرمضت أجسام البقية الباقية تحت ثقل الحجارة ، وفتَّ في عضد البقية منهم . عندها قال الرسول ﷺ لأصحابه المستضعفين : «لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه»[2] .

فمن هذا الملك الذي لا يظلم عنده أحد .. ؟ ومن يكون حتى يحظى بهذه الشهادة من الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى .. ؟

---

(١) الروض الأنف جـ ٣ ص ١٩٩ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٤٤ والروض الأنف جـ ٣ ص ٢٠٣ .

إنه أصحمة بن أبجر — وتفسيره عطية[1] — وكان ملكاً للحبشة في فترة بعثة الرسول ﷺ ، ومن عجائب القدر أن هذا الملك عاش فترة في جزيرة العرب عبداً رقيقاً ورعى الغنم لسيده الذي اشتراه في منطقة قريبة من بدر ، وفوق الصحراء الممتدة عبر الأفق وفي الليالي المقمرة في تلك البقاع ، ومع السكون الشامل الذي يلف الكون كله صفت نفسه ورفرفت مسبحة باسم الخالق المبدع لهذا الوجود ، وكان لوجوده في الجزيرة العربية قصة ، تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها :

« إن أباه كان ملك قومه ولم يكن له ولد إلّا النجاشي ، وكان للنجاشي عم ، له من صلبه اثنا عشر رجلاً ، فقالت الحبشة بينها : لو أنا قتلنا أبا النجاشي وملكنا أخاه ، فإنه لا ولد له غير هذا الغلام ، وإن لأخيه من صلبه اثنا عشر رجلاً فتوارثوا ملكه من بعده ، بقيت الحبشة بعده دهراً . فغدوا على أبي النجاشي فقتلوه وملكوا أخاه ، فمكثوا على ذلك حيناً ونشأ النجاشي مع عمه ، وكان لبيباً حازماً من الرجال ، فغلب على أمر عمه ، ونزل منه بكل منزلة ، فلما رأت الحبشة مكانه منه قالت بينها : والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه ، وإنا لنتخوف أن يملكه علينا ، وإن ملكه علينا ليقتلنا أجمعين ، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه فمشوا إلى عمه . فقالوا : إما أن تقتل هذا الفتى ، وإما أن تخرجه من بين أظهرنا فإنا قد خفناه على أنفسنا . قال : ويلكم قتلت أباه بالأمس وأقتله اليوم .. ؟ بل أخرجه من بلادكم . قالت : فخرجوا به الى السوق ، فباعوه لرجل من التجار بستمائة درهم ، فقذفه في سفينة فانطلق به ، وكان الذي اشتراه من العرب من بني ضميرة »[2] . ويحكي النجاشي عن نفسه : أنه كان يرعى الغنم لسيده بوادٍ يقال له بدر كثير الأراك[3] . ومكث فترة طويلة بأرض العرب تعلم من لسانهم وعرف لهجاتهم واكتسب الكثير من صفاتهم .

---

(١) الروض الأنف جـ ٣ ص ٢٢٢ .

(٢) الروض الأنف : عبد الرحمن السهيلي جـ ٣ ص ٢٦٠ .

(٣) المصدر السابق وذكر ذلك النجاشي عندما علم بوقعة بدر بين الرسول صلّى الله عليه وسلم وكفار قريش .

ثم ماذا .. ؟ تقول الروايات التاريخية : إن سحابة من سحائب الخريف هاجت فخرج عمه يستمطر تحتها — في أرض الحبشة — فأصابته صاعقة فقتلته . ففزعت الحبشة إلى ولده ، فإذا ولده في غفلة من الأمر ليس فيهم خير ، فرج على الحبشة أمرهم . فلما ضاق عليهم ما هم فيه من ذلك . قال بعضهم لبعض : «تعلموا والله أن ملككم الذي لا يقيم أمركم غيره للذي بعتم للأعرابي فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة ، فأدركوه وابحثوا عنه» . فخرجوا في طلبه ، حتى عثروا عليه . فاعتذروا له فجاؤوا به وملكوه عليهم .

واستجاب المسلمون لأمر قائدهم وهاجروا من مكة متجهين إلى أرض الحبشة وأخذ شاعرهم يردد على وقع خطاهم :

يا راكباً بلغن عني مغلغلة — من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرىء من عباد الله مضطهد — ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة — تنجي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز — ي في الممات وعيب غير مأمون[1]

واستقروا على أرض الحبشة ، ووجدوا في جوار النجاشي كل أمان واطمئنان ، وصدق رسول الله ﷺ فيما بلغهم عنه . وتتابعت أفواج المهاجرين الى الحبشة وأحست قريش أن هؤلاء يفلتون من بين يديها حيث يجدون في جوار هذا الملك الأمن لدينهم والاطمئنان على حياتهم ودنياهم ، وقرروا أن يرسلوا الى النجاشي ليرد هؤلاء المارقين ليسوموهم سوء العذاب وليكونوا عبرة لمن يعتبر . ووقع اختيارهم على عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ليكونا سفيرين الى النجاشي ، وجمعوا لهما هدايا له ولبطارقته عله ينخدع بهذا ويرد ما عنده من المهاجرين . وعندما سمع أبو طالب ما تريد أن تفعله قريش مع هؤلاء المهاجرين . أرسل إلى النجاشي رسالة ينبهه إلى خديعة قريش ويوصيه خيراً بمن عنده وكتب له هذه الأبيات :

---

(١) ينسب هذا الشعر لعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي ، سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٤.

تعلم أبيت اللعن أنك ماجد كريم فلا يسقى لديك المجانب
تعلم بأن الله زادك بسطة وأسباب خير كلها بك لازب
وأنك فيض ذو سجال غزيرة ينال الأعادي نفعها والأقارب[1]

تقول أم سلمة زوج النبي ﷺ وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة تصور خروج عبد الله بن أبي ربيعة ورفيقه عمرو بن العاص رضي الله عنه رسولي قريش إلى النجاشي : «خرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي. وقالا لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى[2] إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم[3] عينا وأعلم بما عابوا عليهم».

فقالوا لهما : «نعم». ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له : «أيها الملك، إنه قد ضَوَى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه». قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي. قالت : فقالت بطارقته حوله : «صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم». قالت : فغضب النجاشي، ثم قال :

«لا والله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي،

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٧ والروض الأنف جـ ٣ ص ٢٤٤.
(٢) ضوى إليك : أي آووا اليك ولاذوا بك، أما ضوي بكسر الواو فهو المزال.
(٣) أعلى بهم عيناً : أي أبصر بهم، أي عينهم وابصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم.

واختاروني على مَنْ سواي ، حتى أدعوهم ، فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ، ورددتُهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني » .

حوار بين النجاشي وبين المسلمين

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه .. ؟ قالوا : نقول : والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن . فلما جاؤوا ، وقد دعا النجاشي أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل .. ؟ قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب[1] . فقال له : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده — لا نشرك به شيئاً — وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، قالت : «فعدد عليه أمور الاسلام» .

(١) كان أشبه الناس خلقاً وخلقاً برسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح خيبر فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر .. ؟ وسنترجم له قريباً بمشيئة الله.

وتابع جعفر حديثه قائلاً : «فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على مَنْ سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك»[1] .

قالت : فقال له النجاشي : «هل معك مما جاء به عن الله من شيء»..؟ قالت : فقال له جعفر : «نعم» فقال النجاشي : «فاقرأه عليَّ» قالت : فقرأ عليه صدراً من «كهيعص» قالت : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته ، حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم[2] . ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولا يُكادون»[3] .

قالت : فلما خرجا من عنده ، قال عمرو بن العاص : «والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم» .

قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا «لا نفعل ، فإن لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا» قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدٌ . قالت : ثم غدا عليه من الغد ، فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فأرسل اليهم فسلهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ، ليسألهم عنه . قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط . فاجتمع القوم ، ثم قال

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٢٢٧١ ، وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٦٠ والروض الأنف جـ ٣ ص ٢٧٤ .

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦٠.

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٦٠.

بعضهم : «ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه..؟ قالوا : نقول والله فيه ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن !! قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون في عيسى ابن مريم..؟ قالت : فقال له جعفر بن أبي طالب : «نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ هو عبد الله ورسوله ، وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول». قالت : فضرب النجاشي بيده الى الأرض ، فأخذ منها عوداً ثم قال :

«والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود»[(١)] . قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم[(٢)] بأرضي من سبكم غرم. ثم قال : من سبكم غرم. ثم قال : من سبكم غرم. ما أحب أن لي دبراً[(٣)] من ذهب ، وأني آذيت رجلاً منكم ، ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ عليَّ ملكي ، فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه . قالت : فخرجا من عنده مقبوحين ، مردوداً عليهما ما جاءا به وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار»[(٤)] .

ومات النجاشي رحمه الله ، ونعاه جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ ، في اليوم الذي مات فيه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : «اخرجوا افصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم». فقالوا : ومن هو..؟

ـ فقال : النجاشي. فخرج رسول الله ﷺ . إلى البقيع . وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه ، وكبر أربع تكبيرات ،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٦١ ، والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٧١ ، ورواه الإمام البخاري في باب هجرة الحبشة ، والروض الأنف جـ ٣ ص ٢٤٧.

(٢) الشيوم : الآمنون.

(٣) الدبر : الجبل.

(٤) سيرة ابن هشام ، والبداية والنهاية والروض الأنف جـ ٣ ص ٢٤٨ ، والروض الأنف جـ ٣ ص ٢٦٢.

واستغفر له ، وقال لأصحابه : استغفروا له[1] . فقال المنافقون : انظروا إلى هذا يصلي على عِلْج حبشي نصراني ، لم يره قط ، وليس على دينه . ! فأنزل الله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾[2] .

رحم الله النجاشي رحمة واسعة بمقدار ما قدم من خير لهؤلاء المسلمين الأول الذين فروا بدينهم إلى أرض الله...

* * *

(1) الروض الأنف جـ ٣ ص ٢٦٢ .

(2) سورة آل عمران آية رقم ١٩٩ .

أسباب نزول الآيات

قال ابن عباس رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ بمكة يخاف على أصحابه من المشركين.

فبعث جعفر بن أبي طالب وابن مسعود في رهط من أصحابه إلى النجاشي وقال : «إنه ملك صالح ، لا يَظلم ولا يُظلم عنده أحد ، فاخرجوا اليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً»[1] .

فلما وردوا عليه أكرمهم وقال لهم : تعرفون شيئاً مما أنزل عليكم ..؟ قالوا : نعم. قال : اقرؤوا. فقرؤوا وحوله القسيسون والرهبان. فكلما قرؤوا آية من آي القرآن انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق.

وعن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وغيرهما عن الليث قال : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري. وكتب معه كتاباً إلى النجاشي. فقدم عليه ، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه . فأرسل النجاشي الى الرهبان والقسيسين فجمعهم ثم أمر جعفراً أن يقرأ عليهم القرآن. فقرأ جعفر سورة مريم. فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً. وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً. وبراً بوالدتي ولم

(١) أسباب نزول القرآن للامام الواحدي ص ١٩٦ ، ويراجع الدر المنثور جـ ٢ ص ٣٠٣، وتفسير الطبري جـ ١٠ ص ٤٩٩.

يجعلني جباراً شقياً. والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً. ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾[1] . فاضت أعينهم من الدمع .

وقال آخرون : قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشة هو وأصحابه ومعهم سبعون رجلاً ، بعثهم النجاشي وفداً إلى رسول الله ﷺ عليهم ثياب الصوف ، اثنان وستون من الحبشة ، وثمانية من أهل الشام ، وهم :

بحيرا الراهب . وأبرهة . وإدريس . وأشرف . وتمام . وقثيم . ودريد . وأيمن[2] . فقرأ عليهم رسول الله ﷺ — سورة يس — إلى آخرها فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى ؛ فأنزل الله تعالى :

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾[3] .

---

(1) سورة مريم من آية ٢٩ إلى ٣٤.

(2) يراجع تفسير الطبري جـ ١ ص ٥٠١، والدر المنثور جـ ٢ ص ٣٠٣ والقرطبي جـ ٦ ص ٢٥٦.

(3) سورة المائدة آية رقم ٨٢ — ٨٦.

تذييل . . .

«اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي من سبّكم غرم». بهذه الكلمات الصادقة المؤمنة الحازمة كان ردّ النجاشي على بطارقته ووفد قريش.

إن الدين لا يتجزأ لأنه من عند الله الواحد الأحد، فمحال أن يختلف أو يتباين وإنما الاختلاف في النفس البشرية إذا اتبعت الهوى أو انحرفت عن الطريق السوي، ولقد كان موقف النجاشي من المؤمنين الفارين بدينهم موقف الرجل الذي رأى في هؤلاء الأفراد أخوة له في الدين وأخوة له في البشرية وأخوة له في التمتع بهذا الكون الكبير الذي لم يخلقه الله لواحد من البشر وإنما للناس كافة.

«وسخر لكم ما في الأرض جميعاً».

وكان موقف هؤلاء الفارين بدينهم موقف الرجال الذين ملأ الإيمان كل قلوبهم، فعندما دعوا الى النجاشي وضعوا بين يديه حقيقة ما هم عليه من عبادة الواحد الأحد.

وفي المرة الثانية لم يجبنوا أن يقولوا ما قاله القرآن في عيسى بن مريم وهم يعلمون أن ذلك قد يغضب بطارقة الملك وقد يغضب الملك نفسه وقد يؤدّي هذا إلى طردهم من بلاده. ويعودون مرة أخرى إلى عذاب قريش والتنكيل بهم، ولكن كل ذلك لم يفت في عضدهم أو يمنعهم من أن يقولوا كلمة حق لأن المسلم لا يكذب.

والمؤمن لا يخاف، ورجال الله لا يجبنون.

بمدرسة الـــنبي نما شبـــاب عبـاقرة لهم في الخلد ذكر
صـحائفهم على الأجيال تتلى وليس وراء ما صنعوه فخر
سجود ركـع عـنـد المصلى وحين الحرب أبـطال تكـر
وقـفت أسائل التاريخ عنهم فطـالعـنــي من الأمجاد سفر

عَبدُ اللهِ بن سَلام

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾

[سورة البقرة الآية (١٤٦)]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾

[سورة البقرة الآية (٢٠٨)]

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

[سورة المائدة الآية (٥٥)]

أقوال العلماء في نزول الآيات

في الآية الأولى قال صاحب كتاب الدر المنثور.

نزلت في عبد الله بن سلام   جـ ١ ص ١٤٨.

وقاله أيضاً الإمام ابن كثير   جـ ١ ص ١٩٤.

وقاله الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ص ٤٠.

وفي الآية الثانية قال ابن عباس رضي الله عنه:

نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه.

وقاله أيضاً الإمام ابن كثير في تفسيره جـ ١ ص ٢٤٨.

وقاله أيضاً الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ص ٥٩.

وفي الآية الثالثة. قال ابن عباس نزلت في عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه.

ونقله صاحب الدر المنثور جـ ٢ ص ٢٩٣.

وقاله أيضاً الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ص ١٩٢.

فمن هو عبد الله بن سلام؟..

عبد الله بن سلام

رضي الله عنه

كان حبراً من أحبار اليهود وعالماً من علمائهم، يكنى أبا يوسف، وهو من ولد يوسف بن يعقوب صلّى الله عليهما، وكان حليفاً للأنصار، كان اسمه في الجاهلية الحصين، فلما أسلم سمّاه رسول الله ﷺ عبد الله[1].

وكان يعلم كما تعلم اليهود أن نبياً سيبعث في آخر الزمان، وكانوا يترقبون بعثته وينتظرون ظهوره. وتسامعت الجزيرة العربية كلها بالرسول ﷺ الذي يرفض الأصنام ويدعو إلى عبادة الواحد الأحد، ومنذ ذلك التاريخ وابن سلام يتنسم أخبار محمد ﷺ ويترقب وصوله إلى يثرب مع المتلهفين، بعد أن جاءتهم الأخبار تترى بقرب وصوله إلى المدينة، ويصور لنا ابن سلام قصة إسلامه فيقول: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف[2] له، فكنت مُسّراً لذلك صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ فلما نزل في بني عمرو بن عوف. أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرتُ. فقالت لي

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ٦٢١.

(٢) نتوكف: نترقب ونتوقع.

عمتي ، حين سمعت تكبيري : خيبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت . فقلت لها : أي عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به . فقالت : أي ابن أخي ، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ..؟

فقلت لها : نعم . فقالت : فذاك إذاً . قال : ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ ، وتأملت وجهه فعلمت أنه ليس بوجه كذاب . وكان أول شيء سمعته منه : «أيها الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام»[1] .

فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتي ، فأمرتهم فأسلموا . قال : وكتمت إسلامي من اليهود ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له يا رسول الله ، إن يهود قوم بُهْت وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك ، وتغيبني عنهم ، ثم تسألهم عني ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم ، قبل أن يعلموا بإسلامي ، فإنهم إن علموا به بهتوني[2] وعابوني . قال : فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته ، ودخلوا عليه ، فكلموه وساءلوه ثم قال لهم : «أي رجل الحصين[3] بن سلام فيكم ..؟» . قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحَبْرنا وعالمنا . فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم . فقلت لهم : يا معشر اليهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله ﷺ تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فإني أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه . فقالوا : كذبت ثم وقعوا بي . فقلت لرسول الله ﷺ إنهم قوم

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٣٩ .

(٢) وبهته بهتاً وبهتاناً قذفه بالباطل ، وفي حديث للغيبة وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته المعجم الوسيط جـ ١ .

(٣) هكذا كان يسمى كما سبق ذلك .

بهت ، أهل غدر وكذب وفجور ، ثم أظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي ، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها »[1] .

وشهد رسول الله ﷺ لعبد الله بن سلام بالجنة ، روى ابن وهب وجماعة عن مالك بن أنس عن أبي النضر ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلّا لعبد الله بن سلام[2] .

وكان عالماً فاضلاً أريباً صاحب حنكة وتجارب ، عن يزيد بن عميرة السكسكي وكان تلميذاً لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، أن معاذاً قبل موته أمره أن يطلب العلم من أربعة :

عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، وعُويمر (أبي الدرداء)[3] .

وشهد مع عمر رضي الله عنه فتح بيت المقدس والجابية .

وتوفي بالمدينة في خلافة معاوية سنة ثلاث وأربعين وله في الصحيحين «٢٥» حديثاً .

رحمه الله تعالى رحمة واسعة وجعل الجنة مثواه .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٣٨ — ١٣٩ .

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ٩٢٢ تحقيق علي محمد البجاوي .

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٣٥٢ .

أسباب نزول الآيات

كان عبد الله بن سلام وأصحابه من أهل الكتاب يعرفون رسول الله ﷺ يعرفونه بنعته ، ويعرفونه بصفته وتوقيت مبعثه ، يعرفون ذلك عن طرق كتبهم التي كانت بين أيديهم ، يعرفونه كما يعرف أحدهم ولده إذا رآه مع الغلمان . قال عبد الله ابن سلام رضي الله عنه : لأنا كنت أشد معرفة برسول الله ﷺ مني بابني . فقال له عمر بن الخطاب رضي عنه : وكيف ذاك يا ابن سلام ..؟

قال : لأني أشهد أن محمداً رسول الله حقاً يقيناً ، وأنا لا أشهد بذلك على ابني ، لأني لا أدري ما أحدث النساء بعدنا . فقال عمر رضي الله عنه : وفقك الله يا ابن سلام[1] .

فنزل قوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾[2] .

ودخل عبد الله بن سلام وأصحابه في الإسلام وآمنوا بما جاء به رسول الله ﷺ ولكنهم مع هذا كانوا لا يقتصرون على القرآن الكريم بل يضيفون إليه شرائع موسى ، فعظموا السبت ، وكرهوا لحمان الإبل وألبانها بعدما أسلموا ، فأنكر عليهم المسلمون ذلك . لأن القرآن الكريم يجابههم بالحقيقة ﴿كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل إلّا

---

(١) راجع الحديث مفصلاً في الدر المنثور جـ ١ ص ١٤٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٤٦ .

ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾[1] .

وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام وتقول الروايات أنه مرض مرضاً شديداً فنذر لله لئن عافاه ليمتنعن — تطوعاً — عن لحوم الإبل وألبانها وكانت أحب شيء إلى نفسه ، فقبل الله منه نذره . وجرت سنة بني إسرائيل على اتباع أبيهم في تحريم ما حرم ، كذلك حرم الله على بني اسرائيل مطاعم أخرى عقوبة لهم على معصيات ارتكبوها وأشير إلى هذه المحرمات في آية الأنعام : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾[2] .

وكانت قبل هذا التحريم حلالاً لبني إسرائيل . فما الداعي للتحريم بعد الدخول في الإسلام . . ؟ فقالوا : إنا نقوى على هذا وهذا ، وقالوا للنبي ﷺ : إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنعمل بها[3] فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾[4] .

أما الآية الثالثة : فتذكر الروايات أنه بعد إسلام عبد الله بن سلام ومجموعة من رجالات اليهود فرضت عليهم اليهود مقاطعة ، وأخذوا لا يحدثونهم ولا يجالسونهم فشق ذلك عليهم . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

« أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه قد آمنوا فقالوا يا رسول الله إن منازلنا بعيدة وليس لنا مجلس ولا متحدث ، وإن قومنا لما رأونا آمنا بالله ورسوله وصدقناه — رفضوا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا . ولا نستطيع

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٩٣ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤٦ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٤٨ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٠٨ .

مجالسة أصحابك لبعد المنازل. وشكى ما يلقى من اليهود[1]. فنزلت هذه الآية فقرأها عليه رسول الله ﷺ:

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا..﴾[2] فقال: رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء. والله أعلم.

* * *

---

(١) راجع أسباب نزول القرآن للواحدي ص ١٩٢.

(٢) سورة المائدة آية رقم ٥٥.

تذييل...

كانت الدنيا في حاجة إلى منقذ ينقذها مما تردت فيه، ومن الانحرافات التي أصيبت بها الإنسانية في فترة من فترات التاريخ. انحرافات في العقيدة. وانحرافات في التصور عن حقيقة الكون والإنسان. وكان أهل الديانات السابقة يترقبون ظهور نبي جديد يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. وتتحدث به كتبهم وتصور أوصاف هذا النبي الجديد.

وكان أحبارهم ورهبانهم يتحدثون بقرب مبعثه. كانوا يفعلون ذلك ويتحدثون به في مجالسهم الخاصة والعامة.

وعندما بعث الرسول ﷺ كان اليهود أول من وقف في طريق الدعوة الجديدة. وقفوا بالكلمة يشككون ويروجون الأكاذيب. ووقفوا بالسلاح يحاربون ويصدون عن سبيل الله. وسلكوا سبيل الدس والخديعة فألبوا قريشاً على الرسول ﷺ ودعوا العرب قاطبة لكي تقف أمام هذا النور الجديد.

أرادوا أن يطفئوا نور الله وأراد الله غير ذلك فأكمل دينه ونصر رسوله وجعل من أتباع هذا الدين الجديد سادة وقادة: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾[1]. واستجابت بعض النفوس المؤمنة من

---

(١) سورة القصص آية رقم ٥.

رجالات الكتب السماوية فآمنوا بدعوة الرسول لأنهم أحسوا أن الأديان السماوية وهذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ تخرج من مشكاة واحدة. فهل توقف اليهود عن كيدهم وهل خففت الصليبية من حقدها على الإسلام والمسلمين؟ اللهم لا. فلا زالت المعركة ضارية بين أتباع الحق وهواة الضلال ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[1].

* * *

---

(١) سورة الحج آية رقم ٤٠.

زَيد بن حَارثة

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ
أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا
ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا
قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا
وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة الأحزاب الآية (٣٧)]

أقوال العلماء في نزول الآيات

اتفق العلماء على أن المقصود بهذه الآيات زيد بن حارثة رضي الله عنه :

قال ذلك : صاحب تفسير البغوي جـ **٥** ص **١٩٠**.

وقاله الإمام القرطبي جـ **١٤** ص **١١٨**.

وقاله صاحب الدر المنثور جـ **٥** ص **١٨١ — ١٨٢**.

وصاحب كتاب «أسباب نزول القرآن» الإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ص **٣٧٠**.

فمن هو زيد بن حارثة..؟

زيد بن حارثة

رضي الله عنه

كان يسمى ابن محمد ﷺ. واستمر ذلك حتى نزول قول الله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ (١).

وكان يلقب حب رسول الله ﷺ.

وقال له الرسول ﷺ في أحد المواقف:

«أنت أخونا ومولانا» (٢).

فكيف حظي هذا الرجل بهذه الدرجة من الحب، حب رسول الله عليه السلام؟! حتى قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما بعث رسول الله ﷺ زيد ابن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم، ولو بقي حياً بعد الرسول لاستخلفه» (٣) وما هي المؤهلات الخلقية والجسدية والفكرية، التي رشحته لهذه القمم العالية؟ نعتقد أن لذلك قصة ترتبط بحياة زيد، ولعلّ الأقدار أرادت أن تنتشله من ضباب الجاهلية، التي كانت تعيش فيها قبيلته خاصةً، والجزيرة العربية، والعالم بأسره عامة، لتجعله قريباً من البقعة المباركة التي اختارها الله سبحانه وتعالى ليهبط عليها

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٥.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٨٧.

(٣) المصدر السابق.

وحيه ، فيقوم بدوره الذي أعدّ له من قبل خالقه ، في حمل رسالة الله إلى البشرية قاطبة بقدر ما يتحمل ويتسع لذلك أجله. ولنبدأ في ذكر هذه القصة :

تساقطت دمعة على خد حارثة بن شرحبيل ، وهو يودع زوجته ، الذاهبة إلى أهلها في رحلة قصيرة ، مصطحبة معها ابنها زيد. وأحسَّ الرجل غصة في حلقه ، وانقباضاً في قلبه لا يعرف لها سبباً .. ! ! فهذه هي المرة الأولى التي تفارقه فيها أم زيد في مثل هذه الرحلة. وهذه هي المرة الأولى أيضاً التي سيحرم فيها من ضحكات الصبي الصغير ومداعباته التي يستقبله بها إذا أصبح ، ويستقبله بها إذا أمسى. ولكن ما لبث أن أخذ في تهدئة نفسه ، والتخفيف من روعه ، والتذرع بالصبر ، بأن هذه الرحلة لن تطول وما هي إلا أيام معدودة ، يعود بعدها الأنس والسرور بعودة هذه القافلة الصغيرة إلى بيته.

وتمر الأيام بطيئة متثاقلة على حارثة ، وفي إحدى الأمسيات الحزينة عادت الزوجة بمفردها إلى عش زوجها ، أما ابنها فلم يكن معها. فقد أغارت إحدى القبائل على أهلها — كما كانت عادة العرب في الجاهلية — وكان ابنها أحد الغنائم التي ظفرت بها القبيلة المغيرة[1] . وتصدع قلب حارثة من هول ما سمع ، وركبته الهموم والأحزان ، وغاصت الابتسامة التي كانت لا تفارق شفتيه. وأخذ يهمهم بينه وبين نفسه أين زيد .. ؟ وما مصيره .. ؟ وفي أي البلاد البعيدة ألقى رحله .. ؟ وبكاه بدموع غزار ، ورددت البطحاء والوديان أحزان أشعاره التي كان ينفثها من بين حنايا ضلوعه وكبده.

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدري وإني لسائل ... أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل
ويا ليت شعري هل لك الدهر أوبة ... فحسبي من الدنيا رجوعك لي بَجَلْ
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفل

---

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٥٤٢.

وإن هبت الأرواح هيجن ذكره فيا طول ما حزني عليه وما وجل
سأعمل نص العيش في الأرض جاهداً ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي عليَّ منيتي فكل امرىء فانٍ وإن غره الأمل[1]

أما زيد فقد خيل إليه أنه قد حرم الصدر الحنون إلى الأبد، هكذا خطفته الأيدي الغليظة، دون مراعاة لمشاعره، أو عاطفة أمه وأبيه. وسيق إلى سوق عكاظ حيث يباع الرقيق، فباعه هؤلاء الذين خطفوه إلى حكيم بن حزام بن خويلد مع جماعة من الرقيق. وفي يوم من الأيام ذهبت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها لزيارة حكيم بن حزام — وهي يومئذ عند رسول الله ﷺ — فأعجبها منظر هؤلاء الغلمان، ولعل حكيم لحظ رغبة عمته. فقال لها: اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك[2]. وعندما ألقت السيدة خديجة نظرها على هؤلاء الأطفال مرة أخرى، تعلق نظرها بطفل بعينه، لقد كان قصير آدَم — أي أسمر — شديد الأُدْمَة، في أنفه فَطَس. ولم يكن هذا الطفل سوى زيد بن حارثة الذي رأت في ملامحه، صفاء السريرة، ونقاء القلب، وتوقد الفؤاد فاختارته. ورآه رسول الله ﷺ أعرف الناس بالرجال فطلب من زوجه أن تهبه له.

فأجابته الى طلبه. وفرح الرسول ﷺ بزيد، وأحاطه بعنايته، ورعاه برعايته، وأعتقه[3].

واستراح زيد من عناء هذه الرحلة الطويلة، ووجد في قلب الرسول ﷺ وفي حدب زوجه ما عوضه حنان فقد الأم والأب.

ولكن هل نسي أباه وأمه؟ وهل غفل قلبه عن ذكرهما؟!

الحقيقة أن ذلك لم يكن في مقدوره.

---

(١) سيرة ابن هشام والروض الأنف جـ ٣ ص ١٠.

(٢) سيرة ابن هشام والروض الأنف جـ ٣ ص ٩ والاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٥٤٢.

(٣) المصدر السابق، والإصابة ترجمة زيد بن حارثة.

فكان يخرج في موسم الحج علّه يجد أحداً من قبيلة أبيه ليطمئن هذين البعيدين عليه، وليخبرهما أنه يعيش في خير حال، وفي أحسن جوار.

وفي أحد المواسم هداه الله إلى بعض الحجيج من قبيلة بني كلاب، فحمّلهم رسالة إلى أبيه وفيها هذه الأبيات:

أحن إلى قومي وإن كنت نائياً فإني قعيد البيت عند المشاعر
فكفوا من الوجد الذي قد شجاكم ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر
فإني بحمد الله في خير أسرة كرام معد كابراً بعد كابر[1]

وانطلق الكلبيون بهذه الأبيات، يزفون إلى أبيه البشرى، ويقدمون بين يديه دليل وجوده، ووصفوا له موضعه، وأعلموه اسم مولاه. فخرج الأب يغذ السير إلى مكة، واصطحب معه أخاه كعب، ليفدي ابنه ويعودان به الى القبيلة بعد هذا الأسر الذي طال. وقدما مكة، والتقيا بالنبي ﷺ وقال له حارثة: «يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك[2] فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه[3].

قال النبي ﷺ: ومن هو..؟

قالا: زيد بن حارثة. فقال الرسول ﷺ فهلا غير ذلك..؟ قالا: وما هو..؟ قال: أدعوه فأخيره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحد. قالا: قد زدتنا على النصف وأحسنت..[4] فدعاه

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٥٤٤، والروض الأنف جـ ٣ ص ١٧.

(٢) في رواية ابننا عبدك.

(٣) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٧.

(٤) الروض الأنف جـ ٣ ص ١٨ والاستيعاب جـ ٢ ص ٥٤٥، وفي الإصابة: فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء.

فقال : هل تعرف هؤلاء..؟ قال : نعم. قال : من هذا..؟ قال زيد : هذا أبي وهذا عمي. قال : فأنا من قد علمت ورأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما. قال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني مكان الأب والعم[1]. فقالا : ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك، وأهل بيتك..؟

قال : نعم قد رأيت من هذا الرجل شيئاً، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً[2].

إنّها ليست عبودية لمحمد، ولكنها الحرية من عبودية الشرك، ومن عبودية الأصنام، ومن عبودية الأوهام، إنه محمد منقذ البشرية، والأمين — كما كانت تدعوه قريش — الأمين على أموالهم والأمين على أعراضهم، وهو الأب الرحيم الودود لأبنائهم.

ولهذا كان رأي زيد البقاء مع محمد، حتى ولو كان في ذلك حرمان من حنان الأب، ومن دفء الأم.

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجر وقال : «يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه»[3]. عند ذلك طابت نفس الوالد والعم فانصرفا راضيين.

ومنذ ذلك التاريخ دعي زيد بن محمد ﷺ.

وفي يوم من الأيام لم يعرف له التاريخ مثيلاً نزل قول الله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم ﴾[4].

---

(1) الإصابة في معرفة الصحابة وفي الروض الأنف : بل أقيم معك جـ ٣ ص ١٨.

(2) المصدر السابق.

(3) الروض الأنف جـ ٣ ص ١٨ والاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٥٤٥.

(4) سورة العلق الآيات من ١ — ٤.

وفتر الوحي مدة ثم نزل قوله تعالى: ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر ﴾[1]. وأخذ رسول الله ﷺ يدعو إلى دين الله، وإلى كلمة التوحيد، ونبذ الأصنام والشرك. وكان زيد ــ كما تقول بعض الروايات ــ أول من أسلم من الموالي[2].

وكان كل يوم يتقرب إلى قلب الرسول ﷺ بخصاله العالية، وأخلاقه النادرة.

وأراد الرسول ﷺ أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة في الجماعة المسلمة، فيرد الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلّا بالتقوى وعمل صالح. وكان الموالي ــ وهم الرقيق المحرر ــ طبقة أدنى من طبقة السادة، ومن هؤلاء كان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، فأراد رسول الله أن يحقق المساواة الكاملة بتزويجه شريفة من بني هاشم قريبة رسول الله ﷺ، زينب بنت جحش، ليسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه في أسرته. وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف، بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله ﷺ تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة حسنة وتسير البشرية كلها على هداه في هذا الطريق. وانطلق ليخطب على فتاة ــ زيد بن حارثة ــ رضي الله عنه. فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها. فخطبها فقالت: لست بناكحته. قال رسول الله ﷺ: «بل فانكحيه»[3].

قالت: يا رسول الله، أؤامر في نفسي..؟ فبينما هما يتحدثان، أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ:

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾[4]. عندها قالت زينب

---

(١) سورة المدثر الآيات من ١ ــ ٤.

(٢) الروض الأنف جـ ٣ ص ٩ وسيرة ابن هشام.

(٣) رواه ابن كثير بسنده عن العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٣٦.

رضي الله عنها : «قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً ..؟» قال رسول الله ﷺ : نعم[1].

قالت : إذن لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي[2].

ويرسله الرسول ﷺ إلى مجموعة من القبائل أميراً على السرايا ، أرسله إلى بني ثعلبة في سرية ذات الطرف ، وأرسله أميراً على سرية العيص عندما بلغ رسول الله ﷺ أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام ليعترض طريق هذه القافلة . وأرسله أميراً على سرية «حسمى» في خمسمائة رجل إلى قبيلة جذام فعاد ومعه ألف بعير ومن الشاة خمسة آلاف شاة ، ومن السبي مائة من النساء والصبيان ، ولكنهم أسلموا ، فرد رسول الله ﷺ ما أخذه منهم[3] . فهو الفارس المغوار ، وهو المؤمن الصابر . الملتزم بأمر القائد ، والمتبع لما يلقى إليه . حتى كانت غزوة مؤتة . ووقف الرسول ﷺ يودع الجيش المسافر إلى مشارف الروم وقال : «عليكم زيد بن حارثة . فإن أصيب زيد ، فجعفر بن أبي طالب . فإن أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة» فوثب جعفر فقال : يا رسول الله ، ما كنت أرغب أن تستعمل عليَّ زيد . فقال ﷺ : امضه فإنك لا تدري أي ذلك خير[4]» .

ولكأنما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقرأ غيب المعركة المقبلة حين وضع أمراء الجيش على هذا الترتيب : زيد ، فجعفر ، فابن رواحة .. فقد لقوا ربهم جميعاً وفق هذا الترتيب أيضاً . ولم يكد المسلمون يطالعون جيش الروم الذي حزروه بمائتي الف مقاتل حتى أذهلهم العدد الذي لم يكن لهم في حساب . فأقاموا ليلتين ينظرون في أمرهم . وقالوا نكتب لرسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا . فقال : عبد الله بن رواحة :

---

(١) المصدر السابق وقال مجاهد وقتادة ومقاتل ابن حيان : نزلت في زينب بنت جحش.

(٢) ذكره المرحوم سيد قطب في تفسيره لسورة الأحزاب جـ ٢٢ ص ١٨ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ .

(٤) المصدر السابق .

«والله يا قوم إن الذي تكرهون للذي خرجتم له ، تطلبون الشهادة ، وما نقاتل العدو بعدة ، ولا قوة ، ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين ، إما ظهور ، وإما شهادة»[1] .

فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة فمضى الناس.

ولما أصيب القوم قال رسول الله ﷺ :

«أخذ زيد الراية فقاتل حتى قتل شهيداً ، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً . ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان في عبد الله بعض ما يكرهون. ثم قال : أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حيث قتل شهيداً»[2] .

وعندما جاء خبر زيد جهشت بنت زيد في وجه رسول الله ﷺ حتى انتحب[3] .

فقال له سعد بن عبادة : يا رسول الله ما هذا ..؟ قال : «هذا شوق الحبيب إلى حبيبه»[4] .

رحمه الله رحمة واسعة ، وجعل الجنة مثواه بمقدار ما قدم من خير للإسلام والمسلمين.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم جـ ١ ص ١١٨.

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١١٩.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد.

(٤) طبقات ابن سعد جـ ٢.

أسباب نزول الآيات

كيف تم زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها؟ وما الظروف والملابسات التي أحاطت بالزواج حتى باركته السماء وأنزل فيه رب العزة قرآناً يتلى..؟

تقول أوثق المصادر من كتب السير والتفاسير وكتب الحديث: جاء رسول الله ﷺ بيت زيد بن حارثة، وكان زيد قد افتقده رسول الله ﷺ فترة من الزمن. فقال: أين زيد..؟ فقامت إليه زينب بنت جحش زوجته فأعرض عنها رسول الله ﷺ. فقالت: ليس هو ها هنا يا رسول الله، فادخل بأبي أنت وأمي[1]. فأبى رسول الله ﷺ أن يدخل، وإنما عجلت زينب أن تلبس إذ قيل لها: رسول الله على الباب فوثبت عجلة، فأعجبت رسول الله ﷺ فولى وهو يهمهم بشيء لا يكاد يفهم: إلّا أنه أعلن: سبحان الله العظيم، سبحان الله مصرف القلوب[2]. فلما جاء زيد إلى منزله، فأخبرته امرأته أن رسول الله ﷺ أتى منزله فقال زيد: ألا قلت له: ادخل..؟ فقالت: قد عرضت عليه ذلك فأبى.

قال: هل سمعته يقول شيئاً..؟ قالت: سمعته يقول حين ولى: سبحان الله العظيم، سبحان الله مصرف القلوب. فخرج زيد حتى أتى رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤.

(٢) المصدر السابق.

يا رسول الله ، بلغني أنك جئت منزلي ، فهلا دخلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله . ثم قال : لعلّ زينب أعجبتك ، فأفارقها .. فقال رسول الله ﷺ . «أمسك عليك زوجك» . فما استطاع زيد إليها سبيلاً بعد ذلك اليوم ، فكان يأتي رسول الله ﷺ فيخبره فيقول له رسول الله ﷺ : «أمسك عليك زوجك» . ولكن زيد فارقها واعتزلها ، وحلّت لرسول الله ﷺ .

ويقول الإمام أحمد رضي عنه راوياً عن ثابت عن أنس رضي الله عنهما :

«لما انقضت عدة زينب قال النبي ﷺ لزيد بن حارثة : «اذهب فاذكرها عليَّ» . فانطلق حتى أتاها — وهي تخمر عجينها — قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، أن رسول الله ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهري ، ونكصت على عقبي وقلت : يا زينب ، أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي عز وجل ثم قامت إلى مسجدها ، ونزل قول الله تعالى[1] : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ﴾[2] .

فقال الرسول ﷺ من يذهب إلى زينب يبشرها ، يقول : إن الله زوجنيها .. ؟ . قالت السيدة عائشة : رضي الله عنها : فأخذني ما قرب وما بعد ، لما يبلغنا من جمالها ، وأخرى هي أعظم الأمور وأشرفها ، ما صنع الله لها زواجها[3] . قالت عائشة : فخرجت سلمى خادم رسول الله ﷺ تخبرها بذلك فأعطتها أوضاحاً[4] لها . قال أنس بن مالك رضي الله عنه : ولقد رأيتنا حين دخل عليها رسول الله ﷺ

---

(١) رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم والنسائي من طريق سليمان بن المغيرة.

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٣٧.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير.

(٤) نوع من الحلي يتزين به النساء يصنع من الفضة.

أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس ، وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن : يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك.. ؟

يقول أنس فما أدري أنا أخبرته والقوم قد خرجوا أو أخبر.. ؟ فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزلت آية الحجاب .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلّا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق ، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٥٣.

تذييل...

ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني مكان الأب والعم..

بهذه الكلمات الصادقة، حسم زيد بن حارثة القضية بين أبيه وعمه وبين رسول الله ﷺ. لقد ترك له حرية الاختيار فاختار. اختار الرسول ﷺ، وفضّل أن يعيش معه مضحياً بأبيه وأمه.

ماذا فعل الذّين بهؤلاء الرجال..؟ وماذا قدم لهم رسول الله ﷺ حتى أحبوه هذا الحب الكبير وضحّوا في سبيله بالأهل والولد والمال..؟

قال عروة بن مسعود الثقفي لأصحابه بعدما رجع من الحديبية: «أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً، ... إذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له»[1].

ليس الحب فقط، وليس التعظيم والاحترام لرسول الله ﷺ، ولكن هناك ما هو أعمق من ذلك كله إنه بذل الأرواح رخيصة فداء لرسول البشرية ﷺ.

«رفعوا خبيباً رضي الله عنه على الخشبة ونادوه يناشدونه أتحب أن محمداً

---

(1) زاد المعاد جـ ٣ ص ١٢٥.

مكانك..؟ قال : لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قلمه فضحكوا منه»[1].

«وترس أبو دجانة يوم أحد على رسول الله ﷺ بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك»[2] فعل ذلك حتى ينجو رسول الله ﷺ.

وخرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ. فقالت : ما فعل رسول الله ﷺ...؟ قالوا : خيراً هو بحمد الله كما تحبين. قالت أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت : «كل مصيبة بعدكِ جلل»[3].

وقدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة زوج الرسول ﷺ فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه فقال : يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني..؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس»[4]. هكذا فعلت الفتاة العربية مع أبيها، جابهته بكلمة حق وخرقت القاعدة العربية التي تقول : «كل فتاة بأبيها معجبة» وصفعته بحقيقته ﴿إنما المشركون نجس﴾[5].

وشيء آخر أثير في المجتمع الإسلامي عند زواج الرسول ﷺ من مطلقة متبناه زيد بن حارثة، ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يبطل عادة جاهلية، وهو نظام التبني الذي كان موجوداً بعد بعثة الرسول ﷺ. ومحرم على الرجل أن يتزوج مطلقة متبناه، ولم يكن غير الرسول ﷺ يستطيع أن يقوم بإبطال تلك العادة عملياً بعد أن أبطل القرآن عادة التبني بقوله :

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٦٣.
(٢) زاد المعاد جـ ٣ ص ١٣٦.
(٣) رواه ابن اسحاق في باب المغازي، ورواه البيهقي مرسلاً.
(٤) سيرة ابن هشام.
(٥) سورة التوبة آية رقم ٢٨.

﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾[1] ، وألهم الله نبيه صلّى الله عليه وسلم أن زيداً سيطلق زينب وأنه هو سيتزوجها للحكمة التي قضى الله بها ، وكانت العلاقات بين زينب وزيد قد اضطربت ، وعادت توحي بأن حياتهما لن تستقيم طويلاً. ولم تمر المسألة سهلة فلقد فوجىء بها المجتمع الاسلامي كله ، كما انطلقت ألسنة المنافقين تقول : تزوج حليلة ابنه. ولما كانت المسألة مسألة تقرير مبدأ جديد فقد مضى القرآن يؤكدها ، ويزيل عنصر الغرابة فيها ويردها إلى أصولها البسيطة المنطقية التاريخية. ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾[2]. فقد فرض له أن يتزوج زينب ، وأن يبطل عادة العرب في تحريم أزواج الأدعياء ، وإذن فلا حرج في هذا الأمر وليس النبي ﷺ فيه بدعاً من الرسل. ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾[3]. والله أعلم.

* * *

(1) سورة الأحزاب آية رقم ٤ و٥.

(2) سورة الأحزاب آية رقم ٣٨.

(3) سورة الأحزاب آية رقم ٣٨.

سلمان الفارسي

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا
فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة البقرة آية : ٦٢]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

قال الإمام الطبري في تفسيره «نزلت في سلمان الفارسي» جـ ٢ ص ١٥٠ — ١٥٤.

وقاله صاحب الدر المنثور جـ ١ ص ٧٣ — ٧٤.

وقاله الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي صاحب أسباب نزول القرآن ص ٢٣.

فمن هو سلمان الفارسي..؟

سلمَان الفَارسي
رضي الله عنه

ابن الاسلام: كما كان يعبر عن نفسه.

ومن آل البيت كما قال الرسول ﷺ «سلمان منا آل البيت»[1] وكان يعرف بين الصحابة: بسلمان الخير.

وقال عنه كعب الأحبار: «سلمان حشي علماً وحكمة[2]».

وسئل الإمام علي كرم الله وجهه عن سلمان فقال: «علم العلم الأول الآخر، بحر لا ينزف، وهو منا آل البيت»[3]، وهو من «رام هرمز» في بلاد فارس، البلاد الغنية بكنوزها، الجميلة بحدائقها وبساتينها، والتي بشر رسول الله ﷺ أصحابه بفتحها.

وفي قرية «جي» كانت ولادته.

وعلى مناظر الطبيعة الخلابة فيها فتح عينيه، وفوق سندسها الأخضر الذي يغمر أرضها كانت أولى خطواته.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٨٣.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ٦٣٤.

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم جـ ١ ص ١٨٨.

أما عن أمه فيصمت التاريخ فلا يذكرها في قليل أو كثير، وأما والده فهو «دهقان قرية جي» وكان خبيراً بشئون الزراعة — عارفاً بخصائص التربة، الأمر الذي جعله يملك الضياع الغنية بالغلال، والبساتين الفواحة بالأرج.

ورزق بسلمان بعد فترة انتظار وترقب، فأحبه كل الحب وآثره على نفسه وماله وهيأ له حياة رخية رغدة، ووهبه خادماً للنار «معبودتهم المقدسة» والتي كانت تشتعل في كل بيت ولا تترك تخبو قط.

وقام سلمان بواجبه ازاء النار، يقدم لها وقودها، ويتأمل لهيبها ويتسمع الى زمجرتها.

وفي أحد الأيام شغل الوالد ببعض شأنه، فلم يمر على ضياعه ولم يتفقد بساتينه فطلب من ابنه القيام بتلك المهمة، وأوصاه أن يعود مسرعاً ولا يبطيء، ليطمئن قلبه، ولا ينشغل فؤاده، وكانت هذه هي المرة الأولى التي سمح له فيها بمغادرة البيت بمفرده والاختلاط بالحياة والأحياء.

يقول سلمان: «كان لأبي ضيعة عظيمة فشغل في بنيان له يوماً فقال لي: يا بني إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب اليها فاطّلعها وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إليّ من ضيعتي وشغلتني عن كل شيء من أمري»[1].

وخرج إلى الحياة، والتقى بوجوه الناس، وسار يحث خطاه نحو ضيعة أبيه، وفي الطريق وصلت الى سمعه أصوات غريبة، لم يألف سماعها من قبل، أصوات تراتيل وتسابيح، وأجراس تصلصل، ودفعته رغبته في التطلع أن يعرف مبعث هذه الأصوات، والتي لم تكن سوى إحدى كنائس النصارى المنتشرة في تلك البلاد.

يقول سلمان: فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون. فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن

(١) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٧٦.

عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس. وتركت ضيعة أبي فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين..؟[1]

وهكذا كل النفوس الصافية الباحثة عن الحق. إنّها تترقب أول شعاع تلتقي به فتتبعه وتتعلق به حتى تصل إلى مستودع النور، لقد كانت هذه الكلمات التي سمعها من هؤلاء المصلين الضياء الذي فتح عينيه، وأضاء قلبه، فعرف أن ما عليه والده وقومه ليس هو الحق الذي يتبع، وليس هو الدين الذي يرضاه الله لعباده. وفي المساء عاد إلى والده بغير الوجه الذي خرج به في الصباح، عاد وفي حلقه غصة وفي عينيه حيرة، وعلى شفتيه حديث طويل. الأمر الذي شغل الوالد وأقلقه فسأله: أين كنت..؟ أولم أكن عهدت اليك ما عهدت..؟ قال: يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس[2].

قال: أي بني ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه. قال: كلا والله انه لخير من ديننا[3].

وبدأ الصراع بين الأب وفلذة كبده، وأحب الناس إلى قلبه. صراع عنيف مدمر، الوالد الذي شاهد الأجداد والآباء يعكفون على النار ويتقربون اليها ليل نهار، ويستشيرونها في ظعنهم وإقامتهم، ولم يحاول أن يستعمل عقله فيما يعبده أو يفعله، إن هذه النار هو الذي يشعلها، وفي قدرته أن يخمد لهيبها، بل تخمد من تلقاء نفسها إذا لم يقدم لها وقودها فكيف تكون هذه آلهة؟ وبين الابن الذي أضاء الله بصيرته فأعمل عقله وفكره فهداه عقله إلى أن هذه النار التي كان يعكف عليها أياماً طويلة وليالي متعددة، ليست إلّا من مخلوقات الله الذي هو خالق كل شيء.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٤.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٧٦ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٥.

(٣) المصدر السابق.

وفكر سلمان في الهجرة إلى الله باحثاً عن الحق ومنقباً عن طرقه وأخذ يرقب الظاعنين وقوافل التجارة، حتى حانت الفرصة وجاءت قافلة وجهتها الشام.

يقول جواب الآفاق: فألقيت الحديد من رجلي، الذي كان قيدني به والدي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فسألت من أفضل أهل هذا الدين علماً..؟ قالوا الأسقف في الكنيسة.

فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين، فأحببت أن أكون معك، وأخدمك في كنيستك، فأتعلم منك، وأصلي معك.

قال: ادخل، فدخلت معه.

وكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة، ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا اليه شيئاً منها أكنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وفضة فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع، ثم مات[1].

إنّها صورة من صور الأدعياء، الأدعياء في كل عصر ومصر والأدعياء في كل ميدان من ميادين الحياة، انهم يشوهون حقائق الأشياء، ويطوعونها حسب أهوائهم وأغراضهم. وأبغض هذه الصور، صورة الدعي في الدين، والذي تزيا بزي العارف بشرع الله والمنفذ له، والمتبع لتعاليمه، وهو أبعد ما يكون عن ذلك كله.

وقد كشف سلمان بلمحته الواعية عن خبيئة هذا الدعي المنافق الضليع في النفاق، وعندما جاء أصحابه ليدفنوه تقدم اليهم كاشفاً لهم الحقيقة.

إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها أكنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً، ودلّهم على مكان كنزه، فاستخرجوا القلال المملوءة ذهباً ورقاً»[2].

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٥ ويراجع الحاكم في مستدركه ومسند الإمام أحمد.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٧٧.

وكأن القرآن الكريم كان يعنيه وأمثاله بقوله :

﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[1] .

وجاء رجل آخر .. وتعرف سلمان عليه ، وأخذ يراقب أعماله ، ويرصد أحواله ، ويحاول أن يصل إلى خبيئة نفسه ، فلم يجد فيه ما ينكر أو يعاب ، فربط أسبابه بأسبابه ، وأخذا يعبدان الله سوياً ، حتى حضرت الرجل الوفاة وأصبح في النزع الأخير .

يقول سلمان : فاقتربت منه وقلت له : يا فلان إني كنت معك فأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى ، فإلى من توصي بي ؟ .. وبم تأمرني ؟ .. قال : أي بني والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه ، فقد هلك الناس وبدّلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلاً بالموصل — هو فلان — وهو ما كنت عليه فالحق به »[2] رجل واحد بالموصل ، يا سبحان الله ، وهذه سنة الله في خلقه ، ان رجال الله دائماً قليل ، وهم كالجوهر المكنون في قاع البحر لا يصل اليه الصياد الا بعد جهد ومشقة ، وهذا الصنف نادر الوجود ، لا يوجد منه الا الواحد بعد الواحد .. حكمتك يا رب ...

وحمل المسافر جواب الآفاق زاده وزواده ، ولم يكن إلا الايمان والتقوى وقلب خفّاق بين جنبيه ، لا يني عن التسبيح لخالقه ورازقه .

وكأن الأرض كانت تطوى تحت قدميه ، واستقر به المقام عند صاحبه الجديد وأخبره قصته مع صاحبه الذي فارقه فرحب به وهش له ، وعاش معه عابداً وطالب

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٣٤ — ٣٥.

(٢) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٩٣ ومسند الامام أحمد والحاكم في مستدركه.

معرفة ، وباحثاً عن الحق ، وتوّاقاً لمعرفة المجهول . فلما حضرته الوفاة أوصاه أن يلحق برجل آخر ، وكان الآخر هذه المرة بنصيبين[1] .

ولم تمل قدماه التجوال والطواف والسفر ، ولم ترتو روحه الباحثة عن المعرفة بعد ، ومن نصيبين ، يوصيه صاحبه بالذهاب الى «عمورية»[2] .

ويلقي عصا التسيار في «عمورية» وأوصاه صاحبه الجديد بنوع من العبادة فريد .

أوصاه أن يعمل ويكسب . ويشقى ويتعب ، ويتعرف على الناس وأعمالهم ويلتقي بالأرض والتربة ، ليشاهد قدرة الخالق في خلقه ، وابداع المالك في ملكه ويرى :

(كيف يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) ؟

فالعمل هو لب العبادة ، وتعمير الكون فريضة ، ومساعدة الخلق على الحياة من أخلاق الصالحين الأبرار .

يقول سلمان : واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمات ، ثم ماذا حدث .. ؟ نزل أمر الله بصاحبه فلما حضرته الوفاة اقترب منه وقال : «يا فلان اني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان اليك ، فإلى من توصي بي ؟ .. وبم تأمرني ؟ قال : أي بني ، والله ما أعلم أنه أصبح في الأرض أحد على مثل ما كنا عليه ، آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبي ، وهو مبعوث بدين ابراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين «حرتين» بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٧٧ وفي حلية الأولياء جـ ١ ص ١٩٤ فعليك براهب وراء الجزيرة ويراجع مسند الامام أحمد.

(٢) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٩٤ ، وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٧ .

الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل[1] . إنهم رجال الله ، يعملون في صمت ، ويتواصون بالحق ، ويترقبون ظهور النور الجديد ويعرفون النبي بعلاماته ، ويتدارسون بينهم صفاته .

حتى قال قائلهم : نحن نعرف النبي أكثر مما نعرف أبناءنا[2] وأخذ سلمان يردد بينه وبين نفسه كلمات صاحبه ، وانطبعت على صفحة قلبه : يخرج بأرض العرب . ويهاجر إلى أرض بين حرتين[3] .

يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة . وبين كتفيه خاتم النبوة . لقد عم الظلام البسيطة كلها ، وليس هناك من شعاع يهتدى به ، فلا بد أن يكون هذا ارهاصاً لشيء جديد ومقدمة لظهور النور الشامل ، وهكذا سنة الوجود إذا وصل الظلام إلى قمته فانتظر الفجر . واختفاء الصالحين من أرض الله بشير صدق بظهور نبي وإرسال رسول .

إذن لا بد من الرحيل إلى هناك ، إلى أرض النبوة وبينما هو في تأملاته وسبحاته رأت عينه قافلة تتهيأ للمسير ، وعلم أن وجهتها بلاد العرب ، فطلب منهم أن يحملوه معهم . ولهم ما يملك من بقرات وغنيمات ، ويا له من أجر زهيد في سبيل الوصول إلى طلبته . ووجدوها صفقة رابحة ، لا تكلفهم كثيراً فحملوه معهم وسارت المطي تقطع الفيافي والصحارى ، حتى قربت الرحلة من الانتهاء ، وتراءت لعينيه تلك البلاد ، وكاد أن يشم أريج النبوة ويتنسم عطر الإيمان ثم ماذا..؟

يقول سلمان حتى إذا بلغوا وادي القرى ، ظلموني وخانوا ما اتفقنا عليه ، فباعوني

---

(١) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٩٤ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٧ وطبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٧٧.

(٢) قال هذه الكلمة عبد الله بن سلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٣) كل أرض ذات حجارة سود.

لرجل يهودي عبداً[1] فكنت عنده ، ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي[2] . فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة فابتاعني منه ، فاحتملني إلى المدينة ، فوالله ما هو إلّا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي . فأقمت بها وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر لما أنا فيه من شغل الرق . ثم هاجر الى المدينة ، فوالله إني لفي رأس عذق[3] لسيدي أعمل له فيه بعض العمل ، وسيدي جالس تحتي ، إذ أقبل ابن عم له ، حتى وقف عليه .

فقال : يا فلان قاتل الله بني قيلة[4] ، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة يزعمون أنه نبي .

يا للهفة المشتاق ، عندما يشعر أنه لم تبق بينه وبين ما يريد خطوة ، ويا لشدة وجيب القلب عندما يحس أن بينه وبين تحقيق آماله لحظة . وتلك كانت حال سلمان .

لقد نزل مسرعاً يريد أن يتحقق مما سمع حتى يروي ظمأ الليالي الطويلة وهو ينتظر ، ويترقب طلعة الحبيب ، وعندما تمتم ببعض العبارات سائلاً ومستفسراً عن حقيقة ما يقوله هذا الرجل .

لكزه سيده قائلاً له : ما لك ولهذا .. ؟ أقبل على عملك ..[5] .

اسلام سلمان

في المساء تلفع سلمان بغطاء الليل ، وتسلل إلى هناك ، إلى « قباء » المكان الذي التقطته أذناه ، والذي نزل فيه الرجل الذي يقال عنه إنه النبي .

---

(١) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٩٤ ومسند الإمام أحمد.

(٢) المصدر السابق.

(٣) العذق : بفتح العين النخلة ، وبكسرها عنقود النخلة.

(٤) قيلة أم الأوس والخزرج.

(٥) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٧٨.

وحمل تحت ابطه «كومة» من تمر وتمر، وأطلق لساقيه الطويلتين سرعتهما لتحملاه إلى هناك.

يقول سلمان: فدخلت عليه فقلت له:

«إنه بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء قد كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم».

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: كلوا[1]. وأمسك يده فلم يأكل. فقلت في نفسي: هذه واحدة ثم انصرفت عنه.

ومرت أيام امتنع فيها سلمان عن الذهاب إلى رسول الله ﷺ حتى تجمع لديه بعض الثمار والتمر فجاء بها إلى رسول الله ﷺ قائلاً له: «إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، فهذه هدية أكرمتك بها، فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه»(٢).

فقال سلمان: هاتان ثنتان. ثم توفي كلثوم بن الهدم أحد أصحاب رسول الله ﷺ. وتبع الرسول عليه الصلاة والسلام جنازته، وسار خلفه حتى بقيع الغرقد وجلس مع صحابته، فوجدها سلمان فرصة لعله يتأكد من بقية العلامات التي حددها له صاحبه فاستدار إلى ظهر الرسول ﷺ ليرى الخاتم الذي وصف له صاحبه.

وعرف الرسول ﷺ ما يريد هذا الرجل فألقى رداءه عن ظهره. يقول سلمان: فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي. فقال رسول الله ﷺ

---

(١) المصدر السابق وحلية الأولياء جـ ١ ص ١٩٤ والحاكم في مستدركه.

(٢) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٩٤ وطبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٧٩.

تَحَوَّل[1] فجلس بين يدي حبيبه، فقص عليه رحلته الطويلة الممتدة في رحاب الزمن بحثاً عن هدى النبوة. حتى وجدها فأسلم وحسن اسلامه.

وعاش سلمان رقيقاً بالمدينة يخدم سيده اليهودي نهاراً ويتبتل إلى ربه ليلا حتى فاته الكثير من الأحداث التي كان يمكن الانتفاع بها مع رسول الله ﷺ.

سلمان تحرر من الرق

وفي إحدى زياراته لرسول الله ﷺ والتي كان يختلسها من سيده. قال له رسول الله كاتب يا سلمان[2]، ونفذ ما أمره به رسول الله ﷺ فاحتال على سيده، حتى قبل أن يكاتبه على ثلاثمائة نخلة يحييها بالفقير[3] وأربعين أوقية من الذهب. ويصدر أمر الرسول الكريم للصحابة بمعاونة سلمان حيث قال لهم: «اعينوا أخاكم»[4] وردد الجميع: سمعاً وطاعة لأمر رسول الله.

يقول سلمان: فاعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين ودية والرجل بعشرين ودية[5] حتى اجتمعت لي ثلثمائة ودية، فقال له رسول الله ﷺ: «اذهب يا سلمان ففقر لها فاذا فرغت فأتني أكن أنا أضعها بيدي[6]».

قال سلمان: ففقرت، وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت جئته فأخبرته فخرج رسول الله ﷺ اليها، فجعلنا نقرب اليه «الودي» ويضعه رسول الله ﷺ بيده، حتى فرغنا.

---

(1) المصدر السابق ويراجع مسند الامام احمد والحاكم في مستدركه.

(2) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٧٩ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٧.

(3) الفقير: البئر تغرس فيها الفسيلة.

(4) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٩٥ وورواه الحاكم في مستدركه.

(5) الودية: فراخ النخل الصغار.

(6) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٨٠.

فوالذي نفس سلمان بيده ، ما غابت منها «ودية واحدة»[1] .

أكل هذا من أجل سلمان؟...

لا بل من أجل الاسلام.

إن القائد يجب أن يكون مع جنوده في كل موقع يتجهون اليه ، حتى يأخذوا منه القدوة ، ويتعلموا منه الايثار والاسلام دين التعاون ، يدعو أتباعه إلى التضامن والتماسك ، وان يبذل كل واحد ما عنده في سبيل الآخرين وبهذه الروح العالية التي اكتسبوها من القرآن الكريم ، ومن أخلاق رسولهم الكريم فتحت الدنيا لهم أبوابها ، وسلمتهم مقاليدها في فترة وجيزة من عمر الزمن حتى قال بعضهم إن الأرض كانت تطوى من تحت أقدامهم.

لقد أدى سلمان ما عليه من تفقير النخيل وبقي عليه الذهب.

وذات يوم ورسول الله ﷺ بين أصحابه أتاه رجل بمثل البيضة من ذهب أصابها من بعض المعادن ، فتصدق بها.

فقال رسول الله ﷺ : «ما فعل الفارسي المسكين المكاتب؟.. ادعوه لي»[2] .

فلما جاء قال له الرسول ﷺ : «خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان[3] ». قال سلمان : وأين تقع هذه يا رسول مما علي ، قال عليه السلام : خذها فإن الله سيؤدي بها عنك فأخذتها فوزنت لهم منها ، والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم منها[4] . وتحرر سلمان. تحرر جواب الآفاق. تحرر من عبودية الحيرة والضياع

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٩ ، وطبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٨٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ويراجع مسند الامام احمد.

بالدخول في الاسلام وتحرر من عبودية الرق بالمكاتبة وأداء ما فرض عليه — وعليه الآن أن يأخذ مكانه وسط الصف الاسلامي — فالاسلام ليس فقط كلمة تقال، أو ركعات تؤدّى وشعائر تقام، وزكاة تدفع.

إن الاسلام مع هذا كله مسؤوليات ضخمة وأعباء جسام يؤديها الفرد إزاء نفسه فلا تنحرف أو تضل.

وازاء الجماعة فلا تنسى حق الله وحق دينه وازاء الأمة الاسلامية كلها حتى لا تنسى رسالتها أو تهمل القيام بأعباء الخلافة في الأرض.

وكان بداية عمل سلمان مع الجماعة الاسلامية عندما وصل الخبر إلى المدينة أن قريشاً حزبت الأحزاب وخرجت برجالها وفرسانها تريد المدينة. ورأى المسلمون أنفسهم في موقف عصيب.

وجمع الرسول أصحابه ليتدارس الأمر. ولم يحضر سلمان هذا الاجتماع. وإنما كان يجلس على هضبة عالية. يتفحص المدينة ويتعرف على مداخلها وهاله وسره في نفس الوقت أن وجدها محصنة بالجبال والصخور. ما عدا فجوة واسعة، يستطيع الجيش المغير عن طريقها أن يقتحم المدينة.

ونزل مسرعاً، وانضم إلى مجلس الحرب الذي عقده رسول الله ﷺ وأشار عليهم بحفر خندق في المنطقة المنبسطة أمام مدخل المدينة[1].

واستجاب المسلمون لرأي سلمان. إنه ليس الرأي العجل، ولكنه الرأي الذي أقيم على أسس وحسابات دقيقة ولذلك اقتنع به الرجال، وتعاونوا على حفره. يقول عمر بن عوف عن عمل الصحابة في حفر الخندق: ضربنا حتى بلغنا الندى فاخرج الله صخرة بيضاء «مروة» من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا فقلت لسلمان: ارق الى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية، فرقى اليه سلمان.

---

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٩ وطبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٨٠.

فقال : يا رسول الله ، صخرة بيضاء خرجت من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا ، فاما أن نعدل عنها والمعدل قريب ، أو تأمرنا فيها بأمرك. فإنا لا نحب أن نجاوز خطك فقال عليه السلام :

«أرني معولك يا سلمان»[1] .

ثم هبط علينا فكنا على شفة الخندق فنزل رسول الله ﷺ فضرب ضربة ، صدعها وبرق منها برقة أضاء ما بين لابتيها . فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح فكبرنا ثم ضرب الثانية . فبرق منها برقة أضاء ما بين لابتيها حتى كأن مصباحاً في جوف بيت مظلم .

فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح فكبرنا . ثم ضرب الثالثة فكسرها وبرق منها برقة أضاء ما بين لابتيها ، فكبر تكبير فتح فكبرنا ثم رقى حتى إذا كان في مقعد سلمان .

قال سلمان : يا رسول الله ، رأيت شيئاً ما رأيت مثله قط .

فالتفت عليه السلام إلى القوم فقال : «هل رأيتم؟»[2] .

قالوا : نعم بأبينا أنت وأمنا يا رسول الله ، رأيناك تضرب فخرج برق كالموج فتكبر ، فنكبر لا نرى غير ذلك .

قال : صدقتم ، ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم فأضاء لي قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ، كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . ثم ضربت ضربتي الثانية : فبرق الذي رأيتم أضاء لي معها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل : أن أمتي ظاهرة عليها .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٨٤.

(٢) سيرة ابن هشام.

ثم ضربت الثالثة : فبرق الذي رأيتم ، أضاء لي معها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا[1] يرددها ثلاثاً.

وسط هذا الهول الذي يزلزل النفوس والخوف الذي يقطع القلوب ، والأعداء الذين يحيطون بالمسلمين من كل جانب والذي يصوره القرآن أبلغ تصوير في قوله : ﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾[2].

وسط هذا كله يبشر رسول الله ﷺ أصحابه بفتح فارس والروم واليمن. أما المسلمون فكانوا واثقين من نصر الله ومن بشارة رسول الله ﷺ ، لأن الله أخبرهم بأنه مع وجود البأساء والضراء والزلزلة يكون النصر.

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب ﴾[3] . وها هم أولاء يزلزلون فنصر الله إذن منهم قريب . ومن ثم قالوا : ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾[4].

أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، فكان هذا الهول كاشفاً لخبيئة نفوسهم ومظهراً لنفاقهم. قال معتب بن قشير : كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . ولقد تحقق ما أخبرهم به الرسول ﷺ وفتحت المدائن وفتحت القسطنطينية ، وفتحت صنعاء وحملت كنوز كسرى وقيصر إلى حاكم المسلمين لم تمسسها يد ولم ينقص منها شيء . ويتقبلها

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ١٠٠.

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ١٠.

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٤.

(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٢٢.

عمر ليضعها في بيت مال المسلمين، ويقول الحمد لله. والله ان الذين أدوا هذا لأمناء[1].

أمناء على دينهم، وأمناء على الناس، وأمناء على أداء الأمانة التي كلفهم الله بها.

سلمان والياً على المدائن

إن سلمان يفر من الامارة، ويوصي أصحابه بالفرار منها، وعندما يستشيره أحد الرجال في قبول الامارة يكون رده:

«إن استطعت أن تأكل من التراب فكل منه ولا تكونن أميراً على اثنين، واتق دعوة المظلوم والمضطر فإنها لا تحجب»[2].

وإن سلمان يربط بين الامارة وبين دعوة المظلوم والمضطر وكأنه يقول: كم من المظلومين بين الناس لا تلحظهم عين الامارة وكم من المضطرين بين الرعية تغلق دونهم أبواب الامارة. إنها في الدنيا تبعات وملامة. وفي الآخرة حسرة وندامة. ولكن عمر بن الخطاب كان في حاجة إلى هؤلاء الولاة أمثال سلمان الفارسي ليتحملوا معه تبعات الأمة وليكونوا عوناً له في تنفيذ شرع الله.

وأرسل إلى سلمان ليتولى إمارة المدائن. ويرفض سلمان ويتشدد في رفضه ويتمسك عمر ويصر على طلبه، إنها أمانة الأمة ولن يتحملها بمفرده.

ويذهب الوالي الجديد إلى مكان الولاية، تحمله دابته إلى هناك وحيداً بلا رفيق، وفريداً بلا صديق. ويحدثنا أبو المليح عن هريم عن دخول الوالي الجديد إلى ولايته فقال: رأيت سلمان الفارسي على حمار «عرة» وعليه قميص قصير، ضيق،

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ١٥٦.

(٢) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٨٥.

وكان رجلاً طويل الساقين كثير الشعر، وقد ارتفع القميص حتى بلغ قريباً من ركبته.

قال: ورأيت الصبيان يحضرون خلفه فقلت: ألا تتنحون عن الأمير؟...

فقال: دعهم فإنما الخير والشر فيما بعد اليوم[1] ورتب عطاء لسلمان خمسة آلاف، ومع ذلك كان يوزعها على الرعية، ويأكل من جدل الخوص وكانت إمارته ثلاثين ألفاً من الناس، وكانت عليه عباءة يفترش نصفها ليجلس. فأرادوا أن يقيموا له بيت الامارة فرفض، ولكن أحد الرجال ممن كان يفهم نفسيته أقنعه بحقيقة البيت الذي يبني قائلاً له: ألا ابني لك بيتاً تستظل به من الحر، وتسكن فيه من البرد؟.

فقال له سلمان: نعم.

فلما أدبر صاح سلمان به فسأله: كيف تبنيه؟...

فقال أبنيه إن قمت فيه أصاب رأسك، وإن اضطجعت فيه أصاب رجلك..

فقال سلمان: نعم[2].

يقول النعمان بن حميد: دخلت مع خالي على سلمان بالمدائن وهو يعمل الخوص فسمعته يقول: أشتري خوصاً بدرهم ثم أعمله فأبيعه بثلاثة دراهم فأعيد درهماً فيه وأنفق درهماً على عيالي وأتصدق بدرهم.

ولو أن عمر بن الخطاب نهاني عنه ما انتهيت[3] وكان يخرج كل يوم في إمارته يختلط بالناس، ويتعرف على مطالبهم، وعليه هذه العَباءة التي غيّر الزمن معالمها وكثرة الاستعمال وفي الطريق لقيه رجل قادم من الشام ومعه حمل تين وتمر وكان الحمل يؤود الشامي ويتعبه، فلم يكد يبصر أمامه رجلاً يبدو عليه أنه من عامة

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٤.

(٢) حلية الأولياء جـ ١ ص ٢٠٢.

(٣) المصدر السابق.

الناس وفقرائهم حتى بدا له أن يضع الحمل على كاهله حتى إذا أبلغه وجهته أعطاه شيئاً نظير حمله.

وأشار للرجل فأقبل عليه، وقال له الشامي احمل عني هذا فحمله ومضيا معاً.

وإذ هما في الطريق بلغا جماعة من الناس، فسلم عليهم فأجابوا واقفين وعلى الأمير السلام. وعلى الأمير السلام... أي أمير يعنون؟.. هكذا سأل الشامي نفسه. ولقد زادت دهشته، حين رأى بعض هؤلاء يسارع صوب سلمان ليحمل عنه قائلين: عنك أيها الأمير. فعلم الشامي أنه أمير المدائن سلمان الفارسي فسقط في يده، وهربت كلمات الاعتذار والأسف من بين شفتيه... واقترب ينتزع الحمل، ولكن سلمان هزّ رأسه رافضاً وهو يقول: لا حتى ابلغك منزلك[1]. يا مدرسة القرآن ماذا فعلت بهؤلاء الرجال؟... حتى حملوا كتابك وانداحوا به في ارجاء الأرض ينشرون الأمن بعد الخوف، والنور بعد الظلام، والهدى بعد الضلال.. ان الدنيا الآن أحوج ما تكون إلى أمثال هؤلاء الرجال.. فيا أتباع محمد، الكتاب الذي فعل الأعاجيب بين أيديكم، فتقدموا به. إن التاريخ هناك عبر الأفق ينتظر خطواتكم على الدرب ويضع سلمان دستور الحاكم المسلم في أمة الاسلام فيربت على صدر سعد بن أبي وقاص، ويأخذ يده بكلتا يديه ويقول: يا سعد اذكر الله عند همك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت. وعند يدك إذا قسمت[2].

سلمان والحياة الاجتماعية

ذهب سلمان رضي الله عنه لزيارة أبي الدرداء فرأى امرأته رثة الهيئة فقال: ما شأنك.؟

قالت: إن أخاك ليست له حاجة في شيء من الدنيا، يقوم الليل، ويصوم النهار.

(١) رجال حول الرسول، خالد محمد خالد.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٩١.

فلما جاء أبو الدرداء رحب به سلمان، فقرب اليه طعاماً فقال له سلمان: أطعم. قال: إني صائم. فقال سلمان: أقسمت عليك إلا طعمت.

وقال: ما أنا بآكل حتى تأكل.

قال: فأكل معه وبات عنده.

فلما كان من الليل قام فحبسه سلمان، ثم قال: يا أبا الدرداء إن لربك عز وجل عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، أعط كل ذي حق حقه، صم، وأفطر، وقم، ونم، وائت أهلك. فلما كان عند وجه الصبح قال: قم الآن فقاما وتوضيا وصليا، ثم خرجا إلى الصلاة، فلما صلّى النبي ﷺ قام اليه أبو الدرداء فأخبره بما قال سلمان[1]: فقال رسول الله ﷺ: لقد أشبع سلمان علماً[2].

وفي رواية.

فقال النبي: «عويمر سلمان أعلم منك. لا تحقق فتقطع ولا تحبس فتسبق» إنه بذلك وضع يده على الخطوط الأصيلة في النفس البشرية، وقدم منهجاً للبشرية، استقاه من تعاليم الاسلام.

لا بد من التوازن والاعتدال في داخل النفس وفي داخل الحياة، فليست هي السلبية المريضة التي تؤدّي إلى الرهبنة والانعزالية، وليست هي الايجابية المادية، التي تتكالب على الحياة وترفض أن تتجه لحظات إلى رب الحياة. وتزوج سلمان وعندما ذهب إلى خباء زوجته، قال برفق وأدب للنسوة اللّائي يحطن بها: هل انتن مخرجات عني؟.. مخليات بيني وبين امرأتي؟.. قلن نعم فخرجن.

فذهب إلى الباب حتى أغلقه وأرخى الستر، ثم جاء حتى جلس عند امرأته

---

(١) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٨٨ والاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٦٣٧.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٨٥.

فمسح بناصيتها، ودعا بالبركة. فقال لها: هل أنت مطيعتي في شيء آمرك به؟.. قالت: جلست مجلس من يطاع.

قال: فإن خليلي ﷺ أوصاني إذا اجتمعت إلى أهلي أن اجتمع على طاعة الله عز وجل. فقام وقامت إلى المسجد فصليا ما بدا لهما، ثم خرجا فقضى منها ما يقضي الرجل من امرأته.

فلما أصبح غدا عليه أصحابه فقالوا: «كيف وجدت أهلك...»[1]. فأعرض عنهم. ثم أعادوا فأعرض عنهم ثم أعادوا فأعرض عنهم ثم قال: إنما جعل الله الستور والخدور والأبواب لتواري ما فيها، حسب امرىء منكم أن يسأل عما ظهر له فأما ما غاب عنه فلا يسألن عن ذلك.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المتحدث عن ذلك كالحمارين يتسافدان في الطريق[2]» رحمك الله يا سلمان، وصلّى الله عليك يا رسول الله، أكان يعلم رسول الله ﷺ بما يحدثه بعض أتباعه من بعده من اخراج زوجته عارية كاسية ويتحدث عنها ويصف مفاتنها للأجانب، ويلوك جولاتها مع الغير بفخر واعتزاز كأنه يتحدث عن معارك البطولة والنصر.

ويدخل رجل على سلمان فيشاهد منظراً عجيباً إنه يعجن فقال له: يرحمك الله أيها الأمير. أين الخادم..؟

فقال سلمان: بعثناها لحاجة فكرهنا أن نجمع عليها عملين[3] يا لدقة الاحساس ويا لرقة الشعور عند هؤلاء الرجال. ويدخل عليه سعد بن أبي وقاص يعوده في مرض الموت فوجده يبكي. فقال سعد: ما يبكيك يا أبا عبد الله..؟ توفي رسول الله ﷺ وهو عنك راض، وتلقى أصحابك، وترد على الحوض. قال سلمان: والله ما أبكي جزعاً من الموت، ولا حرصاً على الدنيا، ولكن رسول الله ﷺ عهد الينا عهداً فقال: «لتكن بلغة أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب»[4] وحولي هذه

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم جـ ١ ص ١٨٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٩٠ حلية الأولياء جـ ١ ص ١٩٦.

(٤) المصدر السابق.

الأساود قال سعد : فنظرت فلم أر إلّا اكافا ووطاء ومتاعاً قوّم نحواً من عشرين درهماً . ولكنهم أبناء الاسلام ، وصحابة رسول الله ﷺ وتربية القرآن . وآن لجواب الآفاق أن يستريح ، وأوشك أن يبلغ الكتاب أجله ، وأحس بقرب الرحلة . فقال لزوجته : هلمي خبيك الذي استخبأتك .

قالت : فجئته بصرة مسك . قال : ائتيني بقدح فيه ماء ، فنثر المسك فيه ثم أذابه بيده ثم قال : انضحيه حولي ، فإنه يحضرني خلق من خلق الله يجدون الريح ولا يأكلون الطعام ، ثم أغلقي عليّ الباب وانزلي .

قالت : ففعلت ، وجلست هنيهة فسمعت هسهسة قالت : ثم صعدت فإذا هو قد مات[1] . رحمك الله رحمة واسعة يا صاحب رسول الله . وأعطاك ربك بمقدار ما قدمت للاسلام والمسلمين.

وكان ذلك في خلافة عثمان بن عفان بالمدائن . سنة خمس وثلاثين[2] .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٩٣.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٦٣٨.

أسباب نزول الآيات

عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ : «إن الذين آمنوا والذين هادوا..» الآية نزلت في سلمان الفارسي[1].

وعن الامام السدي : إن الذين آمنوا والذين هادوا، الآية قال : نزلت في أصحاب سلمان الفارسي لما قدم سلمان على رسول الله ﷺ جعل يخبر عن عبادتهم واجتهادهم، وقال يا رسول الله : كانوا يصلون ويصومون، ويؤمنون بك، ويشهدون انك تبعث نبياً.

فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال رسول الله ﷺ : يا سلمان هم من أهل النار[2] فأنزل الله : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا﴾ وتلا إلى قوله : ﴿ولا هم يحزنون﴾.

وأخرج الواحدي عن مجاهد : قال لما قص سلمان على رسول الله ﷺ قصة أصحابه. قال : هم في النار.

قال سلمان : فأظلمت عليّ الأرض : فنزلت : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا — إلى قوله : — يحزنون﴾.

وروى ابن جرير الطبري قصة سلمان الفارسي عن أسباط بن نصر عن السدي

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢٤.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣.

إن الذين آمنوا والذين هادوا قال : نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسي ، وكان سلمان صديقاً لابن الملك لا يقضي واحد منهما أمراً دون صاحبه . وكانا يركبان الى الصيد جميعاً ، فبينما هما في الصيد، إذ رفع لهما بيت من عباء فأتياه ، فإذا هما فيه برجل بين يديه مصحف يقرأ فيه وهو يبكي . فسألاه ما هذا؟ ... فقال : الذي يريد أن يعلم هذا لا يقف موقفكما ، فإن كنتما تريدان أن تعلما ما فيه ، فانزلا حتى أعلمكما ، فنزلا إليه فقال لهما : هذا كتاب جاء من عند الله ، أمر فيه بطاعته ونهى عن معصيته ، فيه : أن لا تزني ولا تسرق. ولا تأخذ أموال الناس بالباطل.

فقص عليهما ما فيه — وهو الانجيل — الذي أنزله الله على عيسى فوقع في قلوبهما ، وتابعاه ، فأسلما وقال لهما : ان ذبيحة قومكما عليكما حرام. فلم يزالا معه كذلك يتعلمان منه ، حتى كان عيد للملك فجعل طعاماً ثم جمع الناس والأشراف ، وأرسل الملك إلى صديق ابنه فدعاه ليأكل مع الناس فأبى الفتى . وقال : انا لا نأكل من ذبائحكم ، انكم كفار ليس تحل ذبائحكم.

فقال الملك : من أمرك بهذا ..؟

فأخبره أن الراهب أمره بذلك فدعا الراهب فقال : ماذا يقول ابنه هذا؟.

قال الراهب : صدق ابنك..

قال له : لولا ان الدم فينا عظيم لقتلتك ، ولكن اخرج من أرضنا ، فأجله أجلاً فقال سلمان : فقمنا نبكي عليه[1] . فقال لهما : ان كنتما صادقين فأنا في بيعة بالموصل مع ستين رجلاً نعبد الله فيها.

فلما التقى سلمان برسول الله ﷺ أخبره خبرهم. فقال : كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك ، ويشهدون انك ستبعث نبياً. فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم . قال له النبي ﷺ : يا سلمان هم من أهل النار[2] . فاشتد ذلك على سلمان. وقد قال له

---

(١) تفسير الطبري والدر المنثور جـ ١ ص ٧٣.

(٢) راجع تفسير الامام الطبري جـ ١ ص ١٥٤ — ١٥٥.

سلمان : لو أدركوك صدقوك واتبعوك فأنزل الله هذه الآية : ﴿ ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ﴾[1] .

ثم دعا رسول الله ﷺ سلمان فقال : نزلت هذه الآية في أصحابك ثم قال النبي ﷺ : من مات على دين عيسى ومات على الإسلام قبل أن يسمع بي فهو على خير. ومن سمع بي اليوم ولم يؤمن بي فقد هلك[2] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٦٢.

(٢) الدر المنثور جـ ١ ص ٧٣ ، ٧٤ وتفسير الطبري جـ ١ ص ١٥٥ .

تذييل...

يا أتباع محمد ﷺ أي نوع من الرجال هؤلاء الذين خرجتهم مدرسة القرآن.

وما هو المنهج الذي سلكته في صناعة هذه النماذج؟..

الحقيقة انه منهج فريد في عالم المناهج.

المنهج الذي أخرج حظ الشيطان من نفوسهم، بل أخرج حظ نفوسهم من نفوسهم. وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة، وفي اليوم رجال الغد لا تجزعهم مصيبة، ولا تبطرهم نعمة، ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة، ولا تستخفهم قوة. ان الانسان ليعجب من هؤلاء الرجال، بعد التحاقهم في سلك هذه المدرسة، مدرسة الإيمان والتربية والتي كانت تملي على صاحبها الفضائل الخلقية، وتعلمه قوة الارادة وقوة الايمان، وقوة الحجة، وقوة محاسبة النفس والانصاف منها.

يخرج جعفر بن أبي طالب وأصحابه مهاجرين إلى أرض الحبشة لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً، تطاردهم قوى الشر والبغي، وتتربص بهم زبانية القهر والعدوان. وما كادوا يطئون بأقدامهم الأرض الجديدة، حتى ترسل قريش خلفهم من يردهم إلى التنكيل والتعذيب والهوان. ووسط هذا الهول الذي يحيط بهم من كل جانب يدخل جعفر وأصحابه الى ملك الحبشة. دخلوا ورؤوسهم مرفوعة تملأ قلوبهم الثقة بعون الله ورعايته. ويتقدم اليهم القساوسة والرهبان الذين يحيطون بهذا

الملك ويقولون لهم : اسجدوا كما تفعل بقية الرعية. ولكن جعفراً المهاجر بدينه يقول في أنفة وعزة وإيمان لا : اننا لا نسجد الا لله.

أرأيتم كيف هانت الدنيا في نظر هؤلاء الرجال ، وكيف امتلأت قلوبهم بالقوة والإيمان فلم يرهبوا إلا الله ولم يخافوا إلا من عقابه؟..

ويطلب رستم قائد الجيوش الفارسية إلى سعد بن أبي وقاص أن يرسل له رسولاً ليتعرف على وجهة نظر المسلمين فأرسل له ربعي بن عامر. فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والحرير ، واليواقيت الثمينة ، وعليه تاجه وقد جلس على سرير من ذهب.

ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل عليه وسلاحه ودروعه وبيضته على رأسه.

فقالوا له : ضع سلاحك.

فقال : إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا والا رجعت فقال رستم : ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها.

فقالوا له : ما جاء بكم؟..

فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

هكذا قال ربعي : الله ابتعثنا. فلم تكن خرجتهم الى غارة يغيرونها ، ولكن إلى نفوس ليغيروها. ووضع بين أيديهم بعض لبنات المنهج. الدعوة إلى عبادة الله وحده. وتحرير العباد من رق العبودية ومن هوان العيش وإقامة عدل الاسلام المطلق ، بعيداً عن جور المنحرفين والمضللين من أدعياء الدين. ويأتي من البادية رجل ليتعرف على دعوة الاسلام وأخذ يجلس إلى مجالس الرسول ﷺ لا يترك مجلساً منها ، ولا تند عن سمعه كلمة واحدة حتى أشبع علماً وحكمة فلما كانت غزوة خيبر

غنم رسول الله ﷺ شيئاً ، فقسمه وقسم للاعرابي فأعطى أصحابه ما قسم له . وكان يحمي ظهور المسلمين فلما جاء دفعوه اليه . فقال : ما هذا؟ قالوا قسم قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء به الى النبي ﷺ فقال : ما هذا يا رسول الله؟ .. قال : قسم قسمته لك .

قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرى ها هنا — وأشار إلى حلقة — بسهم فأموت فادخل الجنة .

فقال : ان تصدق الله يصدقك ، ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتوا به النبي ﷺ وهو مقتول .

فقال : أهو هو؟ ..

قالوا : نعم .

قال : صدق الله فصدقه[1] .

يا اتباع محمد ﷺ يا من أصبحتم في موقف لا تحسدون عليه .

إن سلمان الفارسي من المدرسة التي خرجت هؤلاء الأبطال .

---

(١) زاد المعاد جـ ٣ ص ١٩٠ .

كعب بن عجرة

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ
ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم
مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ
نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ
فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ
كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة البقرة آية ١٩٦]

أقوال العلماء في نزول هذه الآية

اتفق كثير من العلماء والمفسرين ورجال الحديث على أن هذه الآية نزلت في الصحابي الجليل كعب بن عجرة.

قال ذلك الإمام البخاري في صحيحه ٨/ ١٤٤ وأيضاً ٣/ ١٠ وأيضاً ٥/ ١٢٣، ٦/ ٢٧، ٨/ ١١٩ — ١٢٥.

وقاله الإمام مسلم في صحيحه ٤/ ٢١.

وقاله الإمام الطبري في تفسيره ٤/ ٦٢.

وقاله الإمام السيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٧٠.

وقاله صاحب المستدرك ٢/ ٢٧٧.

فمن هو كعب بن عجرة رضي الله عنه؟

كعب بن عُجرة

رضي الله عنه

من الرجال الأفذاذ الذين تخرجوا في مدرسة الإسلام ومن عمالقة الأنصار الذين آووا ونصروا ، آووا إخوانهم المهاجرين ونصروا دين الله ، ورفعوا راية الإسلام عالية خفّاقة في أربعة أركان الأرض.

يتوقف رجال السير والتاريخ عن الحديث عنه قبل إسلامه ويتجاهلون تجاهلاً كاملاً إلقاء الضوء على طفولته وبداية شبابه.

وهذه ظاهرة تدعو للتأمل لأن المتتبع لتاريخ رجالات الإسلام يحسّ للوهلة الأولى وكأن كتاب السير والتاريخ يسقطون عمداً تلك الفترة من حياة هؤلاء الرجال.

وكأنهم لم تكن لهم حياة أية حياة تستحق الاهتمام والذكر قبل أن يضيء الإسلام قلوبهم ، وقبل أن تشرق شمس الهداية على حياتهم ، ولكن هذا الرجل الذي تجاهله التاريخ فترة طويلة من حياته يلتفت إليه فجأة ، ويعانقه في قوة أمام حادثة من أدق الحوادث في حياة المسلمين ، يلتفت اليه في صلح الحديبية : الصلح الذي كتبت سطوره على جبهة التاريخ بأحرف من نور.

يلتفت إليه عند أشرف بقعة من الأرض الطاهرة : البقعة التي شهدت بيعة

الرضوان والتي قال الله سبحانه وتعالى فيها ﴿ إنَّ الذين يُبايِعُونَكَ إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ﴾ . وقال أيضاً :

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ .

يلتفت التاريخ إليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم تحيط به الأنصار والأصحاب وهم يطوفون حول الكعبة بيت الله الحرام الذي جعله الله سكينةً للناس وأمناً ، وشاعر الرسول يجهر بصوته عالياً مخاطباً عصبة الكفر والضلال :

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله خَلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

في هذه الأيام الخالدة الحافلة في تاريخ الإسلام يستعرض الرسول ﷺ أبطال الإسلام الذين بايعوه على الشهادة وشراء الجنة فيلمح كعب بن عُجرة والهوام يتساقط على وجهه .

فاقترب منه وسأله :

أيؤذيك هوام رأسك ؟

قال : نعم يا رسول الله .

قال : احلق .

وينزل الله تعالى في حلقه هذا قرآناً يتلى . قال تعالى :

﴿ فَمَن كانَ مِنكُم مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رأْسِهِ فَفِدْيةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٩٦ .

ومن هذا التاريخ أخذت الأضواء تسلط عليه والدنيا بأسرها تلتفت إليه ، إنه من السابقين الأولين الذين أجابوا داعي الله ولقد أحس إحساساً صادقاً أن الإسلام ليس كلمةً تقال ولا ركعات تؤدّي ولكنه جهاد وعمل ، وطوفان يكتسح الكفر وأهله ويشيع كلمة العدل بين الناس قاطبةً.

فأين كعب من هذا كلّه؟ هكذا كان يحدث نفسه ويناجي فؤاده وما كان يصل في خطراته إلى هذا الحد حتى لمح عن بُعد سرية غالب بن عبد الله الليثي ، إنها تستعد للرحيل إلى بقعة من بقاع الأرض حيث الكفر والإيمان يصطرعان.

وما هي إلا لحظات حتى كان كعب يتقلد سلاحه ويمتطي صهوة جواده ويشارك جند الله في وجهتهم.

وما هي إلّا سويعات حتى لفّهم الليل الدامس وكأنه غطاء ساتر يحول بينهم وبين أعين الأعداء ، وقبل أن يشرق الصباح بنوره كانت كتيبة الله تعود إلى قاعدتها بمدينة الرسول ﷺ سالمةً غانمةً بعد أن أَبْلَتْ بَلَاءً حسناً ونفذت أوامر القائد الأعلى لجيش المسلمين.

وكان كعب بن عُجرة كثيراً ما يجلس في مجلس الرسول ﷺ ليتفقه في أمور دينه ويكون على أُهبة الاستعداد إذا ما كلّفه الرسول ﷺ بأمر ، وفي صيف قائظٍ وفي شدة وعسرة تَلف المسلمين يقف على باب مسجد الرسول ﷺ وَفدٌ لا تُعرف هويته ولكن تدلّ وجوههم وملامحهم على أنهم أهلُ خير وجاءوا يبغون خيراً.

ويمسك كعب بن عُجرة بلجام فرس قائدهم ويقول له :

مَنْ أنت يا أخا العرب؟

— أنا واثلة بن الأسقع

وماذا تريد؟

— جئت أبغي رسول الإسلام.

ويأخذ كعب بيده حتى يوقفه بين يدي الرسول ﷺ ، وقال له الرسول :

مَنْ أنت وما جاء بك وما حاجتك؟

فأخبره عن نسبه وقال:

أتيتك لأومن بالله ورسوله.

فقال عليه السلام، فبايعْ عَلَى مَا أَحْبَبْتَ وَكَرِهْتَ.

فبايعه وجلس معه كعب بن عجرة ليبين له معالم الإسلام وقواعد أركانه، وعندما قرر الرحيل رافقه كعب بن عُجرة مع كوكبة من فرسان الإسلام حتى مشارف المدينة.

عاد واثلة بن الأسقع إلى بلاده وعلم أبوه بإسلامه فقال له: أَصبأْتَ وتركتَ دينَ آبائك والله لا أُكلمك كلمةً أبداً فحزن حزناً شديداً وركبته الهموم والأحزان ولكن أخته التي أسلمت سرًّا خففت من أحزانه وأمرته بالعودة إلى مدينة الرسول ﷺ، وما كادت أقدامه تطأ أرض المدينة مرة أخرى حتى علم بخروج الرسول ﷺ إلى أرض تبوك والمسلمون يتتابعون في الرحيل خلفه وهنا يقف واثلة حائراً إنه يريد اللحاق برسول الله ﷺ ولكن ليس لديه الراحلة القوية التي تنقله إلى هناك وليس معه الدراهم التي تفي بحاجته في هذه الرحلة وهنا يقف أمام مسجد الرسول ﷺ وينادي بأعلى صوته: مَنْ ينقلني إلى هناك..؟

مَنْ يحملني عَقَبه وله سهمي؟

وكأن الأرض انشقت من جنباتها لتظهر أمامه كعب بن عُجرة ويقول: أنا أَحملك يا أخا الإسلام.

ويسرعان في السير حتى يلحقا برسول الله ﷺ ويشهدا معه معركة تبوك.

وينتصر الإسلام في هذه المعركة نصراً مؤزراً، وتفر فلول الكفر لا تلوي على شيء. ويصدر الرسول — ﷺ — أمره إلى خالد بن الوليد بالتوجه إلى «أكيدر» لهدم أصنامها ويستجيب خالد لأمر القائد وينضم واثلة إلى كتيبة خالد الذاهبة إلى تلك المهمة الشاقة. لأن الأمر لا يتعلق بهدم الأصنام وتحطيم الأوثان وإزالة البهتان،

ولكنه أمر خطير يتعلق بتغيير النفوس من الداخل حتى تقبل هذا الأمر الذي يقوم به خالد بن الوليد من تحطيم الآلهة التي كانت تعبد وتقدم لها القرابين والنذور.

ونجحت كتيبة خالد في مهمتها وأزالت البهتان وحطّمت قلاع الطغيان وعادت بالنصر والغنائم.

ويحمل واثلة ما أصابه من تلك الغنائم إلى كعب بن عجرة وفاء بالشرط الذي كان بينهما. ولكن كعب الذي خرج لنصرة دين الله ولرفع كلمة التوحيد عالية خفاقة محال أن يأخذ أجراً على نقله أحد المجاهدين إلى ساحة المعركة، ويرد واثلة وما يحمل من غنائم إلى مأمنه.

ثم ماذا..؟ أحس كعب أن أصحابه يتخطفهم الموت الواحد تلو الآخر. فعزم أمره الى الذهاب إلى الكوفة، لعلّه يجد فيها بعض السلوى وتخفف عنه مفارقة الإخوة والخلان.

ويشعر ابنه محمد بما عزم عليه أبوه فيقول له:

ويحك يا أبي أتترك مدينة رسول الله — ﷺ — إلى غيرها..؟ فيقول له: نعم يا بني أريد ذلك، ولكن معاذ الله أن يكون ذلك قلاً لأهلها أو رغبة عن تربة شاهدت الرسول وصحبه. ولكن دروبها ومساكنها وكل نسمة تهبّ عليَّ من نسماتها تذكّرني بأحبابي وخلّاني الذين فارقوني بالشهادة أو الموت. فلعلّ في البعد عنها أجد سلوة ونسيان.

محمد: وإلى أين الوجهة يا أبي..؟

— وجهتي ستكون إلى أرض الكوفة بمشيئة الله..؟

ولماذا الكوفة يا أبي..؟

— أرغب في الكوفة يا بني لأن الإمام علي رضي الله عنه قال:

«الكوفة كنز الإيمان، وحجة الإسلام، وسيف الله ورمحه يضعه حيث شاء، والذي نفس بيده لينتصرن الله بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز»

أسمعت هذا من الامام علي يا أبي..؟

— نعم يا بني وكان سلمان الفارسي رضي الله عنه يقول :

«أهل الكوفة أهل الله ، وهي قبلة الإسلام يحنّ إليها كل مؤمن» . لقد حببتني الى الذهاب معك يا أبي لولا مسجد الرسول — ﷺ — الذي أقضي فيه بعض أوقاتي وأيامي .

يا بني : إن مسجد الرسول — ﷺ — أحد المساجد الثلاثة التي تشد الرحال اليها كما أخبر بذلك سيد الخلق — صلوات الله وسلامه عليه — ولكن إذا كنت من رواد المساجد وقلبك متعلق بها . فللكوفة مسجدها وقد رويت فيه فضائل كثيرة .

أية فضائل يا أبي..؟

من ذلك يا بني ما رواه حبة العرني قال :

«كنت جالساً عند علي — رضي الله عنه — فأتاه رجل فقال :

«يا أمير المؤمنين هذه راحلتي وزادي أريد هذا البيت أعني بيت المقدس..؟

فقال علي رضي الله عنه :

«كل زادك وبع راحلتك وعليك بهذا المسجد — يعني مسجد الكوفة — فإنه أحد المساجد الأربعة ركعتان فيه تعدلان عشراً فيما سواه من المساجد. فقال الرجل : ولماذا يا أمير المؤمنين..؟

فقال الإمام علي : في زاويته فار التنور ، وعند الاسطوانة الخامسة صلّى ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقد صلّى فيه ألف نبي ، وألف وصي وفيه عصا موسى ، والشجرة اليقطين ، وفيه هلك يغوث ويعوق ، وهو الفاروق ، وفيه مسير لجبل الأهواز ، وفيه مصلى نوح عليه السلام.

أسباب نزول الآيات

قال الله تعالى : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ﴾ يقول الإمام الواحدي صاحب كتاب أسباب النزول أخبرنا الأستاذ أبو طاهر الزيادي ، أخبرنا أبو طاهر محمد بن الحسن ، حدثنا العباس الدوري ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، حدثنا اسرائيل عن عبد الرحمن الأصفهاني ، عن عبد الله بن معقل عن كعب بن عجرة قال : «فيَّ نزلت هذه الآية ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ﴾ وقع القمل في رأسي فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال : أحلق وصوم صيام ثلاثة أيام أو النسك ، أو أطعم ستة مساكين ، لكل مسكين صاع .

أخبرنا محمد بن ابراهيم المزكي ، حدثنا عمرو بن مطر ، إملاء ، أخبرنا أبو خليفة حدثنا مسدد ، عن بشر ، حدثنا ابن عوف ، عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال :

قال كعب بن عجرة : «فِيَّ أنزلت هذه الآية ، أتيت رسول الله ﷺ ، فقال : ادنه ، فدنوت مرتين أو ثلاثاً ، فقال : أيؤذيك هوامُّك؟ قال ابن عوف وأحسبه قال : نعم ، فأمرني بصيام أو صدقة أو نسك ما تيسر» . رواه مسلم عن أبي موسى عن ابن أبي عدي ، [ورواه البخاري عن أحمد بن يونس عن ابن شهاب] ، كلاهما عن ابن عوف .

- أخبرنا أبو نصر أحمد بن عبد الله المخلدي ، أخبرنا أبو الحسن السراج أخبرنا

محمد بن يحيى بن سليمان المروزي ، حدثنا عاصم بن علي ، حدثنا شعبة ، أخبرني عبد الرحمن [بن] الأصفهاني ، سمعت عبد الله بن معقل قال :

قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد — مسجد الكوفة — فسألته عن هذه الآية : (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال : حُملت إلى رسول الله ﷺ ، والقمل يتناثر على وجهي ، فقال : ماكنت أرى أن الجهد بلغ منك هذا ، ما تجد شاة؟ قلت لا ، فنزلت هذه الآية : (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال : صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع من طعام ، فنزلت فيَّ خاصةً ولكم عامة » . رواه البخاري عن آدم بن أبي إياس وأبي الوليد ورواه مسلم عن بندار عن غندور ، كلهم عن شعبة .

أخبرنا أبو ابراهيم اسماعيل بن ابراهيم الصوفي ، أخبرنا محمد بن علي الغفاري ، أخبرنا إسحاق بن محمد [الرسعني] ، حدثنا جدي حدثنا المغيرة الصقلابي ، حدثنا عمر بن بشر المكي ، عن عطاء عن ابن عباس قال :

لما نزلنا الحديبية جاء كعب بن عجرة ينتثر هوامٌ رأسه على جبهته فقال يا رسول الله ، هذا القمل قد أكلني ، قال : احلقَ وافده . قال : فحلق كعب فنحر بقرة ، فأنزل الله عزّ وجل في ذلك الوقت : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ﴾ الآية .

قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : الصيام ثلاثة أيام والنسك شاة ، والصدقة الفرق بين ستة مساكين ، لكل مسكين مُدَّان . أخبرنا محمد بن محمد المنصوري ، أخبرنا علي بن عمر الحافظ ، أخبرنا عبد الله بن المهتدي ، حدثنا طاهر ابن عيسى بن إسحاق التيمي ، حدثنا زهير بن عباد ، حدثنا مصعب بن ماهان ، عن سفيان الثوري ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن كعب بن عجرة قال :

مرّ به رسول الله ﷺ وهو يوقد تحت قدر له بالحديبية فقال : أيؤذيك هوام رأسك؟ قال : نعم ، قال : احلق . فأنزل الله هذه الآية ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو

به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ قال : فالصيام ثلاثة أيام ، والصدقة فرق بين ستة مساكين ، والنسك شاة .

أخبرنا عبد الله بن عباس الهروي فيما كتب إليّ : أن العباس بن الفضل بن زكريا حدثهم عن أحمد بن نجدة ، حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا ابو عوانة ، عن عبد الرحمن بن الأصفهاني عن عبد الله بن معقل قال :

كنّا جلوساً في المسجد ، فجلس إلينا كعب بن عجرة فقال : فيَّ أنزلت هذه الآية ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه﴾ قال : قلت : كيف كان شأنك؟ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ، محرمين ، فوقع القمل في رأسي ولحيتي وشاربي حتى وقع في حاجبي ، فذكرت ذلك للنبي ، ﷺ ، فقال ، ما كنت أرى أن الجهد بلغ منك هذا ، ادعوا الحالق ، فجاء الحالق فحلق رأسي ، فقال : هل تجد نسيكة؟ قلت : لا ، وهي شاة قال : فصم ثلاثة أيام أو أطعم ثلاثة آصُع بين ستة مساكين. قال : فأُنزلت فيَّ خاصة ، وهي للناس عامة .

ثبت بالمراجع

١ . **القرآن الكريم.**

٢ . **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الشعب/ مصر.

٣ . **أسباب نزول القرآن الكريم للواحدي**، تحقيق الاستاذ أحمد صقر.

٤ . **تفسير القرآن العظيم**، ابو الفداء اسماعيل بن كثير، دار الاندلس/ بيروت.

٥ . **تفسير الطبري**، ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعارف/ مصر.

٦ . **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن احمد القرطبي، دار الكتب بمصر سنة ١٣٦٠ هـ.

٧ . **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المكتبة الاسلامية / طهران.

٨ . **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار احياء التراث العربي بيروت سنة ١٣٨٦.

٩ . تفسير الجلالين، **جلال الدين السيوطي وزميله.**

١٠ . **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، الحافظ أبو الفضل العسقلاني المعروف بابن حجر.

١١ . **صحيح الامام مسلم بشرح النووي**، مسلم بن الحجاج، المطبعة المصرية بالأزهر.

١٢ . **مسند الامام احمد**، شرح احمد بن شاكر، دار المعارف بمصر سنة ١٣٦٨ هـ.

١٣ . **صحيح الترمذي بشرح ابن العربي**، المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٥٠ هـ.

١٤ . **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي** ، أ . ي . ونسنك ، تعريب محمد فؤاد عبد الباقي بريل لندن سنة ١٩٦٢ .
١٥ . **الجامع الصغير للسيوطي** ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة .
١٦ . **كشف الخفاء ومزيل الالتباس** ، اسماعيل بن محمد العجلوني ، مكتبة التراث الاسلامي ، حلب .
١٧ . **تهذيب التهذيب** ، لابن حجر العسقلاني ، دار صادر ، بيروت .
١٨ . **الكامل في التاريخ لابن الأثير** ، دار صادر ، بيروت سنة ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م .
١٩ . **تاريخ الرسل والملوك** ، أبو جعفر محمد الطبري ، دار القلم الحديث ، بيروت .
٢٠ . **البداية والنهاية** ، الحافظ بن كثير ، مكتبة بيروت ، ومكتبة النصر/ الرياض .
٢١ . **الطبقات الكبرى** ، ابن سعد ، صيدا ، دار بيروت سنة ١٣٧٧ .
٢٢ . **السيرة النبوية لابن هشام** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية — القاهرة .
٢٣ . **الروض الأنف** ، عبد الرحمن السهيلي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .
٢٤ . **مروج الذهب** ، المسعودي/ دار الاندلس/ بيروت/ مكتبة نهضة مصر .
٢٥ . **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ، ابن عبد البر — دار الاندلس/ بيروت/ مكتبة نهضة مصر .
٢٦ . **أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر** ، علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ، دار الفكر/ بيروت طبعة سنة ١٣٩٢ هـ .
٢٧ . **خلفاء الرسول** ، خالد محمد خالد/ دار الكتاب العربي/ بيروت ، طبعة ٢ سنة ١٣٩٤ .
٢٨ . **العبقريات** ، عباس محمود العقاد .
٢٩ . **علي بن أبي طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة** ، الاستاذ عبد الكريم الخطيب ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .
٣٠ . **هذا هو الطريق** ، د. عبد الرحمن عميرة ، دار التراث بمصر سنة ١٩٧٣ .
٣١ . **مع الإلحاد وجهاً لوجه** ، د. عبد الرحمن عميرة ، دار الحلبي ، القاهرة .
٣٢ . **أشهر مشاهير الإسلام** ، رفيق العظم .
٣٣ . **الاعلام** ، الزركلي .

٣٤. **الأغاني**، الأصفهاني.

٣٥. **تاريخ الخلفاء**، للإمام جلال الدين السيوطي، القاهرة سنة ١٣٠٥هـ.

٣٦. **تفسير الخازن والبغوي المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل**، البغوي، دار الفكر/ لبنان.

٣٧. **تلبيس ابليس**، ابن الجوزي، مصر سنة ١٣٤٧هـ.

٣٨. **الرياض النضرة في مناقب العشرة**، المحب الطبري، مصر.

٣٩. **سنن الترمذي**، حققه وصححه عبد الرحمن عثمان/ محمد عبد المحسن الكتبي صاحب المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

٤٠. **سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني**. ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي سنة ١٣٩٥ دار احياء التراث العربي.

٤١. **تراث الانسانية ــ مجموعة من العلماء**، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة.

فهرس الموضوعات

رجـال ونسـاء
أنزل الله فيـهم قـرآنًا

الجـزء الرابـع

د. عبدالرحمن عمـيره

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

.. كان من عناية الله لنا وحسن توفيقه أن أعاننا على أن نقدم للناطقين بالضاد بعامة ، والأمة الإسلامية على وجه الخصوص المجلد الرابع من كتابنا « رجال أنزل الله فيهم قرآناً » .

ويخيّل إلينا أننا قلنا في مقدمة المجلدات السابقة ما فيه غنى وكفاية ، من توضيح هدفنا ، والغاية التي نرجوها من وراء تأليفنا لهذا الكتاب .

ونحب أن نلفت نظر القارىء الكريم إلى أن بعض الشخصيات التي يتضمنها هذا المجلد شاركت في الحروب الطاحنة بين أبناء الأمة الإسلامية .

الحروب التي كان لها أكبر الأثر في توقف الفتوحات الإسلامية ، وانحسار المد الإسلامي عن بعض البلدان .

ونقول الآن بعد مضي أربعة عشر قرناً على حدوثها ، إنّها فتنة وقى الله المسلمين شرها .

وما كادت تنتهي وتتوقف ، حتى عادت الجيوش الإسلامية مرة أخرى إلى الانتشار في أربعة أركان الأرض .

يقدمون الأمن بعد الخوف .

وينشرون النور بعد الظلام .

ويرفعون كلمة التوحيد عالية خفاقة .

ومن أجود الأشياء التي قرأتها وأنا أفتش وراء الأسباب التي أدت إلى قيام هذه الفتنة، هذا الحوار الذي دار بين الزرقاء بنت عدي التي كانت تحرض الكتائب من جيش أهل الكوفة على جيش الشام وبين معاوية، فأمر أن تسير إليه وأن تكرم. حتى إذا جاءت قال معاوية:

«كيف حالك يا خالة، وكيف مسيرك إلينا؟..

قالت: خير مسير.

قال: ما حملك على أن تحرضي علينا؟..

قالت: يا أمير المؤمنين، قد مات الرأس، وبتر الذنب، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

قال: هل تحفظين ما قلت؟..

قالت: لا.

قال: لله أبوك لقد سمعتك تقولين: أيها الناس إن المصباح لا يضيء في الشمس وإن الكواكب لا تضيء مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا الحديد، إنه لا يستوي المحق والمبطل، ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾ فالنزال النزال، والصبر الصبر، ألا وإن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء».

يا زرقاء أليس هذا تحريضك؟..

قالت: لقد كان ذلك.

قال: لقد شاركت علياً في دم سفكه.

قالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتك، مثلك يبشر بخير ويسر خليله.

قال: أوقد سرك ذلك؟..

قالت: والله لقد سرني وأنى لي بتحقيقه.

قال : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إليَّ من حبكم له في حياته ، فاذكري حاجتك ؟ ...

قالت : يا أمير المؤمنين : إني آليت على نفسي : لا أسأل أحداً بعد علي حاجة .

قال : لقد أشاروا علي بقتلك ؟؟ ..

قالت : لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته .

قال : كلا لنعفون عنك .

قالت : يا أمير المؤمنين كرم منك ومثلك من قدر فعفا ، وتجاوز عمن أساء ، وأعطى من غير مسألة .

فأعطاها كسوة وأقطعها ضيعة .

نسأل الله العلي القدير أن يوفق الأمة الإسلامية إلى خير دينها ودنياها إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

د . عبد الرحمن عميرة

زَيد بن أُرقم

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ
رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن
رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ
ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة المنافقون : آية رقم ٧ - ٨]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير والسنن نزلت هذه الآيات تصديقاً لزيد بن أرقم.

قال ذلك صاحب الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٥٣٥.

وراجع البخاري ٨/ ٤٩٤ في تفسير سورة المنافقون.

وباب: اتخذوا أعيانهم جنة، وباب قوله: ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ﴾.

وباب: إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم.

وأخرجه مسلم رقم ٢٧٧٢ في صفات المنافقين.

وأخرجه الترمذي رقم ٣٢٠٩ و ٣٢١٠ في التفسير.

فمن زيد بن أرقم؟..

زيد بن أرقم

رضي الله عنه

هو زيد بن أرقم بن زيد بن قيس.

من الأنصار الذين استقبلوا المهاجرين أحسن استقبال، وقدموا لهم المال والأنفس والأرواح.

يقال نشأ يتيماً في كنف الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة الذي كان يمسك بزمام ناقة الرسول ﷺ في عمرة القضاء، ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله
خلوا فإن الخير مع رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

وقيل: بأن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن رواحة انزل فحرك بنا الركب.

قال: يا رسول الله إني قد تركت قولي هذا.

فقال له عمر: اسمع وأطع، فنزل وهو يقول:

يا رب لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الاقدام إن لاقينا
إن الكفار قد بَغَوْا علينا
وإن أرادوا فتنة أبيْنا

فقال النبي ﷺ: «اللهمّ ارحمه»[1].

فقال عمر: وجبت.

في هذه الأجواء المحلقة، وفي رعاية هذا الصحابي الجليل الذي يحبه رسول الله ﷺ ويدعو له، نشأ زيد بن أرقم رضي الله عنه.

ولا يحدثنا التاريخ عن طفولة زيد بن أرقم ولا عن شبابه، ولا كيف دخل الإسلام في قلبه. حتى يقف أمامه مبهوراً في غزوة من غزوات الرسول ﷺ.

يقف التاريخ عنده طويلاً ويسجّل له حادثة من أعجب الحوادث التي مرّت بالمسلمين، إنّها حادثة من حوادث النفاق. وأصحابها هم أولئك الذين دخلوا في جماعة المسلمين بألسنتهم ولم يستقر الإسلام في قلوبهم، والحادثة: هي غزوة بني المصطلق.

وحقيقتها: أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ.

فلما سمع رسول الله ﷺ بهم، خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له (المريسيع).

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٥٢٧.

واقتتل الناس ودارت معركة انهزم فيها بنو المصطلق.

وتزاحم الناس على الماء، فأقبل أجير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقال له جهجاه بن مسعود، يقود فرسه فازدحم معه سنان بن وبر الجهني حليف بني عوف ابن الخزرج على الماء، فاقتتلا.

فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار.

وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين.

فغضب عبد الله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث.

فقال: أوقد فعلوها؟.. قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدّنا وأهل قريش إلّا كما قال الأول:

«سمِّن كلبك يأكلك»(١).

أمّا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم:

«هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم».

فسمع ذلك زيد بن أرقم.

فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من شؤون المعركة، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب فقال:

«مر به عباد بن بشر فليقتله».

فقال له رسول الله ﷺ:

---

(١) هذا مثل من أمثال العرب، وفي ضده تقول العرب: «جوع كلبك يتبعك».

«فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟.. لا ولكن إئذن بالرحيل».

وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وعلم عبد الله بن أُبيّ بما قاله زيد بن أرقم، فاتجه إلى رسول الله ﷺ وحلف بالله ما قلت: ما قال، ولا تكلمت به، وكان في قومه شريفاً عظيماً.

فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل عطفاً على ابن أُبيّ ودفعاً عنه.

فلما سار رسول الله ﷺ، لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال:

يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها؟..

فقال له رسول الله ﷺ:

«أوَمَا بلغك ما قال صاحبكم»؟

قال: وأيّ صاحب يا رسول الله؟..

قال: عبد الله بن أبي.

قال: وما قال؟..

قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل.

قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى

أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبيّ.

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبي ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ثم قال :

« هذا الذي أوفى لله بأذنه ».

لقد أدّى زيد بن أرقم ما يوجبه عليه السلام.

إنه المسلم الملتزم ، ولا يقبل مطلقاً أن ينال أحد من رسول الله أو من جماعة المسلمين.

والمسلم دائماً ولاؤه لله تعالى.

والمسلم في كل أحواله محبّ لرسول الله ﷺ.

والمسلم الحق : هو الذي يلتزم بكتاب الله تعالى وبسنّة الرسول ﷺ .. يحكمها في شؤونه كلها...

أمّا هؤلاء الذين يكون ولاؤهم لليهود الذين حرّفوا التوراة.

أو للنصارى الذين يقولون : بالتثليث.

أو لهؤلاء المنافقين ، والانتهازيين ، والمارقين عن حدود الله فإن الله تعالى يخاطب المؤمنين بقوله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾[1].

لقد نزل القرآن ليفصل في هذه القضية.

ويقول لهذا المنافق إنك كذاب. تنال من الناس بغير حق ، ويسيطر الجبن على

---

(1) سورة الممتحنة آية رقم ١.

كل جارحة من جوارحك.. فلا تنطق بالحق ولا تقرر الواقع، ولا تعتذر عما بدر منك.

ونزل القرآن ليصدق هذا الصبي فيما نقله.

فهو صادق بقلبه.

وهو صادق بلسانه.

وهو صادق فيما نقله إلى رسوله ﷺ.

ومن هذا التاريخ لم يتخلف زيد بن أرقم عن غزوة من غزوات الرسول ﷺ.

فهو الجندي المجاهد في سبيل دينه ومن أجل إعلاء كلمة ربه.

وأصبح الجهاد حرفته لا يستطيع التخلف عن غزوة مهما كانت الأسباب، حتى تلك الغزوة التي كانت على مشارف الروم والتي سميت بغزوة مؤته، كان زيد بن أرقم أحد رجالها وأبطالها.

يقول محدثاً عن نفسه:

كنت رفيقاً لعبد الله بن رواحة في غزوة مؤته، فخرج مردفي على حقيبة راحلته فوالله إنا لنسير ليلة إذ سمعته يتمثل بأبياته هذه:

إذا أدنيتني وحملت رحلي ... مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك فانعمي وخلاك ذم ... ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وآب المسلمون وغادروني ... بأرض الشام مشتهي الإواء
وردك كل ذي نسب قريب ... إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلع بعل ... ولا نخل أسافلها رواء[1]

يقول زيد بن أرقم:

---

(١) كتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم جـ ١ ص ١١٩.

«فلما سمعتهن بكيت ، قال : فخفقني بالدرة ، وقال : ما عليك أن يرزقني الله الشهادة ، وترجع بين شعبتي الرحل».

وحقق الله له ما تمناه ونال الشهادة..

وعاد زيد بن أرقم مع الجيش العائد إلى المدينة.. وتقلّبت به الأيام ومرت عليه الليالي.. ويصمت التاريخ فلا يحدثنا عن زيد — حتى كانت موقعة صفين بين علي ومعاوية — رضي الله عنهما ، هنا يظهر زيد في جيش علي ، أحد الأبطال المغاوير ومن خلصاء علي بن أبي طالب المقرّبين.. ثم اعتزل كل ذلك ونزل الكوفة وابتنى بها داراً في كندة [1] ..

يعبد ربه ويستقبل أصحابه ، ويهدي إلى الخير ويدل عليه ، حتى آتاه اليقين في سنة ثمان وستين.

رحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته بمقدار ما قدم من خير للإسلام ورفع رايته ونصرة دينه ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

---

(١) كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر جـ ٢ ص ٥٣٥.

أسباب نزول الآيات

يقول زيد بن أرقم رضي الله عنه : خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر — أصاب الناس فيه شدة —.

فقال عبد الله بن أبيّ : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، وقال :

«لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل» .

قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبيّ فسأله .

فاجتهد يمينه ما فعل .

فقالوا : كذب زيد رسول الله ﷺ .

قال : فوقع في نفسي مما قالوا شدة ، حتى أنزل الله تصديقي : ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ — «سورة المنافقون» .

قال : ثم دعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم ، قال : ﴿ لووا رؤوسهم ﴾ ، وقوله : ﴿ كأنهم خُشب مسندة ﴾ . قال : كانوا رجالاً أجمل شيء .

وفي رواية أن زيداً قال : كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أبيّ يقول : فذكر

نحوه ، قال : فذكرت ذلك لعمي — أو لعمر[1] — فيذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فدعاني فحدثته ، فأرسل إلى عبد الله بن أبيّ وأصحابه فحلفوا ما قالوا ، فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني فأصابني غم لم يصبني مثله قط ، فجلست في بيتي.

وقال عمي : ما أردت إلى أن كذّبك النبي ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ إلى قوله : ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون ١ — ٨]. فأرسل رسول الله ﷺ فقرأها عليّ ثم قال : «إن الله قد صدقك»[2] .

وفي رواية أخرى له قال : غزونا مع رسول الله ﷺ ، وكان معنا أناس من الأعراب ، فكنا نبتدر الماء ، وكان الأعراب يسبقوننا إليه ، فسبق أعرابي أصحابه ، فيسبق الأعرابي فيملأ الحوض ، فيجعل حوله حجارة ، ويجعل النطع عليه ، حتى يجيء أصحابه قال : فأتى رجل من الأنصار أعرابياً ، فأرخى زمام ناقته لتشرب ، فأبى أن يدعه فانتزع قباض الماء فرفع الأعرابي خشبة ، فضرب بها رأس الأنصاري فشجه ، فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأخبره ، وكان من أصحابه فغضب عبد الله بن أبي ، ثم قال :

«لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله — يعني الأعراب — وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام.

قال عبد الله : إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمداً بالطعام فليأكل هو ومن عنده ، ثم قال لأصحابه :

(لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها والأذل).

قال زيد ، وأنا ردف عمي ، فسمعت عبد الله ، فأخبرت عمي ، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ فحلف وجحد ، قال : فصدقه رسول

---

(١) وقع عند الطبراني : أن المراد بعمه سعد بن عبادة ، وليس هو عمه حقيقة وإنما هو سيد قومه الخزرج ، وعم زيد بن أرقم الحقيقي هو ثابت بن قيس له صحبة.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

الله ﷺ وكذبني ، قال : فجاء عمي إليّ فقال : ما أردت إلى أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك والمسلمون.

قال : فوقع عليّ من الهم ما لم يقع على أحد ، قال : فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر ، قد خفقت برأسي من الهم ، إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني وضحك في وجهي ، فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا.

ثم إن أبا بكر لحقني فقال : ما قال لك رسول الله ﷺ؟..

قلت : ما قال شيئاً إلّا أنه عرك أذني ، وضحك في وجهي.

قال : أبشر.

ثم لحقني عمر ، فقلت له مثل قولي لأبي بكر.

فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين[1].

---

(١) أخرجه البخاري ٨/ ٤٩٤ في تفسير سورة المنافقون ، في فاتحتها وباب اتخذوا أيمانهم جنة ، وباب قوله : (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) وباب (إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) ، وأخرجه مسلم رقم ٢٧٧٢ في صفات المنافقين ، والترمذي رقم ٣٣٠٩ و٣٣١٠ في التفسير ، باب ومن سورة المنافقين.

تذييل . . .

.. لماذا ذهب زيد بن أرقم رضي الله عنه إلى الكوفة ، وأقام بها ؟ .. ومن قبله ومن بعده مجموعة من الصحابة رضوان الله عليهم آثروا المقام بالكوفة ؟ .

ولماذا تركوا تلك البلاد التي أقام فيها رسول الله ﷺ ؟..

ألأنّ الكوفة في ذلك العصر كانت وافرة الخير كثيرة الرزق؟..

أم لسلامة مناخها وعذوبة مائها ؟..

أم أن هناك أشياء أخرى غير ذلك ، دفعتهم للهجرة إلى الكوفة والإقامة بها بقية حياتهم ؟..

قبل أن نجيب على ذلك ، يقتضينا الكلام أن نلقي بعض الأضواء على نشأة الكوفة ، ومن الذي قام ببنائها وتخطيطها ، فنقول :

لما فرغ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من معركة القادسية ، وهرب (يزدجرد) إلى اصطخر ، نزل كل قوم من المسلمين في ناحية فاعتلوا ، فكتب سعد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بذلك ، فكتب إليه عمر قائلاً :

« إن العرب لا يصلحها من البلدان ، إلا ما أصلح الشاة والبعير ، فلا تجعل بيني وبينهم بحراً وعليك بالريف » .

فأتاه ابن بقيلة فقال له : هل أدلك على أرض انحدرت عن الفلاة وارتفعت عن المبقة ؟..

قال : نعم ، فدله على موضع الكوفة.

ويقال : إن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال عندما وضع أثاث قلعة الكوفة : اللهم اجعلها عصمة للمسلمين من عدوهم ، وكان سعد مستجاب الدعاء.. فاستجاب الله دعوته : فلم يستطع عدو خارجي أن يقتحم بناء الكوفة.. وهذه البنية قائمة.

ومع ذلك كان المسلمون في داخل بلادهم — مع قيام قلعة الكوفة — بأسهم بينهم شديد ، ودخلوا في ليل مظلم طويل لا نهاية له ، ومعارك طاحنة بدّدت قوتهم وأضرّت بالإسلام والمسلمين.

يقول أحد المؤرخين مصوّراً ضراوة المعارك التي دارت بين المسلمين في الفترة التالية التي ذهب فيها إلى الكوفة زيد بن أرقم :

«إنه رأى رأس الحسين رضي الله عنه في قلعة الكوفة أمام عبدالله بن زياد وهو ينكث الرأس بقضيب كان في يده».

وما لبث أن ثار المختار الثقفي ، وقاد جيشاً جراراً من المطالبين بثأر الحسين وحاصر جيش عبدالله بن زياد ، فاستسلم له ، وقتل عبدالله بن زياد ، وحمل رأسه إلى قلعة الكوفة أيضاً ، ووضع أمام المختار الثقفي.

ولم يمضِ على ذلك وقت طويل ، حتى كان جيش مصعب بن الزبير ينكل بجيش المختار الثقفي ، ويجز رأسه بعد قتله لتوضع أمام مصعب بن الزبير في قلعة الكوفة.

وخشي الأمويون على ملكهم ، فأرسل عبد الملك بن مروان جيشاً كبيراً فحاصر جيش مصعب بن الزبير ، وتمكن قائده في النهاية من حزّ رأس مصعب لتوضع أمام عبد الملك بن مروان.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فما لبثت أن زحفت الجيوش المجيشة بقيادة أبي مسلم الخراساني لتحطيم الدولة الأموية وإعلان قيام الدولة العباسية.

وتمّ للجيش المغير ما أراد وخربت المدن ، وأبيد مئات الآلاف من أبناء المسلمين ، وشرد آلاف آخرون.

والحقيقة التي يجب أن يعرفها أبناء المسلمين الآن ، أن الأمر لم يكن أمر تحطيم دولة ، وقيام أخرى بديلة ، وإنما كان الأمر أعمق من ذلك وأكبر ، إنه تخريب لذاتية الأمة الاسلامية كلها ، وانهزامها من الداخل ، وكان وقوع هذا نتيجة تحكيم الهوى والغرض ، وعدم الاحتكام إلى كتاب الله ، وكان أن فتحت أبواب بغداد — عاصمة الإسلام — أمام جحافل التتار والمغول ، بيد الحزب المناوئ للحزب الحاكم في ذلك الوقت.

وفي مصر ، العاصمة الثانية للإسلام — في ذلك الوقت — أرسل الوزير الفاطمي المسلم ، رسالة إلى الصليبيين ليستعين بهم على حكم المسلمين.

وفي الأندلس ، كان حكامها المسلمون يستعينون على بعضهم البعض ، بمن كان يجاورهم من حكام الفرنجة.

حدث هذا وأكثر منه ، في الفترة التالية للفترة التي كان زيد بن أرقم رضي الله عنه يطأ أرض الكوفة ، ويقيم داراً في كندة...

ونعود للسؤال السابق : لماذا اختار مجموعة من الصحابة الكوفة بالذات ، مقرّاً لإقامتهم ؟..

إن الإمام علي رضي الله عنه ، يقول عنها :

الكوفة : كنز الإيمان.

الكوفة : حجة الإسلام.

الكوفة : سيف الله ورمحه يضعه حيث شاء.

والذي نفسي بيده : «لينصرن الله بأهلها في شرق الأرض وغربها ، كما انتصر بالحجاز»[1] .

أقال الإمام علي رضي الله عنه هذا الكلام؟

إن مما يؤيد ذلك ما يقوله سلمان الفارسي رضي الله عنه :

«أهل الكوفة أهل الله ، وهي قبة الإسلام يحنّ إليها كل مؤمن»[2] .

والآن في هذا العصر الموار بالفتن المشتعل بالحروب ، الهائج بكل عاصفة هوج ، وبكل ريح مدمرة.

هل لا زالت الكوفة : كنز الإيمان وحجة الإسلام؟

وهل لا زال أهلها : أهل الله؟

أم أنه قد أصابهم ما أصاب غيرهم ، وأن ضراوة الغزو الفكري المتنمر ، وأساليب المذاهب الهدّامة ، والإعلام الموجه من الصهيونية الغادرة ، كان له تأثير في تغيير هذه المدينة وأهلها.

.. الله أعلم بذلك ، وعلى الله قصد السبيل.

---

(١) معجم البلدان : ياقوت الحموي جـ ٤ ص ٤٩٢.

(٢) المصدر السابق.

صرمة بن قيس

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ
هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ
كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا
عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ
وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ
ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا
تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ
فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة البقرة : آية رقم ١٨٧]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال السير والتفسير نزلت هذه الآية :

في أبي قيس ، صرمة بن أبي أنس بن مالك.

قاله صاحب الاستيعاب جـ ٢ ص ٧٣٧ .

وقاله ابن اسحاق في سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٣٠ .

وقاله أبو داود رقم ٢٣١٤ في الصيام باب مبدأ فرض الصيام.

وراجع البخاري ٤ / ٩١١ ، ٩١٢ ، في الصوم باب ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ .

وراجع الترمذي رقم ٢٩٧٢ في التفسير، باب ومن سورة البقرة.

وراجع النسائي ٤ / ١٤٧ ، ١٤٨ في الصيام باب تأويل قول الله عزّ وجلّ : ﴿كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ .

فمن صرمة بن قيس؟..

صرمة بن قيس
رضي الله عنه

مَن يكون صرمة هذا ، حتى يقف التاريخ أمامه مبهوراً يسجل أعماله وكلماته بأحرف من نور؟..

مَن هذا الرجل الذي رزقه الله سبحانه وتعالى عقلاً ألمعياً ، فرَّق به بين الحق والضلال والهدى والنور؟..

مَن هذا العملاق الذي أعلن كلمة التوحيد عالية خفاقة في ثرى يثرب ، فردّد معه جنبات الوادي معلنة التسبيح والتحميد لله الواحد الأحد؟..

إنه :- صرمة بن أبي أنس بن صرمة بن مالك ، أخو بني عدي بن النجار.

يكنى أبا قيس.

وربما قال فيه بعضهم صرمة بن مالك ، فنسبه إلى جده .. بين السهول الخضر ووسط العيون الفوارة بالماء العذب ، وعلى ثرى الطبيعة الفواحة بالعطر ، المليئة بالخير كانت ولادته.

فنشأ مع الأجواء الفسيحة يشاهد السماء الصافية العالية المقبقبة ، على الأرض بلا عمد ترفعها أو حواجز تسندها.

واستمتع شبابه الباكر بجمال الكون الذي نسقته يد القادر الخالق ، فهذه الكواكب والثريات التي تنتشر على صفحة السماء.

وهذه الشمس التي ترسل أشعتها إلى الأرض بالدفء والنماء.

وهذا القمر الساجي نوره، الساطع بهاؤه.

وهذه المياه العذبة التي تقذف من باطن الأرض بلا تعب ولا مشقة، فتسقي النبات وتشيع في الأرض الخضرة والثمار.

مَن فعل كل ذلك؟..

مَن الذي نسق هذا الكون؟..

مَن الذي خلق الانسان في أحسن تقويم؟..

مَن الذي جعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلّمه ما لم يكن يعلم؟..

مَن فعل ذلك؟..

أهي الأصنام المقامة في الكعبة ويحجّ لها الحجيج في كل عام، يقدمون لها النذور ويذبحون باسمها الذبائح، ويتمسحون بحجارتها الصلدة؟..

إنها لا تنطق ولا تتكلم.

إنها لا تنفع ولا تضر.

إنها لا تستطيع أن ترد عنها كيد المعتدين، وعبث العابثين، فمحال أن تكون المبدعة الخالقة للكون وما فيه؟..

هذه التساؤلات كانت لا تفارق مخيلة صرمة، فأقلقت نهاره، وأسهرت ليله، حتى هدي إلى الحق، وبان له نور اليقين.

فماذا كان منه؟.. لبس المسوح وترهب، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة.

يقول عنه ابن اسحاق:

وكان رجلاً قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، وهمّ بالنصرانية، ثم أمسك عنها.

إذن ماذا يفعل وكيف يتجه؟..

لقد قرّر أن يدخل بيتاً ويتخذه مسجداً له ، لا يدخل عليه فيه طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب ابراهيم عليه السلام.

إبراهيم الذي قال لأبيه : ﴿ أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ .

إبراهيم الذي أراد أن يهدي قومه إلى حقيقة التوحيد ، فقال عندما رأى كوكباً هذا ربي.

﴿ فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾[1] .

وعندما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي .

﴿ فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾[2] .

وعندما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربي ، هذا أكبر.

﴿ فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾[3] .

ووقف ابراهيم في وجه الطاغوت يصدع بكلمة الحق ويعلن كلمة التوحيد :

﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾.

قال الطاغية : أنا أُحيي وأُميت.

قال ابراهيم : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب ﴾.

هل تستطيع طواغيت الأرض أن تفعل ذلك؟

---

(1) سورة الأنعام آية رقم ٧٦.
(2) سورة الأنعام آية رقم ٧٧.
(3) سورة الأنعام آية رقم ٧٨.

هل في مقدورهم أن يخلقوا ذبابة؟..

محال أن يفعلوا ذلك: ﴿ فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[1].

واستمر صرمة في عبادة رب ابراهيم.

وسخر منه قومه وتقوّلوا عليه الأقاويل، ورموه بالخبل والجنون، فقال لهم:

سبحوا لله شرق كل صباح ... طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا ... ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستريد وتأوي ... في وكور من آمنات الجبال[2]
وله الوحش بالفلاة تراها ... في حقاف وفي ظلال الرمال[3]
وله هودت يهود ودانت ... كل دين إذا ذكرت عضال
وله شمّس النصارى وقاموا ... كل عيد لربهم واحتفال[4]
وله الراهب الحبيس تراه ... رهن بؤس وكان ناعم بال
يا بنيَّ الأرحام لا تقطعوها ... وصلوها قصيرة من طوال
واتقوا الله في ضعاف اليتامى ... ربما يستحل غير الحلال
واعلموا أن لليتيم ولياً ... عالماً يهتدي بغير سؤال
ثم مال اليتيم لا تأكلوه ... إن مال اليتيم يرعاه والي

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨.

(٢) الوكور: جمع وكر، وهو عش الطائر.

(٣) الحقاف: جمع حقف، وهو المستدير من الرمال.

(٤) شمس: تعبد، والشماس: عابد من عباد النصارى، وسمي الشماس بذلك لأنهم يشمسون أنفسهم.

يا بنيَّ التخوم لا تخزلوها إن خزل التخوم ذو عقال[1]
يا بنيَّ الأيام لا تأمنوها واحذروا مكرها ومرَّ الليالي
واجمعوا أمركم على البرّ والتقـ ـوى وترك الخنا وأخذ الحلال[2]

إنه يطالب الذين من حوله بالتسبيح والتقديس، للذي أظهر الصباح وأطلع الشمس والقمر.

ويصف الله سبحانه وتعالى أنه عالم السر، عالم الغيب.. يعلم خلجات الأنفس.

﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، إن الله بكل شيء عليم﴾[3].

ثم يقول بأن الله سبحانه وتعالى له كل ما في الكون من إنس وجن وطير وحيوان، الكل يسبح له ويخضع لمشيئته.

ثم بعد أن يرشد الناس إلى خالقهم، يدعوهم إلى مكارم الأخلاق.

فهو يطالب بصلة الأرحام.

ويدعو إلى الرفق باليتيم، وعدم الأخذ من ماله.

فالدنيا إلى فناء والآخرة إلى بقاء.

وكل ما يملكه الانسان عرض زائل، وعارية مردودة.

فالبر البر، والتقوى التقوى، والابتعاد عن كل ما ينقص أو يشين.

وأكل الطيب الحلال.

---

(1) التخوم: حدود الأرضين، والعقال: ما يمنع الرجل من المشي ويعقلها.

(2) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ١٣١ — ٢٣٣.

(3) سورة المجادلة آية رقم ٧.

واستمر صرمة على حاله معتكفاً في مسجده ، يدعو إلى مكارم الأخلاق والبعد عن سفاسفها حتى كان يوم.

وسمع بسفارة مصعب بن عمير رضي الله عنه لأهل المدينة ، يدعوهم إلى الإسلام ، ويبشرهم بالفوز بالجنان إن هم أجابوا داعي الله.

فأعلن صرمة إسلامه ، وانضم إلى الدين الجديد ، وفي رحاب التوحيد استطاع أن يتعرّف على كثير من الأسئلة التي كانت ترد على خاطره وتشغل نهاره وتقلق ليله ولا يجد لها جواباً.

ويصور أبو قيس صرمة بن قيس دعوة الرسول ﷺ ، وما لقيه من كفار قريش بقوله :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه ... فلم يرَ من يؤوي ولم يرَ داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى ... وكان لنا عوناً من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً ... قريباً ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حِلِ ما لنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلم أن الله لا شيء غيره ... ونعلم أن الله أفضل هاديا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
أقول إذا أدعوك في كل بيعة ... تباركت قد أكثرت لاسمك داعيا
أقول إذا جاوزت أرضاً مخوفة ... حنانيك لا تظهر عليّ الأعاديا
فطأ معرضاً إن الحتوف كثيرة ... وإنك لا تبقي لنفسك باقيا
فوالله ما يدري الفتى كيف يتقي ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا

وكان حكيماً يجري الله سبحانه وتعالى الحكمة على لسانه ، وذكر سفيان بن عيينة عن يحيي بن سعيد قال :

سمعت عجوزاً من الأنصار تقول : رأيت ابن عباس رضي الله عنه يختلف إلى صرمة بن قيس يتعلم منه هذه الأبيات :

يقول أبو قيس وأصبح ناصحاً ألا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا
أوصيكم بالله والبر والتقى وأعراضكم وبالبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهم وإن كنتم أهل الرياسة فاعدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهي بقومكم فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا
وإن يأتِ غرم قادح فارفقوهم وما حملوكم في الملمات فاحملوا
وإن أنتم أملقتم فتعففوا وإن كان فضل الخير فيكم فأفضلوا

هذا هو أبو قيس صرمة بن قيس قبل الإسلام ، وقبل مبعث الرسول ﷺ ، فما دوره عندما أشرق قلبه بنور الإسلام ، أكانت له مجادلات مع اليهود في المدينة ، هؤلاء الذين كانوا يبشرون بقرب ظهور نبي ، فلما جاءهم الرسول تنكروا له؟..

أكانت له مواقف مع هؤلاء المنافقين الذين يؤمنون نهاراً ويكفرون ليلاً؟..

والذي عبر القرآن عنهم بقوله :

﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾[1].

إن الوثائق التي بين أيدينا لا تشير إلى شيء من ذلك ، ولا تذكر أنه اشترك في غزوات أو حروب.

بل أغفلت كتب التاريخ أن تحدد لنا تاريخ وفاته ، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٩ — ١٢.

أسباب نزول الآيات

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال :

«كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان أحدهم صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر ، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي ، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً ، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال :

«أعندك طعام»؟..

قالت : لا ، ولكن أنطلق فأطلب لك. وكان يومه يعمل فغلبته عينه فجاءت امرأته ، فلما رأته قالت : خيبة لك ، فلما انتصف النهار غشي عليه ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية :

﴿أحلَّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾.

ففرحوا بها فرحاً شديداً ونزلت :

﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾.

هذه رواية البخاري والترمذي[1] .

---

(١) راجع البخاري ٤ / ٩١١ ، ٩١٢ في الصوم ، باب أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، والترمذي رقم ٢٩٧٢ في التفسير ، باب ومن سورة البقرة.

وفي رواية النسائي : قال أخبرني هلال بن العلاء بن هلال بسنده عن البراء بن عازب أيضاً :

«أن أحدهم كان إذا نام قبل أن يتعشّى لم يحل له أن يأكل شيئاً ولا يشرب ليلته ويومه من الغد حتى تغرب الشمس حتى نزلت هذه الآية :

﴿وكلوا واشربوا﴾ إلى قوله : ﴿الخيط الأسود﴾ . وقال : نزلت في أبي قيس ابن عمرو ، أتى أهله وهو صائم بعد المغرب فقال :

«هل من شيء»؟

فقالت امرأته : ما عندنا شيء ، ولكن أخرج ألتمس لك عشاء فخرجت ووضع رأسه فنام ، فرجعت إليه فوجدته نائماً وأيقظته فلم يطعِم شيئاً ، وبات وأصبح صائماً حتى انتصف النهار ، فغشي عليه وذلك قبل أن تنزل هذه الآية ، فأنزل الله فيه[1] .

(١) راجع النسائي ٤/ ١٤٧ — ١٤٨ في الصيام ، وأبو داود رقم ٢٣١٤ في الصيام.

تذييل...

سؤال نطرحه على أنفسنا أولاً وعلى القرّاء ثانياً، هل كان صرمة بن قيس متفرداً في التبرم بالأصنام والسخرية بالأصنام؟..

أم كان يشاركه في ذلك مجموعة ممن حباهم الله سبحانه وتعالى رزانة في العقل وسلامة في التفكير؟..

إن وقائع التاريخ تقرر أن النزعة إلى الحنيفية في جزيرة العرب كانت شائعة ويعتنقها مجموعة من الناس.

ومما يؤكّد ذلك ما يقدمه لنا ابن هشام في سيرته بقوله:

«قال ابن اسحاق: اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم، عند صنم من أصنامهم كانوا يعظّمونه وينحرون له، ويعكفون عنده ويدورون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً.

فخلص منهم أربعة نفر نجيا، ثم قال بعضهم لبعض:

«تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض». قالوا أجل.

وهم: ورقة بن نوفل.

وعبد الله بن جحش بن رباب، وكانت أمه أُميمة بنت عبد المطلب.

وعثمان بن الحويرث.

وزيد بن عمرو بن نفيل.

فقال بعضهم لبعض :

تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم؟؟

يا قوم : التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شيء.

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم.

أما ورقة بن نوفل : فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها ، حتى علم علماً من أهل الكتاب.

يقول عنه صاحب الأغاني : أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية ، وطلب الدين وقرأ الكتب وامتنع من أكل ذبائح الأوثان.

وتعلّم العبرانية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب.

ولم يكن أمر معرفته وعلمه مجهولاً بين قومه ، ولذلك انطلقت خديجة بنت خويلد إليه بالنبي ﷺ ، لتستفسر عمّا عرض للرسول من أمر الوحي فأفادها وطمأنها.

تقول عائشة رضي الله عنها :

«أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصالحة في النوم ، وكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيحنث[1] فيه ، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع[2] إلى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق ، وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال :

إقرأ.

قال : فقلت : ما أنا بقارئ.

---

(١) الحنث : التعبد.

(٢) نزع : رجع.

قال : فأخذني فغطني[1] حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني.

فقال : اقرأ.

فقلت : ما أنا بقارىء.

قال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني.

فقال : اقرأ.

فقلت : ما أنا بقارىء؟.. فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني.

فقال :﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾[2].

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف بها فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال :

«زملوني ، زملوني»[3].

فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة — وأخبرها الخبر — لقد خشيت على نفسي ، فقالت له خديجة :

«كلا أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق».

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل — وهو ابن عم خديجة — وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

فقالت له خديجة :

---

(١) غطه : ضغطه بشدة.

(٢) سورة العلق آية رقم ١ — ٥.

(٣) التزميل : التغطية والتلفف في الثوب.

«يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك».

فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟..

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة:

«هذا الناموس[1] الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً[2]، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك».

فقال له رسول الله ﷺ: أومخرجي هم؟..

قال: نعم، لم يأتِ رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي[3].

وكان ورقة شاعراً ناضج التفكير في شعره، ومثال ذلك قوله:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم   أنا النذير، فلا يغرركم أحد
لا تعبدن إلهاً غير خالقنا   فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد

إلى أن قال:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته   يبقى الإله ويودي المال والولد

وأما عبيد الله بن جحش: فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة فلما قدمها تنصر.

---

(١) الناموس: صاحب سر الملك الذي لا يحضر إلا بخير، ولا يظهر إلا الجميل، وسمي جبريل عليه السلام ناموساً، لأنه مخصوص بالوحي والغيب اللذين لا يطلع عليهما أحد من الملائكة سواه.

(٢) جذعاً: الجذع هنا كناية عن الشباب. يقول يا ليتني كنت شاباً عند ظهورك.

(٣) راجع البخاري في بدء الوحي، وفي تفسير سورة إقرأ، ومسلم رقم (١٦١) في الإيمان باب بدء الوحي.

وأما عثمان بن الحويرث : فقدم على قيصر ملك الروم ، فتنصر وحسنت منزلته عنده.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل ، فهو عم سيدنا عمر بن الخطاب ، وهو والد سعيد ابن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة.

وكان أحد من اعتزل عبادة الأوثان ، وامتنع عن أكل ما ذبح باسمها ، وكثيراً ما أنكر على قريش ذبحها على غير اسم الله قائلاً :

«يا معشر قريش : أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فترعى فيه ، وتذبحونها لغيره ؟..

ولقد حاول زيد بن عمرو أن يحل ألغاز الكون.

من أين جاءت الحياة ؟..

وإلى أين تذهب؟..

وَلِمَ كانت على هذه الصورة ولم تكن على غير ذلك؟..

إلى الكثير من التساؤلات .. وأخيراً خرج ظاعناً إلى الشام يسأل عن الدين الحق ليتبعه ، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم قائلاً له : لعلي أدين بدينكم فأخبرني به ؟.

فقال اليهودي : إنك لا تكون على ديننا ، حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله.

فقال زيد : لا أفر إلّا من غضب الله ، وما أحمل من غضب الله شيئاً أبداً ، وأنا أستطيع ، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا ؟..

قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً.

قال : وما الحنيف؟..

قال : دين إبراهيم.

فخرج من عنده وتركه. فأتى عالماً من علماء النصارى ، فقال له نحواً مما قال لليهودي.

فقال له النصراني : إنك لن تكون على ديننا ، حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله.

فقال : إني لا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ، وأنا أستطيع فهل تدلني على دين ليس فيه هذا ؟..

فقال له نحواً مما قال اليهودي : لا أعلمه إلا أن يكون حنيفاً.

فخرج من عندهما ، وقد رضي بما أخبراه واتفقا عليه من دين ابراهيم.

فلما برز رفع يديه وقال :

«اللهم إني على دين إبراهيم».

هِلال بن أُميّة

رَضيَ اللهُ عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا
أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ
الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ (٧) ﴾

صدق الله العظيم

[سورة النور : آية رقم ٦ - ٧]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين : نزلت هذه الآية في هلال بن أُمية .

قال ذلك الإمام الطبري في تفسيره جـ ١٨ ص ٦٦ .

وقاله صاحب الدر المنثور جـ ٥ ص ٢٣ .

وصاحب تفسير القرطبي جـ ١٠ ص ١٨٤ .

وصاحب تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٦٧ .

وقاله صاحب كتاب أسباب النزول الإمام الواحدي ص ٣٢٩ .

لمن هو هلال بن أُمية ؟ ..

هلال بن أميّة

رضي الله عنه

مَن هلال بن أُمية..؟ كيف كانت طفولته وشبابه..؟ متى دخل في الاسلام ونطق بكلمة التوحيد، وصدق بمحمد رسول الله ﷺ؟ لا أحد يدري..

إلّا أنه أحد المسلمين الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، وشهد غزوة بدر مع الرسول ﷺ.

ولقد تناوله القرآن في موضعين:

الأول: عندما تخلف مع المتخلفين في غزوة تبوك.

الثاني: عندما رمى زوجته بشريك بن سحمان.

أما لماذا تخلف عن غزوة تبوك.. وما هي الأسباب التي حالت بينه وبين اللحاق برسول الله ﷺ فالإجابة على ذلك يقتضينا أن نلقي بعض الأضواء على غزوة تبوك.

فنقول: إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمن عُسرة من الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاء.

ثم إن رسول الله جدّ في سفره وأمر الناس بالجهاز، وحضّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله.

فحمل رجال من أهل الغنى، واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها.

فقال رسول الله ﷺ:

«اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض».

ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة.

فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أجد ما أحملكم عليه».

فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.

ثم سار رسول الله ﷺ، وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله ﷺ، حتى تخلفوا عنه.

تخلفوا من غير شك ولا ارتياب، منهم:

كعب بن مالك بن أبي كعب أخو بني سلمة.

ومرارة بن ربيع أخو بني عمرو بن عوف.

وهلال بن أُمية أخو بني واقف.

وأبو خيثمة أخو بني سالم بن عوف.

وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم.

أما أبو خيثمة فإنه بعد أيام من سفر رسول الله ﷺ، رجع إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في خيمتين قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعاماً.

فلما دخل قام على باب الخيمة، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال:

«رسول الله ﷺ في الشمس والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في مال مقيم، ما هذا بالنصف».

ثم قال :

«والله لا أدخل خيمة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا لي زاداً ، ففعلتا».

ثم ركب فرسه وخرج في طلب الرسول ﷺ .

حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك.

قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل.

فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة.

فقالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة .

فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله :

«أولى لك يا أبا خيثمة».

ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر.

فقال له رسول الله خيراً ، ودعا له بخير.

وفي ذلك يقول أبو خيثمة :

لما رأيت الناس في الدين نافقوا أتيت التي كانت أعفّ وأكرما

وبايعت باليمنى يدي لمحمد فلم أكتسب إثماً ولم أغْش محرما

تركت خضيباً في العريش وصرمة صفايا كراماً بُسْرُها قد تحمما

وكنت إذا شك المنافق أسمحت إلى الدين نفسي شطره حيث يمما

هذا ما فعله أبو خيثمة ، فلماذا لم يفعل هلال بن أُمية ما فعله زميله ؟..

إن الروايات تترى عنه بأنه رجل صالح تقي ، يحب رسول الله ﷺ ويلتزم أوامره..

أهناك ظروف حالت بينه وبين ذلك ؟..

إن وقائع التاريخ تذكر أنه كان يملك المال والراحلة .. وليس هناك ما يعوق أو يحول بينه وبين الذهاب ..

وعاد الرسول ﷺ من هذه الغزوة.

وكانت من أولى أوامره لجماعة المسلمين :

«لا تكلموا أحداً من هؤلاء الثلاثة» :

كعب بن مالك.

ومُرارة بن الربيع.

وهلال بن أُمية.

يقول كعب بن مالك : هل لقي هذا أحد غيري؟..

قالوا : نعم، رجلان قالا مثل مقالتك، وقيل لهما مثل ما قيل لك.

قلت : من هما؟..

قالوا : مرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية.

فذكروا لي رجلين صالحين فيهما أُسوة، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا نحن الثلاثة.

فاجتنبَنا الناس وتغيّروا لنا.

ثم يقول : فأقمنا على ذلك حتى مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله يأتيني فقال :

«إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك».

قلت : أطلّقها أم ماذا؟..

قال : لا، بل اعتزلْها ولا تقربها، وأرسلَ إلى صاحبي بمثل ذلك.

فقلت لامرأتي : إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض..

فماذا كان من أمر هلال بن أُمية عندما وصل له هذا الخبر؟..

يقال : جاءت امرأته رسول الله ﷺ فقالت :

« يا رسول الله إن هلال بن أُمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفتكره أن أخدمه ؟ . .

قال : لا ولكن لا يقربنك .

قالت : والله يا رسول الله ما به من حركة إليَّ ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، ولقد تخوفت على بصره .

.. إنها دموع التوبة ، دموع الندم ، عن التخلف عن رسول الله ﷺ ، وعدم الاستجابة الفورية لما أمر .

إنه الصراع الحنيف مع النفس البشرية ، التي أحسّت أنها أخطأت في حق نفسها وفي حق رسولها وفي حق ربها .

عندها تاب اللهُ عليهم إنه هو التوّاب الرحيم ، قال تعالى :

﴿ لقد تاب اللهُ على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلّا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التوّاب الرحيم ﴾[1] .

هذا هو الموضوع الأول الذي ذكر فيه القرآنُ هلالَ بن أمية مع زميليه اللذين تخلفا في غزوة تبوك . .

أما الموضوع الثاني : فيذكر الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن ابن عباس قال :

« لما نزلت ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ﴾[2] .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١١٧ — ١١٨ .

(٢) سورة النور آية رقم ٤ .

قال سعد بن عبادة — وهو سيد الأنصار — رضي الله عنه :

«أهكذا أنزلت يا رسول الله»؟..

فقال رسول الله ﷺ :

«يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم»؟..

فقالوا : يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلّا بكراً ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منّا أن يتزوجها من شدة غيرته.

فقال سعد : والله يا رسول الله إني لأعلم إنها الحق وإنها من (الله) ، ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ، ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء ، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته.

قال : فما لبثوا إلا يسيراً — حتى جاء هلال بن أُمية — وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، فجاء من أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلاً ، فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ ، فقال :

«يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً ، فرأيت بعيني وسمعت بأذني».

فكره رسول الله ﷺ — ما جاء به — واشتد عليه ، واجتمعت الأنصار ، وقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة.

الآن يضرب رسولُ الله ﷺ هلالَ بن أُمية ويبطل شهادته في الناس.

فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً ، وقال : يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به ، والله يعلم إني لصادق.

فوالله إن رسول الله يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسول الله ﷺ الوحي :

﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم

أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ﴾[1].

متى حدث هذا مع هلال بن أُمية؟..

أحدث ذلك قبل غزوة تبوك أم بعدها؟.

وَمَنْ مِنْ أزواجه التي حدث معها ذلك؟..

إننا نرجح أن تكون هذه الحادثة وقعت قبل غزوة تبوك، لأن هلال بن أُمية في غزوة تبوك كان شيخاً هرماً لا يتحرك إلا بصعوبة، وليس له في النساء رغبة كما تحدثت بذلك زوجته أمام رسول الله ﷺ..

وإذا كان ذلك كذلك فمَن مِن زوجاته التي حدث معها ذلك؟..

لقد كان متزوّجاً من الفريعة بنت مالك بن الدخشم.

والدها مالك بن الدخشم، شهد العقبة في قول ابن اسحاق، وشهد بدراً وهو الذي أسر يوم بدر سهيل بن عمرو، وفي ذلك يقول:

أسرت سهيلاً فلا أبتغي أسيراً به من جميع الأمم
وخِندف تعلم أن الفتى فتاها سهيل إذا يظلم
ضربت بذي الشفر حتى انثنى وأكرهت نفسي على ذي العلم[2]

وأرسله الرسول ﷺ مع معن بن عدي فأحرقا مسجد الضرار.

فهو رجل مسلم مجاهد في سبيل الله، وجندي من جنود الدعوة الإسلامية.

وعن أنس بن مالك قال: ذكر مالك بن الدخشم عند النبي ﷺ فسبوه، فقال النبي ﷺ:

---

(١) سورة النور آية رقم ٧.

(٢) سيرة ابن هشام.

«لا تسبوا أصحابي».

والسؤال الذي نطرحه، أيمكن أن تفعل فتاة من فتيات هذا الرجل المجاهد هذا العمل؟..

ومِنْ فتاة محصنة تعيش في عصمة رجل؟..

ونشأت في بيت إيمان وتقوى. وجهاد وشهادة.. إننا نستبعد أن يحدث ذلك منها.

وإذا لم تكن هذه الزوجة أتكون الثانية؟..

إن الزوجة الثانية — هي مليكة بنت عبدالله بن أبي سلول — زعيم المنافقين في المدينة.

فوالدها: عبدالله بن أبيّ كبير المروِّجين لحادث الإفك، وكان يرمي من وراء ذلك إلى الطعن في عِرض النبي ﷺ، وعِرض أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأن يضع من المكانة الخلقية للحركة الإسلامية.

ووالدها أيضاً: كان له عديد من الجواري اللواتي يزاولن حرفة البغاء بغية الكسب والربح. وأرادت إحداهن أن تتوب بعد أن أسلمت، ولكنه تشدّد عليها، فأقبلت إلى أبي بكر رضي الله عنه وشكت ذلك إليه، فذكره للنبي ﷺ فأمره بقبضها.

فصاح عبدالله بن أُبيّ: مَن يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا.

فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء إنْ أَرَدْنَ تحصُّناً لتبتغوا عَرَضَ الحياة الدنيا، وَمَن يُكرههنَّ فإن الله من بعد إكراههنَّ غفورٌ رحيم﴾[1].

أتكون ابنة عبدالله بن أُبيّ صاحبة هذه الحادثة المشهورة؟..

---

(١) سورة النور آية رقم ٣٣.

إن ما بيننا من نصوص وأدلة لا تصل بنا إلى درجة اليقين لنحكم في هذه القضية لهذه أو لتلك، والله وحده هو أعلم بذلك.

وبعد هذا مَن المتهم مع زوجة هلال بن أُمية؟..

أهو رجل من الكافرين المشركين؟..

أم أنه رجل من هؤلاء المنافقين الذين يُظهرون إسلامهم ويُبطنون كفرهم؟.

إنه لا من هؤلاء ولا من هؤلاء..

فهو رجل مسلم — صادق الإيمان — يسمى شريك بن سحماء، وسحماء هذه هي أُمه، واسم أبيه: عبدة بن مغيث:

وهو أخ للبراء بن مالك من أُمه.

البراء الذي قال فيه رسول الله ﷺ:

«كم من ضعيف مستضعف ذي طِمرين لا يُؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه، منهم البراء بن مالك».

يقول ابن إسحاق: زحف المسلمون إلى المشركين في اليمامة حتى ألجأوهم إلى الحديقة، وفيها عدو الله مسيلمة، فقال البراء:

«يا معشر المسلمين، ألقوني عليهم».

فاحتمل حتى إذا أشرف على الجدار اقتحم فقاتلهم على الحديقة حتى فتحها على المسلمين وقتلوا مسيلمة.

وشريك هذا بعثه أبو بكر الصديق رضي الله عنه رسولاً إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة أن يسير إلى العراق..

وعندما قام بسفارته بين خليفة رسول الله ﷺ وبين القائد، أصدر أمره أبو بكر بجعله أميراً من أمراء الشام.

وبعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسولاً إلى عمرو بن العاص، حين أذن له أن يتوجه إلى فتح مصر..

أيمكن أن يحدث هذا الفعل من هذا الرجل؟..

إن الآراء تضطرب في ذلك أشدّ الاضطراب.. ولكن الحادثة وقعت فعلاً، ومع إحدى زوجات هلال بن أُمية..

حتى قال الرسول ﷺ عن هذه المرأة:

«لولا الايمان لكان لي ولها شأن».

رحم الله هلال بن أُمية وأسكنه فسيح جناته.

أسباب نزول الآيات

لما نزلت : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء — إلى قوله تعالى — الفاسقون ﴾ ..

قال سعد بن عبادة — وهو سيد الأنصار — : أهكذا أُنزلت يا رسول الله؟ ..

فقال رسول الله ﷺ :

«ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم؟ ..»

قالوا : يا رسول الله ، إنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ، ولا طلَّق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها ، من شدة غيرته .

فقال سعد : والله يا رسول الله ، إني لأعلم أنها حق ، وأنها من عند الله ، ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء ، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته . فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أُمية من أرضه عشية فوجد عند أهله رجلاً ، فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال :

— يا رسول الله ، إني جئت أهلي عشياً فوجدت عندها رجلاً ، فرأيت بعيني وسمعت بأذني .

فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه .

فقال سعد بن عبادة : الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ، ويبطل شهادته في المسلمين.

فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً.

ثم قال : يا رسول الله ، إني قد أرى ما قد اشتد عليك مما جئتك به ، والله يعلم إني لصادق.

فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحي — وكان إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تَرَبُّدِ جلده — فأمسكوا عنه حتى إذا فرغ من الوحي ، فنزلت :

﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ﴾ الآيات كلها ... فسري عن رسول الله ﷺ فقال :

«أبشرْ يا هلال ، فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً».

فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربي.

فقال رسول الله ﷺ : «أرسلوا إليها». فجاءت ، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا.

فقال هلال : والله يا رسول الله لقد صدقت عليها.

فقالت : كذب.

فقال رسول الله ﷺ : «لاعنوا بينهما».

فقيل لهلال : اشهد.. فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كانت الخامسة قيل له :

«يا هلال اتقِ الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب».

فقال : والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها.

فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

ثم قيل للمرأة : اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. وقيل لها عند الخامسة : اتقِ الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليكِ العذاب.

فتلكأت ساعة وهمّت بالاعتراف.. ثم قالت : والله لا أفضح قومي ، فشهدت الخامسة : أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

ففرق رسول الله ﷺ بينهما ، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ، ولا يرمى ولدها ، ومَن رمى ولدها فعليه الحد.

وقضى رسول الله ﷺ أن لا بيت لها عليه ، ولا قوت لها ، من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ، ولا متوفى عنها. وقال :

«إنْ جاءت به أصيهب[1] أريسح[2] حمش الساقين[3] فهو لهلال ، وإنْ جاءت به أورق[4] جعداً[5] جمالياً خدلج الساقين سابغ الإليتين فهو للذي رميت به».

فجاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الإليتين.

فقال رسول الله ﷺ : «لولا الايمان لكان لي ولها شأن».

---

(١) أصيهب : تصغير أصهب ، وهو الذي في شعره حمرة.

(٢) أريسح : تصغير أرسح ، وهو خفيف لحم الاليتين.

(٣) حمش الساقين : دقيقهما.

(٤) أورق : أسمر.

(٥) جعداً : شديد الأسر والخلق والذي شعره غير سبط ، وهما مدح. والقصير المتردد الخلق والبخيل ، وهما ذم.

تذييل...

لماذا تخون المرأة زوجها..؟ وتلتقي بآخر لتعاشره معاشرة الأزواج، تفعل ذلك وهي لا زالت في عصمة الأول؟.

أهناك ملابسات وظروف داخلية وخارجية تدفع المرأة إلى ذلك؟..

وإذا كان فما هي الملابسات والظروف التي تدفع المرأة إلى الخيانة الزوجية مضحية بسمعة الزوج، وشرف الأسرة، وتاركة جسدها لقمة سهلة طرية بين أنياب الذئاب والخنازير البشرية؟.

أيكون للفراغ الذي تعيش فيه بعض الزوجات فترة كبيرة من الوقت بعيدة عن زوجها عامل من عوامل الخيانة؟..

إننا كثيراً ما نرى في عصرنا الراهن بعض رجال الأعمال والتجارة، ومجموعة من الأطباء، وأساتذة الجامعات، ورجال القضاء والنيابة، يلقى عليهم من الأعمال والتكاليف، ما يستغرق كل يومهم، وجزءاً كبيراً من ليلهم، وتترك الزوجات هذه الفترات الطويلة، لا يشغلهن شاغل ولا يقطع وحدتهن أنيس.

هنا يداعبهن الشيطان بوساوسه، ويدغدغ أعصابهن، ويدفعهن دفعاً إلى الجريمة..

وإذا لم يكن للفراغ هذا العامل في الخيانات الزوجية، أيكون للجوعة الجنسية الأثر الكبير في ذلك؟.

لأننا نلحظ أن بعض الرجال — وهم في خريف العمر — يلجأون إلى الزواج من فتيات صغيرات في مقتبل الشباب ، فيكون للقاء الخريف مع تفتح الربيع أثر كبير في نفور الزوجة من زوجها ، وتطلعها إلى شاب آخر في مثل سنها يبادلها المتعة الحرام ، واللذة الآثمة .

ونستطيع أن نقول إذن ، بأن الاختلاف البيِّن بين عمر الرجل والزوجة له أثر كبير وعامل فعّال في الخيانات الزوجية .

أم أن هذا غير واقع في الجملة — وكثيراً ما نرى فتيات صغيرات يعشن مع أزواج في عمر آبائهن وهنّ سعداء في حياتهن — مغتبطات بأزواجهن .

أنقول بأن التباين في عمر الزوجين ليس عاملاً من عوامل الخيانة الزوجية ؟ .

وإذا لم يكن التباين عاملاً من عوامل الخيانة فماذا يكون؟ ..

أيكون العامل الاقتصادي ، ودخل الزوج عاملاً من هذه العوامل؟ ..

إن المرأة في الجملة تحب الذهب واللآلئ .

وتأخذ بلبها الجواهر الغالية ، والأشياء الثمينة .

وإذا كانت الجدات قديماً ، كن يهوين جمع حبات الخرز ، وقطع الزجاج ، ويتزيّنّ ببعض أسنان الحيوانات المفترسة ، وببعض الأصواف والأوبار والخفيف المزركش من ريش الطيور .

فإن المرأة في القرن العشرين ، هي جامعة التحف ، وحائزة النادر فهي تحب هذه الجوهرة شريطة ألا تكون لها ثانية تشاركها في التزين بها ، وتحب هذا الفستان ، وتجري لاهثة حول بيوت الأزياء لتحصل على كل ما يبهر العين ، ويلفت النظر ويسرّ القلب ، ويلوي أعناق الرجال .

هكذا المرأة كانت في العصور السابقة .

وهكذا المرأة في عصرنا الراهن الذي نعيش فيه .

وهكذا ستكون المرأة في كل العصور، حتى يرث اللهُ الأرض ومَن عليها.

فإذا لم تحصل المرأة على حاجتها من طريق زوجها، أو بالطرق المشروعة لجأت إلى طرق أخرى غير مشروعة، إما أن تمدّ يدها إلى مدخرات زوجها أو أبيها، تختلس منها ما يحقق لها شراء هذا الفستان مرة، والجوهرة الثالثة مرة أُخرى، وهكذا.

فإذا سُدت أمامها الطرق وأُقفلت في وجهها النوافذ، لجأت إلى الطريق الآخر طريق الشيطان تغازل الأخدان، وتستهوي العشاق، وتتلصص في غفلة من الزوج لتحقق للجياع أغراضهم، ويحققون لها رغباتها من شراء هذا، وحيازة ذلك.

إننا نقرر أن السبب الحقيقي للخيانات الزوجية، هو غياب الوعي الإسلامي الصحيح وإبعاد الأخلاق والأحكام الإسلامية عن المجتمع، وإحلال قوانين وأخلاق الغرب الماجنة الساقطة محلها.

أما ما ذكرناه من:

الفراغ الذي تعيش فيه بعض الزوجات.

الفارق الكبير بين سن الرجل والزوجة.

تطلع المرأة إلى ما يرضي غرورها ويزين جيدها وعنقها.

لقد احتاط الاسلام لهذه العوامل، ووضع الضمانات الكافية لسلامة الأسرة، والحفاظ على كيانها وعرضها.

فالرجل يسعى في فجاج الأرض، ويضرب في جنباتها شريطة ألا يشغله ذلك عن بيته وزوجته.

ويلحظ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الجانب، فيصدر أوامره والجنود في معركة، والحرب قائمة بيننا وبين الأعداء بعدم بقاء الجندي في سفرته البعيدة في بلاد الأعداء أكثر من ثلاثة شهور، حتى يعود إلى الزوجة الصابرة المؤمنة يقضي معها فترة من الزمن، ثم يعود بعدها إلى ميدانه.

وأيضاً حتى تقوم الأسرة على سياج متين من الخلق والدين ، يشترط في الزواج التكافؤ.

لا بد أن يكون هناك تكافؤ بين الرجل والمرأة ، تكافؤ في الحرية وتكافؤ في البنية ، وتكافؤ في تقارب الأعمار.

وعندما لجأ أحد الصحابة وهو جابر بن عبد الله رضي الله عنه إلى الزواج من ثيب.

قال له الرسول ﷺ :

«هلا تزوجت بكراً تلاعبها وتلاعبك؟».

فالثيب للثيب ، والبكر للبكر.

وكلمة التكافؤ : كلمة واسعة يدخل فيها كل البنود والشروط التي تحقق أمن الأسرة ، وتضمن سلامتها ، وتصون عفافها.

ولم يكتفِ الإسلام بذلك ، بل وضع ضمانات في المجتمع ، وحذّر من الاختلاط ، الاختلاط الذي يجعل الرجل يلحظ الفتيات الجميلات ، ويزين له الشيطان جمالهن وحسنهن فيرديه في الرذيلة ، والاختلاط الذي يجعل المرأة تقابل الرجال ، وتخادن الشباب ، وتلتقي بهم في أوقات متتابعة ، فيقع ما حذر الرسول ﷺ منه «ما اجتمع رجل وامرأة إلّا وكان الشيطان ثالثهما».

ونحن نعيش في عصر موار بالفتن ، صخاب بكل عجيب ، ينقل إلينا الفتنة إلى داخل بيوتنا ومخادعنا.

فالفتنة في «المذياع» عن طريق الأغنية الخليعة ، والمسلسل الماجن والكلمة القبيحة ، والصوت المخنث.

والفتنة في «التلفاز» بالصورة المجسّمة ، والفتنة الطاغية وأساليب الشيطان التي تلقن الزوجات طريق الخيانة ، وتبرر لهن الرذيلة وتشجع عليها ، وتقدّم أسهل الطرق لذلك.

والفتنة عن طريق الصحافة : التي تحاول أن تصنع المجتمع ليكون صورة من الغرب الهابط.

فالمخادعة بين العشاق طريق إلى الحضارة.

والخيانة الزوجية وسيلة إلى الحرية.

والعفة، والشرف، والأمانة، عند صحافة القرن العشرين دعوة إلى الرجعية، دعوة إلى الهمجية، دعوة إلى التأخر.

... فمتى يستيقظ العالم الإسلامي.. ويجعل من هذه الوسائل الثلاث أعمدة للبناء، أعمدة للخير، أعمدة للتطهير من الرذيلة، والتربية للفضيلة، والعمل لخير البشرية قاطبة.

متى يحدث هذا يا رب؟.

إنا لمنتظرون.

الأشعث بن قيس

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ
وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة آل عمران : آية رقم ٧٧]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير: نزلت هذه الآية في الأشعث بن قيس.
قال ذلك صاحب الدر المنثور جـ ٢ ص ٤٤.
وقاله الإمام الطبري في تفسيره جـ ٦ ص ٥٢٩.
وذكره الإمام البخاري في صحيحه جـ ٣ ص ١١٠.
وهو فيه أيضاً جـ٣/ ١٢٢، ١٤٣، ١٧٧ — ١٧٩.
جـ ٦/ ٣٤جـ ٨/ ١٣٤ — ١٣٧ — ١٣٨ جـ ٩/ ٧٢، ١٣٣.
وذكره الإمام أحمد في مسنده جـ ٣/ ١١٣، ١١٧.

لمن هو الأشعث بن قيس؟..

الأشعث بن قيس

رضي الله عنه

... هو الأشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية ، يكنى أبا محمد ، نشأ على بطاح اليمن.. تلك البلاد التي كان لها دور في التاريخ ، وتجوّل في أرجائها هدهد ، واخترقت بطاحها رسالة نبي.. فخضعت لها ملكة صاحبة دولة وسلطان..

ولقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى :

﴿وتفقَّدَ الطيرَ فقال ما لِيَ لا أرى الهدهدَ أمْ كانَ من الغائبينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً أو لَأَذْبَحَنَّهُ أو لَيَأْتِيَنِّي بسلطانٍ مُبينٍ. فمكثَ غيرَ بعيدٍ فقالَ أَحَطْتُ بما لم تُحِطْ بهِ وجئتكَ من سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقينٍ. إنّي وجدتُ امرأةً تملكهم وأُوتِيَتْ مِنْ كلّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيمٌ. وجدتُها وقومها يسجدون للشمسِ من دونِ اللهِ وزَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعمالَهمْ فصَدَّهم عنِ السبيلِ فهم لا يهتدون﴾.

إلى قوله تعالى :

﴿ قيلَ لها ادخلي الصَّرْحَ فلَمَّا رأتهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وكشَفتْ عن سَاقَيْها ، قال إنه صرحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير ، قالت ربِّ إني ظلمتُ نفسي واسلمتُ مع سليمانَ للهِ ربِّ العالمين ﴾[1] .

---

(١) سورة النمل ، الآيات من ٢٠ إلى ٢٤ — وآية ٤٤.

وكان الأشعث يسمى : «عرف النار».

وتساءل : كيف كانت طفولته؟.. وكيف قضى مرحلة شبابه؟..

يصمت التاريخ عن ذلك فلا يتحدث عنه من قريب أو بعيد، سوى أنه كان رئيساً مطاعاً في كندة.

ثم ماذا؟.. سمع بدعوة الإسلام، وبدخول الناس أفواجاً في هذا الدين، فقدِمَ إلى الرسول ﷺ في ثمانين راكباً من كندة، ودخلوا على رسول الله مسجده وقد رجلوا شعورهم، وتكحلوا، عليهم جبب الحبرة وقد كففوها بالحرير، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال : «ألم تسلموا؟..».

قالوا : بلى. قال : «فما بال هذا الحرير في أعناقكم»؟..

فشقوها وألقوها.

ثم قال الأشعث : يا رسول الله، نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار.

فتبسّم رسول الله ﷺ وقال :

«ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحرث».

وكان العباس وربيعة تاجرين، وكانا إذا شاعا في بعض العرب فسئلا ممن هما؟ قالا : نحن بنو آكل المرار، يتعزون بذلك.

ثم قال لهم رسول الله ﷺ : «بل نحن بنو النَّضْر بن كنانة، لا نقفو أُمنا ولا ننتفي من أبينا».

فقال الأشعث : هل فرغتم يا معشر كندة؟ والله لا أسمع رجلاً يقولها إلا ضربته ثمانين[1].

ثم عاد الوفد إلى بلده، بعد أن تفقهوا في دينهم، وعرفوا بعض شرائع الإسلام. واستمر الحال على ذلك.. حتى وفاة الرسول ﷺ.

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٥٤، وابن الأثير جـ ٢ ص ٢٩٨.

وارتدّت بعض قبائل العرب.. وكان الأشعث أحد الذين ارتدّوا عن دينهم ورغبوا عن الإسلام.

وعلم الخليفة أبو بكر بارتدادهم، فأرسل اليهم المهاجر بن أُمية في جيش كبير فحاربهم وتغلب عليهم، واستطاع أن يظفر بالأشعث ويقبض عليه. ولما مَثَلَ بين يديه قال المهاجر:

«الحمد لله الذي خطأ فاك يا أشعث يا عدو الله، فقد كنت أشتهي أن يخزيك الله».. وشدّه كتافاً..

فقيل له: أخِّرْهُ وسَيِّرْهُ إلى أبي بكر، فهو أعلم بالحكم فيه، فسيّره إلى أبي بكر مع السبي.. فكان المسلمون يلعنونه، ويلعنه سبايا قومه، وسمّته النساء «عرف النار» وهو اسم الغادر عندهم.

فلمّا قَدِمَ المدينة قال له أبو بكر: ما تراني أصنع بك؟..

قال: لا أعلم.

قال: فإني أقتلك.

قال: فأنا الذي راوضت القوم في عشرة فما يحلُّ دمي.

قال: إنما وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على مَن فيها، وإنما كنت قبل ذلك مراوضاً.

فلما خشيَ القتل قال: أوتحتسب فيّ خيراً فتطلق إساري وتقيلني عثرتي وتفعل بي مثل ما فعلت بأمثالي وترد عليَّ زوجتي؟

وقد كان خطب أُم فروة أُخت أبي بكر، لما قدِمَ على النبي ﷺ مع وفد كندة.

وأُم فروة هذه كانت من المبايعات، بايعت رسول الله ﷺ، حديثها عند قاسم ابن غنام الأنصاري عن بعض أُمهاته، عن أم فروة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن أحَب الأعمال إلى الله عز وجل الصلاة في أول وقتها»[1].

فإنْ فعلتَ ذلك تجدني خير أهل بلادي لدين الله.

فحقن أبو بكر دمه وردَّ عليه أهله، وأقام بالمدينة في حياة أبي بكر رضي الله عنه..

وولد له محمد وإسحاق وحبابة وقريبة[2].

ثم كانت معركة القادسية.. تلك المعركة التي كان لها دويّ في سمع التاريخ وانتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً.. وأحسّ عمر بن الخطاب بضراوة الفرس وكثرة عددهم، فأرسل الأشعث مدداً لسعد بن أبي وقاص في ألف وسبعمائة من أهل اليمن...

وعندما التقى به سعد فوق تلك الأراضي البعيدة، رحّب به، وأوصاه ألا يؤخذ المسلمون من قبله، ثم جعله أحد الرسل الذين أرسلهم سعد إلى «يزدجرد» ملك الفرس.

وسار هؤلاء الرجال كل منهم جيش وحده:

النعمان بن مقرن.

وبُسر بن رهم.

والأشعث بن قيس.

وعاصم بن عمرو.

ولما وصلوا إلى ساحة «يزدجرد» اجتمع الناس ينظرون اليهم وتحتهم خيول كلها صُهَال، وعليهم البرود، وبأيديهم السياط. فأذن لهم وأحضر الترجمان وقال: سَلْهُم ما جاء بكم، وما دعاكم إلى غزونا والتوغل ببلادنا؟.. أمن أجل أننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟..

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٤ ص ١٩٤٩.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٣٨١.

فقال النعمان بن مقرن لأصحابه : إن شئتم تكلمت عنكم ، ومَن شاء آثرته .

فقالوا : بل تكلم.

فقال : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير، وينهانا عن الشر، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدعُ قبيلة إلّا وقاربه منها فرقة ، وتباعد عنه بها فرقة . ثم أمر أن ينبذ إلى مَن خالفه من العرب ، فبدأ بهم فدخلوا معه على وجهين.

فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف.

فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسَّنَ الحسن وقبَّحَ القبيح كله ، فإنْ أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر هو الجزية . فإنْ أبيتم فالمناجزة ، فإنْ أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإنْ بذلتم الجزاء قبلنا ومنعناكم وإلّا قاتلناكم[1] .

فتكلّم «يزدجرد» فقال :

«إنّي لا أعلم في الأرض أُمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بينٍ منكم . قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا أمركم ، ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس ، فإن كان غرر لحقكم فلا يغرّنكم منا ، وإن كان الجهد فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم . فأسكت القوم» .

فقام المغيرة بن زرارة فقال :

«أيها الملك ، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنّما يكرم الأشراف ويعظم حقهم الأشراف ، وليس كل ما أُرسلوا به

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٤٥٦.

قالوه، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، فجاوبني لأكون الذي ابلغك وهم يشهدون على ذلك لي.

فأما ما ذكرت من سوء الحال فهي على ما وصفت وأشد، ثم ذكر من سوء عيش العرب وإرسال الله النبي ﷺ إليهم، ثم قال له:

— اختر إن شئت الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإن شئت السيف، أو تسلم فتنجي نفسك؟..

فقال: لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي»[1].

ثم تتابعت الرسل بينهم — وكانت المعركة الفاصلة — بين الفرس والعرب. وقام الأشعث في قومه كندة فقال:

«لله در بني أسد أي فري يفرون وأي هذي يهذون، ثم نهد ونهدوا معه فأزالوا الذين بازائهم حتى فتح الله عليهم».

.. وكان الأشعث بن قيس أحد الذين قصدوا خالد بن الوليد بعد انتصاره في معركة اليرموك، فأجازه بعشرة آلاف.

نعم عشرة آلاف، والتي تكفي في ذلك الوقت لتجهيز جيش كامل.

فلما سمع عمر بن الخطاب بما أخذه الأشعث، كتب إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته، حتى يعلم من أين أجاز الأشعث.

أمِنْ ماله أم من مال إصابة أصابها؟..
فإن زعم أنه فرّقه من إصابة أصابها، فقد أقرّ بخيانة.
وإن زعم أنه من ماله فقد أسرف.
واعزله على كل حال واضمم إليك عمله.

(1) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٤٥٧. والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٧ ص ٤٧.

فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر ثم سأل خالداً من أين أجاز الأشعث؟.

فلم يجبه.

فقام بلال فقال: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ونزع عمامته، فلم يمنعه سمعاً وطاعة، ووضع قلنسوته ثم أقامه فعقله بعمامته وقال:

من أين أجزت الأشعث، من مالك أجزت أم من إصابة أصبتها؟..

فقال: بل من مالي، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال:

«نسمع ونطع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا»[1].

إن كان المال الذي قدمه للأشعث من مال المسلمين فقد خان الأمانة، وهذه صفة لا يصح أن يتصف بها قائد.

وإن كان المال الذي قدمه من ماله الخاص فقد أسرف، والقائد المسرف لا يؤتمن على جنوده..

فلا بد من عزله.. وعُزِلَ خالد، وكتب اليه عمر بالإقبال عليه..

فرجع خالد إلى قنسرين فخطب الناس.. وعلم جنوده بعزله. فقام إليه أحد الرجال وقال:

كيف تعزل يا خالد، وأنت في قمة الانتصار؟.. إنها الفتنة سنملؤها خيلاً ورجلاً على ابن الخطاب في المدينة.

إن هذا الرجل يريد من خالد أن يعزل عمر، يريده وهو القائد أن يأمر جيشه بالتوجه إلى مقر الخلافة، ويعزل الرجل الجالس فوقها.

ولو فعل ذلك خالد — وهو بيده الجيش — ما توقف أحد في طريقه، ولكن الرجل الذي تربى في مدرسة الإسلام قال لمن يدعوه إلى الثورة والتمرد:

---

(1) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٥٣٦.

.. لا يا أخي..

«إن الأمة الإسلامية التي حطمت دولة الفرس، وأزالت عروش الروم، ليست في حاجة الآن إلى سيف خالد.

إن حاجتها الى عقل عمر أكثر من حاجتها إلى سيف خالد، ومحال أن تكون فتنة وابن الخطاب موجود.

وسار إلى المدينة، فلما قدم على عمر شكاه وقال: قد شكوتك إلى المسلمين فبالله إنك في أمري لغير مجمل، فقال له عمر:

من أين هذا الثراء؟..

قال: من الأنفال والسهمان، ما زاد على ستين ألفاً فلك؟..

فقوّم عمر ماله، فزاد عشرين ألفاً فجعلها في بيت المال ثم قال:

«يا خالد والله إنك عليّ لكريم وإنك إليّ لحبيب».

وكتب إلى الأمصار: «إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فخّموه وفتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة وعوّضه عما أخذ منه»[1].

إنهم رجال مدرسة القرآن وأتباع محمد ﷺ، صنعهم على عينه وأدبهم بأدب ربهم من كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولكن أين صوت الأشعث فيما حدث لخالد؟.. إن التاريخ يغفله في تلك اللحظة ولا يتحدث عنه في مجالس عمر، ولا في الحروب التي كانت بعد معركة القادسية.. أين هو؟.. وفي أي البلاد كانت إقامته؟.. لا أحد يدري حتى كانت خلافة عثمان رضي الله عنه.

فيصدر عثمان أمره بتولية الأشعث إمارة «أذربيجان»[2]، ويستمر فيها حاكماً

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٣٧.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ١٤٧.

وأميراً لم تسمع عنه شكوى.. ولم يقصر في أمر من أمور الولاية، واعتزل الفتنة وآثر البقاء في ولايته حتى قتل عثمان، واضطربت الأمور وعمت البلوى التي لم يسلم منها أحد.. وفي وسط هذا الظلام الدامس الذي لفّ المسلمين في تلك الفترة، تمت بيعة عليّ رضي الله عنه.

وأراد الإمام علي أن يأخذ بيعة الأمصار، فاتجه إلى البصرة وأرسل منها إلى جرير ابن عبد الله البجلي وكان عاملاً على «همذان» وإلى الأشعث بن قيس وكان أيضاً على «أذربيجان» وأمرهما بأخذ البيعة له والحضور عنده، ونفذا ما طلب منهما.

واستمر الحال على ذلك حتى كانت موقعة صفين، وجاء الأشعث بجيش كبير وانضم إلى جيش الإمام علي. ولقد حاول رجال معاوية في تلك الموقعة أن يمنعوا الماء عن جيش علي رضي الله عنه، فلما سمع الإمام علي بما يريده جيش معاوية قال: قاتلوهم على الماء.

فقال الأشعث بن قيس: أنا أسير إليهم، فسار إليهم مع مجموعة من الجنود، فلما دنوا منهم ثاروا في وجوههم، واستطاع الأشعث وجنوده أن يجلوهم عن أماكنهم.

فلما رأى معاوية ما فعله الأشعث بجنوده أرسل اليهم يزيد بن أسد البجلي، وأرسل عليّ مدداً للأشعث شبث بن ربعي الرياحي. وازداد القتال وقاتلوهم حتى خلوا بينهم وبين الماء وصار في أيدي أصحاب علي.

فقالوا: والله لا نسقيه أهل الشام.

فأرسل عليّ إلى أصحابه: أن خذوا من الماء حاجتكم وخلوا عنهم، فإن الله نصركم عليهم ببغيهم وظلمهم[1].

---

(1) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٨٤ — ٢٨٥. والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٧ ص ٢٧٩.

ثم استؤنف القتال مرة أخرى ، واستطاع أهل العراق أن يزيلوا أهل الشام عن أماكنهم ، وأوشكت الدائرة أن تدور عليهم.

فلما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك ، قال لمعاوية :

— هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة ؟ ..

قال : نعم.

قال : نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها : هذا حكم بيننا وبينكم ، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم مَن يقول : ينبغي لنا أن نقبل ، فتكون فُرقة بينهم ، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل.

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا : «هذا حكم ، كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم».

فلما رآها الناس قالوا : نجيب إلى كتاب الله.

فقال لهم عليّ :

«عباد الله ، امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم ، فإن معاوية وعَمراً وابن أبي معيط وابن أبي سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، أنا أعرَف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً ثم رجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال .. ويحكم ! والله ما رفعوها إلا خديعة ووهناً ومكيدة».

فقالوا له : لا يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله[1].

فقال لهم علي : فإني إنما أُقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه.

فقال الأشعث بن قيس : أرى الناس قد رضوا بما دعوهم إليه من حكم القرآن ، فإن شئتَ أتيتُ معاوية فسألته ما يريد؟ ..

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣١٦.

قال علي : ائته.

فأتاه الأشعث فقال له : لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟

قال معاوية : لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه .. تبعثون رجلاً ترضون به ، ونبعث رجلاً نرضى به ، نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه.

قال الأشعث : هذا الحق.

وعاد إلى عليّ فأخبره.

فقال الناس : قد رضينا وقبلنا.

واختار أهل الشام عمرو بن العاص.

وقال الأشعث ومعه جماعة — ممن صاروا خوارج — : إنا قد رضينا بأبي موسى الأشعري.

فقال علي : قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن ، لا أرى أن أُولي أبا موسى.

فقال الأشعث وزيد بن حصين ومِسعر بن فَدكي : لا نرضى إلّا به فإنه قد حذرنا مما وقعنا فيه.

قال علي : فإنه ليس بثقة ، قد فارقني وخذّل الناس عني ، ثم هرب مني حتى أمنته بعد شهر ، ولكن ابن عباس أُوليه ذلك.

قال الأشعث ومَن معه : والله لا نبالي أنت كنت أم ابن عباس ، لا نريد إلّا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء.

فقال علي : قد أبيتم إلّا أبا موسى ..

قالوا : نعم.

قال : فاصنعوا ما أردتم (١).

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٣٢١. والبداية والنهاية جـ ٧ ص ٣٠١.

وثيقة التحكيم وموقف الأشعث منها

.. وحضر عمرو بن العاص عند الإمام عليّ ليكتب الوثيقة بحضوره. فكتبوا : «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين»..

فقال عمرو بن العاص : هو أميركم وأما أميرنا فلا.. اكتب اسمه واسم أبيه.

فقال الأحنف لعلي :

ـ لا تمحُ إمارة المؤمنين، فإني أخاف إنْ محوتها أن لا ترجع إليك أبداً، لا تمحُها وإنْ قتل الناس بعضهم بعضاً.

فأبى ذلك عليّ..

ولكن الأشعث قال للإمام علي : امحُ هذا الاسم، فمحي، فقال علي :

«الله أكبر، سُنَّة بسُنَّة، والله إني لكاتب رسول الله ﷺ يوم الحديبية فكتبت : محمد رسول الله».

وقالوا : لستَ برسول الله، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

فأمرني رسول الله ﷺ بمحوه..

فقلت : لا أستطيع.

فقال : أرِنيه، فمحاه بيده، ثم قال : إنك ستُدعى إلى مثلها فتجيب.

وكتب الكتاب[1] :

«هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.. قاضى عليّ على أهل الكوفة ومَن معهم، وقاضى معاوية على أهل الشام ومَن معهم.. أننا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره، وأن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونُميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله، وهما : أبو

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٣١٩ ــ ٣٢٠.

موسى عبدالله بن قيس ، وعمرو بن العاص ، عملا به ، وما لم يجداه في كتاب الله فالسنة العادلة والجامعة غير المفرّقة . وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما ، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه ، وعلى عبدالله بن قيس ، وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة لا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يقضيا ، وأجل القضاء إلى رمضان ، وإنْ أحبّا أن يؤخّرا ذلك أخّراه ، وإن مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام»[1] .

وشهد الأشعث بن قيس وعبدالله بن فحل العجلي وحجر بن عدي الكندي على هذه الوثيقة وآخرون معهم .

ومن أصحاب معاوية : أبو الأعور السلمي ، وحبيب بن مسلمة ، وزمل بن عمرو وآخرين ...

وخرج الأشعث بالكتاب يقرؤه على الناس ، ومرّ على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية ، فقرأه عليهم .

فقال عروة : تحكمون في أمر الله الرجال؟.. لا حكم إلا لله .

ثم شدّ بسيفه فضرب به عجز دابة الأشعث ضربة خفيفة ، واندفعت الدابة وصاح به أصحاب الأشعث ، فرجع وغضب للأشعث قومه ، وناس كثير من أهل اليمن .

فمشى إليه الأحنف بن قيس ومسعر بن فدكي وناس من بني تميم ، فاعتذروا فقبل اعتذارهم[2] .

ونتساءل : ماذا كان من أمر الحكمين؟..

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٣٢٠. والبداية والنهاية جـ ٧ ص ٣٠٢ — ٣٠٣.

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٢١.

لقد كان الأشعث من أوائل المشجعين لعملية التحكيم.. واختلف مع الإمام عليّ أولاً في مبدإ التحكيم، واختلف معه ثانياً في اختيار أبي موسى الأشعري.

فهل تحققت تفاؤلات الأشعث؟..

أم سار الأمر كما تنبأ به الإمام علي؟..

إننا لا نحكم على هؤلاء الرجال، ولا نستطيع أن ننال من موازينهم، ولكننا فقط نعبر عن النتيجة التي وصل إليها أمر التحكيم.

ذكر اجتماع الحكمين..

اجتمع الحكمان وابتدأ الكلام عمرو بن العاص فقال:

— يا أبا موسى، ألست تعلم أن عثمان قُتل مظلوماً؟..

قال: أشهد.

قال: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟..

قال: بلى.

قال: فما يمنعك منه وبيته في قريش كما قد علمت؟.. فإن خفت أن يقول الناس: ليست له سابقة، فقل وجدته وليّ عثمان الخليفة المظلوم والمطالب بدمه، الحسن السياسة والتدبير، وهو أخو أُم حبيبة زوج رسول الله ﷺ وكاتبه وقد صحبه وعرّض له بسلطان.

فقال أبو موسى:

— يا عمرو اتقِ الله، فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف تولاه أهله، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أني لو كنت معطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته علي بن أبي طالب.

وأما قولك : إن معاوية ولي دم عثمان فولّه هذا الأمر ، فلم أكن لأوليه وأدع المهاجرين الأولين.

وأما تعريضك لي بالسلطان ، فوالله لو خرج معاوية لي من سلطانه كله لَمَا وليته ، وما كنت لأرتشي في حكم الله ، ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب — رحمه الله —.

قال له عمرو :

— فما يمنعك من ابني وأنت تعلم فضله وصلاحه ؟..

فقال : إن ابنك رجلُ صِدق ، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة ! ..

وقال : يا ابن العاص ، إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعدما تقارعوا بالسيوف ، فلا تردنهم في فتنة ! ..

فقال له عمرو : خبرني ما رأيك ؟..

قال : أرى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى ، فيختار المسلمون لأنفسهم مَن أحبوا.

فقال عمرو : الرأي ما رأيت..

وأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فقال عمرو :

— يا أبا موسى ، أعلمهم أن رأينا قد اتفق.

فتكلم أبو موسى فقال :

— إنّ رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة.

فقال عمرو : صدَق وبَرّ.. تقدّم يا أبا موسى فتكلم.

فتقدم أبو موسى ، فقال له ابن عباس :

— ويحك ! والله إني لأظنه قد خدعك ! .. وإن كنتما اتفقتما على أمر فقدّمه

فليتكلّم به قبلك ، ثم تكلّم بعده فإنه رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما ، فإذا قمتَ إليه خالفك .

ولكن أبا موسى لم يستمع لما قاله ابن عباس ، وتقدم للناس فقال :

«أيها الناس ، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نرَ أصلح لأمرها ، ولا ألمّ لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية .. فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم مَن رأيتموه أهلاً».. ثم تنحّى .

وأقبل عمرو بن العاص فقال :

«إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأُثبت صاحبي معاوية ، فإنه وليُّ ابن عفان والمطالب بدمه وأحقّ الناس بمقامه»[1] .

.. هكذا تمّ أمر التحكيم.. فهل رضي الأشعث عن هذه النتيجة؟..

لقد كان رسول الإمام عليّ إلى معاوية .

وكان أول مَن ألقى بسهم في معركة صفين.

وكان أيضاً من المتشبثين برأيهم في إجابة أتباع معاوية إلى حكم الله عندما رفعوا المصاحف .

وكان أيضاً خلف اختيار أبي موسى الأشعري في تلك المهمة .

فماذا كان موقفه بعد هذه السلسلة المتلاحقة من الخداع التي قام بها بعض الأفراد لأغراض في نفوسهم ؟..

إننا ننزّه أصحاب رسول الله ﷺ من كل ما يشين ، وكل ما حدث في تلك الفتنة ..

ولكنها حدثت وكما أخبر بها رسول الله ﷺ .

«ان بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٣٣٢. والبداية والنهاية جـ ٧ ص ٣١٠.

كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي.. فكسّروا قِسيّكم وقطّعوا أوتاركم ، واضربوا بسيوفكم الحجارة»[1] .

ونقول : إن الأشعث لم يرتفع له صوت بعد ما حدث في التحكيم ، ولم تحدثنا كتب التاريخ ومصادره عن موقف الأشعث من ذلك..

أتراه اعتزل في بيته ؟..

وهجر سيفه ورمحه ؟..

وعاش مع دينه وكتاب ربه.. أم كان له شأن آخر؟..

نقول : الله أعلم بحقيقته وبما كان من أمره .

ومات ــ رحمه الله ــ سنة أربعين بعد مقتل عليّ ــ رضي الله عنه ــ بأربعين يوماً ، وصلّى عليه الحسن بن علي ــ رضي الله عنهما ــ.

---

(١) رواه ابن ماجة في باب الفتن ٣٦ ــ حديث رقم ٣٩٦١.

أسباب نزول الآيات

قال رسول الله ﷺ :

«مَن حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال امرىء مسلم ، لقي الله وهو عليه غضبان»[1] .

فقال الأشعث بن قيس : فيّ والله نزلت ، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني ، فقدمته إلى النبي ﷺ فقال :

— ألك بينة ؟ ..

قلت : لا .

فقال لليهودي : أتحلف ؟ ..

فقلت : يا رسول الله ، إذن يحلف فيذهب بمالي ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ .. الآية[2] .

وعن صالح بن عمر عن الأعمش ، عن شقيق قال : قال عبد الله قال رسول الله ﷺ : «مَن حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مالاً ، لقي الله وهو عليه غضبان» ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ .. إلى آخر الآية .. فأتى الأشعث بن قيس فقال :

---

(١) رواه البخاري عن عبدان ، عن أبي حمزة ، عن الأعمش.

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧٧.

— ما يحدثكم أبو عبد الرحمن؟..

قلنا : كذا وكذا.

قال : لفيّ نزلت ، خاصمت رجلاً إلى رسول الله ﷺ فقال : ألك بينة؟..

قلت : لا.

قال : فيحلف

قلت : إذاً يحلف. قال ﷺ : «مَن حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مالاً ، لقي الله وهو عليه غضبان».

فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾.

وعن سفيان ، عن منصور والأعمش ، عن أبي وائل ، قال : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ : «لا يحلف رجل على يمين صبر ، ليقتطع بها مالاً فاجراً ، إلا لقي الله وهو عليه غضبان».

قال : فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾.

قال : فجاء الأشعث ، وعبد الله يحدثهم ، قال : فيّ نزلت وفي رجل خاصمته في بئر ، وقال النبي ﷺ :

— ألك بينة؟..

قلت : لا.

قال : فليحلف لك.

قلت : إذاً يحلف.

قال : فنزلت : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾[1].

---

(١) رواه البخاري جـ ٦ ص ٣٤ ، عن حجاج بن منهال ، عن أبي عوانة. ورواه مسلم جـ ١ ص ٨٥ عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع.

تذييل ...

مَن هؤلاء الخوارج الذين قاتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وحضر قتالهم الأشعث بن قيس رضي الله عنه؟..

إن أصحاب كتب الفرق يكادون يتفقون على أن أول الخارجين هو يزيد بن عاصم المحاذي ، كان مع علي بصفين فلما رأى اتفاق الفريقين على الحكمين ، استوى على فرسه ، وحمل على أصحاب معاوية وقتل منهم رجلاً ، وحمل على أصحاب علي وقتل منهم رجلاً ، ثم نادى بأعلى صوته :

«ألا إني قد خلعت علياً ومعاوية ، وبرئت من حكمهما» ، ثم قاتل أصحاب علي حتى قتله قوم من همذان .

ثم تقدم علي رضي الله عنه وقال لهم :

ماذا نقمتم مني؟..

فقالوا له : أول ما نقمنا منك أنا قاتلنا بين يديك يوم الجمل ، فلما انهزم أصحاب الجمل أبحت لنا ما وجدنا في عسكرهم من المال ، ومنعتنا من سبي نسائهم وذراريهم .

فكيف استحللت ما لهم دون النساء والذرية؟..

فقال : إنما أبحت لكم أموالهم بدلاً عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومي عليهم.

والنساء والذرية لم يقاتلونا وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام ولم يكن منهم ردة عن الإسلام ، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر ، وبعد ، لو أبحت لكم النساء أيكم يأخذ عائشة في سهمه؟..

فخجل القوم من هذا ثم قالوا له :

« نقمنا عليك محو إمرة أمير المؤمنين على اسمك في الكتاب بينك وبين معاوية ، لما نازعك معاوية في ذلك ».

فقال : فعلت مثل ما فعل رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين قال له سهل بن عمرو : لو علمت أنك رسول الله لما نازعتك ، ولكن اكتب باسمك واسم أبيك.

فكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، وسهيل بن عمرو » وأخبرني رسول الله ﷺ أن لي منهم يوماً مثل ذلك ، فكانت قصتي مع الأبناء قصة الرسول ﷺ مع الآباء.

فقالوا له : فلم قلت للحكمين إن كنت أهلاً للخلافة فأثبتاني ، فإن كنت في شك من خلافتك فغيرك بالشك فيك أولى؟؟.

فقال : إنما أردت بذلك النصفة لمعاوية ، ولو قلت للحكمين احكما لي بالخلافة لم يرضَ بذلك معاوية ، وقد دعا رسول الله ﷺ نصارى نجران إلى المباهلة ، وقال لهم :

﴿تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦١.

فأنصفهم بذلك عن نفسه ، ولو قال : أبتهل فأجعل لعنة الله عليكم ، لم يرضَ النصارى بذلك.

لذلك أنصفتُ معاوية من نفسي ، ولم أدرِ غدر عمرو بن العاص.

قالوا : فلِمَ حكَّمت الحكمين في حق كان لك؟..

فقال : وجدت رسول الله ﷺ قد حكم سعد بن معاذ في بني قريظة ، ولو شاء لم يفعل ، وأقمت أنا أيضاً حكماً لكن حكم رسول الله ﷺ حكم بالعدل ، وحكمي خُدع حتى كان من الأمر ما كان.

فهل عندكم شيء سوى هذا؟..

فسكت القوم ولكن لا عن رضى بل قرر بعضهم قتال علي رضي الله عنه ، وبرز إليه حرقوص بن زهير أحد الخوارج وقال :

«يا ابن أبي طالب والله لا نريد بقتالك إلا وجه الله والدار الآخرة».

فقال له علي بل مثلكم كما قال تعالى :

﴿ هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾[1].

منهم أنتم ورب الكعبة.. ثم قاتلهم قتالاً مريراً.. فهل انتهى الخوارج عند هذا الحد؟..

إن هناك خوارج من نوع جديد لا زالت تعيش بين أبناء الأمة الإسلامية ، تفرّق جمعهم وتشتّت وحدتهم.

إن الذي يفرّق أمر الأمة وهي جمع ، فهو من الخوارج؟..

والذي يكفر أبناءها ويستبيح دماءها فهو من الخوارج؟..

---

(١) سورة الكهف آية رقم ١٠٤.

ولقد أخبر الرسول ﷺ بهم ودلّ على الدور الذي يقومون به في تاريخ الأمة الإسلامية، من ذلك ما رواه سعيد رضي الله عنه قال:

«بينا رسول الله ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله».

فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟..

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أتأذن لي فيه فأضرب عنقه؟..

فقال: دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

إن أحفاد هذا الرجل لم يزل لهم دور في الأمة الإسلامية، وهم غلاظ الأكباد والقلوب.

يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم.

فمَن علي بن أبي طالب الجديد الذي يقضي على خوارج الأمة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري، خوارج الفرقة، خوارج الدس والفساد، خوارج أتباع كل ناعق. وهؤلاء هم الخوارج الحقيقيون. كما قضى عليهم فارس الفرسان وبطل الشجعان علي بن أبي طالب رضي الله عنه في القرن الأول؟...

إننا في حاجة ماسة إلى هذا الرجل..

فمتى يظهر للوجود؟..

إننا في انتظاره، وعلى الله قصد السبيل.

قتادة بن النعمان

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ
ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا
فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾
وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ
ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة النساء : آية رقم ١١٠ – ١١٢]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال كثير من رجال التفسير والحديث: سبب نزول هذه الآيات ما قاله قتادة ابن النعمان لرسول الله ﷺ بشأن سرقة السلاح والطعام من عمه رفاعة.

راجع الترمذي في تفسير باب ومن سورة النساء رقم ٣٠٣٩.

وراجع الطبري رقم ١٠٤١١.

وراجع الحاكم والمستدرك ٤/ ٣٨٥.

وراجع الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ٣ ص ١٢٧٧.

وراجع تفسر الدر المنثور للسيوطي جـ٢ ص ٧٦.

من قتادة بن النعمان؟...

قتادة بن النّعمان

رضي الله عنه

لا يعرف التاريخ شيئاً عن طفولته وشبابه..

ولا يحدثنا في قليل أو كثير عن أيامه الأولى قبل الإسلام..

ولكنه يقف مبهوراً ليسجل عن قتادة أول حادث له عندما انضمّ إلى القافلة الميمونة المتجهة إلى مكة..

لقد كانت هذه القافلة تضمُّ سبعين رجلاً..

تركوا أموالهم وزروعهم، وزوجاتهم وأبناءهم، في رحلة قصيره ليلتقوا بمحمد ابن عبدالله الرسول الأمين.

وكانت معهم في تلك الرحلة نسيبة بنت كعب أُم عمارة، وأسماء ابنة عمرو بن عدي..

وسارت بهم المطيّ حتى ألقت رحلها بمكة..

والتقى بهم رسول الله ﷺ..

وأخذ قتادة يستمع إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ وهو يقول:

«يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عزّ من قومه، ومَنعة في بلده».

ثم قال :

«وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه ومانِعوه مما خالفه فأنتم وما تحمّلتم من ذلك .. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدَعوه فإنه في عزّ ومَنعة من قومه وبلده» .

يقول قتادة : فقلنا للعباس : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخُذْ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ، ثم قال :

«أُبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» .

يقول قتادة : فأوشكت أن أقوم فسبقني إلى ذلك البراء بن معرور ، فأخذ بيده عليه السلام ثم قال :

«نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه نساءنا فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحرب ، وأهل السلاح ، ورثناها كابراً عن كابر» .

فاعترض القول — والبراء يكلم رسول الله ﷺ — أبو الهيثم بن التيِّهان فقال :

«يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها (يعني اليهود) ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعنا؟ ..

يقول قتادة : فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال :

«بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أُحارب مَن حاربتم وأُسالم مَن سالمتم» .

وتمَّت البيعة التي باركها الله وحضرتها ملائكته الأبرار .

واتجهت القافلة إلى المدينة وعاد قتادة معها ، عاد وهو إنسان آخر لا يعرف الانسان الأول .

.. لقد حرص على تطهير نفسه وقلبه من كل الأمراض التي كانت تشيعها الجاهلية من الحقد والغل والحسد.

وحرص على تطهير ماله ورزقه.. فلا يقبل إلا حلالاً ولا يأكل إلا طيباً، وتساوت عنده البشرية، فكلهم لآدم وآدم من تراب..

ومن هنا فلن يتفاضل الناس بالحسب والنسب.

ولن يستعلي بعضهم على بعض بالمال والجاه.

وإنما هناك شيء واحد يُميّز الناس بعضهم عن بعض ويفضل بعضهم على بعض، هو التقوى والعمل الصالح.

وأسلمت زوجته وأولاده، وأخذ يدعو إلى هذا الدين الجديد ويبشّر بقرب وصول الرسول الكريم إلى يثرب.

وأخذت الأيام تمر بطيئة مملّة، أيام انتظار الرسول ﷺ حتى أعلن البشير وصول الرسول ﷺ، فخرج ومعه أهله وأحبابه لهذا اللقاء.

.. وشارك المهاجرين والأنصار بناء مسجد الرسول ﷺ، هذا المسجد الذي تحول فيما بعد إلى قلعة لتخريج الرجال وصناعة الأبطال، ورسم شؤون الحياة.

ففي المسجد كانت تقام الصلوات، ويتفقه الناس في أمور دينهم.

وفي المسجد تعلم قتادة فقه الشريعة وأُصول الدين.

وفي المسجد كانت تجيش الجيوش، وترسم الخطط، للمعارك التي كانت تقام بين المسلمين وعصابة الكفر.

ومن تاريخ الهجرة، ووصول الرسول ﷺ أصبح قتادة جندياً من جنود الإسلام.

وفارساً لا يشق له غبار.

ومؤمناً يطلب الشهادة ويتمناها لنصرة الدين وإعلاء كلمة التوحيد. وجاءت

غزوة بدر أول لقاء بين جند الرحمن وأتباع الشيطان ، وقام قتادة في هذه الغزوة بما يفرضه الإيمان على الجندي المسلم ، وانتصر المسلمون وهزم الكفر وأهله.
ثم كانت غزوة أحد.

تلك الغزوة التي خالف فيها بعض المسلمين أمر القائد ، وأغرتهم الدنيا عندما شاهدوا هزيمة الكفار وانتصار المسلمين ، فتركوا أماكنهم في أعلى الجبل إحرازاً للغنائم وجمعاً للحطام التي تركته قريش.

واهتبل المشركون هذه الفعلة ، فغاروا على المسلمين فهزموهم عن أماكنهم وكرّوا خلفهم يقتلونهم ، حتى أغراهم ذلك بالتقدم لقتل الرسول ﷺ.

وجاء أبي بن خلف وهو يقول :

«أين محمد؟.. لا نجوت إن نجا».

فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا.

فقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه.. فمات عدو الله وهو قافل إلى مكة.

وتتابع المشركون ، وحاط المسلمون بالرسول ﷺ ، وترس دون رسول الله أبو دجانة بنفسه يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه حتى كثر فيه النبل.

ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ.

قال سعد : فقد رأيته يناولني النبل وهو يقول :

«ارم فداك أبي وأمي».

حتى إنه ليناولني السهم ما له نصل فيقول : ارم به.

وتناول قتادة سيف الرسولُ ﷺ وأخذ يجندل به عصابة الشرك والكفر ، حتى أبعدهم عن رسول الله ﷺ ، وتناوشته السهام ، وشرعت نحوه السيوف ، وامتلأ

جسده بالجراح ، ولكن كل هذه الأشياء لا تساوي شيئاً ، ما دام في ذلك العمل فداء لرسول الله ﷺ.

وما كادت تنتهي المعركة ، وهرب فلول الكفر ، حتى أصيبت عين قتادة فسالت حدقته على وجنته.

فاقترب من رسول الله ﷺ وقال :

«يا رسول الله إن عندي امرأة أحبها ، وإن هي رأت عيني خشيت أن تقذرني.

فدفع الرسول حدقته بيده ، حتى وضعها موضعها ، ثم غمزها براحته وقال :

«اللهم اكسبها جمالاً».

فعادت أحسن عينيه وأحدّها نظراً.

وذكر الأصمعي عن أبي معشر المدني قال :

وفد أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم بديوان أهل المدينة إلى عمرو بن عبد العزيز رجل من ولد قتادة بن النعمان.

فلما قدم عليه قال له : فمن الرجل؟..

فقال :

أنا ابن الذي سالت على الخدّ عينه فردَّت بكف المصطفى أحسن الردِّ
فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حُسْنَ ما عين ويا حسن ما ردِّ

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيباً بماء فعادت بعد أبوالا

وكان قتادة دائماً على مقربة من الرسول ﷺ لا يتركه في سفر ولا حضر.

ومن حديث أبي سلمة عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة لصلاة العشاء..

وهاجت الظلمة من السماء ، وبرقت برقة ، فرأى رسول الله ﷺ قتادة بن النعمان ..

قال : قتادة .

قال : نعم يا رسول الله ، علمت أن شاهد الصلاة الليلة قليل ، فأحببت أن أشهدها .

فقال له : إذا انصرفت فائتني .

فلما انصرف أعطاه عرجوناً وقال له :

«خذها فسيضيء أمامك عشراً وخلفك عشراً»[1] .

إنه نور الإيمان ، نور التقوى الذي يهبه الله سبحانه وتعالى لمن يشاء من عباده قال تعالى :

﴿ ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾[2] .

وقال أيضاً :

﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾[3] .

وَمِنْ شَرْحِ اللهِ لصدر عبده المؤمن أن يوفقه إلى أداء ما افترضه عليه من العبادات وفي مقدمة ذلك الصلاة .

يقول تعالى :

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ٣ ص ١٢٧٦ .

(٢) سورة النور آية رقم ٤٠ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٢٢ .

﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾[1].

ويقول الرسول ﷺ :

«صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين درجة.. وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخطُ خطوة إلا رُفعت له بها درجة ، وحُطَّ عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصلّاه.

اللهم صلِّ عليه.

اللهم ارحمه.

وفي رواية : اللهم اغفرْ له ، اللهم تُبْ عليه ، ما لم يؤذِ فيه ، ما لم يحدث فيه..»[2].

وقتادة كان يفعل ذلك ، كان يحرص على صلاة الجماعة ، وكان يسرع في التبكير إلى المسجد ، وكان دائماً يتلو القرآن ويتدبر آياته ويداوم على قراءة سورة الإخلاص لأنها تعدل ثلث القرآن كما يقول الرسول ﷺ ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

«إن رجلاً سمع رجلاً يقرأ (قل هو الله أحد) يرددها..

فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقالها ، فقال رسول الله ﷺ :

«والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن».

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٠٣.

(٢) الحديث رواه البخاري في الجماعة ٢ / ١١٣ باب فضل صلاة الجماعة وفي المساجد. ورواه مسلم رقم ١٤٩ في المساجد وأبو داود رقم ٥٥٩ باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة.

قال البخاري : وزاد أبو معمر بسنده عن أبي سعيد قال : أخبرني أخي قتادة بن النعمان ، عن النبي ﷺ .

وفي رواية قال : قال النبي لأصحابه :

«أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليله؟..»

فشقَّ ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟..

فقال : «الله أحد الله الصمد ثلث القرآن»[1] .

ومن هذه السورة التي كانت لا تغيب عن ذاكرة قتادة بن النعمان ينبثق منهج كامل للحياة..

منهج لعبادة الله وحده ، الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده ، ولا حقيقة لنا عليه إلا فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلا إرادته..

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة ، في السرّاء والضرّاء ، في النعماء والبأساء.. وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجوداً حقيقياً وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً؟..»[2] .

وسارت حياة النعمان نوراً على نور ، فهو يستضيء بكتاب ربه وبهدى نبيه ﷺ ..

وعندما تحرك عشرة آلاف مقاتل بقيادة الرسول ﷺ لفتح مكة ، كان قتادة يحمل راية بني ظفر ، وكان يتمنى أن تُطوى الأرض تحت حوافر خيلهم حتى يطهر بيت الله الحرام ، من الأصنام والأوثان التي تشيع البهتان والإضلال .

وتمَّ النصر الأكبر وطهرت الكعبة مما فيها . وشاهد قتادة رسول الله ﷺ وهو واقف بباب الكعبة قائلاً :

---

(١) أخرجه البخاري ٩/٥٣ في فضائل القرآن ، والموطأ ١ / ٢٠٨ في القرآن ، وأبو داود ١٤٦١ في الصلاة باب في سورة الصمد ، والنسائي ٢ / ١٧١ في الافتتاح.

(٢) في ظلال القرآن جـ٨ تفسير سورة الإخلاص .

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده.

يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل فيكم؟..

قالوا خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم.

قال عليه السلام : اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1].

وعندما وصلت هذه الكلمات إلى أُذن قتادة أخذ يردّد بينه وبين نفسه قول الله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خُلق عظيم ﴾[2].

لم يعاقب النبي ﷺ هؤلاء الذين أخرجوه من بلده..

ولم يفكر لحظة في إيقاع الأذى بهم ، وهم طالما آذوه ونالوا منه وتقوَّلوا عليه الأقاويل.

فهو الرحمة المهداة الذي خفف عن المكروبين كربانهم.

وهو العادل الأمين الذي ساوى بين الموسرين والمحتاجين.

وهذا ما جعل قتادة وغيره من الصحابة يقدمون أرواحهم رخيصة في سبيل الله ، وفداءً للرسول الكريم..

ثم كانت أحداث وأحداث..

وتمَّ الدين وبُلِّغت الرسالة ، وبَلغ الكتاب أجله ، وتوفي رسول الله ﷺ..

وتبعه رفيقه وصاحبه في الغار أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه.

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في سنة ثلاث وعشرين هجرية ،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

(٢) سورة القلم آية رقم ٣.

كانت وفاة قتادة بن النعمان رضي الله عنه ، وصلى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. ونزل في قبره أبو سعيد الخدري ، وهو أخوه لأمه رضي الله عنهما

نسأل الله العليّ القدير ، أن يسكنه فسيح جناته ، وأن يجعله مع الأبرار والشهداء والصالحين ، جزاءً بما قدّم من خير للإسلام والمسلمين.

أسباب نزول الآيات

عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال : كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق : بشر ، وبشير ، ومبشر ، وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب النبي ﷺ ثم ينحله[1] بعض العرب ، ثم يقول : قال فلان كذا وكذا ، وقال فلان كذا وكذا .

فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر ، قالوا :

«والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث» .

أو كما قال الرجل .

وقالوا : ابن الأبيرق قالها .

قال : وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والاسلام ، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير .

وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة[2] من الدرمك[3] ، ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من

---

(١) النحلة : الهبة والعطية .

(٢) ضافطة : التجار الذين يحضرون الدقيق والزيت .

(٣) الدرمك : الدقيق .

الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرمك ، فجعله في مشربة[1] له ، وفي المشربة سلاح : درع وسيف ، فعدى[2] عليه من تحت البيت ، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح.

فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال :

«يا ابن أخي ، إنه عدي علينا في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا وذهب بطعامنا وسلاحنا».

قال : فتحسسنا في الدار وسألنا.

فقيل لنا قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم.

قال : وكان بنو أُبيرق قالوا — ونحن نسأل في الدار — والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل ، رجل منا له صلاح وإسلام.

فلما سمع لبيدُ اخترط سيفه ، وقال : أنا أسرق؟..

فوالله ليخالطنكم هذا السيف ، أو لنبين هذه السرقة.

قالوا : إليك عنا أيها الرجل ، فما أنت بصاحبها ، فسألنا في الدار ، حتى لم نشك أنهم أصحابها.

فقال لي عمي : يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له؟..

قال قتادة : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت :

«إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه ، فليردوا علينا سلاحنا ، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه».

فقال النبي ﷺ : سآمر في ذلك.

---

(١) المشربة : الغرفة.

(٢) فعدى عليه : سرق ماله.

فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له : أسيد بن عروة فكلموه في ذلك ، واجتمع في ذلك أناس من أهل الدار.

فقالوا : يا رسول الله ، إن قتادة بن النعمان وعمّه عمدا إلى أهل بيت منا .. أهل إسلام وصلاح ، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت.

قال قتادة : فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته فقال : عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة من غير ثبت ولا بينة؟..

قال : فرجعت ، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ، ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك.

فأتاني عمي رفاعة فقال :

«يا ابن أخي ما صنعت»؟..

فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ ، فقال : الله المستعان.

فلم نلبث أن نزل القرآن :

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً «بني أبيرق» واستغفر الله «مما قلت لقتادة» إن الله كان غفوراً رحيماً ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً﴾[1] .. الخ.

فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة.

قال قتادة : ما أتيت عمي بالسلاح ، وكان شيخاً عَسَا أو عشا[2] — الشك من أبي عيسى في الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه مدخولاً.

---

(١) سورة النساء من ١٠٤ — ١٠٨.

(٢) عسا بالسين غير المعجمة ، أي كبر وأسن وبالمعجمة قل بصره وضعف.

فلما أتيته قال لي: يا ابن أخي، هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً.

فلما نزل القرآن لحق بُشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد [1] بن سمية.

فأنزل الله تعالى:

﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيَّن له الهدى ويتَّبع غير سبيل المؤمنين نوَلِّهِ مَا تولَّى ونُصْلِه جهنم وساءت مَصيراً، إن الله لا يَغفرُ أن يُشركَ بهِ، ويغفر ما دونَ ذلك لمن يشاء وَمَن يشرك بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾[2].

فلما نزل على سلافة، رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر.

فأخذت رحله فوضعته على رأسها ثم خرجت به في الأبطح ثم قالت:

«أهْديتَ إليَّ شعر حسان[3] ما كنت تأتيني بخير»[4].

---

(1) سلافة: زوج طلحة بن أبي طلحة، وهي أم مسافع والجلاس وكلاب بنو طلحة قتلوا يوم أُحد هم وأبوهم قتلهم عاصم بن ثابت رضي الله عنه.

(2) سورة النساء آية رقم ١١٥، ١١٦.

(3) شعر حسان يقول في أوله:

وما سارق الدرعين إن كنت ذاكراً ... بذي كرم من الرجال أوادعه
فقد أنزلته بنت سعد فأصبحت ... ينازعها جلد استها وتنازعه

(4) الحديث رواه الترمذي رقم ٣٠٣٩ في التفسير، باب ومن سورة النساء، وأخرجه الطبري رقم ١٠٤١١، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٨٥ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

تذييل ...

نزل القرآن الكريم ، لتربية الأمة الإسلامية ، تربية توافق الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

نزل القرآن ليخاطب الأمة الوسط بما يجب أن تكون عليه من مُثل وأخلاق تتفق ومسؤولية الإنسان في الأرض وقيامه بدور الخلافة عن ربه .

والقارىء لآيات القرآن الكريم .. يلحظ أنه منهج حياة للفرد المسلم والمجتمع المسلم والأمة المسلمة ..

منهج حياة للإنسان في حياته وبعد مماته .

فهو ينظم سلوكه في طفولته ، وينظم حياته في شبابه ، وينظم حياته في كل دور من ادوار حياته .

وهو دائماً يقدم الأصلح لحياته ولِمَن يحيطون به .. فالأسرة لبنة أولى في بناء المجتمع .. يخصص لكلٍّ دوره في الحياة .

فالرجال للضرب في فجاج الأرض بحثاً عن الرزق وتعمير الكون والحياة .. ليس هذا فحسب ، ولكن هو دائماً الأقوى والمُدافع عن هذه الأسرة الصغيرة أمام تقلُّبات الطبيعة وضربات الحياة .

فهو المسؤول عن الطعام والشراب ..

وهو القائم بمتطلبات الأمن والأمان..

وهو في النهاية المُدافع عن شرف القبيلة ، وعن حرمة الوطن ، وعن إقامة العدل بين الناس جميعاً.

والمرأة : لها وظيفتها التي لا تقلُّ في التبعة والمسؤولية عما يقوم به الرجال ، بل هي أخطر مسؤولية وأعظم تبعية مما يقوم به الرجال.

المرأة : حاضنة الطفولة ، وصانعة الرجولة ، والمسؤولة عن البيت السعيد الذي يضمُّ الأطفال الزغب.

والإسلام يقدم لهذه الأسرة كل الضمانات الكافية ، لقيامها بواجباتها على الوجه الأكمل.

إن القرآن الكريم.. يحرص دائماً على إقامة الأمن في قلب المسلم.. الأمن أمام الحياة ، والأمن أمام الرزق ، والأمن أمام الأجل..

فالمحيي والمميت هو الله سبحانه وتعالى.

والآجال مكتوبة محدّدة لا تتقدم ولا تتأخر.

قال تعالى : ﴿ لكلِّ أجَلٍ كتاب ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ إذا جاء أَجَلهُم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[2].

وكل شيء وُضع بميزان وحكمة.. قال تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[3].

والتقوى والفلاح عاملان من عوامل تفريج الكربات وزيادة الرزق.. قال تعالى : ﴿ وَمَن يتَّقِ الله يجعلْ له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومَن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾[4].

---

(١) سورة الرعد آية رقم ٣٨.

(٢) سورة يونس آية رقم ٤٩.

(٣) سورة التوبة آية رقم ٥١.

(٤) سورة الطلاق آية رقم ٢ ، ٣.

مرثد بن أبي مرثد

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ
وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ
إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة النور : آية رقم ٢ - ٣]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير والسِّيَر: نزلت هذه الآيات في مرثد بن أبي مرثد الغنوي.

قال ذلك صاحب كتاب: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ ٣ ص ١٣٨٥ وص ١٣٨٦.

وذكره الإمام الترمذي رقم ٣١٧٦ في التفسير، باب ومن سورة النور.

وذكره أبو داود رقم ٢٠٥١ في النكاح، باب قوله تعالى: ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية ﴾.

وذكره النسائي ٦ / ٦٦ في النكاح، باب تزويج الزانية.

فمَن مرثد بن أبي مرثد هذا؟..

مرثد بن أبي مرثد

رضي الله عنه

صحابي جليل وابن صحابي.

نشأ قريباً من الحرم.. واختلط بكثير من الحجيج الذين كانوا يفدون إلى الكعبة، فعرف الكثير من أحوال الأمم والشعوب.

كان والده حليفاً لحمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، فحالفه هو أيضاً، وقام برحلة الشتاء والصيف متاجراً في مال حليفه.

ولما جاء الإسلام انضمّ مع والده إلى سبيل الرشاد.

ونالهما من صنوف العذاب ألوانٌ، ولكن ذلك لم يمنعهما من التمسك بدينهما والدعوة إليه، والاستشهاد في سبيله إن اقتضى الأمر ذلك.

وعندما علما بهجرة الرسول ﷺ إلى يثرب، عزما أمرهما على اللحاق به، والانضمام إلى جيش الإسلام الذي يُعَدُّ هناك.

وتحت جنح الظلام، وقريش تغطُّ في نوم عميق، أسرعت بهما المطيّ إلى مدينة الرسول ﷺ.

واستقبلهما المسلمون استقبالاً طيباً، ورحّب بهما رسول الله ﷺ وآخى بين والده وبين عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

وأما هو فآخى الرسول بينه وبين أوس بن الصامت.

وأوس هذا الذي ظاهر من زوجته عندما قال لها: أنتِ عليّ كظهر أمي.

وفيه وفي زوجته خولة بنت ثعلبة نزل قول الله تعالى:

﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾[1].

وفي مدينة الرسول ﷺ تعلم مرثد فنون الحرب والقتال، وأتقن الفدائية بكل صورها، وكانت الدعوة في بداية أمرها تحتاج إلى هذا النوع من الرجال الأبطال.

وكانت قريش تحبس بعض المسلمين في دورها وتحول بينهم وبين اللحاق بالرسول ﷺ.

وكان مرثد يقوم بمهمة فكاك الأسرى من بيوت قريش ويحملهم إلى مدينة الرسول ﷺ.

وتكررت رحلات مرثد إلى مكة، يعود في نهاية الرحلة بمجموعة من المسلمين الذين كانت تحبسهم قريش.

وفي إحدى الليالي واعدَ أحد الأسرى أن يأتي إليه ليفكّ قيده ويحمله إلى المدينة.. يقول مرثد:

ـــ وكانت ليلة قمراء، فخرجت حتى انتهيت إلى حائط من حيطان مكة، فجاءت امرأة تسمى عناق، كانت له صاحبة في الجاهلية.

فقالت: مرثد؟

قلت: مرثد.

قالت: مرحباً وأهلاً، هلمّ فبِتْ عندنا الليلة.

---

(١) سورة المجادلة آية رقم ١.

قلت : يا عناق ، إن الله حرّم هذا.

فما كان منها إلا أن رفعت صوتها قائلة : يا أهل الخباء ، هذا الذي يحمل الأسرى .

فاتبعني ثمانية رجال ، وسلكت طريق الجبل حتى انتهيت إلى غار فدخلته ، وجاءوا حتى قاموا على رأسي ، وأعماهم الله عني ، ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الأذخر ففككت عنه قيده ، وسرنا حتى قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ .

ولم يستطع مرثد أن يذهب إلى مكة بعد ذلك ، لأن قريش وضعت له الكمائن ورصدت له العيون .

وما دام الأمر كذلك ، فلا بدّ من تدبير أمر آخر ينال من قريش وعصابة الكفر..

وجاءت غزوة بدر ، وكان مرثد يركب فرساً يقال لها السبل ، وأبلى في هذه الغزوة بلاءً حسناً حتى أراد الله سبحانه وتعالى وانتصر المسلمون انتصار الأبطال .

ثم كانت غزوة أحد التي كان من أمرها ما كان...

وفي العام الثالث للهجرة ، وفدَ على رسول الله ﷺ رهطٌ من قبيلة تسمى عضل والقارة ، فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلاماً ، فابعثْ معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام.

واستجاب الرسول ﷺ لمطلبهم..

واختار لهم ستة من أصحابه ، وهم :

مرثد بن أبي مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب .

وخالد بن البكير الليثي حليف بني عدي بن كعب .

وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح .

وخُبَيب بن عدي أخو بني جحمي.

وزيد بن الدَّثِنَّة بن معاوية أخو بني بياضة بن عمرو.

وعبد الله بن طارق حليف بني ظفر.

إنهم من خيرة الرجال والأبطال، وكلٌّ منهم له تاريخ طيب في الإسلام والدعوة إليه.. إنهم الرجال الذين جمعوا بين فقه الشريعة وقوة الشكيمة، وفنون القتال.

وأمّر الرسول ﷺ عليهم مرثد بن أبي مرثد.

وخرجت القافلة على بركة الله، تسرع الخطى نحو الغاية التي حُدِّدت لها.. حتى إذا كانوا على الرجيع (ماء لقبيلة هذيل بالقرب من الحجاز) استصرخوا عليهم قبيلة هذيل، فخرجت هذه القبيلة وأحاطتهم بالسيوف، فأخذ الصحابة سيوفهم ليقاتلوا القوم.

فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتالكم، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

ولكن أيكون للغادر عهد؟..

أيكون للمشرك ميثاق؟..

إن هؤلاء خانوا الأمانة، وخدعوا رسول الله ﷺ وجماعة المسلمين، فلن يكون لهم عهد ولا ميثاق.

فاتفق مرثد، وعاصم، وخالد بن البكير، على مقاتلة القوم، وقالوا: لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً.

ووقف عاصم بن ثابت على ربوة عالية شاهراً سيفه وهو يقول:

ما علَّتي وأنا جلد نابل والقوس فيها وتر عُنَابِل

تزل عن صفحتها المعابل والموت حق والحياة باطل

وكـل مـا حـم الإله نازل بـالمرء والمرءُ إلـيـه آيـل
إن لم أقاتلكم فأمي هابل

ثم اندفعوا ثلاثتهم لقتال القوم فقاتلوهم فقتلوا جميعاً.

قتل مرثد بن أبي مرثد.

وقتل خالد بن البكير.

وقتل عاصم بن ثابت.

فأرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه لسلافة بنت سعد، وكان عاصم قتل ابنيها يوم أُحد.

فنذرت لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في رأسه الخمر.

ولكن هل في استطاعة هذيل أن تأخذ رأس عاصم؟..

لقد كان عاصم قبل موته، قد أعطى الله عهداً ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً تنجساً، فلا بد من أن الله يحفظه ويحول بينه وبين المشركين.

فما كاد يسقط شهيداً حتى أحاطت به مجموعة من النحل، تحارب عنه حرب المستميت القادر.

وكل من حاول الاقتراب منه غرزت فيه إبرها.

وعجز الأشرار عن الاقتراب من جثة عاصم.

وقالوا: لنترك الجثة الآن، فإذا جاء الليل ذهبت النحل إلى بيوتها وأخذنا ما نبتغيه منه.

وما كاد يأتي المساء، حتى أرسل الله سبحانه وتعالى سيلاً عارماً حمل عاصم إلى حيث أراد الله سبحانه وتعالى.

إنهم جنود الله الذين يقفون مع عباده.

يقفون معهم بالنصر والتأييد.

ويقفون معهم بالرعاية والحفظ.

وصدق الله العظيم: ﴿ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[1]. وقوله أيضاً: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾[2].

وأما زيد بن الدثنة.

وخبيب بن عدي.

وعبد الله بن طارق.

فلانوا ورقوا ورغبوا في الحياة فأعطوا بأيديهم فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها.

حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من الحبل الذي يربط به، ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه.

وأما خُبَيْب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، وتزاحمت قريش لشراء الأسيرين.

أما خبيب فاشتراه حجير بن أبي إهاب ليقتله بأبيه الذي قتل في غزوة بدر فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته.

قالت: فغفلت عن صبي لي.

فدرج إليه حتى آتاه فوضعه على فخذه، فلما رأته فزعت منه فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموسى.

فقال: أتخشين أن أقتله؟.. ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله.

---

(1) سورة الفتح آية رقم ٧.

(2) سورة الصافات آية رقم ١٧٣.

وكانت تقول : ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قِطْفِ عنب وما بمكة يومئذ ثمرة ، وإنه لموثق في الحديد.

وما كان إلا رزق رزقه الله خبيباً.

قتل خبيب

فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه قال :

« دعوني أصلي ركعتين » ، فلما انصرف من صلاته ، تقدّم إليهم وقال :

لولا أن تروا ما بي جزع من الموت لزدت.

فكان أول من سن الركعتين عند القتل.

ثم قال : « اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تبقي منهم أحداً ».

واقترب منهم وقال :

فلست أبالي حين أقتل مسلماً
على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شِلو ممزع[1]

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله[2] ...

.. لقد كان في مقدور خبيب أن يفر من القتل ، وكان في مقدوره أن يحتفظ بالطفل لديه حتى يطلقوا سراحه ، وكان في مقدوره أن يشفي غيظه بقتل هذا الطفل وهو مقتول ولكنه لم يفعل ، لأن المسلم الذي تربى في مدرسة القرآن يحتفظ دائماً بأخلاقه ودينه.

(١) الشلو : العضو من أعضاء الانسان ، الممزع : المفرق.

(٢) رواه البخاري ٧/ ٢٩١ ــ ٢٩٥ في المغازي ، وأبو داود رقم ٢٦٦٠ ، ٢٦٦١ في الجهاد والبخاري أيضاً ٧/ ٢٩٦ باب غزوة الرجيع.

أسباب نزول الآيات

عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهما قال :

كان رجل يقال له : مرثد بن أبي مرثد ، وكان رجلاً يحمل الأسراء من مكة حتى يأتي بهم المدينة ، قال : وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها : عناق ، وكانت صديقة له ، وأنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة يحمله قال :

« فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة ، في ليلة مقمرة ، قال : فجاءت عناق ، فأبصرت سواد ظلي بجنب الحائط ، فلما انتهت إليّ عرفتني » . فقالت :

« مرثد .. ؟ » .

فقلت : مرثد .

فقالت : مرحباً وأهلاً ، هلمَّ فبِتْ عندنا .

قال : قلت : يا عناق حرم الله الزنا .

قالت : يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراءكم .

قال : فتبعني ثمانية ، وسلكت الخندمة (جبل بمكة) فانتهيت إلى غار أو كهف فدخلت ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا ، فظل بولهم على رأسي وعماهم الله عني ، قال : ثم رجعوا .

ورجعت إلى صاحبي فحملته وكان رجلاً ثقيلاً ، حتى انتهيت إلي الإذخر ،

(بعض النبات الذي ينبت في مكة) ففككت عنه أكبله، فجعلت أحمله ويعيينى حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت:

«يا رسول الله، أنكح عناق؟..».

فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد شيئاً حتى نزلت:

﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾.

فقال رسول الله ﷺ يا مرثد: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾ فلا تنكحها.

هذه رواية الترمذي، وأخرجه النسائي بنحوه، ورواية الترمذي أتم.

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى يقال له نسطاس إلى التنعيم، وأخرجوه من الحرم ليقتل.

واجتمع رهط من قريش منهم أبو سفيان بن حرب، فقال له حين قدم ليقتل:

«أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك..؟».

قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي.

يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً.

ثم قتله نسطاس يرحمه الله[1].

قال ابن عباس:

«لما أُصيبت السرية التي كان فيها مرثد وعاصم قال رجال من المنافقين: يا ويح

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٣.

هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهليهم، ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم»، فأنزل الله تعالى في ذلك:

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسدَ فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾[1].

ونزل في أصحاب السرية قوله تعالى:

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾[2].

ومن حديث مرثد عن النبي ﷺ أنه قال:

«إن سركم أن تقبل صلاتكم فليؤمكم خياركم، فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم»[3].

وكانت سرية الرجيع في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من مهاجَر رسول الله ﷺ.

رحم الله مرثد بن أبي مرثد وأسكنه وصحبه فسيح جناته إنه سميع الدعاء وعلى الله قصد السبيل.

واختصره أبو داود قال: إن مرثد بن أبي مرثد الغنوي كان يحمل الأسارى بمكة، وكان بمكة بغي يقال لها: عناق، وكانت صديقته قال:

فجئت النبي ﷺ، فقلت يا رسول الله، أنكح عناق؟..

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٠٧.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٣٨٤.

قال : فسكت فنزلت ﴿ الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴾ فدعاني فقرأها وقال : لا تنكحها[1] .

وأخرج النسائي عن عبد الله بن عمرو قال : كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح ، فأراد رجل من أصحاب النبي ﷺ أن يتزوجها ، فأنزل الله :

﴿ الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ .

وأخرج ابن سعيد بن منصور عن مجاهد قال :

« لما حرم الله الزنى كان زوان عندهن جمال فقال الناس : لبطلقن فليتزوجن فنزلت »[2] .

---

(١) رواه الترمذي رقم ٣١٧٦ في التفسير ، باب ومن سورة النور ، وأبو داود رقم ٢٠٥١ في النكاح ، باب قوله تعالى : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية ﴾ والنسائي ٦/ ٦٦ في النكاح باب تزويج الزانية ، واسناده حسن ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وصححه الحاكم ٢ / ٣٩٦.

(٢) تفسير الجلالين على هامش المصحف أول سورة النور ص ٤٦٢ بتصرف.

تذييل...

.. فرض الله على الأمة الإسلامية الجهاد، والجهاد أحد المعالم الأساسية في شريعة الإسلام.. والأمة التي لا تجعل الجهاد سلوكاً لأبنائها وفرضاً عليهم، لا تستطيع العيش في هذه المجتمعات التي كثيراً ما تلغي صوت العقل وتبطل شرع الله، وتقيم ألوية الشيطان.

«والإسلام دين القوة، شارعه هو الجبار ذو القوّة المتين، ومبلّغه هو محمد الصبار ذو العزيمة الأمين، وكتابه هو القرآن الذي تحدّى كل إنسان وأعجزه، ولسانه هو العربي الذي أخرس كل لسان وأبان...

فمن لم يكن قويّ النفس..

قويّ البأس..

قويّ العزيمة..

قويّ الإيمان..

قويّ العقيدة..

كان مسلماً من غير إسلام، ومؤمناً من غير إيمان، وإنساناً بغير ضمير».

والأمة الإسلامية استطاعت في فترة وجيزة أن تعلن كلمة التوحيد في رقعة فسيحة من المعمورة..

عندما كان الجهاد طريقها، والاستشهاد في العقيدة سبيلها.

يقول خالد بن الوليد في أخريات حياته :

«ما ليلة يُهدى إليّ فيها عروس ، أنا لها مُحِبّ.. أو أبشّر فيها بغلام ، أحَبّ إليّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدوّ.. فعليكم بالجهاد»[1] .

ومن هنا وصفهم الله تعالى بقوله :

﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون﴾[2] .

إنهم في رباط دائم وصحوة مستمرة.. في رباط مع ربهم لا يغفلون عنه لحظة ، ولا ينشغلون عن أوامره خطرة.. وفي صحوة مستمرة مع أنفسهم ، في صحوة ضد أعداء الدين ، أعداء الوطن ، سمعوا نداء ربهم :

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون ، يغفرْ لكم ذنوبكم ويُدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ومساكن طيبة في جنات عدنٍ ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصرٌ من الله وفتحٌ قريب وبَشّر المؤمنين﴾[3] .

سمعوا ذلك النداء فلبُّوا صوته ، وآمنوا أن هذا الطريق هو طريق النصر وتلك هي شروطه :

إيمان عميق بالله ورسوله .

وجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس» .

والإيمان العميق لن يأتي إلا عن طريق العقيدة ، العقيدة التي حملها أتباع محمد ﷺ ، فانفتحت أمامهم الدنيا وانداحوا في أربعة أركان الأرض .

---

(١) عبقرية خالد ، للاستاذ عباس محمود العقاد .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ١٧ .

(٣) سورة الصف آيات رقم ١٠ — ١٣ .

إن الحرب كريهة وبشعة ، وهذا حق..

والحرب تأكل الرجال ، وتقضي على الشيوخ والأطفال.. ومن هنا كانت كراهية الحرب ، وكراهية احتدام القتال.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله :

﴿كُتِبَ عليكمُ القتالُ وهو كرهٌ لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1] .

(1) سورة البقرة آية رقم ٢١٦.

أُبيّ بن كعب

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ
مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا
مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا
لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟
ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة البينة آية من ١ – ٥]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال كثير من رجال التفسير والسير عندما نزلت سورة البينة قال الرسول ﷺ لأبي بن كعب إن الله أمرني أن أقرأ عليك هذه السورة.

راجع تفسير الامام ابن كثير جـ٩ ص ٢٦٣

وتفسير القرطبي جـ٢٠ ص ١٣٩

وتفسير الشوكاني فتح القدير جـ٥ ص ٤٧٤

وذكره أيضاً صاحب كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ١ ص ٦٧

وذكره ابن سعد في طبقاته جـ٣ ص ٤٩٩ — ٥٠٠

فمن هو أبي بن كعب؟..

أُبيّ بن كعب

رضي الله عنه

ابن قيس الأنصاري ، نشأ في ربى المدينة ،معتزلاً الحياة والناس باحثاً عن المدبّر لهذا الكون ، ومن أجل هذه الغاية ، تعلم القراءة والكتابة ، وعكف قبل بعثة الرسول ﷺ على ما كان يقع في يده من وريقات التوراة التي كان يتداولها اليهود الذين كانوا يجاورونهم بالمدينة. ولكنها لم تشف غلته..

ولم تستطع أن تجيب على الأسئلة التي تنبت في مخيلته.

وعاش حائراً يبحث عن الهدى..

ظامئاً يفكر في النبع..

غريباً في مجتمع مغرق في أمر الحياة فلا يفكر لحظة في أمر السماء يكنى أبا الفضل.

وكناه رسول الله ﷺ أبا المنذر.

إن رجال الله دائماً في صراع مع الدنيا ومع الناس ، تجابههم دائماً أمور لا تجد استجابة من داخلهم ، ومن هنا يصابون بالقلق ويفرّون من المجتمعات ، ويتحاشون عبث الحياة ولهوها.

ولقد كان أُبَيّ من هذا الطراز ، أحسّ أن البشرية في فترة من الفترات قد ضلّت طريقها. وألغت عقلها عندما اتجهت بالولاء والتقدير إلى الشجر والحجر..

أيكون لهذا الجماد من القدرة على النفع والضر ما ليس للانسان..؟

وإذا كان في مقدور هذه الجمادات في تصوّر المشركين أن تقدم لهذا الانسان الضعيف ما يجمل حياته ويسعد أيامه.؟

فمن خلق السماء وأوجد الأرض.؟

من الذي أقام الجبال الشاهقة ، وعمق البحار الزاخرة.؟

من الذي يخرج النبات من الأرض.؟

من الذي يسير الرياح ويرسل الغيث.؟

من الذي بيده حق الحياة والموت.؟

كانت هذه الأسئلة تلاحقه ليل نهار ، وتفسد عليه حياته حيناً وتملؤها بالنشوة والحبور في كثير من الأحيان.

إن أُبيّاً يعيش في كونه الذي اختاره لنفسه ، ويقبع في بيته حتى إذا أحسّ بقرب المساء خرج إلى ربوة عالية ليتأمل في صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ويلحظ كيف يهجم الليل بظلامه على نور النهار الذاهب فيتكور عليه حتى يتلاشى ، عندها يرى صفحة السماء الصافية يتلألأ فيها ما لا يحصى من النجوم والكواكب التي ترسل ضياءها إلى الأرض لترشد الظاعنين إلى طريق الحياة.

وتهدي الحائرين إلى قدرة الله..

وفي ليلة من الليالي سمع حواراً من أحد المنازل المجاورة في الطريق إلى بيته واستطاعت أذنه أن تلتقط بعض الكلمات.

نعم لقد ظهر الرسول بمكة وأخذ يدعو قومها إلى نبذ الأصنام.

وإلى أيّ شيء يدعو يا سعد؟..

يدعو إلى عبادة الواحد لأحد الفرد الصمد.

ولكن قومه حاربوه، ونكلوا بأتباعه.

ثم ماذا يا أخي؟..

جاء أحد أتباعه إلى ديارنا منذ أيام ونزل في منزل سعد بن زرارة وأخذ يدعو إلى الدين الجديد.. ويلقي على مسامعهم كلمات يقول انها من الوحي الذي نزل على صاحبه.

ولم يطق أُبَيّ بن كعب أن يسمع أكثر من ذلك فأخذ يطرق الباب بيده ليعرف حقيقة هذا الأمر.

وفتح الباب، باب سعد بن الربيع، أحد رجالات الأنصار ومن السابقين إلى الإسلام الذي أخبره بمكان مصعب، وأنهم يتجهزون بعد غد في رحلة إلى مكة لمقابلة نبي الاسلام ويعرفوا منه الكثير عن هذا الدين الذي يدعو إليه.

وشهد أُبَيّ بن كعب العقبة الأولى، والتقطت أذناه الكثير من آيات القرآن الكريم ووعتها ذاكرته، وعندما عاد إلى المدينة كان بيته منتدى الباحثين عن الحق، المفتشين عن نور الإيمان، واستمر على ذلك حتى جاء رسول الله ﷺ وشارك أُبَيّ في بناء المسجد المدرسة الأولى في الاسلام.

المدرسة التي تلقى فيها جيل الاسلام الأول مبادئ الحق وشريعة الله، وكان أُبَيّ أحد الرجال الذين يرابطون في المسجد ليل نهار ولا يغادرونه إلا للنوم أو قضاء الحاجة.

وآخى رسول الله ﷺ بين أُبَيّ بن كعب وبين سعيد بن زيد، نعم سعيد بن زيد.

الرجل الأواب الكثير الخوف من ربه.

والمتبتّل في محراب الإيمان حتى قيل إنه مستجاب الدعوة. ولقد شكته أروى

بنت أوس إلى مروان بن الحكم وادعت عليه أنه استولى على أرضها وظلمها في حقها.

وعندما علم سعيد بن زيد بشكوى أروى قال:

«تروني ظلمتها، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من ظلم من الأرض شبراً طوقه الله يوم القيامة من سبع أرضين.

ثم قال: فلتأخذ ما تراه أنه حقها. وتوجه إلى ربه بقوله:

«اللهم إن كانت كاذبة فلا تمتها حتى تعمي بصرها وتجعل قبرها في بئر».

وترك لها سعيد ما ادعت فأقامت عليه جدارها.

يقول راوي الخبر: فلم تمكث إلا قليلاً حتى عميت، وكانت تقوم بالليل ومعها جارية تقودها، فقامت وتركت الجارية فلم توقظها فخرجت تمشي حتى سقطت في البئر فأصبحت ميتة.

إننا نؤمن بأن لكل أجل كتاباً، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل لكل شيء سبباً، فهذا حدّد أجله وقدر رزقه ولكن جعل سببه بأن يتردى عن طريق الأعداء من حالق.

أو يجعل قبره أعماق البحار عندما تغرق السفينة.

وثالث عن طريق اصطدام سيارة أو احتراق طائرة.

تعددت الأسباب وتباينت الملابسات والآجال محددة، لا تتقدم لحظة، ولا تتأخر فترة.

وإذا كان أُبيّ لا يفارق الرسول ﷺ في أيام السلم ويتابعه في كل ما يأتي وما يدع، وتلتقط أذناه كل ما يتلفظ به. إذا كان أُبيّ يفعل ذلك أيترك رسول الله والأسنة مشرعة والحرب قائمة، وجيوش الكفر تريد أن تقضي على الدعوة الوليدة وأصحابها؟ محال أن يكون ذلك!؟

لقد شهد أُبَيّ غزوة بدر التي فصل الله سبحانه وتعالى فيها بين الحق والباطل. وأنزل فيها ملائكته لتشدّ من أزر هؤلاء المؤمنين، عندما ناشد محمد ربه بقوله :

« اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض ».

وفي غزوة أحد التي ابتلى فيها المؤمنون لمخالفتهم أمر رسولهم وإكراهه على الخروج أرسل أُبَيّ بن كعب من قبل الرسول ﷺ ليأتي بخبر سعد بن الربيع.

عن أبي سعيد الخدري، عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد :

« من يأتني بخبر سعد بن الربيع؟.. فإني رأيت الأسنة قد أشرعت إليه.

فقال أُبَيّ بن كعب : أنا ؛ فذهب يطوف بين القتلى فوجده وبه رمق فقال سعد ابن الربيع : ما شأنك؟..

فقال أُبَيّ : بعثني رسول الله ﷺ لآتيه بخبرك؟؟.

قال : فاذهب إليه فأقرئه مني السلام، وأخبره أني قد طعنت اثنتي عشرة طعنة، وأني قد أنفذت مقاتلي، وأخبر قومك أنهم لا عذر لهم عند الله إن قتل رسول الله ﷺ، وواحد منهم حي ».

ولم يبرح أُبيّ مكانه حتى مات سعد بن الربيع، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان من أمر سعد.

فقال رسول الله ﷺ رحمه الله نصح لله ولرسوله حياً وميتاً.

وعاش أُبيّ بعد ذلك في مجلس الرسول ﷺ يكتب له ما ينزل به جبريل عن ربه — ويتفقّه في دينه، ويعبد ربه وينتظر أوامر رسوله ﷺ فإذا جاءت الوفود وكثيراً ما كانت تأتي — وجههم الرسول الكريم الى أُبيّ بن كعب ليقرأهم القرآن، ويشرح لهم قواعد الدين.

حدث هذا مع وفد بني حنيفة، وجلس رئيس الوفد « رحال بن عنفوة » بين يدي كعب ليقرأ القرآن ويتعلم الحديث.

ومع وفد ثقيف الذي أبى أحدهم وهو عثمان بن أبي العاص بعد مقابلته للرسول ﷺ إلا أن يتخلّف عن الوفد ويلازم أُبي بن كعب ليتعلم على يديه القرآن ويفقه في أمور الدين.

وكذلك مع وفد غامد الذين جاءوا الى رسول الله ﷺ يعلنون اسلامهم، ويتفقهون في دينهم — ونزلوا فترة في بقيع الفرقد.

فإذا تغيّب الرسول ﷺ في سفر عن المدينة طلب من أُبيّ أن يؤم المصلين في صلاتهم، ويجيب على ما يعنّ لهم من أسئلة أو استفسارات..

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلّم يوكل إليه القيام بتلك المهمة لأنه يعرف من هو أُبيّ، فقهاً في الدين، ومعرفة بكتاب الله. ولقد قال عنه الرسول ﷺ:

«أقرأ امتي أُبيّ بن كعب».

يروى عن أبي نضرة عن رجل يسمى جابراً قال: طلبت حاجة إلى عمر في خلافته، وإلى جنبه رجل أبيض الشعر أبيض الثياب فقال:

«إن الدنيا فيها بلاغنا وزادنا إلى الآخرة، وفيها أعمالنا التي نجازى بها في الآخرة قلت:

مَن هذا يا أمير المؤمنين..؟

قال: هذا سيد المسلمين أُبيّ بن كعب..؟؟[1].

انه سيد المسلمين بقراءته للقرآن، وسيد المسلمين بالتزامه بأوامر ربه، وسيد المسلمين، لأنه عرف كيف يحكم نفسه ويضبط شهواته، فانقادت له الأمور، وفتح الله له عين قلبه، وألهمه الرشد والصواب.

ومع ذلك كان يتعاهد القرآن ويتدارسه كثيراً ولا يتركه في سفر أو حضر.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ٤٩٩.

عن أبي المهلب عن أُبيّ بن كعب قال:

كنت أختم القرآن في ثماني ليال وكان تميم الداري يختمه في سبع، ومن كان كذلك فهو يتأدّب بأدب القرآن، وينهج نهجه، ويتبع أوامره وينتهي عن نواهيه.

فهو لا يسبق الحوادث، ولا يفرع المسائل ولا يفتي فيما لا يقع، ولا يفرض الفروض، ولا يقول بغير علم كما يفعل بعض المتعالمين:

عن الشعبي عن مسروق قال: سألت أُبيّ بن كعب عن مسألة فقال:

يا ابن أخي أكان هذا..؟

قلت: لا.

قال: فاحمنا حتى يكون، فإذا كان اجتهدنا لك رأينا[1]».

وفي مسجد الرسول ﷺ كان يجلس أُبيّ بن كعب يعظ وينذر، ويبشّر ويخوّف، ويقدم للمسلمين ما وعته ذاكرته من قول أو فعل أو تقرير.

قال قيس بن عبادة قدمت المدينة للقاء أصحاب محمد ﷺ فلم يكن فيهم أحد أحبّ إليّ لقاء من أُبيّ بن كعب، فقمت في الصفّ الأول فخرج، فلما صلى حدث، فما رأيت الرجال تطاولت أعناقهم إلى شيء كما فعلت مع أُبيّ بن كعب.

فسمعته يقول:

«هلك أهل العقدة ورب الكعبة قالها ثلاثاً، هلكوا وأهلكوا أما إني لا آسى عليهم، ولكن آسى على من يهلكون من المسلمين».

لماذا هلك أهل العقدة؟..

وكيف يكون هلاكهم؟..

أيكون ذلك بابتعادهم عن هدي نبيهم؟.. أم لجعلهم كتاب ربهم وراءهم ظهرياً؟.

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٥٠٠.

إن هذا هو الملاك الذي لا ملاك بعده.

من أجل ذلك كانت وصية أُبيّ بن كعب لمن طلب منه النصيحة قوله: «اتخذ كتاب الله إماماً، وارضَ به قاضياً وحكماً، فإنه الذي استخلف فيكم رسولكم شفيع مطاع وشاهد لا يتهم، فيه ذكركم وذكر من قبلكم، وحكم ما بينكم، وخبركم وخبر ما بعدكم».

وهل ضلّت الأمة الاسلامية إلا ببعدها عن كتاب ربها؟

إن ما أصاب المسلمين من وهن وضعف وقلة حيلة، راجع إلى بعدهم عن القرآن الكريم.

إن العرب قبل الاسلام لم يكونوا شيئاً يذكر بالنسبة لمن كان يجاورهم من الأمم، ولكنهم بعد أن عرفوا كتاب الله خضع لهم الملوك وطلب ودّهم القياصرة والكياسرة، لأنهم ربطوا أسبابهم بالله سبحانه وتعالى، وإذا كان القرآن الكريم هو النص الثابت الباقي من الكتب السماوية لم يلحقه التبديل والتحريف مصداقاً لقول الله تعالى:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1]

فإن للسنة النبوية — وهي المصدر الثاني للتشريع — أعمق الأثر في حياة المسلمين، وعليها مدار نهضتهم وتقدمهم.

يقول أُبيّ بن كعب رضي الله عنه:

عليكم بالسبيل والسنّة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة، ذكر الرحمن عزّ وجلّ ففاضت عيناه من خشية الله عز وجل فخشية النار. وليس من عَبْدٍ على سبيل وسنة، ذكر الرحمن فاقشعر بدنه من خشية الله عزّ وجلّ إلا كان مثله كمثل شجرة يبس ورقها، فبينا هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحاتّ عنها ورقها، إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها.

(١) سورة الحجر آية رقم ٩.

وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل الله وسنته ، فانظروا أعمالكم فإن كانت اجتهاداً أو اقتصاداً أن تكون على منهاج الأنبياء».

ويصور أُبيّ بن كعب حال المؤمن ، ويرى أن المؤمن لا يخلو حاله عن واحد من أربع .

إن ابتلى صبر.
وإن أعطى شكر.
وإن قال صدق.
وإن حكم عدل.

فهو يتقلب في خمسة من النور ، وهو الذي يقول الله «نور على نور» كلامه نور ، وعلمه نور ، ومدخله في نور ، ومخرجه من نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة.

أما الكافر فإنه يتقلّب في خمسة من الظلم ، فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة.

وصدق أُبيّ بن كعب رضي الله عنه فيما قال.. فمن أين يأتي النور لهذا الكافر الذي طمس الله على بصره فلم يرَ الحق؟..

وران الضلال على بصيرته فلم يهتد الى النور؟؟..

ان الكافر بربه ، المنكر لفضل مولاه هو أشدّ أنواع الخلائق في الغي والعماية.

ان هذه الصفة صفة الكفر التي يتصف بها الانسان الكنود لا يشاركه فيها أحد من الكائنات أو الجمادات في هذا الكون الكبير الذي لا يحدّ.

- فالكل يعبد ربه ، ويسبح بحمده ، ويخضع له.

قال تعالى : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[1] .

وقال أيضاً :

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافّات كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾[2] .

لقد كان أُبيّ الذي عب من هدي الرسول ﷺ يُرى دائماً شاحب الوجه ، منهوك القوى ، كأنه عائد من سفر طويل ، سأل الرسول يوماً : ما جزاء الحمى ؟

قال : «تجري الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم ، أو ضرب عليه عرق» .

فقال أُبيّ بن كعب : اللهم اني أسألك حمى لا تمنعني خروجاً في سبيلك ولا خروجاً إلى بيتك ، ولا مسجد نبيك .

قال : فلم يمس أُبيّ قط إلا وبه حمى» .

وفي يوم من الأيام جلس أُبيّ كعادته — في مسجد الرسول — ﷺ يحدث المسلمين بكلمات القرآن ، وبحديث الرسول عليه السلام قال أُبيّ رضي الله عنه :

كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قال :

«يا أيها الناس اذكروا الله إذا جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه» يقولها ثلاثاً .

ثم قال : قال لي رسول الله ﷺ يا أُبيّ ألا أعلمك كلمات مما علمني جبريل عليه السلام .. ؟

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ٤٤.

(٢) سورة النور آية رقم ٤١.

قال قلت : نعم يا رسول الله.

قال : قل اللهم اغفر لي خطاياي ، وعمدي ، وهزلي ، وجدي ، ولا تحرمني بركة ما أعطيتني ، ولا تفتني فيما حرمتني.

ثم تهدج صوته ، وشحب وجهه ، وعجزت يده أن تحمل عصاه ولكن أحد السائلين طلب منه أن يتكلم عن موقف هؤلاء الولاة الذين يشيدون القصور ! ويوقفون الحجّاب.. !

فقال أُبيّ : اللهم إني أعاهدك لئن أبقيتني إلى يوم الجمعة لأتكلمن بما سمعت من رسول الله لا أخاف فيه لومة لائم.

فانصرف عنه الرجل ينتظر الجمعة..

يقول صاحب السؤال : فلما كان يوم الخميس خرجت لبعض حاجتي فإذا السكك غاصة من الناس لا أجد سكة إلا يلقاني فيها الناس.

قال قلت : ما شأن الناس :.؟

قالوا : مات سيد المسلمين أُبيّ بن كعب.

رحم الله أُبيّ وجزى عنه الاسلام والمسلمين خيراً.

أسباب نزول الآيات

روى الامام أحمد بسنده عن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال لما نزلت : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ إلى آخرها ، قال جبريل : يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها أبياً.

فقال النبي ﷺ لأبي :

«إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة».

قال أبي : وقد ذكرت ثمّ يا رسول الله؟..

قال : نعم ، قال فبكى أبي[1] .

وعن طريق آخر قال احمد حدثنا محمد بن جعفر بسنده عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب قال : ان رسول الله ﷺ قال لي :

«ان الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن ، قال فقرأ»[2] .

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ قال ثم قال :

«ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه لسأل ثانياً ، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، وان

---

(١) مسند الامام أحمد.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من حديث شعبة.

ذات الدين عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ومن يفعل خيراً فلن يكفره».

وروى الطبراني بسنده عن أبي بن كعب قال، قال رسول الله ﷺ : يا أبا المنذر اني أمرت أن أعرض عليك القرآن».

قال : بالله آمنت وعلى يدك اسلمت، ومنك تعلمت. قال : فرد النبي ﷺ القول :

قال : يا رسول الله وذكرت هناك؟..

قال : نعم باسمك ونسبك في الملإ الأعلى.

قال : فاقرأ اذاً يا رسول الله. وعلق ابن كثير على هذا الحديث بأنه غريب من هذا الوجه.

وقال : وإنما قرأ النبي ﷺ هذه السورة تثبيتاً له وزيادة لإيمانه فإنه كما رواه الإمام أحمد والنسائي من طريق أنس عنه أن أبياً كان أنكر على عبد الله بن مسعود قراءة شيء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ فرفعه إلى النبي ﷺ فاستقرأهما وقال لكل منهما «أصبت».

قال أبي فأخذني من الشك، فضرب رسول الله ﷺ في صدره.

قال أبي : ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله فرقاً.

وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال :

«إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف».

فقلت : أسأل الله معافاته ومغفرته.

فقال : على حرفين..؟ فلم يزل حتى يقال : إن الله يأمرك أن تقرئ القرآن على سبعة أحرف[1].

والله أعلم.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٩ ص ٣٦٣ — ٣٦٤.

تذييل...

قال تعالى : ﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيّمة ﴾.

عبادة الله سبحانه وتعالى هي سبب الخلق ، وعليها تقوم الدنيا قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾[1] .

ومن أجل ذلك اراد الله سبحانه وتعالى : أن يوجد خليفة في الأرض من جنس البشر، فبهتت الملائكة وقالوا لربهم :

﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك..؟﴾[2] .

قال الله تعالى لهم : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾[3] .

أتلك هي طبيعة البشر الافساد والقتل..؟

إن الله تعالى يقول : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾[4] .

---

(١) سورة الذاريات آية رقم ٥٦ .

(٢) (٣) سورة البقرة آية رقم ٣٠.

(٤) سورة الحجر آية رقم ٢٩.

اذن هذا المخلوق فيه نفخة من روح الله.

وإذا كان ذلك ففيه الهدى والصلاح لوجود النفخة، فيه الضلال والافساد والقتل لطبيعة الأرض.

إذن لا بد للبشرية من مرشد وموجه، يوجهها فلا تضل ويرشدها فلا تنحرف.

وأخذت الرسالات تترى، ورسل الله يتعاقبون الواحد تلو الآخر كلها تدعو إلى دين القيمة دين الاسلام.

نوح عليه الصلاة والسلام يقرر ذلك ويدعو قومه إلى الاقرار به ويؤكد لهم أمر ربه بذلك يقول تعالى على لسان نوح:

﴿يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون فان توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾[1].

دعاهم الى دين القيمة الى دين الاسلام ولكنهم رفضوا دعوته وقال بعضهم لبعض: ﴿لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾[2].

فجاء الطوفان، فحطم الأصنام وأغرق البهتان واكتسح الكفر وأهله.

ثم جاء هود عليه السلام يدعو إلى دين القيمة الى التوحيد قال تعالى على لسان هود: ﴿يا قوم اعبد الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾[3].

ولكنهم لم يستجيبوا له وقالوا بعد أن خوفهم بعذاب ربه:

﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[4]. وكانت العاصفة التي دمرت كل شيء. ويصور القرآن هلاك قوم عاد بقوله:

(١) سورة يونس آية رقم ٧١.
(٢) سورة نوح آية ٢٣.
(٣) سورة الأعراف آية ٦٥.
(٤) سورة الأعراف آية ٧٠.

﴿وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى، كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية﴾[1].

وجاء صالح أيضاً يدعو الى دين القيّمة الى دين الاسلام الى كلمة التوحيد قال تعالى: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾[2].

وانقسم المجتمع الى قسمين، قسم المؤمنين، وقسم الكافرين.

وقال الكافرون للمؤمنين: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه.

ويرد المخلصون المؤمنون: ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾[3].

فيقولون لهم: ﴿إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾[4]. ووقفوا موقف التحدي ﴿وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾.

واستجاب الله لدعوة صالح وأنزل عقابه بالجاحدين الكافرين؛ قال تعالى:

﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾[5].

وأخذت رسالات الله تترى ورسل الله يتعاقبون وكلهم يدعو إلى دين القيمة دين الاسلام قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّ في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾[6].

والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام يقرون باسلامهم ويطلبون من نبيهم أن يشهد باسلامهم قال تعالى:

---

(١) سورة الحاقة آية ٦.
(٢) الأعراف آية ٧٣
(٣) الاعراف ٧٥.
(٤) الأعراف آية ٧٦.
(٥) سورة هود آية ٦٧.
(٦) سورة يوسف آية ١٠١.

﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾[1] .

وسحرة فرعون يجابهون الطاغية بكلمة الاسلام ويتساءلون لماذا ينقم عليهم وينتقم منهم قال تعالى :

﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾[2] .

فالاسلام اذن هو دعوة نوح عليه السلام ، ودين ابراهيم الخليل ، ومطلب اسماعيل الذبيح ، والحقيقة التي يموت عليها أبناء يعقوب ، والفكرة التي يتقبل الموت من أجلها أتباع موسى ، ويرفضون الحياة وزخرفها عند فقدها.

وإذا كان الاسلام هو القاسم المشترك بين أنبياء الله ورسله جميعاً فإن الدعوة إلى الله ، الدعوة الى عبادة الواحد الأحد ، الدعوة الى التوحيد الخالص ، إلى دين القيمة ، هو أساس كل دين.

قال تعالى مخاطباً الرسول الكريم محمداً ﷺ :

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[3] .

وإذا كان ذلك كذلك.. فعلام الاختلاف..؟

لماذا التعصب باسم الدين..؟ والتقاتل باسم الرسل..؟

والاختلاف على دين الله وهو واحد.؟

والتقاتل على حقيقة الألوهية وهو فرد صمد؟

---

(١) سورة آل عمران آية ٥٢.

(٢) سورة الأعراف آية ١٢٦.

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٥.

يا أتباع محمد في كل مكان.. ان رسالتكم واضحة، ودينكم خاتم الأديان، فادعوا البشرية الضالة اليه.. إن فعلتم استحققتم وصف الله سبحانه وتعالى لكم:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

فهل أنتم على الدرب سائرون.؟ نرجو من الله ذلك..!

مُصْعَب بن عُمَير

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ
أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ
أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة آل عمران آية ١٦٩ - ١٧٠]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين :

نزلت في مصعب بن عمير وحمزة بن عبد المطلب .

قال ذلك الإمام القرطبي في تفسيره جـ ٤ ص ٢٦٩ .

وقال الإمام ابن كثير عن ابن عباس أنها نزلت في حمزة وأصحابه جـ ١ ص ٤٢٧ .

وقاله الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي في كتابه أسباب نزول القرآن ص ١٢٥ .

فمن هو مصعب بن عمير؟ .

مُصعب بن عُمَير

رضي الله عنه

يكنى أبا محمد ، وكان يسمى المقرىء ، ومصعب الخير أول المهاجرين إلى المدينة .

والداعية لدين الله بين قبائل الأنصار . وسفير الرسول ﷺ إلى يثرب وحامل لواء المسلمين في غزوة بدر ، التي نصر الله فيها المسلمين نصراً مؤزراً .

والده : عمير بن هشام بن عبد مناف ، من أشرف بيوتات قريش وأعرقها حسباً ونسباً .

والدته : خناس بنت مالك بن المضرب ، من أكثر اغنياء مكة ثروة ومالاً ما جاءت قافلة الى مكة إلا وكان لها فيها نصيب .

وما خرجت قافلة من قوافل مكة إلى الشام إلّا كان فيها « لخناس » إبل وأحمال .

أخوه أبو عزيز ، صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث ، وأحد الأسرى فيها ، أسره أبو اليسر ، فسألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي فقيل لها أربعة آلاف درهم .

فلم تدفع أقل من ذلك فداء له[1]

---

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٨٩ .

ولد مصعب بمكة ، ونشأ على بطحائها ، وعرفته دروبها بالفتى المعطر الذي يلبس أحسن اللباس ، وأغلى الأردية .. وحبته الحياة بمكة رقة البشرة ، وجمال الهيئة ، واستقامة القوام في غير طول أو قصر ، وكان حسن اللمة ، ضاحك الثغر يملأ الحياة رواء وبهاء .

وكان أبواه يحبانه ، ويفديانه ولو بنور عينيهما ، لا يبخلان عليه في قليل أو كثير ولا يضنان عليه بما يطلب . بل يحققان له ما يريد .

ويجلبان اليه ما يرغب .

يقول ابن سعد في طبقاته : كانت أمه مليئة كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرفه ، وكان أعطر أهل مكة ، يلبس الحضرمي من النعال فكان رسول الله ﷺ ، يذكره ويقول :

«ما رأيت بمكة أحداً أحسن لمة ولا أرق حلة ، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير»[1] . كان خارج مكة عندما وقف الرسول ﷺ على الصفا ، ونادى على أهلها ، وأخبرهم أنه رسول الله اليهم خاصة ، وإلى الناس عامة .. وعاد من رحلته .. فوجد قريشاً لا حديث لها إلا حديث محمد ، تذكر ما قاله لهم .. وكيف كان رد عمه أبي لهب عليه .

وجلس مصعب في أحد هذه الأندية عله يسمع شيئاً عن هذا الحدث الجديد ، الذي دعا اليه محمد .

وجاءت جلسته في هذا المنتدى بجوار جبير بن مطعم أحد سادة قريش ورجالها الشجعان ، فابتدره مصعب قائلاً :

أسمعت ما قاله محمد صباح هذا اليوم يا جبير؟

نعم يا مصعب لقد كنت حاضراً ، ولقد وعت ذاكرتي كل ما قال ، أو تلفظ به .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١١٦.

وتحرك مصعب ناحية جبير ليكون على مقربة منه ثم قال : ورب الكعبة ألا حدثتني بما سمعت .. قال : كنت أمام حانوت سعد بن أبي وقاص لأتسلم منه بعض النبل والسهام استعداداً لموسم الصيد الذي قربت أيامه..

عندها طرقت أذني صوت محمد الأمين ينادي على الصفا يا صباحاه يا صباحاه .

فانفلت مسرعاً تجاه الصفا تاركاً خلفي سعداً ونبله وسهامه ، وعندما وصلت الى هناك ، كانت كثرة كثيرة من بطون قريش قد سبقتني إلى هناك.. ثم قال محمد : يا آل غالب ، يا آل فهر ، وعدد بطون قريش ، لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ .

قالوا له : ما جربنا عليك كذباً يا محمد . قال بعدها إني رسول الله اليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، فرد عليه عمه أبو لهب قائلاً :

« تباً لك ألهذا جمعتنا؟ . وانفض الناس عنه ، ولم يبق أمامه في الساحة إلّا بعض العبيد والموالي ، وضعفاء مكة . قال مصعب : ثم ماذا يا جبير ألم يقل غير ذلك؟ قال جبير : لقد سمعته يقول : إنه يوحى إليه ، ثم تلا بعض كلمات مما يزعم أنها تنزلت عليه . أتعيها يا جبير؟ نعم . إنه كان يردد : ﴿فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين ، وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل اني بريء مما تعملون﴾[1] . ما معنى هذا يا جبير؟ .

ورب هذه الكعبة يا مصعب لم أفهم مما قال شيئاً ، ولكن والحق يقال هذه الكلمات صدعت قلبي . وجاء ساقي الشراب فانصرفا إلى شيء جديد « إن هذه الكلمات صدعت قلبي » .

هكذا أخذ مصعب يردد هذه الكلمات وهو عائد إلى منزله في الهزيع الأخير من الليل .

---

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢١٣ — ٢١٤ — ٢١٥ .

وقدمت له أمه طعامه فانصرف عنه ، ما بك يا مصعب لعلك نسيت كعادتك أن تمر على آلهتنا لتباركك.وتبعد عنك هوام الجو والبر .. لا شيء يا أماه ولكن أريد أن آوي إلى فراشي. ولم يغمض لمصعب جفن ، وأخذت كلمة جبير تطن في أذنيه ، وتحيط به ، وتحول بينه وبين النوم. وفي الصباح كان مصعب يسرع السير إلى هناك إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم حيث يوجد محمد وأصحابه.

والتقى برسول الله ﷺ واستمع إلى حديثه ودعاه إلى الاسلام ، واستجاب مصعب لرسول الله ﷺ ونطق بكلمة الشهادة ، الكلمة الفاصلة بين عهدين ، انها كلمة ولكن الانسان يصبح بنطقها خلقاً جديداً . انه يشهد على الغيب بأن لا اله إلا الله وهكذا ينطلق من قيود الحس وظرف الزمان ، وتحديد المكان إلى رحابة الغيب وهذا مفرق الطرق بين الحيوان الذي لا يعرف غير ما يحس ويشاهد. وبين الانسان الذي يطلق عقله فيتعرف على ما وراء الغيب ويشهد عليه بأنه حاضر شاهد.

إنها نقلة من سجن الكفر إلى رحاب الإيمان ، ومن ظلمة الجهل إلى نور الاسلام ، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد ، الفرد الصمد...

وخرج مصعب من دار أبي الأرقم يكتم اسلامه ، خوفاً من قريش أن تناله بالأذى أو تتعرض له بمكروه. أو من أمه فتحول بينه وبين الذهاب إلى رسول الله ﷺ وأصبح مصعب إنساناً جديداً غير الذي عرفته قريش من قبل.

إنه يحب العزلة ، ويعشق الوحدة ، ويكثر الطواف بالكعبة والجلوس بها ويختلس غفلة قريش ، فيتجه إلى ربه يصلي ركعات وركعات . فاذا جن المساء أسرع السير إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم ليستمع إلى محمد ﷺ ويتزود من نور الايمان ولكن لم تدم هذه السعادة طويلاً.

ولم ينعم بالراحة والاطمئنان إلا أشهر معدودات بعد أن عرف الطريق إلى ربه.

لقد أبصر به عثمان بن طلحة يصلي في جوف الكعبة فأشاع ما رأى ، وأخبرت أمه بما حدث به ابن أبي طلحة ، وكان يوماً عصيباً على مصعب.

أصبأت يا مصعب.؟

لا يا أماه، ورب هذه الكعبة، ولكني عرفت الطريق الحق إلى الله.

أي إله تعني يا مصعب.؟

إنه إله واحد. الذي خلق الأرض والسماء، وبسط الظلام والنور وجعل الموت والحياة.. أهناك آلهة غير اللات، ومناة، وهبل يا مصعب؟..

يا أماه: أعلم أنك راجحة العقل نافذة البصيرة وإني لأرجو ألا يغيب عنك أن هذه الأحجار لا تنفع ولا تضرّ، ولا تملك من أمر نفسها شيئاً؟..

إنها نفس الأصنام التي حطمها أبو الأنبياء ابراهيم وقال لقومه عندما عارضوه في ذلك، وأرادوا الانتقام منه لما فعل بتلك الأصنام ما فعل..

﴿هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعوكم أو ضرون؟﴾[1].

فكيف يا أماه تكون هذه الأحجار التي نصنعها بأيدينا آلهة نتوجه إليها بالعبادة والتقديس؟

خسئت يا مصعب وشل لسانك، أبهذه الجرأة تنال من آلهتنا وتسخر من معتقداتنا؟

معاذ الله يا أماه أن أكون كما تقولين ولكن..

كف يا مصعب، عن هذا الهراء، لقد صدقوني فيما قالوه لي عنك وعن عقوقك للآلهة.. ماذا قالوا لك يا أماه؟ قالوا: بأن محمداً سحرك بسحر، فصبأت عن ديننا وتابعته فيما يدعو إليه.. وحق هذه الآلهة لأضعن قدمك في القيد كما نفعل بالدواب، حتى تموت أو تكفّ عن هذا الذي تقول..

واستمر مصعب في قيده، حتى أذن الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، فانفلت من محبسه وانضم إلى قافلة المهاجرين إلى الله، الفارين بدينهم من قريش.

---

(١) سورة الشعراء آية رقم ٧٢، ٧٣.

وهناك على أرض الحبشة وجدت الكتيبة المهاجرة الأمن والاطمئنان بعيداً عن سياط مكة وجحيمها.. ولكن ما لبث هؤلاء المهاجرون أن أحسوا بالفراغ القاتل يلفّ حياتهم، والحنين الطاغي إلى كلمات الرسول ﷺ وهديه تشدّهم إلى هناك حيث مجلس الرسول ﷺ بمكة.

وبمجرد أن وصلت إلى أسماعهم إشاعة قريش التي زعمت فيها انها تابعت محمداً فيما يدعو إليه.. حتى أخذ المهاجرون في العودة إلى أرض الوطن، وكان مصعب من أوائل الذين وطئت أقدامهم أرض مكة.

عاد مصعب من الحبشة بغير الوجه الذي ذهب به، لقد كان صبوح المحيا، مفتول العضل، قوي البنية، وكان خفيف الحركة ضاحك الثغر.

فعاد وعلى محياه مسحة من الحزن وفي حلقه غصة من الألم، وأصيب جسمه بضمور وضعف. الأمر الذي جعل أمه تكف عن عذابه. وأقبل مصعب على النبي ﷺ وهو جالس بين أصحابه، عليه قطعة نمرة قد وصلها بإهاب قد ردنه ثم وصله إليها، فلما رآه أصحاب النبي ﷺ نكسوا رؤوسهم رحمة له. ليس عندهم ما يغيرون عنه، فسلم فرد عليه النبي ﷺ وأحسن عليه الثناء وقال: «الحمد لله يقلب الدنيا بأهلها لقد رأيت هذا — يعني مصعباً — وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيماً منه ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير في حب الله ورسوله»[1] وفي إحدى مواسم الحج التقى رسول الله ﷺ برجال الأنصار، ودعاهم إلى الاسلام فبادروا إلى دعوته، وبايعوه البيعة الأولى، وكان عددهم اثني عشر رجلاً.

وحمل هؤلاء الرجال إلى قومهم دعوة الإسلام، واستجاب الكثير لهذه الدعوة، وانتشر الاسلام بين الأنصار. عند ذلك أرسلوا إلى الرسول ﷺ كتاباً يقولون فيه: «ابعث إلينا رجلاً من أصحابك يفقهنا في الدين يقرئنا القرآن» وتلفت الرسول ﷺ بين أصحابه ليختار رجلاً يصلح لتلك المهمة، ووقع اختياره على

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ١١٧.

مصعب بن عمير. انه يمتاز برجاحة العقل، ودماثة الخلق، وحسن البيان وحباه الله موهبة الاقناع، والتوفيق فيما يتجه له من أمور وفوق ذلك فإن عقله يعي ما أنزله الله على رسوله من آيات بينات، وتحتفظ ذاكرته بالكثير من أعمال الرسول ﷺ وتوجيهاته. وهذا القدر كاف لتلك المهمة التي سيقوم بها. ودعاه الرسول ﷺ وأوكل إليه أمر هذه المهمة وزوده بنصائحه وتوجيهاته، ودعا له بالتوفيق في مهمته. وسار مصعب إلى يثرب لينشيء على مكث في تلك البلدة الطيبة قاعدة إسلامية ويصنع من هؤلاء الرجال جنوداً للدعوة الجديدة، ويمهد النفوس لما بعد ذلك.

ومن يدري. ؟ قد تكون هذه المدينة في المستقبل منطلق الاسلام والمسلمين إلى كل بقاع الأرض، وإلى كل أفراد البشرية. فالمهمة ليست سهلة ولا ممهدة أمام مصعب، ولكنها شاقة وصعبة. فلو كانت المهمة، مهمة سفارة وكفى لهان الأمر. ولو كانت المهمة تبليغ رسالة أو اقناع فرد ما كان هناك بأس. ولو كانت المهمة، الوقوف أمام مجموعة من الرجال عليهم الدروع والزرد، لاستعان بالله عليهم وبدد جمعهم، ولكن المهمة صناعة الانسان وتغيير النفوس، وتوجيه القلوب إلى هدى الله ونور الإيمان. ولكن لا بأس فكل صعب يهون ما دام في سبيل الله. ولاحت لعينيه أشجار النخيل السامقة، وكأنها آلاف الأكف المبسوطة بالضراعة لخالقها وتبتهل لموجدها. وشاهد مصعب معالم يثرب. فترجل عن دابته، وكانت الشمس تؤذن بالمغيب فصلى لربه وخالقه، واتجه إلى مولاه ضارعاً أن يشد أزره، ويأخذ بيده، لتحقيق ما كلفه رسول الله به. وقبل أن يلف الكون رداء الليل. كانت يده تطرق طرقات خافتة على منزل أسعد بن زرارة أحد رجالات البيعة الأولى ومن السابقين إلى الإسلام، واستقر به المقام في منزل أسعد، وأخذ في أداء ما كلف به، وكل يوم يمر يكسب مصعب قلوباً للإسلام.

وفي يوم من الأيام ومصعب بين المسلمين يقرئهم القرآن ويسمعهم هدى النبوة. إذا بطرقات عنيفة على الباب. وما كاد الباب يفتح حتى ظهر أسيد بن حضير يتطاير الشرر من عينيه ويقبض على حربته بيده. عندها قال أسعد بن زرارة لمصعب: هذا أسيد بن حضير سيد قومه، قد جاءك، فأصدق الله فيه. قال مصعب: أن يجلس

أكلمه. ولكن «أسيداً» ما جاء ليجلس، ولم يأتِ ليستمع، لقد جاء ليلقن هذا الرجل درساً قاسياً يرد له عقله ويرجعه إلى بلده، ويجعله لا يفكر في العودة مرة أخرى إلى تلك البلاد. وبدأ حديثه قاسياً غاضباً ثم قال: «ما جاء بك إلينا تسفه ضعفاءنا وتغير أحوالنا؟ اعتزلنا إن كانت لك بنفسك حاجة؟ فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره؟.

إنه يدعوه للاحتكام إلى العقل، يدعوه للتعرف على ما يدعو إليه، إنها بداية طيبة من هذا الرجل. إذن لم لا يستمع إليه؟ وقد يكون ما سمعه عنه وشاية، أو حديثاً مفترى.. أيرفض «أسيد» هذا المنطق؟ وهو الرجل الذي يسمى بالكامل؟.

أيجهل على رجل من غير هذه الديار؟ وأين كرم الضيافة، وحقوق الضيف؟ ثم أيحكم على قول قبل أن يستمع إليه؟ إن هذا لمن خطل الرأي؟ وما لبث أن استوقفه عقله، وردته إلى صوابه الكلمات البسيطة الصادقة التي نطق بها مصعب. عندها قال «أسيد» لمصعب أنصفت. ثم ركز حربته، وجلس إليه، فكلمه مصعب بالإسلام، وشرح له بعض كلماته البسيطة.. وقرأ عليه آيات من القرآن.

ولم يلبث أن أشرق وجه.. أسيد، وانفرجت أساريره وتفتح قلبه للنور الجديد.

وقال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قال مصعب: تغتسل فتتطهر، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة التوحيد، وتصلي. فقام فاغتسل، وطهر ثوبه وبدنه، ونطق أمام مصعب بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعلمه مصعب الصلاة. فقام فركع ركعتين[1].

ومن اللحظات الأولى بعد إسلامه تحول إلى داعية للإسلام ومبشّر بهذا الدين الجديد. وأطلق لفرسه العنان، وانطلق إلى صديق طفولته ورفيق شبابه، سعد بن معاذ. وعندما رآه سعد قال ما وراءك يا أسيد؟ ولكن أسيد لم يجبه بشيء، بل حمله إلى هناك حيث سفير الرسول ﷺ فاستمع إليه كما استمع أسيد، ولقن

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٤.

الشهادة ، وعادا إلى قومهما شخصين آخرين وكأنهما عندما تحرك لسانهما بهذه الكلمة العجيبة. تلاشت مرة واحدة كل وساوس الشرك ، وكل تطلعات الجاهلية ، وانسلخا من عرفها ، وطبائعها بالكامل الأمر الذي يجعل سعداً بن معاذ يقف في نادي قومه قائلاً : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة. قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله[1] .

قالوا : فوالله ما أمسى دار من بني عبد الأشهل إلا وفيه رجل مسلم أو امرأة مسلمة. ورجع سعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقاما عنده يدعو مصعب إلى الاسلام ويشد أزره سعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير ، وأسعد بن زرارة. حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

ونجح مصعب في مهمته ، وأجاب الأنصار داعي الله ، وأخذت النفوس المؤمنة تتطلع إلى رؤية حبيب الله ﷺ وتهفو إلى مكة تلك البقعة المباركة التي اختارها الله لتكون منارة نور وهداية ، ومبعث وحيه ودينه.

وفي موسم الحج ، خرجت قافلة الايمان تسرع السير إلى مكة ، قافلة عجيبة الشأن ضخمة العدد ، يتجاوز عددها السبعين رجلاً ، وأبت النساء المؤمنات إلا أن ترسلن سفيرتين ليحدثنهن حديث صدق عن رسول الله ﷺ . ووقع الاختيار على نسيبة بنت كعب ، أم عمارة وأسماء بنت عمرو بن عدي. وانبعث صوت القافلة مدوياً يبدّد وحشة الطريق ويقطع صمت الصحراء بالنداء القوي ، شل عروش القياصرة والأكاسرة فيما بعد :

الله أكبر ، الله أكبر.

ووصلت القافلة مكة ، وقدم مصعب منزل الرسول ﷺ وجعل يخبر رسول الله ﷺ عن الأنصار وسرعتهم إلى الاسلام.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٥.

فسر رسول الله ﷺ بكل ما أخبره.. وبلغ أمه أنه قد قدم، قدم مصعب من يثرب.. فلم تطق الأم صبراً وأرسلت إليه: يا عاق أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بي؟[1].

ولكن مصعباً ما كان عاقاً بأمه، وهو البار بدينه والباذل نفسه في سبيل الله.

وقال لرسول أمه: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ. وانتهت مهمة مصعب مع الرسول ﷺ وتركه مع هؤلاء الرجال، رجال يثرب، وانفلت إلى أمه. فقالت أمه: إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد؟؟ قال: أنا يا أماه على دين رسول الله ﷺ وهو الاسلام الذي ارتضاه الله لرسوله ولخلقه. قالت ما الداعي لذهابك أرض الحبشة مرة، ويثرب مرة أخرى.؟

قال يا أماه.. فرار بديني أن أفتن فيه.

فأرادت حبسه ووضعه في القيد كما فعلت سابقاً فقال: لئن أنت حبستني لأحرض على قتل من يتعرض لي. قالت: فاذهب لشأنك وجعلت تبكي[2].

قال: يا أماه إني لك ناصح وعليك شفيق، فاشهدي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

قالت: والثواقب لا أدخل في دينك فيزري برأيي ويضعف عقلي، ولكن أدعك وما أنت عليه، وأقيم على ديني[3]. وأقام مصعب بمكة عدة شهور عاد بعدها إلى يثرب ليكون في استقبال رسول الله ﷺ عندما يأذن الله له بالهجرة. وازدانت يثرب بقدوم الرسول ﷺ وآخى بين مصعب بن عمير وبين أبي أيوب الأنصاري الذي نزل عليه رسول الله ﷺ عندما رحل من قباء إلى المدينة.

يقول أبو أيوب: لما نزل علي رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم

---

(1) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ١١١.

(2) المصدر السابق.

(3) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ١١٩.

أيوب في العلو. فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو ونتزل نحن فنكون في السفل.

فقال: يا أبا أيوب أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت[1]. فكان رسول الله ﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر جب[2] لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه. قال: وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه، فإذا ردّ علينا فضلة تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة[3] وكان مصعب يحمل لواء المسلمين في غزوة بدر، وفتح الله عليهم ونصرهم نصراً مؤزراً.

وفي غزوة أحد كان اللواء مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فلما رأى رسول الله ﷺ لواء المشركين مع عبد الدار.

قال الرسول ﷺ: نحن أحقّ بالوفاء منهم وأخذ اللواء من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فدفعه إلى مصعب بن عمير[4].

وقاتل مصعب دون رسول الله ﷺ قتالاً مجيداً حتى قتل.

تقول أم عمارة رضي الله عنها، خرجت أول النهار في غزوة أحد أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس، حتى خلصت إلي. فلما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل ابن قمئة أقمأه الله يقول: دلوني على محمد لا نجوت إن نجا[5]. فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ

---

(1) البداية والنهاية جـ٣ ص ١٩٩.

(2) الإناء الذي يوضع فيه الماء وغالباً ما يكون من الفخار.

(3) البداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ٢٠٠.

(4) المصدر السابق.

(5) سيرة ابن هشام.

فضربني هذه الضربة ، وكان على عاتقها جرح أجوف له غور ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان [1] مرحى يا أم عمارة. ثبتت حيث فر الرجال .؟ ودافعت عندما تخلى الأبطال .؟ وهذا ليس عجيباً ، لأن القلب إذا مليء بالايمان تضاءلت أمامه قوى الشر فلا ترهبه ، وصغرت في عينه الدنيا فلا تستذله .. ووضع بين يديه عزمه فلا يرهب إلا الله ولا يخشى إلا عقابه أيخاف القتل ، لقد كان القتل أمنية الرجال المؤمنين أيخاف أن يصاب جسمه وكم يساوي هذا الجسم في سبيل تحقيق أهداف دعوة الله ..

لقد كان عدد قتلى المسلمين في غزوة أُحد سبعين شهيداً .. فعلت فيهم الوحوش الآدمية ، ما لا يخطر على قلب بشر.

قال بعض المفسرين : إن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أُحد من تبقير البطون وقطع المذاكير والمثلة السيئة ، قالوا حين رأوا ذلك :

لئن أظفرنا الله عليهم ، لنزيدنَّ على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط ، ولنفعلن ولنفعلن .. ووقف رسول الله ﷺ على عمه حمزة وقد جدعوا أنفه وأذنه ، وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم ابتلعتها لتأكلها فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها.

فلما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة ، نظر إلى شيء لم ينظر قط إلى شيء كان أوجع لقلبه منه فقال : رحمة الله عليك ، إنك كنت ما علمت : وصولاً للرحم فعالاً للخيرات ، ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى تحشر من أجواف شتى ، أما والله لئن أظفرني الله تعالى بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك. فأنزل الله تعالى :

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾[2] .

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ٣٤.

(2) سورة النحل آية رقم ١٢٦.

فقال النبي ﷺ : «بلى نصبر». وأمسك عما أراد وكفر عن يمينه[1] ويعود المسلمون إلى المدينة ، ولم يعد معهم صاحب اللواء لم يعد مصعب الخير في الطريق الذي اعتاد الناس أن يعودوا منه . لقد سلك طريقاً آخر ، طريق الخلود طريق من يحظى بالشهادة ، وينال شرف الحياة عند ربه . ووقف الرسول ﷺ على مصعب وهو منجعف على وجهه فقرأ هذه الآية :

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾[2] . ثم قال : إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة » .

ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس زوروهم وأتوهم وسلموا عليهم ، فوالذي نفسي بيده ، لا يسلم عليهم مسلم الى يوم القيامة إلا ردوا عليه السلام[3] .

ويقول خباب بن الأرت : هاجرنا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله نبتغي وجه الله فوجب أجرنا على الله ، فمنا من مضى ، ولم يأخذ من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير ، قتل يوم أحد فلم يوجد له شيء يكفن به إلا نمرة فكنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه ، وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه . فقال لنا رسول الله ﷺ اجعلوها مما يلي رأسه واجعلوا على رجليه من الإذخر . ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهد بها[4] .

رحمك الله يا مصعب ، وجعل الجنة مثواك . . وتلتقي حمنة بنت جحش زوجة مصعب بن عمير بالعائدين من أُحد . ونعي إليها أخوها عبدالله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت . فقال رسول الله ﷺ « إن زوج المرأة منها لبمكان »[5] .

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢٩٢ .
(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٢٣ .
(٣) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ١٢١ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٤٦ .

لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها ، إن مصعب بن عمير ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعبدالله بن جحش من الرجال الأفذاذ في تاريخ الدعوة الاسلامية ، وما أحرى أن تبكي عليهم البواكي..ويستغفر لهم المسلمون ويذكرهم الآباء للأبناء.

رحمة الله ورضوانه عليهم.

أسباب نزول الآيات

حمل مصعب بن عمير رضي الله عنه ، اللواء يوم أحد ، فلما جال المسلمون ، ثبت به مصعب فأقبل ابن قمئة ، وهو فارس فضرب يده اليمنى فقطعها ومصعب يقول : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنا عليه ، فضرب يده اليسرى فقطعها ، فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه واندق الرمح ووقع مصعب وسقط اللواء .

قال رسول الله ﷺ : لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنا في الجنة نرزق ، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا في الحرب . ؟

فقال الله عز وجلّ : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ . وعن طلحة بن خراش قال : سمعت جابر بن عبدالله قال : نظر إليّ رسول الله ﷺ فقال : ما لي أراك مهتماً ؟ قلت يا رسول الله ، قتل أبي وترك ديناً وعيالاً . فقال : ألا أخبرك ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب ، وأنه كلم أباك شفاهاً فقال : يا عبدي سلني أعطك .

قال : أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية . فقال : انه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون .

قال : يا رب فأبلغ من ورائي . فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .

وعن سعيد بن جبير قال : لما أصيب حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير يوم أُحد ورأوا ما رزقوا من الخير ، قالوا ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كي يزدادوا في الجهاد رغبة . فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ .

تذييل...

ماذا كان يفعل محمد ﷺ لهؤلاء الرجال، الذين كانوا يتابعونه فيما يدعو إليه.؟ وما نوع المعطيات التي كان يقدمها لهم.؟ فتكون هذه المعطيات أغلى عندهم من الأم والأب، من الإخوة والأخوات، من الأبناء والأحفاد. أكان هناك بديل يعوضهم عن كل ذلك.؟ من مال أو جاه. أو منصب أو رياسة. حتى يتركوا ما هم فيه من نعمة وثراء ورخاء في العيش ورفاهية في الحياة.

إلى شظف العيش وإلى جوع وحرمان، وتعذيب وتنكيل.

الحقيقة أن محمداً ﷺ لم يكن يملك شيئاً من حطام الدنيا، ولم يكن يعدهم بملك عريض أو جاه كبير.

وكل ما كان يقدمه لهم هي كلمة الشهادة، وآيات من القرآن الكريم التي تنزَّل جبريل بها عليه كلما أذن له ربه. وآيات القرآن الكريم كانت هي زادهم وشغلهم الشاغل وهي التي صنعت فيهم ما صنعت. وأخرجتهم من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن ظلام الجهل إلى نور الايمان. والتي حولت كلاً منهم إلى إنسان جديد مبتوت الصلة بماضيه، فإن كانت له أسرة وأولاد عرض عليهم هذه الآيات البينات فإن قبلوها سار معهم في رحلة الايمان الشاقة الطويلة.

وإن أبوا ذلك ورفضوه أقام بينهم وبينه سداً وحاجزاً لا يزيله إلا نطقهم بكلمة التوحيد، ومتابعة محمد ﷺ فيما جاء به.

ومصعب بن عمير رضي الله عنه ، من هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين استمعوا إلى آيات القرآن فنقلتهم نقلة كبيرة.

وتحول مصعب إلى انسان جديد يرفض المتاع والجاه ويسخر من الثروة الطائلة ، وإن كان لا يجد ما يسد الرمق. ما دامت هذه الثروة تقف بينه وبين ما أخذ نفسه به من اتباع هذا الدين.

ولقد وجه مصعب ملكاته ، وكل ما يملك — والحقيقة انه لم يكن يملك إلا قلبه وعقله — في سبيل نصرة هذا الدين الجديد.

لقد جلس مصعب في مدرسة الرسول ﷺ وعب من تعاليمها وتفقه على يد معلمها وقائدها. لقد كانت هذه المدرسة المحمدية ، فريدة في برامجها ومناهجها التي لم تكن غير مبادىء القرآن وتعاليمه. لقد استطاعت في فترة وجيزة من الزمن أن تخرج هؤلاء الرجال في كل علوم الحياة والدين .

خرجت هذه المدرسة القادة الذين بهروا العالم بخططهم الحربية وفنونهم العسكرية.

الأمر الذي جعل قادة الفرس والروم يعجبون بهؤلاء الرجال في ميدان المعركة فينضمون بكتائبهم إلى جيش المسلمين ، لقد وجدوا جيشاً لا يفترق فيه الجندي عن القائد ولا يتمايز رئيس عن مرؤوس ، فالكل تحت إمرة الأوامر يؤدّي دوره ، تجاه ربه وتجاه دينه ، وتجاه الجماعة التي خرج معها.

والتاريخ الاسلامي حافل بالكثير من تلك النماذج. من ذلك أن قائد الروم يوجه حديثه إلى خالد بن الوليد في معركة اليرموك قائلاً له : يا خالد أصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاك إياه فلا تسله على أحد إلّا هزمته؟.

قال خالد : لا.

قال الرجل : فبم سميت بسيف الله؟

قال : إن الله بعث فينا رسوله منا من صدقه ، ومنا من كذب وكنت فيمن كذب حتى أخذ الله قلوبنا إلى الاسلام وهدانا برسوله فبايعناه . فدعا لي الرسول ﷺ وقال لي : «أنت سيف من سيوف الله» فهكذا سميت سيف الله.

قال القائد الروماني : وإلامَ تدعون؟.

قال خالد : إلى توحيد الله والى الاسلام.

قال : هل لمن يدخل في الاسلام اليوم مثل ما لكم من المثوبة والأجر؟

قال خالد : نعم وأفضل.

قال : كيف وقد سبقتموه؟.

قال خالد : لقد عشنا مع رسول الله ﷺ ورأينا آياته ومعجزاته وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم في يسر. أما أنتم يا من لم تروه ، ولم تسمعوه ثم آمنتم بالغيب ، فإن أجركم أجزل وأكبر إذا صدقتم الله سرائركم ونواياكم . وصاح القائد الروماني. وقد دفع جواده إلى ناحية خالد ووقف بجواره :

«علمني الاسلام يا خالد» وأسلم وصلى ركعتين.. لم يصل سواهما فقد استأنف الجيشان القتال ، وقاتل «جرجه» الروماني في صفوف المسلمين مستميتاً في طلب الشهادة حتى نالها وظفر بها ، وخرجت هذه المدرسة مجموعة من رجال السياسة الذين كان لهم دورهم البارع في تنظيم شئون الحكم والادارة والاهتمام بأمر الرعية.

ولقد كان لنعيم بن مسعود دوره الذي قام به في غزوة الخندق دور السياسي البارع والمسلم الخبير بدروب النفس ومنحنياتها.

يسلم نعيم بن مسعود نفسه لرسول الله ﷺ ويقول له يا رسول الله ﷺ انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فإن الحرب خدعة. فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة فقال يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم.

قالوا صدقت ، لست عندنا بمتهم. فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم : البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى

غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليس كأنهم ، فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل.

ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه.

فقالوا : لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً ، وانه قد بلغني أمر رأيت عليّ حقاً أن ابلغكموه نصحاً لكم ، فاكتموا عني.

قالوا : نفعل.

قالوا : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا اليه ، إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على ما بقي منهم ثم نستأصلهم ؟.

فأرسل اليهم أن نعم.

فإن بعثت اليكم يهود يلتمسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم ان قريشاً أرسلت إلى بني قريظة : إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه.

فقالوا لهم لسنا بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك فلما رجعت الرسل قالت قريش :

«والله ان الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق» فأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا ندفع اليكم رجلاً واحداً من رجالنا.

فقالت بنو قريظة : ان الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلا أن نقاتل ، فان رأوا فرصة انتهزوها وان كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم.

رجل واحد من مدرسة النبوة استطاع أن يفعل أكثر مما يفعل الجيش لقد خذل الأحلاف.

وفرق بين أحزاب الكفار ، وأوجد بينهم حرباً نفسية ، فتت في عضدهم ، وأعدمت الثقة بينهم ، وخشي كل منهم على نفسه من الآخر وبذلك فشلت خطتهم ، وانتكست تدابيرهم ، وألقى الله الرعب في قلوبهم. فتفرقوا مدحورين. وحمى الله الفئة المؤمنة عن طريق أحد رجالها رجل واحد من مدرسة الاسلام.

مرحى يا رجال مدرسة القرآن.

وخرجت هذه المدرسة أيضاً رجال الدعوة فكانوا سفراء لدينهم ، أمناء على شريعة ربهم ، يدعون إلى الحق ويتحلون به ، حتى إن الواحد منهم ، كان يعمل عمل العصبة الكبيرة من الرجال إن تكلم أصغى الناس لحديثه.

وإن دعا إلى الاسلام وجد من يلبي دعوته.

وكانوا في أحوالهم وتصرفاتهم نماذج حية من أخلاق الاسلام ومن مبادئه.

ومن هؤلاء الرجال مصعب بن عمير ، الداعية الأول وسفير الرسول ﷺ إلى يثرب. فلم يمض على بعثته عام ، إلّا واستطاع في تلك الفترة الوجيزة أن يُدخل الاسلام في كل بيت من بيوت الأنصار وأن يجيبه إلى دعوته الرجال والنساء والأطفال حتى إذا جاء رسول الله ﷺ الى المدينة ، خرجت لاستقباله برجالها وشبابها وفتيانها ونسائها.

الجميع يرددون كلمة الاسلام ويهتفون الله أكبر وينشدون الأناشيد فرحاً وابتهاجاً بوصول صاحب الدعوة اليهم. مرحى يا مصعب. ورضوان الله عليك يوم خرجت مهاجراً إلى المدينة. ويوم دعوت الأنصار إلى دين الله. ويوم دافعت عن رسول الله ﷺ حتى نلت الشهادة.

ثبتٌ بالمراجع

١ . **القرآن الكريم**.

٢ . **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الشعب ، مصر.

٣ . **أسباب نزول القرآن للواحدي** : تحقيق الأستاذ أحمد صقر.

٤ . **تفسير القرآن العظيم** : للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير ، دار الاندلس ، بيروت.

٥ . **تفسير الطبري** : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار المعارف ، مصر.

٦ . **الجامع لأحكام القرآن** : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٩٠ هـ — ١٩٤١ م.

٧ . **الدر المنثور** : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، المكتبة الاسلامية ، طهران.

٨ . **في ظلال القرآن** : سيد قطب ، دار احياء التراث العربي : بيروت ١٣٨٩ هـ.

٩ . **تفسير القرآن العظيم** : لأبي الفداء اسماعيل بن كثير.

١٠ . **تفسير الدر المنثور** : للإمام السيوطي.

١١ . **تفسير الجلالين** : جلال الدين السيوطي وزميله.

١٢ . **أسباب نزول القرآن** : لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي.

١٣ . **فتح الباري بشرح البخاري** : للحافظ أبي الفضل العسقلاني : المعروف بابن حجر.

١٤ . **صحيح الإمام مسلم** ، بشرح النووي ، المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩ م.

١٥ . **مسند الإمام أحمد** : شرح أحمد محمد شاكر : دار المعارف بمصر ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م.

١٦ . **صحيح الترمذي** ، بشرح ابن العربي : المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م.

١٧ . **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي** : أ . ي . ونسنك ، تعريب محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة بريل في مدينة لندن ١٩٦٢م .
١٨ . **الجامع الصغير**: للإمام السيوطي ، مطبعة البابي الحلبي — القاهرة .
١٩ . **كشف الخفا ومزيل الالباس** : اسماعيل بن محمد العجلوني ، مكتبة التراث الإسلامي — حلب .
٢٠ . **تهذيب التهذيب** : لابن حجر العسقلاني : دار صادر — بيروت .
٢١ . **الكامل في التاريخ** : لابن الأثير ، دار صادر — بيروت ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥م .
٢٢ . **تاريخ الرسل والملوك** : لأبي جعفر محمد الطبري ، دار القلم الحديث — بيروت .
٢٣ . **البداية والنهاية** : الحافظ ابن كثير ، مكتبة بيروت — ومكتبة النصر — الرياض .
٢٤ . **الطبقات الكبرى** : ابن سعد ، صيدا — دار بيروت ١٣٧٧ .
٢٥ . **سيرة النبي لابن هشام** : تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية — القاهرة .
٢٦ . **الروض الأنف**: عبد الرحمن السهيلي ، دار الكتب الحديثة — القاهرة .
٢٧ . **مروج الذهب** : للمسعودي ، دار الأندلس — بيروت — مكتبة نهضة مصر .
٢٨ . **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** : لابن عبد البر ، دار الاندلس — بيروت — مكتبة نهضة مصر .
٢٩ . **أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر** : علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ، دار الفكر بيروت — الطبعة الثالثة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٣م
٣٠ . **خلفاء الرسول** : خالد محمد خالد ، دار الكتاب العربي — بيروت — لبنان الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤م .
٣١ . **العبقريات** : لعباس محمود العقاد .
٣٢ . **علي بن ابي طالب — بقية النبوة — وخاتم الخلافة** : للأستاذ عبد الكريم الخطيب — دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت .
٣٣ . **هذا هو الطريق** : د . عبد الرحمن عميرة ، دار التراث مصر — ١٩٧٣ .
٣٤ . **مع الالحاد وجهاً لوجه** : د . عبد الرحمن عميرة ، دار الحلبي — القاهرة .
٣٥ . **أشهر مشاهير الاسلام** : رفيق العظم .
٣٦ **الأعلام** : للزركلي .

٣٧. **الأغاني** : للأصفهاني.
٣٨. **تاريخ الخلفاء** : للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، مصر — ١٣٠٥.
٣٩. **تفسير الخازن والبغوي** : المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل والبغوي المسمى معالم التنزيل ، دار الفكر — بيروت — لبنان.
٤٠. **تلبيس ابليس** : لابن الجوزي ، مصر — ١٣٤٧ هـ.
٤١. **الروض الأنف** : للإمام السهيلي.
٤٢. **الرياض النضرة في مناقب العشرة** : للمحب الطبري .. مصر.
٤٣. **سنن الترمذي** : حققه وصححه عبد الرحمن عثمان ، الناشر محمد عبد المحسن الكتبي ، صاحب المكتبة السلفية : المدينة المنورة.
٤٤. **سنن الحافظ ابي عبد الله محمد بن يزيد القزويني «ابن ماجه»** ، حققه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ، ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م — دار احياء التراث العربي.
٤٥. **تراث الانسانية** : مجموعة من العلماء ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة.

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع ٢٠٠١/١٤٦٢٨
I.S.B.N. 977 - 01 - 7503 - x





بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة 2001

مهرجان القراءة للجميع

الثمن ٧ جنيهات
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب